# تهذيب التفسير وتجريد التأويل

## مما ألحق به من الأباطيل ورديء الأقاويل

عبد القادر شيبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

## الجزء الثالث

ⓒ عبد القادر شيبة الحمد، ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطنيّة أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباطيل وردىء الأقاويل./عبد القادر شيبة الحمد-ط2..- الرياض،1432هـ
٦مج.

ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦ -٠٠-٧٧٥٣-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)

١-القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان
ديوي٦/٢٢٧ ١٤٣٢/٦٠٨٣

رقم الإيداع: ١٤٣٢/٦٠٨٣
ردمك٢-٠٠-٧٧٥٠-٦٠٣-٩٧٨(مجموعة)
٦-٠٠-٧٧٥٣-٦٠٣-٩٧٨(ج٢)



الطبعة الثانية
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

مؤسسة علوم القرآن

دمشق هاتف: ٢٢٢٤٩٩٠فاكس: ٢٢٣٨٤٩٠ص.ب١٣٢٧٧ موبايل :٠٠٩٦٦٥٠٥٦٥٦٣٩٩بيروت تلفاكس: ٠٠٩٦١١/٦٤٢٨٣٢
E-mail: uloom.alquraan@gmail.com

قال تعالى: ﴿كلّ الطّعام كـان حلاً لبني إسرائيل إلاّ ما حرّم إسرائيلُ على نفسه من قبل أنْ تنـزّل التوراةُ، قُل فأْتوا بـالتّوراةِ فاتلُوهَـا إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فمنِ افترَى عَلَى الله الكذِبَ مِنْ بَعْـدِ ذٰلك فأُولَٓئكَ هُمُ الظّـالمونَ* قُلْ صَدَقَ اللهُ، فاتّبِعُوا ملّةَ إِبْرَاهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ منَ المُشْرِكِينَ﴾

بعد أن أكّد الله عز وجل أن الدين الحقّ هو دين الإسلام وأن إبراهيم عليه السـلام كـان حنيفًـا مسلماً ومــا كـان من المشركين، وأن من مـات على غير الإسلام لن يدفع العذابَ عنه شيء ولو كان له مثل ملء الأرض ذهبا وافتدى به من عـذاب الله ما تُقُبِّل منـه وأن الذي ينتفع بما ينفق هـو المسلم المستقيم على الحنيفية ملة إبراهيم، وعرّف المسلمين فضل نفقتهم مما يحبون، وقد أثار اليهـود لعنهم الله عز وجل شبهـًا حيث قـالوا للنبي ﷺ: إذا كنت على ملـة إبراهيم فلماذا تأكل لحوم الإبل وتشرب ألبانها وقد كانت محرّمة على إبراهيم؟ وأرادوا بإثارة هذه الشبهة الداحضة الخاطئة أيضا إنكار النسخ في الشرائع وأن ما حُـرّم على الناس كـان مُحرّما عليهم مـن لدن آدم عليـه السلام، كما أرادوا إثارة الشّبه حول صلـة إبراهيم عليه السلام بالعرب وأنكـروا أن يكون إبراهيم هو الـذي بنى البيت الحرام بمكة، وكانت هـذه الشُّبَهُ التي أثاروهـا سببًا في خزيهم، وتعـريف الأمم بجهالتهم وافترائهم على الله وعلى رسلـه، إذ صاروا كالشاة التي بحثت عن حتفها بظلفها، حيث أعلن عز وجل للعالمين صدق رسولـه ﷺ وأنه علّمه ما لم يكن يعلمـهُ هو ولا قومـه، وعرّف المسلمين بأنهم على المحجة البيضـاء ليلُها كنهـارها لا يـزيغ عنها إلا هـالك، وأقـام الأدلة القـاطعـة والبراهين الساطعـة المخـزيـة لليهـود، إذ قرر عـز وجل أن سـائر الأطعمة ومنهـا لحوم الإبل وألبانها التي أباحهـا الله تبارك وتعالى لرسـوله ﷺ وللمسلمين كانت مبـاحة لإبراهيم عليـه السلام ولذريتـه من أبناء إسماعيل

وإسحاق ويعقوب، وتحداهم أن يأتوا من التوراة التي بأيديهم بدليل واحد بأن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام، وأفهمهم أن تحريمها إنما صدر من إسرائيل عليه السلام حيث حرّمها على نفسه لسبب من الأسباب التي دعته إلى ذلك، وقد يكون حرّمها على نفسه ازدلافا إلى الله عز وجل وهو يحبّها، كما حرّم رسول الله ﷺ العسل على نفسه وهو يحبه، وتتضح بهذا المناسبةُ بين قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وبين قوله عز وجل: ﴿كلّ الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه﴾ غير أنه في الشرائع السماوية السابقة كان إذا حلف الإنسان ألا يأكل طعامًا معينًا صار هذا الطعام محرّما عليه طول عمره ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحلة أيمانهم كما قال عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم، والله مولاكم وهو العليم الحكيم﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يَصِرْ حراما، بل له أن يفعله ويكفّر عن يمينه، وما لم يكن واجبا فعله إذا حلف عليه لم يَصِرْ واجبا عليه، بل له أن يكفّر يمينه ولا يفعله، ولو غلَّظ في اليمين بأيّ شيء غلّظها، فأيمان الحالفين لا تغيّر شرائع الدين، وليس لأحد أن يحرّم بيمينه ما أحله الله، ولا يوجب بيمينه ما لم يوجبه الله، هذا هو شرع محمد ﷺ، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حرّم الرجل شيئا حَرُمَ عليه، وإذا حلف ليفعلنّ شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارةٌ، قال تعالى: ﴿كلّ الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تُنَزّل التوراة﴾ فإسرائيل حرّم على نفسه شيئا فَحَرُم عليه، وقال الله تعالى لنبينا: ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله

غفور رحيم﴾ قد فرض الله لكم تَحِلّة أيمانكم﴾ وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين﴾ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولَكن يؤاخذكم بما عَقَّدْتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذُلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم، واحفظوا أيمانكم، كذُلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾ ولهذا لمّا لم يكن في شرع من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه، أمر الله أيوب أن يأخذ بيده ضِغْثًا فيضرب به ولا يحنث، لأنه لم يكن في شرعه كفارة يمين، ولو كان في شرعه كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرأته ولو بضِغْث اهـ والتقييد بقوله عز وجل: ﴿من قبل أن تُنَزّل التوراة﴾ لأنه بعد إنزال التوراة على موسى عليه السلام حرّم الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بعض الطيبات عقوبة لهم كما قال عز وجل: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ذي ظُفُر ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذُلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحِلّت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا﴾. وبهذا يتضح جهل أهل الكتاب بكتابهم، وينبلج الحق المصدّق لرسول الله ﷺ وما علّمه الله عز وجل من خواص شريعة أهل الكتاب وأسرارهم، وصارت شبههم سببا في إعلاء راية الإسلام وبيان فضله كما قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طُوِيَتْ أتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طِيب عَرْف العودِ

وبهذا يتضح أن النسخ الذي ينكر اليهودُ قبحهم الله جوازَه قد وقع في

شرائع أنبيائهم، فهم لا يستطيعون إنكار أن آدم عليه السلام قد شرع الله له أن يزوّج بناته من بنيه ثم حرّم الله ذلك بعد ذلك، وأن التّسرّي على الزوجة كان مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام حيث تسرّى هاجر على سارة رضي الله عنهما ثم حُرّم في بعض شرائع بني إسرائيل، وأن الجمع بين الأختين قد أبيح ليعقوب عليه السلام ثم جاء تحريمه بعد ذلك في التوراة التي بأيديهم.
وقوله تبارك وتعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ أي إن كنتم صادقين في أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرّمة على إبراهيم عليه السلام فهاتوا التوراة واقرؤوها من أولها إلى آخرها إن شئتم وأظهروا لنا نصّا واحدا منها يصدّقكم في دعواكم أن لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة على إبراهيم عليه السلام، وهذا برهان من أبرز البراهين وأجلاها وأسطعها على أن اليهود كذبةٌ فجرةٌ لا يتورعون عن الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله وأن النبي الأميّ محمدا ﷺ قد أعلمه الله وأطلعه على خفايا أسرار التوراة التي بيد اليهود والنصارى، وأن علماء وأحبار أهل الكتاب الذين كذّبوا رسول الله ﷺ وأثاروا الشبه للصد عن سبيل الله كانوا كمثل الحمار يحمل أسفارا، ولم ينقل أحد قط أن اليهود حاولوا أن يجيئوا بالتوراة وإنّما اندحروا خاسئين، وهذا التحدي بقوله تعالى: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ غير التحدي الذي تحداهم به رسول الله ﷺ لما تحاكموا إليه في أمر الرجل والمرأة الزانيين من اليهود وسألهم رسول الله ﷺ عن حكم الزناة في التوراة، وقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال: فأتوا بالتوراة، فإنهم جاءوا يومها بالتوراة وقرأها رجل منهم لكنه حاول إخفاء نص التوراة في الزناة، حيث وضع يده على آية الرجم، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون،

قال عبد الله بن سَـلاَم رضي الله عنه : كذبتم إنّ فيها الرجم، فأتـوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يـده على آية الرجم فقرأ ما قبلها ومـا بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يـدهُ، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمـد فيها آية الرجم، فأمـر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، فـرأيت الرجل يحني على المرأة يقيهـا الحجـارة. وقد أورد البخـاري هـذه القصـة في مـواضع من صحيحـه بألفـاظ متقـاربـة، حيث أورده في المنـاقـب والحدود والتـوحيـد والتفسير، وجعله في التفسير في باب قـوله تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فـاتلوها إن كنتم صادقين﴾ ولا شك أن قـوله تعـالى: ﴿قل فأتوا بالتـوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين﴾ لم يكن في قصـة اليهوديين الزانيين، بل كان في قصـة دعوى اليهود تحريـم لحوم الإبل وألبانها على إبراهيـم عليه السلام، ولعـل البخاريّ رحمه الله قد أورد هـذا الحديث عند تفسيرها لمجرد قـوله في الحديث في بعض ألفاظه: فقـال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فـأتوا بالتوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين، والمعروف عن البخاري رحمه الله أنه قد يورد الحديث في موضع من صحيحه لأدنى منـاسبة، والظاهر أن نـزول هذه الآية كان متقـدما على قصة هذا الحديث، فذكر عبد الله بن سـلام رضي الله عنه هذا اللفظ مستفيدا من لفظ الآية الكـريمة، وليس قـوله تبارك وتعـالى: ﴿فأتوا بالتـوراة فاتلـوها إن كنتم صادقين﴾ دليلا على صحة الاحتجاج بكل ما في التوراة التي بيد اليهود والنصـارى لعنهم الله، بل المراد فضـح اليهـود وبيـان كـذبهم على الله وعلى رسله، والاستشهاد عليهم ببعض النصوص المطابقة لملة إبراهيم التي انحرفوا عنها، ولم يصبها تحريفهـم الذي وقعوا فيه. وقولـه عز وجل: ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذٰلك فأولٓئك هم الظالمون﴾ هـو وعيد شديد لليهود الذين يفترون على الله الكـذب، ويقولون على الله وعلى أنبيـائه مالا علم لهم به، أو مـا يعلمون أنهم مفترون فيـه على الله وعلى رسله، وقـوله: ﴿مـن بعد

ذلك﴾ أي من بعد ظهور هذه الحجة القاهرة الدالة على صدق رسول الله ﷺ حيث أخبر أحبار اليهود بأنه لا يوجد دليل واحد بأيديهم على أن إبراهيم كان يحرّم لحوم الإبل وألبانها، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة، التي بأيديهم ويقرءوا لإثبات ما يدعونه على إبراهيم فاندحروا، وبُهتوا، ولم يحاول واحد منهم أن يستجيب ويحضر التوراة، فعلم قطعا أن هذا العلم الذي علّمه الله للنبي الأمي هو وحيٌ من الله عز وجل الذي يعلمُ الغيب والشهادة. وقوله عز وجل: ﴿قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود المفترين على الله ورسله: إن خبر الله هو الخبر الصادق، وإنّ قوله هو القول الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسارعوا يامعشر أهل الكتاب ويا من يدّعي كذبا وزورًا أنه على ملة إبراهيم إلى الاستجابة لمحمد ﷺ لتصيروا حقا على ملة إبراهيم وادخلوا في دين الإسلام الذي هو الحق الذي لا مرية فيه وهو المنهج الذي لم يأت نبيّ ولا رسولٌ بأكمل ولا أبين ولا أوضح ولا أتمّ منه، الصالح لكل زمان ومكان وعصر ومصر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملّة إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنا، ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ من استطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التّوراة﴾ أن اليهود قد أثاروا شبها حول صلة إبراهيم بالعرب وأنكروا أن يكون إبراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بمكة، وأن هذه الشُّبَهَ التي أثاروها كانت سببا في خزيهم وتعريف الأمم بجهالتهم وأنهم صاروا كالشاة التي بحثت عن حَتْفِها بِظِلْفِها، ولعلْم الله عز وجل بما يكون وما هو كائن قبل أن يكون، وأن اليهود سيجحدون صلة إبراهيم عليه السلام بالبيت الحرام، أبقى أثر موطئ إبراهيم عليه السلام في الحجر الذي كان يقوم عليه وهو يبني الكعبة ليكون شاهدًا يتوارث العرب العلم به ويسمّونه مقام إبراهيم جيلاً بعد جيل من لدن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى أن بُعث رسول الله ﷺ، وإلى يومنا هذا، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصّخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

وكما ردع الله اليهود وأدحض شبهتهم في دعواهم أن إبراهيم كان يحرم لحوم الإبل وألبانها وتحداهم أن يأتوا بنصّ واحد من التوراة على ما يزعمون فبهتوا واندحروا خاسئين، وكذلك أدحض الله عز وجل شبهتهم في دعواهم أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام حيث أشار إلى أن مقام إبراهيم عند البيت الحرام آية حسيّة تواتر العلم بها، فمن أنكرها فإنه لا يستكثر عليه أن ينكر أن السماء فوقه وأن الأرض تحته وغير ذلك من البدهيات المسلّمات. وقوله عز وجل: ﴿إنّ أوّل بيتٍ وُضِعَ للنّاس﴾ أي إن أول مسجد وضع في الأرض

ليكون مثابةً لجميع الناس مشتركا بينهم لإقامة الطاعات والعبادات وقبلةً وأمنا، والمراد بالأولية هنا الأسبقية على جميع المساجد في الأرض، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى وضع بعده بأربعين سنة، ففي لفظ للبخاري من طريق الأعمش حدثنا إبراهيم التيمي عن أبيه قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه يقول: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: «المسجد الحرام»، قال: قلت: ثم أيّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فصلّه، فإنّ الفضل فيه». وفي لفظ للبخاري من طريق الأعمش حدثنا إبراهيم التيميُّ عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيّ مسجد وُضِعَ أوَّلُ؟ قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أيّ؟ قال: «ثم المسجد الأقصى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون»، ثم قال: «حيثما أدركتك الصلاة فصلّ والأرض لك مسجدٌ». وقد رواه مسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم التيميّ عن أبيه عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أيّ مسجدٍ وضع في الأرض أوّلا؟ قال: «المسجد الحرام»، قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنةً وأينما أدركتك الصلاة فصلّ فهو مسجدٌ». وفي لفظ لمسلم: «ثم حيثما أدركتك الصلاة فصلّه فإنه مسجدٌ». وفي لفظ لمسلم من طريق الأعمش عن إبراهيم ابن يزيد التيمي قال: كنت أقرأ على أبي القرآن في السُّدّة، فإذا قرأت السجدة سجد، فقلت له: يا أبت أتسجد في الطريق؟ قال: إني سمعت أبا ذر يقول: سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجدٍ وضع في الأرض قال: «المسجد الحرام»، قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «المسجد الأقصى»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون عاما، ثم الأرض لك مسجدٌ فحيثما أدركتك الصلاة فصلّ». ولا شك أن تكليف الناس بالصلاة كان مشروعا في دين جميع

الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ونوح وهودٍ وصالح قبل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجّدا و بكيًّا﴾ . وقوله عز وجل: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس﴾ يشعر أنه قبلة هؤلاء الأنبياء والمرسلين والهداة المتقدمين، ولا معارضة بين قوله عز وجل: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس﴾ وبين بناء إبراهيم للبيت الحرام، لأن إبراهيم عليه السلام قد بناه على مكانه الذي وضعه الله عز وجل، حيث أعلمه الله عز وجل بمكانه بعد أن صار كالربوة، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ كما أن قوله عز وجل: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾ يشعر بذلك أيضا ويفيد أن قواعد البيت الحرام كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام، غير أن بناء إبراهيم للبيت الحرام قد أبقى الله عز وجل معالمه حتى تهدّم في عهد قريش فأعادت بناءه قبيل بعثة رسول الله ﷺ وقيّض الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ يومها أن تُطْبِق قريش على اختياره ﷺ للحكم في وضع الحجر الأسود مكانه من البيت الحرام وكان رسول الله ﷺ وقتئذ ابن خمس وثلاثين سنة فكان ذلك من بين الإرهاص والمقدمات التي قدّمها الله عز وجل لرسوله ﷺ بين يدي بعثته صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، كما أنه لا معارضة بين حديث الصحيحين بأن المسجد الأقصى وضع بعد المسجد الحرام بأربعين عاما وبين ما عُلِمَ بأن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، لما أشرت قريبًا من أن الوضع غير البناء، فعمل سليمان عليه السلام في بناء المسجد الأقصى كعمل إبراهيم عليه السلام في بناء المسجد الحرام إذ كانا عليهما السلام مجدّدين قد وضع كل منهما الأساس والقواعد فوق أساس وقواعد سابقة، وهذا الحديث

المخرّج في الصحيحين بألفاظ عن أبي ذر رضي الله عنه يفسّر المراد بقوله تعالى: ﴿إنّ أول بيت وضع للناس لَلَّذي ببكة﴾ ويدلّ على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وقد ورد ذلك صريحا عن عليّ أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيوت قبله ولكنه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله. اهـ وظاهر الآية الكريمة وكذلك قوله عز وجل: ﴿الذي جعلناه للناس سواءً العاكف فيه والبادِ﴾ يؤكد ذلك ويؤيده لأن كونه موضوعا للناس يقتضي كونه مشتركا فيه بين جميع الناس، فأما سائر البيوت فليست بهذه المثابة، حيث وضع الله البيت الحرام ليكون موضعا لطاعات لا تجوز إلا فيه كالحج والطواف، فلم يشرع الحج إلى بيت في الأرض سواه، ولا يجوز لمسلم أن يطوف حول مكان في الأرض إلا حول الكعبة، كما جعله الله عز وجل قبلة لأكثر أنبياء الله ورسله ثم حرّم على كلّ الناس أن يتخذوا قبلة سواه. وقوله عز وجل: ﴿لَلّذي ببكّة﴾ أي لَلْبيت الذي ببكّة أي فيها، وبكة علمٌ على البلد الحرام وقد سماها الله عز وجل بأسماء منها: بكة ومكّة والبلد الحرام وأمّ القرى والبلد الأمين. وقوله: ﴿مباركًا وهدًى للعالمين﴾ أما كونه مباركا فلما يسوقه الله عز وجل لأهله من الخيرات والبركات من سائر أنحاء الأرض، ولما يضاعفه الله عز وجل من المثوبة على الأعمال الصالحة فيه حتى جعل الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما سواه، وأما كونه هدى للعالمين فلما فيه من الآيات العجيبة الدّالة على عظيم قدرة الله حيث يأتيه الناس رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ولما عرفه القاصي والداني مما وضع الله عز وجل فيه من الأمن في جميع الأعصار كما قال عز وجل: ﴿أولم نُمَكّن لهم حرمًا آمنًا يُجْبَى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لَدُنّا ولكن أكثرهم لا

يعلمـون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿أولم يـروا أنّا جعلنـا حـرما آمنـا ويُتَخَطَّفُ الناس من حـولهم﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لإيـلاف قريش* إيـلافهم رحلة الشتاء والصّيف* فليعبدوا ربّ هٰذا البيت* الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ فقد كـان أهل مكة ينعمون بالأمن والاستقـرار حتى في الأوقات التي كـان الخوف والاضطـراب يعُمّ جميع بلاد العـالم من حـولها ، ويتخطّف الناس في غيرهـا . وقوله تبارك وتعـالى : ﴿فيه آيات بينات مقـام إبراهيم ومن دخله كان آمنا﴾ ردّ على اليهود الزاعمين أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام ، وتكذيب لهم بالـدليل الحسي المشاهد بالعيـون ، المعلوم بالتواتـر وهو وجود مقام إبـراهيم فيه ، ومقـام إبراهيم هـو الحجر الذي قـام عليه إبـراهيم عليه السلام عندما ارتفع البنـاء ، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصة مجيء إبراهيم بإسماعيل وهاجر إلى مكة ثم قصة بناء البيت الذي أورده البخاري في صحيحـه ، وفيه : فجعل إسماعيل يأتي بالحجـارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البنـاء جـاء بهذا الحجـر فـوضعـه لـه فقـام عليـه وهـو يبني وإسماعيل ينـاوله الحجـارة . الحديث ، وقد سقتـه بتمامه في تفسير قـوله عـز وجل : ﴿وإذ يـرفع إبراهيم القـواعـد من البيت وإسماعيل﴾ وعندمـا وضع إبـراهيم قدميـه على هذا الحجـر جعل الله مـا تحت قدمَيْ إبـراهيم من ذلك الحجـر دون سـائر أجزائه كـالطين ، حتى غـاص فيـه قـدما إبـراهيم عليـه السلام ، وانطبعت في الحجر صورة أثر القدمين ، فلما رفع إبراهيم قدميه عن الحجر أعـاد الله له صـلابته الحجـرية كما كـان أول مرة ، ثم أبقـى الله تبارك وتعالى هذا الحجر على سبيل الاستمرار والدوام مشهورا معروفا مصونا ، فهذه آيات شـاهدات على كـذب اليهود وجحودهم ولـذلك يقول تبـارك وتعالى : ﴿فيه آيـات بينات مقـام إبراهيم﴾ ومـا أحسن ما قيل : ليس في العـالم بناءٌ أشرف من الكعبـة ، فـالآمـر ببنـائه هـو الملك الجليل ، والمهنـدس جبريل ،

والباني هو الخليل، والتلميذ هو إسماعيل. وقوله: ﴿ومن دخله كان آمنا﴾ هذا أيضا من جملة الآيات البينات إذ فيه تحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رب اجعل هٰذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾ وكما قال: ﴿ربِّ اجعل هٰذا البلد آمنا﴾ وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم صاروا آمنين مطمئنين، وقد يلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يهيجه ولا يتعرّض له بأذى ما دام في الحرم، فكان هذا من الآيات البينات التي جعلها الله عز وجل فيه، وقد زاده الإسلام حرمة وتعظيما. والضمير في قوله: ﴿ومن دخله﴾ للحرم كله. وقوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين﴾ أي ولله على من استطاع من الناس طريقا يمكنه من الوصول إلى مكة أن يحج هذا البيت، وقد أجمع المسلمون على أن الحج ركن من أركان الإسلام الخمسة، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحُجّوا» فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». وفي قوله: ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾ وعيد شديد لمن قدر على الحج ولم يحج، ولمن كذّب بآيات الله التي ذكرها في هذا المقام وغيره.

قال تعالى: ﴿قل يـا أهْلَ الكتاب لم تكفرون بآيـاتِ الله والله شهيدٌ على ما تعملون* قُلْ يا أهلَ الكتاب لِمَ تَصُـدّون عن سبيل الله مَنْ آمن تبْغونَها عوجاً وأنتم شُهداءُ، ومَا الله بغافلٍ عما تعملونَ* يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتـوا الكتاب يرُدُّوكم بعد إيمانكم كافـرين* وكيفَ تكْفُرونَ وأنتُم تُتْلَى عليكُم آيات الله وفيكم رسـولُهُ، وَمَنْ يعتصِم بالله فقـدْ هُدِيَ إلى صراط مستقيم.﴾

بعد أن نوّه الله عز وجل بذكر البيت الحرام بمكة المكرمة بما يفيد أنه أشرف بيت أقيم لعبادة الله عز وجل وأسبق المساجد في الأرض على الإطلاق، وذكر ما فيـه من الهدى والبركات، والآيـات البينات الشـاهدات على بنـاء إبراهيم خليل الرحمن لهذا البيت العتيق بما يردع اليهود الجاحـدين لصلة إبراهيم إمام الحنفاء بهذا البيت الحرام، وذكر عز وجل أنه أوجب حج هذا البيت على من استطاع إليه سبيلا، ووصم من جحد هـذه الآيات، وأنكر وجوب حج هذا البيت بأنه كافر، وأنه لـن يضرّ إلا نفسه بكفره وجحوده لأن الله جل وعلا لا تنفعـه طـاعة الطـائعين، ولا تضره معصيـة العـاصين لأنـه غني عن الخلق أجمعين، أمـر نبيـه ﷺ بتـوجيـه الخطــاب لأهل الكتـاب مـوبّخـا لهم على استمرارهم على الكفر بعد ظهور هـذه البراهين منكرًا عليهم أشدّ الإنكار أن يكون لكفرهم بآيات الله سبب من الأسبـاب حيث يقول عز وجل: ﴿قُل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيـد على ما تعملون﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هـذا تعنيـف من الله تعـالى للكفـرة أهـل الكتـاب على عنـادهم للحق، وكفرهم بـآيات الله، وصـدّهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهـدهم وطاقتهم مع علمهم بأن مـا جاء بـه الرسـول حقٌّ من الله، وبما عنـدهم مـن العلم عن الأنبيـاء الأقــدمين، والسـادة المرسلين،

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشّروا به، ونوّهوا به، من ذكر النبي الأميّ الهاشميّ العربي المكيّ سيّد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله عَلى ذلك، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشّر به بالتكذيب والجحود والعناد، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون أي وسيجزيهم على ذلك ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون﴾ اهـ وقوله تعالى: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لإفادة تشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار على هؤلاء الكفرة الفجرة من أهل الكتاب، وكان مقتضى السياق أن يقال: وهو شهيد على ما تعملون، لكن مقتضى الحال يقتضي إظهار لفظ الجلالة حيث قال: ﴿والله شهيد على ما تعملون﴾ لتربية المهابة في نفوسهم، وتهويل الخطب عليهم، لعلهم يرتدعون عن غيهم، وينزجرون عن ضلالهم، وتكرير قوله عز وجل: ﴿قل يا أهل الكتاب﴾ لزيادة التشنيع عليهم حيث صاروا أقبح سلوكا من الأميين الوثنيين في ردّ الحق والصّد عن سبيل الله، وأصبحوا كما قال الله عز وجل فيهم: ﴿كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾. وقوله عز وجل: ﴿لم تصدّون عن سبيل الله مَنْ آمن تبغونها عوجًا﴾ توبيخ لهم على الإضلال بعد توبيخهم على الضلال، قال أبوالسّعود العماديّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا﴾: أُمِرَ بتوبيخهم بالإضلال إثر توبيخهم بالضلال، والتكرير للمبالغة في حمله عليه السلام على تقريعهم وتوبيخهم، وترك عطفه على الأمر السابق للإيذان باستقلالهم، كما أنّ قطع قوله تعالى: ﴿لِمَ تصدون﴾ عن قوله تعالى: ﴿لم تكفرون﴾ للإشعار بأن كلّ واحد من كفرهم وصدِّهم شناعة على حيالها، مستقلة في استتباع اللائمة والتقريع، وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال، وتشديد التشنيع، فإنّ ذلك العنوان كما يستدعي الإيمان

بما هو مصدّق لما معهم يستدعي ترغيب الناس فيه، فصدّهم عنه في أقصى مراتب القباحة اهـ وصور الصدّ عن سبيل الله التي يقترفها أهل الكتاب كثيرة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أنواع منها في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل ولا سيما اليهود لعنهم الله حيث عدّ صدّهم في سلسلة جرائمهم حيث يقول: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحِلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيرا﴾ وأخذهم الربا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وتبغونها عوجا وأنتم شهداء﴾ أي وتريدون أن تكون سبيل الله وشريعته معوجَّة مائلة زائغة عن الحق وأنتم تقرءون في الكتب التي بين أيديكم أن الله إنما يبعث الرسل والأنبياء لدعوة العباد إلى صراط الله المستقيم ودينه القيّم الذي لا زيغ فيه ولا ميل ولا اعوجاج، كما جاء في الوصايا العشر التي تطابقت على الدعوة لها جميع الشرائع: ﴿وأنَّ هٰذا صراطي مستقيما فاتَّبعوه ولا تتَّبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذٰلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ والعِوَج بكسر العين وبفتحها هو الميل والانحراف، والمقصود هنا هو ما يحاوله هؤلاء من إثارة الفتنة بين المسلمين لتشتيت شملهم، وتمزيق وحدتهم، وتفريق كلمتهم، قال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم قال: مرّ شأس بن قيس ــ وكان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين شديد الحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدّثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وأُلْفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتًى شابًا من يهود وكان

معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، وذَكِّـرْهم يوم بُعَاث وما كان قبله، وأنشـدهم بعض ما كـانوا تقـاولوا فيـه من الأشعار، وكـان يوم بعـاث يومـا اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكـان الظفر فيـه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلّم القوم عند ذلك، فتنازعوا، وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيّين على الرّكب: أوس بن قَيْظي أحـد بني حارثـة بن الحارث من الأوس، وجبّار ابن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فتقـاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناهـا الآن جَذَعةً، وغضب الفـريقان، وقالوا: قـد فعلنا، السّلاحَ السّـلاحَ، موعـدكم الظاهـرة ـ والظـاهرة: الحرّة ـ فخرجـوا إليها، وتحاوز النـاس، فـانضمت الأوس بعضهـا إلى بعض، والخزرج بعضهـا إلى بعض، على دعـواهم التي كـانـوا عليها في الجاهليـة، فبلغ ذلك رسـولَ الله ﷺ، فخـرج إليهم فيمن معه من المهـاجـرين من أصحـابه، حتى جـاءهم فقال: «يـا معشر المسلمين، اللهَ اللهَ، أَبدَعْـوَى الجاهلية وأنـا بين أظهركم، بعد إذ هـداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم بـه، وقطع به عنكم أمـر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفّارا؟» فعرف القـوم أنها نزغةٌ من الشيطـان، وكيدٌ من عدوّهم، فألقـوا السلاح من أيـديهم، وبكـوا، وعانق الـرجـال من الأوس والخزرج بعضهم بعضـا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قـد أطفأ الله عنهم كيد عدوّ الله شأس بن قيس ومـا صنع، فأنزل الله في شأس بن قيس ومـا صنع: ﴿قل يا أهل الكتـاب لم تكفرون بآيـات الله والله شهيدٌ على مـا تعملون* قل يـا أهل الكتاب لمَ تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجًا﴾ الآية، وأنزل الله عز وجل في أوس بن قيظيّ وجبّـار بن صخر ومن كـان معهما من قومهما الـذين صنعوا ما صنعوا عمّا أدخل عليهم شأسُ بن قيس من أمر الجاهلية: ﴿يا أيها الذيـن آمنوا إن تطيعوا فـريقا من الـذين أوتوا الكتـاب يردّوكم بعـد إيمانكم

كافرين﴾ إلى قوله: ﴿أولَئك لهم عذابٌ عظيم﴾ اهـ وهذا الأثر قد رواه أيضا أبو الشيخ في تفسيره من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: مر شأس بن قيس وكان يهوديًا عظيم الكفر على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون فغاظه ما رأى من تآلفهم بعد العداوة. وساقه بنحو سياق ابن جرير، وهذا الأثر مرسلٌ وفيه راوٍ مبهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ بعد أن وبخ الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله وحرصهم على إضلال المسلمين حذّر الذين آمنوا من إطاعة هؤلاء المجرمين الذين لا يسلكون إلا الطرق المعوجة الملتوية، وبيّن لهم أن إطاعة أيّ فريق من أهل الكتاب المعاندين للحق يؤدي بمن يطيعهم إلى الردة عن الإسلام والكفر بعد الإيمان، لأن الغلّ والحسد الذي يملأ قلوب هؤلاء على المؤمنين يحملهم على نصب الفخاخ والشباك الشيطانية للمؤمنين ليردوهم عن دين الإسلام، كما قال عز وجل: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ فلا يليق بعاقل أن يتابع مَن كلّ همّه أن يصرفه عن الصراط المستقيم ويسعى في جعله من أصحاب الجحيم. وقوله عز وجل: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ تنبيه للمسلمين إلى عدم الالتفات إلى ما يثيره اليهود أو النصارى من الشبه، وأن الواجب على المؤمنين أن يرجعوا إلى رسول الله ﷺ وأن يستمسكوا بتعاليم الإسلام فإنّ ذلك يعصمهم من شبه أعدائهم، لأن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ هي الدواء الشافي من كل شبهة، والله يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، ومن استنار بكتاب الله، ورجع إلى رسول الله ﷺ في حياته ﷺ وإلى سنته بعد مماته فقد استضاء بنورين لن يضل من اهتدى بهما. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن

يعتصم بـالله فقد هُـدِيَ إلى صراط مستقيم﴾ أي ومن يستمسك بكتـاب الله
ويلتجئ إلى الله عز وجل ليـدفع عن قلبه نزغـات شياطين الجن والإنس فإنّ
الله عـز وجل يهدي قلبـه وينير بصيرته، ويسلك بـه صراطـه المستقيم، لأن
الاعتصام بـالله والالتجاء إليه، والاستجـارة به، وطلب الهدايـة منه والاعتماد
عليـه هو العمـدة في الهداية، والعصمـة من كل غـواية والعُـدّة في مباعـدة
الشبه، فهو نور السموات والأرض ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح
في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درّيٌّ يـوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية
ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسـه نار نور على نور يهدي الله لنوره من
يشاء﴾.

قال تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمنـوا اتّقوا الله حقّ تقـاتِهِ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمونَ ﴾ واعتصموا بحَبْلِ الله جميعا ولا تفـرّقوا ، واذْكُروا نعمتَ الله عليكُم إذ كنتم أعـداءً فألّف بينَ قُلُوبكم فأصبحتُـمْ بنِعْمَتِهِ إخـوانا وكنتمْ على شفـا حفرةٍ من النّار فأنقذكُم مِنْهَا ، كذَلك يبيّن الله لكُم آياته لعلّكم تهتدون . ﴾

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى ضـلال الكفّار في أنفسهم وسعيهم في ضلال غيرهم فهم ضالّون مُضلّون ، وحذّر المؤمنين مـن الوقوع في فخاخهم بيّن هنا أنّ أهل الإيمان هداةٌ مهتـدون يأخذون بمجـامع الطاعات ومعـاقد الخيرات التي يأمـرهم الله عـز وجل بها ويحملـون أنفسهم عليهـا كما يأمـرهم الله عـز وجل ، ويسعـون في نشرهـا بين النـاس حيث يـدعـون إلى الخير ويأمـرون بالمعروف وينهـون عن المنكر، وقوله عز وجل : ﴿يا أيّها الـذين آمنوا اتقوا الله حقّ تُقَاتـه﴾ أي خافوا الله وراقبـوه باتباع أوامـره واجتناب معاصيـه واعبدوه كأنكم تـرونه فإن لم تكـونوا ترونـه فإنه يـراكم ، لأنه عـز وجل أهل لأن يُتّقى ويُخاف منه ، وقـوله عز وجل : ﴿حق تُقَـاته﴾ أي حقّ تقواه ، والإضـافة بين حق وتقاتـه من إضافة الصفـة إلى موصوفها إذ الأصل : اتقـوا الله التّقاة الحقّ أي الثـابتة فـلا يراكم حيث نهاكم ، ولا تخالفـوا عن أمره ، وهـذا نظير قولـه تبارك وتعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده﴾ وليس هذا من باب التكليف بما لا يطاق بل المراد : اتقوا الله كما يحقّ أن يتّقى بقدر استطاعتكم كما قال عز وجل : ﴿فاتقـوا الله ما استطعتم واسمعـوا وأطيعوا﴾ وقـد بين رسول الله ﷺ حق الله على عباده بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . فقد روى البخاري ومسلم من حـديث معـاذ رضي الله عنـه قـال : كنت رِدْف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا مُـؤْخِرة الـرّحْل ، فقال : «يـا معاذ هل تـدري ما حقّ الله على عباده؟ وما حقّ العباد على الله؟» قلت : الله ورسـوله أعلم ، قال : «فإنّ حقّ

الله على العبـاد أن يعبـدوه ولا يشركوا بـه شيئـا ، وحقّ العبـاد على الله أن لا يعـذّب من لا يشرك به شيئـا» ، فقلت : يـا رسول الله أفـلا أبشّر به النـاس؟ قـال : «لا تبشّرهم فيتّكلـوا» . وقـولـه عـز وجـل : ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمـون﴾ أي واستمسكـوا بشريعـة الإسـلام وعَضّوا عليهـا بـالنـواجـذ ، والزموها ، حتى يأتيكم الموت وأنتم على الإسـلام ، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى : ﴿ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ويعقوبُ يا بنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فـلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أنـه لا يخطر على بـال عاقل أنّ قـوله : ﴿ولا تموتنّ﴾ نهيٌ عن الموت ، لأن الموت والحياة بيد الله وحـده ، فقد قهر الله تبـارك وتعالى العبـاد على الموت فليس لأحـد من خلق الله كـائنًا من كـان أن يتحكّم فيه ، وإنما المقصود بقولـه عز وجل : ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ أن يحرص الإنسان على الاستمساك بالإسلام حتى يأتيه الموت وهو ملازم له ، فإنّ المرء يموت غالبا على ما يلتزم بـه ويحرص عليه كما أنه يُبعث على ما مات عليه ، فمهما حاول الشيطان أن يصرفكم عن شريعـة الإسلام فلا تطيعوه ولا تنقضوا هـذه الشريعة في وقت مـن الأوقات ، فقد تأتيكـم مناياكـم في حال نقضكم للملّة فتمـوتون على غير الإسـلام ، وقد سقت هنـاك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحـه من طـريق عبـد الرحمن بـن عبد رب الكعبـة قـال : دخلت المسجـد فإذا عبـد الله بن عمرو بـن العاص جـالسٌ في ظل الكعبـة والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم ، فجلست إليه فقال : كنا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلنا منزلاً ، فمنّـا من يصلح خباءه ، ومنّا من ينتضل ، ومنا من هو في جَشَره ، إذ نادى منـادي رسول الله ﷺ : الصـلاةَ جامعـةً ، فاجتمعنـا إلى رسول الله ﷺ فقال : «إنه لم يكن نبيّ قبلي إلا كان حقّا عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم ، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أوّلها ، وسيصيب آخـرها بـلاءٌ وأمورٌ تنكـرونها ، وتجيء فتنة فيرقّق بعضهـا

بعضا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هـذه، هذه، فمن أحبّ أن يـزحزح عن النار ويـدخل الجنة فلتأته منيتـه وهو يـؤمن بالله واليـوم الآخر، وليأت إلى النـاس الذي يحبّ أن يُؤتى إليه، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخـر ينازعه فاضربـوا عنق الآخر». الحديث، وقوله تبـارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعـا ولا تفرّقوا﴾ أي وتمسّكـوا بالسّبب الـذي جعله الله لكم لتفوزوا برضوانه وبعزّ الدنيا وسعادة الآخرة وهو كتاب الله تعالى وسنّة رسـوله ﷺ واحـرصـوا أن تكونـوا يـدًا واحدة مجتمعين ولا تختلفـوا فتختلف قلوبكم، قـال ابن جرير في تفسيره: وأصل العَصْم المنع، فكلّ مـانعٍ شيئا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، ومنه قول الفرزدق:

أنـا ابن العاصِـمِين بني تمـيم ... إذا ما أعظـمُ الحَدَثـان نابـا

ولـذلـك قيل للحبل: عصـامٌ، وللسبب الـذي يتسبّب بـه الـرجل إلى حاجته: عصام، ومنه قول الأعشى:

إلى المرء قيسٍ أطيـل السُّرَى ... وآخُـذ من كـل حـيّ عُصُـم

يعني بالعُصُم الأسبـاب، أسباب الـذمة والأمان، يقـال منه: اعتصمت بحبل من فـلان، واعتصمتُ حبلاً منه اهـ ولا شك أن العروة الـوثقى التي يجب على العاقل أن يستمسك بها حتى يموت هي الكفر بالطاغوت والإيمان بالله كما قال عـز وجل: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويـؤمن بالله فقد استمسك بالعـروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم﴾ وقد نهى الله تبـارك وتعالى المسلمين عن التّفرق والاختلاف والتنازع في مـواضع من كتابه الكريم ووسم التفرق والاختلاف والتنـازع بأنه من صفات الكفار، وأنـه من أعظم أسباب الفشل وذهـاب الريح، حيـث يقول عـز وجل: ﴿وأطيعـوا الله ورسولـه ولا تنازعوا فتفشلـوا وتذهب ريحكم واصبروا، إن الله مع الصابريـن* ولا تكونوا

كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله بما يعملون محيط﴾ وقال تبارك وتعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ كما حذّر رسول الله ﷺ من تفرّق المسلمين، وحضّ على اجتماع كلمتهم وائتلافهم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام». كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنّ، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسّسوا ولا تجسّسُوا ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاّه أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» كما روى البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ تَدَاعَى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى». كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربةً فرّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة» كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن

يحزنه». وقوله عز وجل: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ أي وتذكّروا ما تفضل الله به عليكم من الألفة والاجتماع على الإسلام الذي ربط بين قلوبكم برباط الحبّ والإيثار بعد أن كنتم في الجاهلية أعداء يقتل بعضكم بعضا عصبية في طاعة الشيطان والهوى وحيث كنتم تتذابحون ويأكل شديدكم ضعيفكم وأيّام حروبكم مأثورة مشهورة كانت تأكل منكم الحرث والنسل، وتتلف البلاد والعباد، وكنتم على طرف حفرة من جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يتفضل الله عليكم بالإسلام ولم يكن بينكم وبين النار إلا أن تموتوا على ذلك من كفركم ـ وشفا الحفرة: حرفها وطرفها ـ فاستمسكوا بالإسلام الذي خلّصكم الله عز وجل به من الهاوية. وقوله عز وجل: ﴿كذٰلك يبين الله لكم آيته لعلكم تهتدون﴾ أي مثل البيان المذكور يبيّن الله لكم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أسباب سعادتكم ويحذركم من أسباب شقوتكم لكي تهتدوا فتجتنبوا طريق الشر وتسلكوا سبيل الرشاد.
ولا شك أن ما حصل للأوس والخزرج من الألفة بالإسلام كان آية من آيات الله وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول: ﴿وألّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألّفت بين قلوبهم ولٰكنّ الله ألّف بينهم، إنه عزيز حكيم﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عبّاد ابن تميم عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي؟» كلّما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ» قال: كلّما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ، قال:

«لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشِعْبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شِعارٌ، والناسُ دثارٌ، إنكم ستلقَوْن بعدي أَثَرةً، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».

قال تعالى: ﴿ولتكن منكمْ أمّةٌ يدعونَ إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَونَ عن المُنكرِ، وأولَئك هم المفلحـون* ولا تكونوا كـالّذين تفرّقـوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّناتُ، وأولَئك لهم عذابٌ عظيمٌ. ﴾

قال الفخر الرازي رحمه الله: اعلم أنه تعـالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتـاب على شيئين (أحـدهما) أنـه عـابهم على الكفـر، فقـال: ﴿ يـا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال: ﴿يا أهل الكتاب لم تصـدّون عن سبيل الله﴾ فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أوّلا بالتقوى والإيمان، فقـال: ﴿اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون* واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ ثـم أمرهـم بالسّعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة، فقال: ﴿ولتكن منكم أمـةٌ يدعون إلى الخير﴾ وهذا هو الترتيب الحسـن الموافق للعقل اهـ وقـوله عز وجل: ﴿ولتكـن منكم أمة يَدْعُـون إلى الخير ويأمرون بـالمعروف ويَنْهَـون عن المنكر﴾ أي ولتـوجد منكم جماعةٌ قائدة رائدةٌ داعيـةٌ إلى الخير وآمرة بالمعروف ونـاهيةٌ عن المنكر. و(مِن) في قـوله عـز وجل: ﴿ولتكن منكم﴾ يحتمل أن تكون تبعيضيـة، وذلك لأن هـذه المهمة الشريفـة الجليلة لا يقـدر على القيـام بها إلا أهل العلم والمعرفـة والنفـوس العاليـة، وليس كلّ النـاس قادرين على ذلك بـدليل قـوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافـةً، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الـدين ولينذروا قومهـم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ ويحتمل أن تكـون (مِن) لبيان الجنس أي كـونوا أمـةً داعية إلى الخير وآمـرة بالمعـروف وناهيـةً عن المنكر، وعلى كـل حال فإنّ توجيـه الخطاب إلى الكل مـع إسناد الـدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فـرضيتها على الكفـاية وأنها متحتّمـة على الجميع إلا أنـه إذا قـام بها البعض سقطت عن البـاقين، ولـو أخلّ بها الكلّ

أثموا جميعا كسائر فروض الكفاية، ولا شك أن قوله عز وجل: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ يشعر بحتمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد المكلفين من الأمة بحسب معارفهم وقدراتهم على تغيير المنكر والأمر بالمعروف وإدراكهم لجدوى ما يقدمون عليه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». هذا ولا بد في الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالما بما يأمر به أو ينهى عنه ومرتبته من الدين، حتى لا يأمر بمنكر أو ينهى عن معروف، أو يغلّظ في مقام اللين أو ينكر على من لا يزيده الإنكار إلا التمادي والإصرار، أو ينكر على رجل رفيع القدر أمام قومه مما يعتبر فضيحةً لا نصيحة، والمراد بالخير في قوله عز وجل: ﴿يدعون إلى الخير﴾ هو الإسلام وشرائعه التي شرعها الله عز وجل لعباده، وجميع ما يجلب للناس المنافع، ويدفع عنهم الأذى والضرر في معاشهم ومعادهم، وسائر أبواب الخير التي تُدْخِلُ على الناس المسرّة، وتحميهم من المضرّة، كإفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام، وإقامة المساجد والمدارس والمستشفيات ونشر العلوم النافعة، كما قال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ وقد رسم الإسلام للدعاة إلى الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أحسن المناهج وأجمل الوسائل حيث يقول عز وجل: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادِلْهم بالتي هي أحسن﴾ وقال عز وجل: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ وقد وضع القرآن الكريم في هاتين الآيتين الكريمتين للدعاة إلى الله قاعدة تحتها ثلاثة أبواب، فالقاعدة

أن يكون الداعي إلى الله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر على بصيرة، وهي أن يعرف الداعـي الطريق الذي يدعو بـه إلى الله عز وجل، والبصيرة تقتضي أن يكـون الداعي على هـدًى ونور وبينـةٍ ووضوحٍ ومعـرفةٍ بقـواعد الإسـلام وشرائع الدين وأن يعرف أنّ مـا ينكره هو منكر حذّرت منـه شريعة الإسلام، وأن مـا يأمر بـه هـو معروف حضـت عليه أوامـر الله أو أوامـر رسولـه ﷺ.
وتقتضي البصيرة في الداعيـة أيضا أن يعـرف درجات المنكـر ويعرف صغـائر السيئات وكبائر الذنوب حتى يكون أسلوبه في تغيير كل منكر بحسب درجة هـذا المنكر، فليس النّهي عن كشف الـرجل فخذه يعـادل النهي عن كشف الرجل إحدى سوأتيه، وليس النهي عن شيء مكروه كراهة تنزيه كالنهي عن الشيء المكروه كراهة تحريم أو المحرَّم، أما الأبواب الثلاثة التي تقع تحت هذه القاعدة التي رسمها الله عز وجل في كتابـه الكريم للدعاة، فالباب الأول أن تكون الدعوة بالحكمة والباب الثاني أن تكون بالموعظة الحسنة والباب الثالث أن يكون الجدال في مـوطن الجدال بالتي هي أحسن، وهذه القاعـدة وأبوابها الثلاثـة هي التي سلكها جميع الأنبيـاء والمرسلين في الدعـوة إلى الله عز وجل وهي تقتضي أن يكون الداعي كـالطبيب الحاذق الماهر، الذي يعطي المريض الدواء بقـدر حاجتـه، وفي الوقت المنـاسب له، وقـد أشاد الله تبـارك وتعالى بـدعاة الخير الآمـرين بالمعـروف والنـاهين عن المنكر، وجعل ذلك من أبـرز سمات الإيمان حيث يقـول عز وجل: ﴿والمؤمنـون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض، يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتـون الزكاة ويطيعون الله ورسـوله، أولٓئك سيرحمهم الله، إن الله عزيـز حكيم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الـذين إن مكّناهـم في الأرض أقـاموا الصلاة وآتـوا الزكـاة وأمروا بالمعـروف ونهوا عن المنكـر، ولله عاقبة الأمـور﴾ وقال عـز وجل: ﴿ التـائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون

عن المنكـر والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين﴾ . وقـولـه عز وجل هنـا : ﴿وأولَئك هم المفلحـون﴾ أي وهؤلاء الـداعون إلى الخير والآمـرون بالمعـروف والناهون عن المنكـر هم الفائزون الناجحون الناجون في الـدنيا والآخرة ، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ينجيهم الله عـز وجل إذا أنـزل بأسه بـأهل المنكر الـذين نصحهم هـؤلاء فلم ينتصحـوا وزجـروهم فلم ينزجـروا ، حيث يقـول عز وجـل : ﴿وإذ قالت أمَـةٌ منهم لم تعظـون قومًـا الله مهلكهم أو معذّبهم عـذابا شـديدا قـالوا معـذرةً إلى ربكم ولعلّهم يتّقون﴾ فلما نسوا مـا ذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السّـوء وأخذنا الذين ظلمـوا بعذاب بئيس بما كانـوا يفسقون﴾ . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿ولا تكـونوا كـالذين تفـرّقوا واختلفـوا من بعد مـا جاءهم البينـات ، وأولَئك لهم عـذاب عظيم﴾ قـال ابن جريـر رحمه الله : يعني بـذلك جل ثنـاؤه : ﴿ولا تكـونـوا﴾ يـا معشر الـذين آمنـوا ﴿كـالـذين تفـرقـوا﴾ من أهل الكتـاب ﴿واختلفـوا﴾ في دين الله وأمره ونهيـه ، ﴿من بعد مـا جاءهم البينـات﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه ، وعلمـوا الحق فيه فتعمّدوا خلافه ، وخـالفوا أمر الله ، ونقضـوا عهده وميثـاقه جـراءةً على الله ، ﴿وأولَئك لهم﴾ يعني : ولهؤلاء الذين تفـرقوا واختلفـوا من أهل الكتاب من بعـدما جاءهـم ﴿عذاب﴾ من عند الله ﴿عظيمٌ﴾ يقـول جل ثناؤه : فـلا تتفرّقـوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرّق هؤلاء في دينهم ، ولا تفعلوا فعلهم ، وتَسْتَنّوا في دينكم بسنّتهم ، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الـذي لهم اهـ وقد كـان رسول الله ﷺ يحذر أشد التحذير من التفرّق والاختلاف وأنه سبب هلاك الأمم ، فقد روى مسلم في صحيحـه من حديث عبـد الله بن عمرو رضي الله عنـه قال : هجّـرت إلى رسول الله ﷺ يوما ، قال : فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج علينا رسـول الله ﷺ يعرف في وجهـه الغضب ، فقال : «إنما هلك من كـان قبلكم

باختلافهم في الكتاب». وقد سقت في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجّ فحجوا»، فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: «لو قلتُ نعم لوجبت، ولما استطعتم»، ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركتكم، إنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم». كما روى البخاري من طريق النزّال بن سبرة عن عبد الله أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبيَّ ﷺ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فقال: «كلاكما محسنٌ، فاقرآ» أكبرُ عِلْمِي قال: «فإن من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم». وفي لفظ للبخاري من طريق النزّال بن سبرة الهلالي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلا قرأ آية وسمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فجئت به النبيّ ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: «كلاكما محسنٌ ولا تختلفوا فإنّ من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا» كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعثه ومعاذًا إلى اليمن فقال: «يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا، وتطاوعَا ولا تختلفا». كما روى مسلم من حديث أبي مسعود رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول: «استووا، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم» الحديث، وفي هذه الوصايا الإلهية والتحذيرات النبوية ما ينبّه المسلمين إلى أن سعادتهم في وحدتهم، وأن

الشرّ كلّ الشرّ في تنــازعهم واختــلافهــم ، وأن من سعى إلى تفـريق المسلمين يدخل مع اليهود والنصــارى في الوعيد الذي ذُيّلت به هذه الآيـة الكريمة في قوله عز وجلّ : ﴿وأولٓئك لهم عذاب عظيم﴾ .

قال تعالى: ﴿ يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودّ وجوهٌ، فأمّا الذين اسودّت وجوهُهم أكفرتم بعد إيمانكمْ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون* وأمّا الّذين ابيضت وجوههمْ ففي رحمة الله هم فيها خالدون* تلك آيات الله نتلوها عليكَ بالحقِّ، وما الله يُريدُ ظُلما للعالمينَ* ولله ما في السّمٰوات وما في الأرض، وإلى الله تُرجع الأمور﴾.

بعد أن حذّر الله المؤمنين من مشابهة اليهود والنصارى في تفرّقهم واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات ونهاهم عن الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء المغضوب عليهم والضالون أكّد هذا التحذير بالترهيب من عاقبة التفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، والترغيب في التمسك بأهداب دين الإسلام بإشعارهم بأن المتفرقين المختلفين تسودّ وجوههم يوم القيامة وأن المستمسكين بالإسلام المبتعدين عن التفرق والاختلاف تبيَضُّ وجوههم يوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة في توحّد الملّة وتعدّد الشرائع: فصل: قال الله تعالى لنا: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون* واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا، واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ إلى قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعا ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وذكر أنه تبيضُّ وجوه وتسودّ وجوهٌ، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوهُ أهل البدعة والفرقة. وذكر أنه يقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم؟﴾ وهذا عائد إلى قوله: ﴿ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾ فأمر

بملازمة الإسلام، وبيّن أنّ المسودّة وجوههم أهل التفرق والاختلاف، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم، وقد تأوّلها الصحابة في الخوارج، وهذا نظير قوله للرسل: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ وقد قال في البقرة: ﴿كان الناس أمّة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ الآية، وقال أيضا: ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا لستَ منهم في شيء﴾ وقال تعالى: ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرًا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكوننّ من المشركين﴾. ﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾ وقال تعالى: ﴿إنّ الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾ الآية. ونظيرها في الجاثية اهـ. وقوله عز وجل: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه﴾ أي يوم تشرق وجوه أهل الإيمان المبتعدين عن التفرق والاختلاف وتَسْوَدّ وتَكْلَحُ وجوه أهل الكفر والتفرق والاختلاف. كما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة* إلى ربها ناظرةٌ* ووجوه يومئذ باسرة* تظن أن يُفْعَلَ بها فاقرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وجوه يومئذ مسفرة* ضاحكة مستبشرةٌ * ووجوه يومئذ عليها غبرة* ترهقها قترةٌ* أولَئك هم الكفرة الفجرة﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة، أليس في جهنّم مثوى للمتكبرين﴾. وقد أخبر رسول الله ﷺ أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم كأشدّ كوكب درّي في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين، يُرى

مخّ سوقهن من وراء العظم واللحم من الحسن، يسبّحون الله بكرة وعشيا، لا يسقمون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الألُوّة، ورشحهم المسك، على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء». كما روى مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتُنْجِنا من النار؟ قال: فيُرفع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أُعْطُوا شيئا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم» ثم تلا: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾. وجَعْلُ بياض الوجوه أمارة سعادة أصحابها، وسواد الوجوه أمارة شقاوة أهلها إنما ذلك في الدار الآخرة، أما في دار الدنيا فإن الله تبارك وتعالى جعل ألوان الناس آية على قدرته على كل شيء وأنه جعل اختلاف ألوانهم آية يستدل بها العلماء على ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العلى كما قال عز وجل: ﴿ومن آياته خَلْقُ السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إنّ في ذُلك لآيات للعالمِين﴾ فلا فضل لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود أو أحمر أو أصفر إلا بتقوى الله عز وجل، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». وقد أوضح الله عز وجل ذلك أيما إيضاح حيث يقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: إنّ النبي ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تَفْضُله بتقوى الله». وقوله عز وجل: ﴿فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله

هم فيها خالدون﴾ . اعلم أن من الأساليب البلاغية اللّف والنشر وهو على قسمين : لفّ ونشر مرتّبٌ ، ولفّ ونشر مشوَّش ، فاللّف والنشر المرتّب أن يذكر شيئين على سبيل الإجمال ثم يذكر بعدهما وصفين يعود الأول منهما إلى الأول ، ويعود الثاني إلى الثاني ، وهو كثير جدا في كتاب الله كقوله تعالى : ﴿وفاكهةً وأبّا* متاعا لكم ولأنعامكم﴾ فقد ذكر الفاكهة والأبّ وهو المرعى ثم قال : ﴿متاعا لكم﴾ وهو يعود على الفاكهة . ثم قال : ﴿ولأنعامكم﴾ وهو يعود على الأبّ . وكذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿فمنهم شقيٌّ وسعيد* فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق* خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربّك ، إن ربك فعّال لما يريد* وأما الذين سُعِدُوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير مجذوذ﴾ ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ فقوله : ﴿لتسكنوا فيه﴾ راجع إلى الليل وقوله : ﴿ ولتبتغوا من فضله﴾ راجع للنهار. أمّا إذا رجع الوصف الأول للثاني ورجع الوصف الثاني للأول كالذي في هذا المقام فإنه يسمّى اللّف والنشر المشوّش ، فقد قال : ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾ ثم فصّل ما يتصل بالثاني فقال : ﴿فأما الذين اسْودّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ ثم فصّل ما يتصل بالأول فقال : ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾ فقد ذكر الشيئين ثم فصّلهما بوصفين يعود الأول من الوصفين على الثاني ويعود الثاني على الأول ، والأصل هو اللف والنشر المرتب ، فإذا جاء به على سبيل اللف والنشر المشوش فإنه يكون لنكتة بلاغية تلفت انتباه البلغاء إلى لون من ألوان إعجاز القرآن ، ففي هذا المقام تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليهما إجمالا ، وقدّم في الإجمال ذكر حال السعداء لتعجيل مسرتهم ، ثم قدّم في

التفصيل ذكر حال الأشقياء لتعجيل مساءتهم ولما أنّ المقام مقام التحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل، والإفضاء إلى ختم الكلام ببيان حسن حال المؤمنين كما بُدِئَ بذلك عند الإجمال، ففي الآية حسن ابتداء وحسن اختتام وهي صور بلاغية يعرفها علماء البديع، وقوله عز وجل: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ أي يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم، والمراد بالكفر بعد الإيمان في هذا المقام هو ما أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ وهو يشمل كذلك من ارتد عن دين الإسلام بعد الدخول فيه، ليكون تحذيرا للمسلمين من محاولات أهل الكتاب تضليل أهل الإيمان، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أنه جل ثناؤه عنى بذلك جميع الكفار وأن الإيمان الذي يُوبَّخُون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذي أقرّوا به يوم قيل لهم: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ ثم قال رحمه الله: وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين: أحدهما سودًا وجوهه والآخر بيضًا وجوهه، فمعلومٌ ـ إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان ـ أنّ جميع الكفار داخلون في فريق من سُوِّد وجهه، وأنّ جميع المؤمنين داخلون في فريق من بُيِّض وجهه، فلا وجه إذًا لقول قائل: عنى بقوله: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ بعض الكفار دون بعض، وقد عمّ الله جل ثناؤه الخبر عنهم جميعهم، وإذا دخل جميعهم في ذلك ثمّ لم يكن لجميعهم حالة آمنوا فيها ثم ارتدوا كافرين بعدُ إلا حالةٌ واحدةٌ كان معلوما أنها المرادة بذلك، فتأويل الآية إذًا: أولئك لهم عذابٌ عظيم في يوم تبيضّ وجوه قوم وتسودّ وجوه آخرين، فأما الذين اسودّت وجوههم فيقال: أجحدتم توحيد الله وعهده وميثاقه الذي واثقتموه عليه، بأن لا تشركوا به شيئا وتخلصوا له العبادة، بعد إيمانكم ـ أي بعد تصديقكم به ـ ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يقول:

بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان الله قد أخـذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق ﴿وأما الـذين ابيضت وجوههم﴾ ممن ثبت على عهد الله وميثاقـه، فلم يبدّل دينه، ولم ينقلب على عقبيه بعد الإقرار بالتوحيـد، والشهادة لربّه بالألوهة، وأنّه لا إلـه غيره ﴿ففي رحمة الله﴾ يقول: فهم في رحمة الله يعنـي: في جنته، ونعيمها، وما أعدّ الله لأهلهـا فيها ﴿هم فيها خالدون﴾ أي بـاقون فيها أبدا بغير نهايـة ولا غايـة اهـ وقـوله عـز وجل: ﴿تلك آيـات الله نتلوهـا عليك بـالحق، وما الله يـريد ظلما للعـالمين﴾ أي هذه حجج الله وبينـاته الموضّحـة لأحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة، نقصّها عليك يا محمد لا يعتريها وهـم ولا خطأ، فمن عاقبه بتسويـد وجهه وتخليده في جهنم، ومن أكرمه بتبييض وجهـه وإدخاله في جنات النعيم، فبغير ظلم منه لأن من عذّبه فبعدله ومن أكرمه فبفضله، ﴿وما الله يريد ظلما للعالمين﴾ بل من كفـر بالله هـو الظالم لنفسـه وقـد قطع الله حجّته حيث أنـزل الكتب وأرسل الرسل وأقـام البراهين على أنه لا إلّه إلا هـو ولا رب سواه، وقولـه عز وجل: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي وجميع الخلائق ملك لله وعبيد لـه وهو الحاكم المتصرف في الـدنيا والآخـرة وهو على صراط مستقيم.

قال تعالى: ﴿كنتم خير أمةٍ أخرجت للنّـاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتـؤمنون بالله، ولـو آمن أهل الكتاب لكـان خيرًا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون* لن يضرّوكم إلاّ أذى وإن يقاتلـوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا ينصرون* ضربت عليهم الـذّلـة أين مـا ثقفـوا إلاّ بحبـل من الله وحبل من النّـاس وبـاءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنـة، ذٰلك بأنّهم كـانـوا يكفـرون بـآيـات الله ويقتلـون الأنبيـاء بغير حـقّ، ذٰلك بما عصـوْا وكـانـوا يعتدونَ* ليْسُوا سواءً، من أهل الكتابِ أُمّـةٌ قائمةٌ يتلون آياتِ الله آناءَ اللّيلِ وهم يسجـدون* يؤمنـون بالله واليوم الآخـر ويأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ويسـارعون في الخيرات وأولٓئك مـن الصّالحين* وما يفعلـوا من خير فلن يكفروهُ، والله عليم بالمتقين﴾

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا دعاةً إلى الخير وآمرين بالمعروف وناهين عـن المنكر وبشرهم بـالفلاح، وحذّرهم مـن سلوك طريـق الضالين المضلين من أهل الكتـاب المتفـرقين المختلفين، ذكـر هنـا بشـارة عظيمـة للمـؤمنين حيث أخبرهم بأنــه جعلهم خير أمـة ظهـرت على الأرض، وأنـه فضّلهم على سائر الأمم وأن أهم سيماهم هـي أنهم يأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، حيث قال عز وجل هنا: ﴿كنتم خير أمّة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ ومجيء هذه البشارة في هذا المقـام بعد قـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولتكن منكـم أمة يـدعون إلى الخير ويأمـرون بـالمعـروف وينهـون عـن المنكـر وأولٓئك هم المفلحـون﴾ يفيـد أن المسلمين سارعوا إلى الاستجابة لأمر الله عـز وجل فكانوا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد حازت هذه الأمة قصب السّبق إلى الخيرات حيث جعل الله عـز وجل نبيّهـا أشرف خلق الله، وسيـد ولـد آدم،

وإمام المرسلين، وأعطاه الحوض المورود، والمقام المحمود وهو أول من تفتح له الجنة، وبعثه بأكمل شريعة وأتم دين، وبعثه إلى الناس كافةً، ونسخ بشرعه جميع الشرائع، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان وقُطْر وعصر إلى يوم القيامة، وبارك له ولأمته، ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها وصان الكتاب الذي أنزله عليه من التحريف والتبديل، وجعل لأمته مواسم خير يضاعف لهم فيها الحسنات، وجعل لهم ليلة هي خير من ألف شهر، وأعطاهم ما لم يعط أحدا من العالمين، وجعلهم أنفع بني آدم لبني آدم وقال عز وجل فيهم: ﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾ ولم يعرف في التاريخ أمّةٌ جلبت الخير للناس كأمة محمد ﷺ ولذلك قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ميسرة عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام». كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبيّ ﷺ ومعه الرُّهَيْطُ والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحدٌ، إذ رُفع لي سوادٌ عظيمٌ فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى ﷺ وقومهُ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» ثم نَهَضَ فدخل مَنْزِلَهُ، فخاضَ النـاسُ في أولَئك الذين يدخلون الجنةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ، فقال بعضهم: فَلَعَلَّهُم الذين صَحِبُوا رسولَ الله ﷺ، وقال بعضهم: فَلَعَلَّهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، ولم يُشركوا بالله، وذكروا أشياءَ، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ، فقال: «ما الذين تخوضونَ فيه؟» فأَخْبَرُوه، فقال: «هم الذين لا

يَرْقُـون، ولا يَسْتَرْقُونَ، ولا يَتطَيَّرون، وعلى ربهم يتوكلـون» فقام عُكَّـاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فقال: ادْعُ الله أنْ يجعلني منهم، فقـال: «أنت منهم»، ثم قام رجلٌ آخَرُ فقـال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سَبَقَكَ بها عُكَّاشَةُ». وقـوله عز وجل: ﴿ولو آمنَ أَهْلُ الكتاب لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾ هذا تَنْدِيدٌ بأهل الكتاب بعد الثنـاء على المستجيبين لله ورسوله، وتأنيبٌ لمن لم يـدخل في دين الإسلام من اليهود والنصارى، وترغيب لهم في الـدخول في الإسلام، وأنهم لو دخلوا في الإسلام لحصلت لهم الخيريـةُ التي جعلها الله عز وجل لأمـة محمد ﷺ بل يجعل الله عـز وجـل لهم أجـرين كما جـاء في الحديث الـذي رواه البخـاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ يُـؤْتَوْنَ أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتـاب آمَنَ بنبيه وآمن بي، فله أجـران، وعبدٌ مملـوكٌ أدَّى حقَّ الله وحقَّ مـواليـه، فله أجـران، ورجلٌ أَدَّبَ أَمَتَـه فَأَحْسَنَ تأديبهـا ثم أعتقها وتـزوجهـا فله أجـران». وقـوله عـز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثـرهـم الفاسقـون﴾ أي قليلٌ من أهل الكتاب مَـنْ يؤمن بالله وما أُنْزِلَ إليكم وما أُنْزِلَ إليهم، وأكثرُهم على الضلالة والكفر والفسوق والعصيان. وقولـه عز وجل: ﴿لن يَضُـرُّوكم إلا أذًى وإن يقاتلـوكم يُوَلُّوكم الأَدْبَارَ ثم لا يُنْصَرُونَ﴾ هـذه بشارةٌ للمؤمنين بأن الله عـز وجل ناصرُهم على أعـدائهم الكفرة الفجـرة من أهل الكتـاب، وَوَعْـدٌ من الله عز وجل لعبـاده المؤمنين بتأييدهم على مَنْ عاداهم وبخاصـة على إخوان القردة والخنازير من اليهود، وقد أنجز اللهُ وعـده، فأذلَّ أعداءهم وأرْغَمَ أنوفهم، ومعنى: ﴿لن يضروكم إلا أذًى﴾ أي لن يتمكن اليهـودُ من الغلبـةِ عليكم وإلحاقِ الضرر بكم إلا شيئـا يسيرا يَتَنَبَّـهُ بـه الغـافلُ فيرجعُ إلى الله عـز وجل، ومهما حـاول اليهود من القضاء على دينكم فلن يستطيعوا ذلك بحـال من الأحوال، وقوله عز وجل: ﴿وإن يقاتلوكم يُوَلُّوكم الأدبار﴾ أي وإن قابَلُوكم في مَيْدَان الحرب

فَرُّوا منكم منهزمين، فَتَوْلِيَةُ الأدبار كنايةٌ عن الانهزام، لأن المنهزِمَ يُحَوِّلُ ظهره إلى جهة مُقَاتِله هَـرَبًا منه إلى جهةٍ ينجو فيها بنفسه، وطـالبُهُ في أثَرِه، فيكونُ دبُرُه في وجه طالبه، واليهودُ هم أجْبَنُ خلق الله قاطبة كما قال عز وجل فيهم وفي إخوانهم المنـافقين: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً في صـدورهم من الله، ذٰلك بأنهم قومٌ لا يَفْقَهُـونَ﴾ لا يقاتلـونكم جميعا إلا في قُـرًى مُحَصَّنة أَوْ مِـنْ وَرَاءِ جُدُر، بـأْسُهُمْ بينهم شَـدِيـدٌ، تَحْسَبُهُم جميعـا وقُلُـوبُهُم شَتَّى، ذٰلك بأنهم قـوم لا يعقلـون﴾ وقـولـه عـز وجل: ﴿ثم لا يُنْصَرُون﴾ مُسْتَـأْنَفٌ لإفـادة أنهم غير منصورين عليكم مطلقـا، سواءٌ قاتلـوكم أو لم يقاتلوكم، ولـذلك لم يَعْطِفه على قوله: ﴿وإن يُقَـاتلوكم يولوكـم الأدبار﴾ ولو كان معطوفـا عليه لحذفت النون مـن قوله: ﴿لا ينصرون﴾ كما حـذفت من قـوله تبـارك وتعالى: ﴿وإن تَتَوَلَّـوْا يَسْتَبْدِل قَوْمًا غيركم ثم لا يكـونوا أمثالكم﴾ فإنَّ قولـه عز وجل: ﴿لا يكونوا﴾ معطوفٌ بِـ(ثُمَّ) على قـوله: ﴿يَسْتَبْدِل﴾ المجزوم في جواب الشرط، وأصله: (يكـونون) فحذفت النـونُ للجزم. وفي هـذه الآية الكريمـة معجزة ظاهـرة حيث تحققت الوُعُودُ التـي أفادتها، وأنجز الله وعـده، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هـذه الآيـة: هكـذا وقـع فإنهم يـوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنـوفهم وكـذلك مَن قبلهم مـن يهود المدينـة بني قينقـاع وبني النضير وبني قريظـة، كلهم أذلّهم الله، وكذلك النصـارى بالشام، كسرهم الصحـابة في غير موطن، وسلبوهم مُلْكَ الشـام، أبد الآبدين ودهر الـداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بـالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك ويحكم بملة الإسـلام وشرع محمد عليـه أفضل الصلاة والسـلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزيـر، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسـلام اهـ وقولـه عز وجل: ﴿ضُـرِبت عليهم الـذّلـة أين مـا ثُقِفُـوا إلا بحبل من الله وحبل من النـاس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ قد تقدم تفسير ضرب الذّلة

والمسكنـة عليهم ومعنى : ﴿وباءوا بغضب من الله﴾ عنـد تفسير قـوله عـز وجل في سورة البقـرة : ﴿وضُرِبَتْ عليهم الذلّة والمسكنـة وباءوا بغضب من الله﴾ ومعنى : ﴿أين مـا ثُقِفُـوا﴾ أي حيثما وُجِدُوا فإن الـذّلـة تـلاحقهم وتصيبهم ، وقولـه عز وجل : ﴿إلا بحبل من الله وحبـل من الناس﴾ أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من يُسلَّط اليهود عليهم لتقصير هـؤلاء المنتسبين لـلإسلام في حـق الله وتفريطهم في جنبـه وعـدم إقـامتهم شريعة الله ، فإن اليهود الرعـاديد الجبناء لم ينتصروا على المسلمين ويحتلوا بيت المقدس في عصرنا بشجاعتهم ، وإنما بذنوبنا وتفرّق كلمتنا لأنه إذا عصى الله من يعـرفـه سلّط عليـه من لا يعرفـه ، كما أنهم قـد يُمَـدّون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبّا في اليهـودية ، وإنما لحرب الإسلام ، ولا شك أن قوله عز وجل : ﴿إلا بحبل من الله وحبل من النـاس﴾ معجزة ظاهـرة على مدى التاريخ يشاهـدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومغاربها . وقـوله تبارك وتعالى : ﴿ذٰلك بأنهم كـانوا يكفـرون بآيات الله ويقتلـون الأنبياء بغير حق ، ذٰلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾ قد تقدّم بيان معاني مفرداته وجمله عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ذٰلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذٰلك بما عصـوا وكـانـوا يعتـدون﴾ . وقـولـه عـز وجل : ﴿ليسوا سواءً﴾ أي ليس كل أهل الكتاب على حدّ سواءٍ ، بل منهم من شرح الله صدره لـلإسلام كعبـد الله بن سَلاَم رضي الله عنـه وقد كـان حبرهم وابن حبرهم ، فلما رأى رسولَ الله ﷺ أيقن أن وجهه ليس بـوجه كذاب فسارع إلى الدخول في الإسلام ، فهو من أهل الكتاب بـاعتبار ما كان ثم صار من أهل الإسلام وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وكـذلك ثعلبة بن سَعْية وأسيدُ بن سَعْية وأسـد بن عُبَيْد ومن أسلم معهم من اليهـود ، وهؤلاء ممن آمن من أهل الكتاب قد صاروا بعد الإسـلام أئمة مسلمين ، من خيرة أصحاب رسول الله

ﷺ، وقد قال الله عـز وجل في بعض مَن آمن مِن أهل الكتاب للثناء عليهم والتنديـد بالمشركين من العـرب: ﴿قل أرأيتم إن كان مـن عند الله وكفرتـم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ وهم المؤمنون المشار إليهم قريبًا في قوله عز وجل: ﴿منهم المؤمنون وأكثـرهم الفاسقـون﴾ وقد أثنـى الله عز وجل عليهم ووصف اجتهـادهم في طاعة الله وتلاوة القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿من أهل الكتاب أمةٌ قائمـة يتلون آيات الله آنـاء الليل وهم يسجدون* يـؤمنون بالله واليـوم الآخر ويأمـرون بـالمعـروف وينهون عن المنكـر ويسـارعـون في الخيرات وأولئك من الصـالحين* وما يفعلـوا من خير فلن يُكْفَـروه، والله عليم بـالمتقين﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فلن يُكْفَـروه﴾ أي لن يضيع أجرهم عند الله بل سيجزيهم بـه أحسن الجزاء، وكـان مقتضى السيـاق أن يقـال: والله عليم بهم، لكنّ الحال يقتضي وضع الظاهر وهو قـوله: ﴿بالمتقين﴾ موضع الضمير لتسجيل صفة التقوى لهم، وبشارتهم بها.

قال تعـالى : ﴿إن الذين كفروا لن تغنـي عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولَئك أصحاب النار، هم فيها خالدون* مثل ما ينفقون في هذه الحياة الـدّنيا كمثل ريح فيهـا صِرّ أصابـت حرث قـوم ظلموا أنفسهم فأهلكتـه ، وماظلمهم الله ولَكن أنفسهم يظلمـون* يا أيها الّذين آمنوا لا تتّخـذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتُّمْ قـد بدتِ البغضاء من أفواههم وما تُخفى صـدورهم أكبرُ، قد بيّنـا لكم الآيـات إن كنتم تعقلون* هـا أنتم أولاء تحبّونهم ولا يحبّونكـم وتؤمنون بالكتاب كلّـه و إذا لقوكم قالـوا آمنّا و إذا خلوا عضّـوا عليكم الأنامـل من الغيظ ، قلْ موتـوا بغيظكم ، إنّ الله عليمٌ بـذات الصّـدور* إن تمسسكم حسنـةٌ تسؤهـم و إن تصبكم سيّئة يفـرحـوا بها و إن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئا ، إنّ الله بما يعملون محيط . ﴾

بعـد أن أثنى الله عز وجل على الطـائفـة المؤمنة مـن أهل الكتاب الـذين استجابـوا لله ولرسـوله وسـارعوا إلى الـدخول في ديـن الإسلام ، حـذّر عموم الكفار من سوء عاقبتهم إذا استمروا على كفرهم وعنادهم ، ثم حذّر المؤمنين من موالاتهم وحبّهم ، وبيّن للمؤمنين أنّ الكفار يتربصون الدوائر بهم ، وقوله عز وجل : ﴿إنّ الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولَئك أصحاب النار، هم فيها خالدون﴾ قال ابن جرير رحمه الله : قال أبو جعفر: وهذا وعيد من الله عز وجل للأمـة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون ، وأنهم قـد باءوا بغضب منه ، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد ﷺ من عند الله ، يقول تعالى ذكره : ﴿إنّ الذين كفروا﴾ يعني الـذين جحدوا نبوّة محمد ﷺ ، وكذّبوا به ، وبما جاءهم بـه من عند الله ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا﴾ يعني : لن تـدفع أموالـه التي جمعها في الـدنيا ، وأولاده الذيـن ربّاهم

فيها، شيئا مـن عقوبة الله يوم القيـامة إن أخّرها لهم إلى يـوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجّلهـا لهم فيها، وإنما خصّ أولاده وأمواله لأنّ أولاد الـرجل أقرب أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منـه على مال غيره، وأمره فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنـه ولده لصلبه ومـاله الذي هـو نافذ الأمـر فيه، فغير ذلك من أقربـائه وسائر أنسبـائه وأموالهم أبعد مـن أن تغني عنه من الله شيئـا، ثم أخبر جل ثنـاؤه أنّهم هم أهـل النـار الـذين هم أهلهـا بقـولـه: ﴿وأولَئك أصحـاب النـار﴾ وإنما جعلهم أصحـابها لأنهم أهلهـا الـذين لا يخرجون منها ولا يفارقونها، كصاحب الرجـل الذي لا يفارقه وقرينه الذي لا يزايلُهُ، ثم وكّد ذلك بإخباره عنهم أنهم ﴿فيها خالدون﴾ أنّ صحبتهم إياها صحبـةٌ لا انقطـاع لها، إذ كـان من الأشيـاء مـا يفـارق صـاحبـه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النّارَ التي أُصْلُوها، ولكنّهـا صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع، نعـوذ بالله منها وممّا قرّب منها من قول أو عمل اهـ وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ما ينفقون في هذه الحيـاة الـدنيـا كمثل ريح فيهـا صِـرٌّ أصـابت حَـرْثَ قـوم ظلمـوا أنفسهم فأهلكَتْه﴾ بعـد أن بشر المؤمنين بأن كل ما يفعلـونه من الخير لن يضيـع عند الله عز وجل الذي أعـدّ لهم به أحسن المثوبة وأعظم الأجـر في جنات النعيم حيث يقول: ﴿وما يفعلوا من خير فلن يكفروه﴾ بيّن هنا أن الكفار لو أنفقوا أمـوالهم في أبـواب الخير كإطعام الطعـام وصلـة الأرحـام وبنـاء الربـاطـات والإنفاق على الأرامل والمسـاكين والأيتام فإنّ الله عـز وجل لا يتقبّلها منهم، ولا يثيبهم عليها بل يجعلهـا كالهباء المنثـور لأن الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتقين، وكما قال عـز وجل: ﴿وقَدِمْنا إلى مـا عملوا من عمل فجعلنـاه هباءً منثورًا﴾ وقال عز وجل: ﴿إنّ الذين كفـروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، فسينفقـونها ثـم تكـون عليهم حسرةً ثم يُغْلَبـون﴾ وقـال عــز وجل:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾ وذلك أن الكفر كالنار المحرقة التي تأكل الأخضر واليابس وقد شبّه الله عز وجل ضياع نفقات الكفار سُدى وعدم انتفاعهم بما يبذلونه في أبواب الخير بمن زرع زرعا وأنفق عليه الأموال، وتعب في استنباته وشاركه أصحابه في بذل الجهد فيه فلما دنا وقت الحصاد سلّط الله عز وجل ريحا شديدة البرد مصحوبة بنار كالإعصار المصحوب بالنار فأحرقت هذا الزرع في لحظات مع ما اشتملت عليه من صوت مزعج مخيف، فذهب ما يأمله وبقي له حزنه ورعبه، وإذا كان هذا فيما أنفقوه من الأموال في وجوه الخيرات فما بالك بما أنفقوه في إيذاء رسول الله ﷺ وفي الصد عن سبيل الله وفي تقتيل المسلمين أو تخريب ديارهم فإن الأمر في ذلك أعظم والخطب أطمُّ. والصِّرُّ هو البرد الشديد تحمله الريح، وقد يصحب بنار محرقة، وصوت مزعج، كما قال عز وجل: ﴿فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت﴾. وقوله عز وجل: ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بيان للسبب الذي أحبط أعمالهم، وضيّع نفقاتهم وهو ظلمهم لأنفسهم حيث كفروا بالله عز وجل وعصوه وتعدّوا حدوده فوضعوا الكفر موضع الشكر، ولذلك قال عز وجل: ﴿وما ظلمهم الله ولكن أنفسَهم يظلمون﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وما فعل الله بهؤلاء الكفار ما فعل بهم، من إحباطه ثواب أعمالهم، وإبطاله أجورها ظلما منه لهم ــ يعني: وضعًا منه لما فعل بهم من ذلك في غير موضعه، وعند غير أهله، بل وضع فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ما هم أهله، لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون، ولأمره متّبعون، ولرسله مصدّقون، بل كان ذلك منهم وهم به مشركون، ولأمره مخالفون، ولرسله مكذّبون، بعد تقدّم منه إليهم أنه لا يقبل عملا من عاملٍ إلا مع إخلاص التوحيد له، والإقرار بنبوّة أنبيائه،

وتصديق ما جاءوهم به، وتوكيده الحجج بذلك عليهم، فلم يكن ـ بفعله ما فعل بمن كفر به، وخالف أمره في ذلك بعد الإعذار إليه، من إحباط وَفْرِ عمله ـ له ظالما، بل الكافر هو الظالم لنفسه، لإكسابها من معصية الله وخلاف أمره، ما أوردها به نار جهنّم، وأصلاها به سعير سقر اهـ وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خَبَالاً وَدُّوا ما عَنِتُّم﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله لا تجعلوا لأنفسكم أصدقاء وأخلاء وأصفياء ومستشارين من الكفار، تطلعونهم على أسراركم، لأنهم منطوون على غشكم وخيانتكم لا يقصّرون في إلحاق الشر بكم وهم يبذلون كلّ ما يطيقون في إضعافكم وإضراركم وإفساد ذات بينكم ويتمنّون القضاء عليكم وعلى دينكم، وإلحاق العنت والمشقة بكم وبطانة الرجل هم خاصّة أهله الذين يطّلعون على أسراره ويعرفون مدخله ومخرجه لشدة قربهم منه، ومنه بطانة الثوب وهي ما يلي البطن منه بخلاف الظّهارة، والبطانة السريرة أيضا، ومعنى: ﴿من دونكم﴾ أي من غير مِلّتكم، ومعنى: ﴿لا يألونكم خَبَالا﴾ أي لا يُقَصِّرُونَ في خبالكم، والخبال الفساد، كما قال عز وجل في المنافقين: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ وأصل الخبال ما يلحق الجسم من مرض وفتور فيورثه فسادًا واضطرابًا وخروجًا عن حد الاعتدال، ومعنى: ﴿ودُّوا ما عنتُّم﴾ أي تمنوا عنتكم أي إلحاق أشد الضرر والمشقة بكم، وقوله عز جل: ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر﴾ أي قد لاح لكم أيها المسلمون على صفحات وجوههم وما تسمعونه من فلتات ألسنتهم ومن حرصهم على بقائهم على دينهم، على أن ما تخفيه صدورهم من العداوة لكم أكبر مما بدا من أفواههم، فلا تتخذوا منهم بطانة ولا توالوهم . والعداوة على الدين هي العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى دين الآخر

كما قال الشاعر:

كلّ العداوة قد تُرْجَى إزالتها إلا عداوةَ من عاداك في الدّين

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان، بطانةٌ تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانةٌ تأمره بالسوء وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله» قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبوأيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس، عن أبي حيان التيمي عن أبي الزنباع عن ابن أبي الدهقانة قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاما من أهل الحيرة، حافظ كاتب فلو اتخذته كاتبا؟ فقال: قد اتخذت إذاً بطانةً من دون المؤمنين اهـ ولا شك أن اتخاذ كاتب أو مستشار للمسلمين من الكفار أخطر ممن يجعل الذئب راعيا للغنم. وقوله عز وجل: ﴿قد بيّنّا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾ أي قد أوضحنا لكم أيها المؤمنون منهج سعادتكم، وسلامتكم من كيد أعدائكم وما انطوت عليه قلوبهم من بغضكم وبغض دينكم، فلا تتخذوا منهم بطانة، ولا تطلعوهم على أسراركم، ومخططات أمن دولتكم، وتحرّكات جيوشكم، وتوجّهاتكم، وقوله: ﴿إن كنتم تعقلون﴾ هو للحض على استعمال العقل في تأمل هذه الآيات، وتدبر تلك البينات، لأن من يتخذ بطانة من عدوه يكون كمن يُلْقِم الأفعى يَدَه، ولا يفعل ذلك عاقل. وقوله عز وجل: ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ هذا تحذير آخر وتنفير من أن يتخذ المسلم بطانةً من الكافرين بسبب قرابة من رضاع أو مصاهرة أو غير ذلك، لأنه لا يليق بالمؤمن أن يكون الكافر أشد صلابة في دينه الباطل من المؤمن في حقه، فكيف يرضى المؤمن أن يحب كافرا لأجل

قرابة أو نحوها في الوقت الذي يبغضه فيه هذا الكافر تعصبا لدينه الباطل، وهل يليق بمؤمن يصدّق كلّ الكتب السماوية أن يوالي من يكفر بالقرآن العظيم؟ وهل يليق بمؤمن أن يخالل من إذا جلس مع المؤمنين ادّعى أنه مؤمن فإذا انصرف من عند المؤمنين تمنى أن يمزق أجساد المسلمين وأخذ يعض بأسنانه أطراف أصابعه من شدة الغيظ والحنق على الإسلام وأهله؟ وقوله عز وجل: ﴿قل موتوا بغيظكم إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ أي أخبر يا محمد هؤلاء الحاقدين على الإسلام وأهله بأن الله معزّ دينه فليزدد غيظكم حتى تهلكوا لأنكم لن تروا ما يسركم، وعند الله عز وجل علم خفايا صدوركم وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا، إنّ الله بما يعملون محيط﴾ بيانٌ لشدّة عداوة الكفار للمؤمنين كأنه قيل لهم: كيف تتخذون بطانة ممن إذا نزل بكم خيرٌ امتلأت قلوبهم غمّا وهَمًّا وغيظا، وإن أصابكم بلاء طاروا فرحا، وإن تصبروا وتطيعوا أوامر الله وتجتنبوا نواهيه يحفظكم من شرهم، إن الله لا يخفى عليه شيء من كيدهم ومكرهم، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قال تعـالى : ﴿واذ غدوْتَ منْ أهلك تُبـوِّئُ المؤمنين مقاعـد للقتالِ ، والله سميعٌ عليمٌ* إذ همّتْ طـائفتـان منكم أن تفشـلا والله وليّهما ، وعلى الله فلْيتـوكّل المؤمنـون* ولقـد نصركم الله ببـدرٍ وأنتم أذلـّةٌ فـاتّقـوا الله لعلّكم تشكُرون* إذ تقـول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثـلاثة آلاف من الملائكـة منزلين* بلى ، إن تصبروا وتتّقـوا ويأتوكم من فـورهم هٰذا يُمـددكم ربّكم بخمسـة آلاف من الملائكـة مسوِّمين* ومـا جعلـه الله إلاّ بُشرى لكم ولتطمئنّ قلوبكم به ، وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيمِ* ليقطع طرفا من الّذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين .﴾

بعـد أن بيّن الله عز وجل للمـؤمنين أنهم إن يصبروا ويتّقـوا يدفع الله عـز وجل عنهم كيد أعـدائهم وينصر المسلمين على الكفرة ، أشار عـز وجل هنا إلى معركتين شهيرتين عنـد العرب والعجم ، وهما معـركة أحـد ومعركـة بدر، حيث خالف بعض الـرماة أمر رسـول الله ﷺ يوم أحد ولم يصبروا فـانهزموا ، وأنهم لما ثبتـوا وصبروا واتّقـوا في يوم بـدر مع أنهم كـانـوا قليلين في عَـددهم وعُددهم انتصروا . وقـوله عز وجل : ﴿وإذْ غَـدَوْتَ من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقـاعد للقتـال ، والله سميع عليم* إذ همّت طـائفتان منكم أن تفشـلا والله وليّهما ، وعلى الله فليتـوكّل المؤمنـون﴾ أشـار الله عـز وجل بهاتين الآيتين إلى معركة أحـد ، وقد كانت في شوال من السنـة الثالثة للهجرة النبـوية ، وكانت قـريش تـريد الثأر لقتـلاهـا يـوم بدر، وأجمعت على حـرب رسـول الله ﷺ ، فجمعت جموعها ، وخرجت بحدّها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من بني كنانـة وأهل تهامة ، وأخـرجوا معهم نسـاءهم ، ومغنّياتهم ، حتـى لا يفرّوا ، وخرج أبـو سفيان على رأس المشركين ومعـه زوجته هنـد بنت عتبة بـن ربيعة

لتؤلّب على المسلمين، وتحضّ على حربهم لتثأر لمقتل أبيها وأخيها وعمّها يوم بدر، فأقبلوا حتى نزلوا بِعَيْنَيْن، وهو جبلٌ ببطن السَّبِخة من قناة، على شفير الوادي مقابل المدينة، قرب جبل أحد، يفصل الوادي بينه وبين جبل أحد، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، واستقرّ رأيهم على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدوّ الله رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ ابن سلول رجع بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبد الله بن عمرو بن حرام السَّلَمِي والد جابر رضي الله عنهما أن يحملهم على متابعة رسول الله ﷺ وقال لهم: تعالو قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، فقال عبد الله بن أبيّ ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتّبعناكم، وقد كادت طائفتان من المؤمنين أن تتأثّرا بكلام عدوّ الله عبد الله بن أُبيّ وتفشلا وهما من بني حارثة وبني سَلِمة لكن الله تعالى عصم هاتين الطائفتين، وثبّتهما على الحق، وبنو سلمة غربي سلع مباشرة وبنو حارثة شمال شرقي سلع وبينهم الخندق كما روى البخاري في صحيحه الحديث رقم (١٨٢٢) نا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني أخي سليمان عن عبيد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (حرم ما بين لابتي المدينة علي لساني) قال: وأتى النبي ﷺ بني حارثة وقال: (أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم) ثم التفت فقال: (بل أنتم فيه). وقد استمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشِّعْب من أحد، في عُدْوة الوادي، وجعل ظهره وظهر عسكره إلى أحد، وأخذ ﷺ يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال، ويسوّي صفوفهم، وأجلس جيشاً من الرّماة فوق جُبَيْل على مقربة من عسكر رسول الله ﷺ بالجنوب الشرقي من أرض المعركة لينضَحوا عن المسلمين بالنَّبْل، وكانوا خمسين رامياً، وليحموا ظهر المسلمين إذا أقبلوا على قتال المشركين الذين كانوا إلى الجهة الغربية من مكان المسلمين وأمّر على الرّماة عبد الله بن

جُبَيْر أخا بني عمرو ابن عوف، وقال رسول الله ﷺ للرّماة وأميرهم: «لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظَهَرْنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» حتى قال لهم: «إن رأيتمونا تَخَطّفُنا الطيرُ فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» فلما التقى الجمعان أخذ المسلمون يحصدون المشركين حصداً، فهرب المشركون حتى لحق بعضهم بالطائف، وهربت نساؤهم إلى الجبل يشتَدِدْن فيه، ورفعن عن سوقهنّ، حتى بدت خلاخيلهنّ، فلما رأى الرّماة ذلك نسوا وصية رسول الله ﷺ لهم، وأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة. فنهاهم أميرهم عبدالله بن جبير رضي الله عنه عن النزول وأمرهم بالثبات في مكانهم تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ، لكنّهم في غمرة فرحتهم بهذا النصر اندفعوا إلى أرض المعركة يجمعون الغنائم، ففطن لهم خالد بن الوليد وكان على خيل المشركين في مائة فارس، فاستدار بخيله من ورائهم، وكان عبد الله بن جبير أمير الرماة لم يبرح مكانه حتى استشهد رضي الله عنه، وأخذت فرسان المشركين تصيب المسلمين، وأخذ كثيرٌ من المسلمين يُصْعِدُون ولا يَلْوُون على أحد، ورسول الله ﷺ ثابت يناديهم في أخراهم: «إليّ عبادَ الله، إليّ عبادَ الله»، ولم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلاً، وقد صرخ إبليس بالمشركين المنهزمين: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم، والتحموا في المعركة مع المسلمين، وأصاب المسلمين غمٌّ شديد، حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وهم لا يشعرون، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: هُزِمَ المشركون يوم أحد هزيمة بيّنة، تعرف فيهم، فصرخ إبليس: أي عباد الله أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فنظر حذيفة ابن اليمان فإذا هو بأبيه، فقال: أبي، أبي، قالت: فوالله ما انْحَجَزُوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم، قال عروة: فوالله ما زالت في حذيفة منها بقيّة خير حتى لقي الله. زاد في رواية: وقد كان انهزم منهم قوم حتى

لحقوا بالطائف اهـ، وفي تأكيد رسول الله ﷺ على الرماة أن لا يبرحوا مكانهم بعدة تأكيدات إشارةٌ إلى إيقان رسول الله ﷺ بخطورة هذا المنزل الذي بوّأه الرماة، وفيه معجزة من المعجزات حيث كانت بَلْوَى المسلمين من هذا المكان، وأن رسول الله ﷺ لا يقدر على رد المقدور، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: فينا نزلت: ﴿إذ هَمَّتْ طائفتان منكم أن تفشَلا﴾ الآية: قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما يسرّني أنها لم تنزل لقوله تعالى: ﴿والله وليّهما﴾. وفي قوله عز وجل: ﴿غَدَوْتَ من أهلك﴾ إشارة إلى قرب أرض المعركة من المدينة التي بها أهل رسول الله ﷺ، وأنه لم يحتج في الوصول إلى أرض المعركة إلى مشقة سفر طويل كالذي احتاجوه يوم بدر ومع ذلك نصرهم الله في بدر، لأنهم صبروا واتّقوا، بخلاف يوم أحد حيث خالف أكثر الرماة أمر رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون من قِبَلِهِم، ولقد عفا الله عنهم. وقوله عز وجل: ﴿أن تفشلا﴾ أي أن تَجْبُنَا عن القتال وترجعا إلى المدينة مع عدو الله عبد الله بن أُبيّ حين رجع من الطريق، وقوله عز وجل: ﴿والله وليّهما﴾ أي والله عز وجل مثبّتهما ودافعٌ عنهما كيد الشيطان فلم ينصرفا، وقاتلا أعداء الله مع رسول الله ﷺ وفاز بعضهم بالشهادة، وقوله عز وجل: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي ويجب على المؤمنين أن تكون ثقتهم بالله وحده واعتمادهم عليه دون غيره، فإنّ النصر بيده وحده لا إله لا غيره ولا معبود بحق سواه، وقوله عز وجل: ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ بيانٌ لتأكيد وجوب الاعتماد عليه وحده، وأن النصر إنما ينال بطاعته عز وجل وبطاعة رسوله محمد ﷺ، ومعنى: ﴿أذلّة﴾ أي قليلون في عَدَدهم وعُددهم وليس المراد من ﴿أذلة﴾ في هذا المقام ضد الأعزة، لأن المسلمين أعزة دائماً كما قال عز وجل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ بل المراد

هنا قلة السلاح والمال والعَدَد حيث كانوا ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا﴾، ومعنى قوله: ﴿فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ أي فاجعلوا كل همكم تقوى الله عز وجل لكي تفوزوا بتأييده ونصره ويزيدكم من فضله، وتشكروا نعمه. وبدرٌ موضعٌ بين مكة والمدينة وبينه وبين المدينة حوالى خمسين ومائة «كيلومتر» وقد صارت الآن قرية كبيرة وكانت في الأصل من مياه غِفَار، وكان بها سوقٌ في الجاهلية. وقوله عز وجل: ﴿إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلين * بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مُسَوِّمين﴾ بيان للنصر وذكر لشرطه، فـ (إذ) في قوله عز وجل: ﴿إذ تقول للمؤمنين﴾ ظرف لقوله: ﴿نصركم الله ببدر﴾ وقوله: ﴿إن تصبروا وتتقوا﴾ بيانٌ لشرط النصر. وقد أكد الله عز وجل أن الصبر والتقوى هما سبب دفع الشرور عن الإنسان وسبب جلب النصر والرفعة والتأييد له، حيث قال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ وقال هنا: ﴿إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين﴾ وقال: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإنّ ذلك من عزم الأمور﴾ وقال: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾ وقال عز وجل: ﴿إنه من يتق ويصبرْ فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ وقال في سورة النحل: ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون* إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ وقد قام رسول الله ﷺ يحرّض المؤمنين على القتال ويعدهم بنصر الله عز وجل لهم ويبشّرهم بأن الله عز وجل مُمِدّهم بالملائكة، حيث وعده الله عز وجل في البشارة الأولى أنه ممدّه بألف من الملائكة مُرْدِفين أي يتبعهم غيرهم، ولما اشتدت استغاثة رسول الله ﷺ بربه بشره بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون من

السماء، ثم زاد في طمأنينته بالنصر بأن المشركين لو سارعوا للقائكم الآن والهجوم عليكم وصبرتم واتقيتم فإن الله يمدكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين أي معلِّمين للمؤمنين كيفية القضاء على أعدائهم ومثبتين لهم، كما قال عز وجل: ﴿إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بَنَان﴾. وقوله عز وجل: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطميناً لقلوبكم وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لأهلك أعداءكم بدون قتال منكم أو إمداد من الملائكة، لأنه ذو العزة التي لا تُرام، والحكمة التامة البالغة في أمره وقدره، وقوله عز وجل: ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يَكْبِتَهم فينقلبوا خائبين﴾ اللام في قوله عز وجل: ﴿ليقطع﴾ متعلقة بقوله عز وجل: ﴿نصركم الله ببدر﴾ أي نصركم ببدر ليُهلك أئمة الكفر من قريش كأبي جهلٍ وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، فهؤلاء طرف من الذين كفروا قطعهم الله وأهلكهم يوم بدر، وقوله: ﴿أو يَكْبِتَهم﴾ أي يُلحق بهم الذل والإخزاء واللعن والهزيمة والغيظ، وقوله: ﴿فينقلبوا خائبين﴾ أي فيرجع هذا الطرف الكافر إلى أهله خائباً محروماً لم يتحقق له أملٌ، وترجعون أيها المسلمون بالعز والنصر والتأييد وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

قـال تعالى : ﴿ليس لك من الأمـرِ شيءٌ أو يتوبَ عليهمْ أو يعـذّبهم فإنّهم ظـالمون* ولله ما في السّمـٰوات ومـا في الأرض ، يغفـر لمن يشاءُ ويعـذّب من يشاء ، والله غفورٌ رحيمٌ* يا أيّهَا الّذين آمنوا لا تأكلـوا الرّبا أضعافا مضاعفةً واتّقوا الله لعلّكم تفلحـون* واتّقوا النّار الّتي أعدّت للكافـرين* وأطيعوا الله والرّسول لعلّكم ترحمون﴾

بعد أن ضرب الله عـز وجل مثلين : أحدهما ما أصاب المسلمين يـوم أحد مع حرص رسـول الله ﷺ على نصحهم ، وإنزالهم مقاعد للقتـال ، وتشديده على الرماة بأن لا يبرحـوا مكانهم مهما كان ومخالفة أكثر الرمـاة لأمر رسول الله ﷺ وقـد كانـت هذه المخـالفـة لأمر رسـول الله ﷺ هي السّبب المبـاشر فيما أصاب المسلمين من قرح ، وثاني المثلين ما حصل للمسلمين في بدر من نصر الله وتأييده لاعتمادهم على الله وصبرهـم وتقواهـم ، وَاسَى الله عز وجل حبيبه ورسوله محمـدًا ﷺ بأنّ الأمر كلّه لله الحكيم العليم ، فقال عز وجل لـرسوله محمـد ﷺ : ﴿ليس لـك من الأمـر شيء أو يتـوب عليهـم أو يعـذّبهم فإنّهم ظـالمون﴾ أي ليست أمــور الكـون بيـدك ، وإذا كـانت ليسـت بيـد حبيبـه ومصطفـاه محمد ﷺ فإنها من بـاب أولى ليست بيـدغيره من خلق الله ، وإنما هي بيـد الله وحده ، يفعل مـا يشاء ، ويحكم مـا يريـد ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمـه ، وإن تعجب فعجب لأولّئك الذيـن قد ينتسبـون للإسـلام والتّـديّن ثم يعتقـدون أن بعض مشايخهـم ينفعون ويضرون ، ويتصرّفـون في الكون وهم يقـرءون قول الله عز وجل لسيد الأوليـاء والأنبياء والمرسلين محمد ﷺ : ﴿ليس لك من الأمـر شيء﴾ و(أَوْ) في قــولـه عـز وجل : ﴿أو يتـوبَ عليهم﴾ هي عـاطفـةٌ لقـولـه عز وجـل : ﴿يتوبَ﴾ على قـولـه عـز وجل :

﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم﴾ كأنه قيل: ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم، وقوله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ جملة اعتراضية لتصبير رسول الله ﷺ وتثبيته للاستسلام لقضاء الله وقدره، ولتنبيه المؤمنين إلى ذلك، ولتقرير توحيد الله عز وجل وأن مردّ الأمور إليه وحده، لتكون نبراسا يهتدي به المسلمون حتى لا يعتقدوا في رسول الله ﷺ ما اعتقدته النصارى في المسيح حيث جعلوه إلٰها من دون الله.

وقوله عز وجل: ﴿فإنهم ظالمون﴾ أي مستحقون لما ينزل بهم من عقوبة الله، فإن تاب الله عليهم فمن فضله، وإن عذبهم فبعدله، لمخالفتهم أمر ربهم وأمر رسوله ﷺ، وقد قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ حدثنا حِبّان بن موسى أخبرنا عبد الله أخبرنا مَعْمَر عن الزهري قال: حدثني سالم عن أبيه أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: «اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا» بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى قوله: ﴿فإنهم ظالمون﴾. رواه إسحاق بن راشد عن الزهري، حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع فربّما قال: إذا قال: «سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد، اللهم انْجِ الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعيّاش بن أبي ربيعة، اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر، واجعلها سِنِين كَسِنِي يوسف» يجهر بذلك، وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «اللهم العن فلانا وفلانا» لأحياءٍ من العرب، حتى أنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآية. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر حدثنا أبو

عقيل ـ قال أحمد: وهو عبد الله بن عقيل، صالح الحديث ثقة ـ حدثنا عمر ابن حمزة عن سالم عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم الْعن فلانًا وفلانا، اللهم الْعَنْ الحارث بن هشام، اللهم الْعَنْ سهيل بن عمرو، اللهم الْعَنْ صفوان بن أمية» فنزلت هذه الآية: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ فَتِيبَ عليهم كلّهم. وقال أحمد: حدثنا أبو معاوية العلائي حدثنا خالد بن الحارث حدثنا محمد بن عجلان، عن نافع عن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يدعو على أربعة، قال: فأنزل الله: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إلى آخر الآية. قال: وهداهم الله للإسلام اهـ وروى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كُسِرت رَباعِيَتُه يوم أحد، وشُجّ في رأسه فجعل يَسْلُتُ الدّم عنه ويقول: كيف يفلح قومٌ شجّوا نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله» فأنزل الله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾. وقوله عز وجل: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض، يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء﴾ هو تأكيد لما أفاده قول الله عز وجل: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ كأنه قيل: إنّ الأمر كلّه في السموات وفي الأرض لمالك السموات والأرض ومَلِكِهما يتصرف وحده في ملكه بما تقتضيه حكمته ولا يُسأل عما يفعل وهو أرحم الراحمين وربّ العالمين. وقال أبو السعود العماديّ في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ الآيتين: والمعنى أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل، نصركم عليهم ليهلكهم، أو يكبتهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصرّوا، وليس لك من أمرهم شيء، إنما أنت عبد مأمور بإنذارهم وجهادهم، والمراد بتعذيبهم التعذيب الشديد الأخرويّ المخصوص بأشدّ الكفرة كفرًا، وإلا فمطلق التعذيب الأخروي متحققٌ في الفريقين الأوّلين أيضا. ثم قال: ونقل

عن الفـرّاء وابن الأنبـاريّ أنّ (أو) بمعنـى (إلاّ أن)، والمعنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح به، أو يعذّبهم فتتشفى منهم، وأيا ما كـان فهو كـلام مستأنف سيق لبيان بعض الأمور المتعلقـة بغزوة أحـد إثر بيان بعض ما يتعلق بغزوة بدر لما بينهما مـن التناسب الظاهر، لأن كلاّ منهما مبنيّ على اختصاص الأمر كلّـه بالله تعالى، ومُنْبِئ عن سلبه عمـن سواه اهـ

وقولـه عز وجل: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا لا تأكلوا الـربا أضعـافا مضـاعفةً﴾ مناسبة النهي عن أكل الـربا في هذا المقام المسوق في شأن غزوة أحـد للإرشاد إلى أن أساس كل فوز ونجاح ونصر وسعادة هو تقوى الله عز وجل، وحبسُ النفس عن المحرمـات، وأن أكل الحلال والاقتصار على الطيبـات من الرزق هو مِلاك قبول الطاعات واستجابة الدعاء والنصر على الأعداء لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبـا، فمن أكل الحرام ـ وأخبثـه الربـا ـ كـان حريًّـا بسخط الله وحرمـانه من عـون الله وتأييـده، كما أرشد إلى ذلك رسـول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبـا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقـال: ﴿يا أيها الـرسل كلـوا من الطيبـات واعملوا صـالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾» ثم ذكر الرجـل يطيل السفر أشعث أغبر، ومطعمه حرام وملبسـه حرام، وغذي بالحرام، يمـدّ يديه إلى السماء: يا ربّ، يـا ربّ، فأنى يستجاب لـذلك وقد أكـد الله عز وجل لفـت انتباه المؤمنين إلى أثـر الأمـوال في التقرب إلى الله عـز وجل واستجلاب رضوانه والفـوز بجنات النعيم حيث صدّر صفات المتقين بعد ثلاث آيـات من نهيه عن الربا هنـا بقوله عز وجل: ﴿الـذين ينفقون في السراء والضراء﴾ وليس قوله عز وجل: ﴿أضعافا مضاعفة﴾ شرطا في تحريم الربا، فإنّ الربا محرّم، بل هو من أكبر الكبائر حتى ولو لم يصل إلى الضّعف

فضـلا عن الأضعاف المضـاعفة، لأن المقصـود من إيراد هـذا الوصف هـو التشنيع على ما كان أهل الجاهلية يفعلـونه وتوبيخهم على جشعهم وظلمهم وامتصاص أغنيائهم دماء فقرائهم حيث كان الرجل يُرْبي إلى أجل، فإذا حلّ هـذا الأجل قـال للمَـدِيـن: زدني في المال حتى أزيـدك في الأجل، فيفعل، ويتكـرر هـذا مـرات كثيرة حتى يصير الربـا أضعـاف أضعـاف رأس المال، والقاعدة عند الأصوليين أن القيد إذا كان لبيان الواقع فإنه لا مفهوم له، وقد مثل له الأصوليون بهذه الآية الكريمـة. وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ تأكيـد على أن تقوى الله عز وجل هي سبب فـلاح المتقين وفوزهم ونصرهم وتأييدهم على أعدائهم، وقوله عز وجل: ﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾ أي احفظوا أنفسكم من الأسباب التي تولجكم في نار جهنم التي رُصِدَت وهُيّئت لمن كفر بالله، وفي هذا تحذير شديد من أكل الربا، وأنه قد يكون سببا في نزع الإيمان من قلوب أَكَلَة الـربا وموتهم على الكفر عياذًا بالله، وفي هذا دليل أيضا على أن النـار أعدت في الأصل للكفار ولا يمنع ذلك أن يعذَّب بها بعض العصاة من المؤمنين لكنهم لا يُخَلَّـدون فيها بل يخرجون منها إمـا بشفـاعـة رسـول الله ﷺ أو بشفـاعـة بقيـة النبيين والمرسلين والملائكـة والمؤمنين، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هـريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قـال في حديث طـويل: «حتى إذا فـرغ الله من القضاء بين العبـاد، وأراد أن يُخْرِج برحمته مَن أراد مِن أهل النار، أمـر الملائكة أن يُخْرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممـن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفـونهم في النار بأثر السجـود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجـود، حرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امْتُحِشوا، فيُصَبّ عليهم ماء الحيـاة فَينْبُتُون تحته كما تَنْبُت الحِبّـة في حَمِيل السّيل» الحديث ـ وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن نـاسا سألوا رسول الله ﷺ: هل

نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «نعم» وساق الحديث إلى أن قال: «فيقول الله عز وجل: شَفَعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيُخْرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حُمَماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحِبّة في حَمِيل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أُصَيْفر وأُخَيْضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض» فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه» الحديث. وقوله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾ هو حضٌّ وترغيب للعض على النواجذ بأسباب النجاة من النار، والفوز برحمة الرحيم الغفار، بملازمة طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أعدّت للمتّقين* الّذين ينفقون في السّراء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس، والله يحبّ المحسنين* والّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون* أولٓئك جزاؤهم مغفرة من ربّهم وجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين﴾

بعد أن رهّب الله عز وجل المؤمنين من تعاطي الربا وخوّفهم من أسباب سخط الله، وحذّرهم من النار التي أعدّها لأعدائه الكفرة الفجرة، وحضّهم على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ التي تجلب لهم الفلاح والفوز والنصر على الأعداء، رغّبهم في المبادرة إلى الأعمال التي تجلب مغفرة الله ورحمته، وتسكنهم فسيح جنّته، فقال عز وجل: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أُعِدّت للمتقين﴾ وتقديم الترهيب على الترغيب، لأن الترهيب تخلية، والترغيب تحليةٌ، والتخلية مقدّمة على التحلية، كما هو مقتضى الفطرة والطبع، والعقل والشرع، ومعنى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السمٰوات والأرض أعدت للمتقين﴾ أي سابقوا وبادروا إلى الفوز بمغفرة الله وجنّة النعيم الفسيحة الواسعة، كما قال عز وجل: ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أُعِدّت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ والعَرْض يطلق على معنى السَّعة وعلى ما يقابل الطّول، وهو أقصر الامتدادين، ومن استعمال العَرض بمعنى السّعة قوله عز وجل: ﴿وإن أصابه الشرّ فذو دعاء عريض﴾ على أنه لو كان المقصود من قوله عز وجل: ﴿عرضها السمٰوات

والأرض﴾ هو ما يقابل الطول فإن المراد السعة أيضا لأنه إذا كان عرضها كالسموات والأرض فما بالك بطولها؟ ومعنى : ﴿عرضها السمٰوات والأرض﴾ أي لو جعلت السموات والأرض طبقا طبقا بحيث يكون كلّ واحدة من تلك الطبقات سطحًا مؤلّفًا من أجزاء لا تتجزأ ثم وُصِل البعض بالبعض حتى صار الكلّ طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السّعة لا يعلمها إلا الله، وفيه إشارة إلى سعة مُلْك الله وأنه ليس مقتصرا على السموات والأرض، وإذا علم أن الجنة فوق السموات السبع وأن سقفها عرش الرحمن، وأن كرسي الله عز وجل وسع السموات الأرض لم يكن هناك محلّ للتساؤل بأنه إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ لأن هذا التساؤل إنما يكون ممن يظن أنّ ملك الله هو السموات والأرض فقط، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقّا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشّر الناس؟ قال: «إنّ في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدّرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة» أُراه: فوقه عرش الرحمن، «ومنه تفجّر أنهار الجنة» قال محمد بن فُلَيْح عن أبيه: وفوقه عرش الرحمن. كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ﷺ ربّه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي ربّ كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أَخَذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيتُ ربّ، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله

فيقول في الخامسة: رضيتُ ربّ، فيقول: هـذا لك وعشرة أمثالـه، ولك ما اشتهت نفسك ولـذّت عينك، فيقـول: رضيتُ ربّ، قـال: ربّ فأعـلاهم منزلة؟ قـال: أولَئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهـم بيدي، وختمتُ عليها فلم تـر عينٌ ولم تسمع أذن، ولم يخطـر على قلب بشر». وفي روايـة للبخـاري ومسلم من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: «إني لأعلم آخـر أهل النـار خروجـا منهـا، أو آخر أهـل الجنة دخـولا الجنّـة، رجل يخرج من النار حبـوًا، فيقول الله عـز وجل له: اذهب فـادخل الجنـة، فيأتيهـا، فيُخَيَّل إليـه أنها مَـلأَى، فيرجع فيقـول: يـا ربّ وجَـدْتُها مَلأَى، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيّل إليه أنها مَلأَى، فيرجع فيقول: يا ربّ وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل له: اذهب فادخل الجنـةفإن لك مثل الـدنيا وعشرة أمثالها، أو إنّ لك مثـل عشرة أمثال الدنيـا، فيقول: أتسخـر بي أو تضحك بي وأنت الملك؟» قال: فلقـد رأيت رسول الله ﷺ ضحـك حتى بدت نواجـذه، فكان يقـول: «ذلك أدنى أهل الجنة منزلة» كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنّ للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مجوّفة طولها في السماء ستّـون ميلاً، للمؤمن فيها أهلـون يطوف عليهم المؤمن، ولا يـرى بعضهم بعضـا». كما روى البخـاري ومسلم من حـديث أبي سعيـد الخدريّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: «إنّ في الجنة شجـرةً يسير الرّاكب الجَوَاد المُضَمَّـر السّريع مائة سنـة ما يقطعهـا». وقولـه عز وجل: ﴿أُعِـدّت للمتقين﴾ أي هُيئت وزُينت للذين يخافـون الله ويقفون عند حدوده، وقـوله عز وجل: ﴿الذين ينفقون في السّراء والضرّاء﴾ أي الـذين يبذلون أموالهم في مرضـات الله والإحسان إلى خلقـه من الأقـارب والأباعـد في الشدة والـرخاء والمنشط والمكـره والصحـة والمرض وعمـوم الأحـوال ولا سيما في سبيل نشر

الإسلام و إعـلاء كلمة الله، وقولـه عز وجل : ﴿والكـاظمين الغيظ والعافين عن الناس﴾ اعلم أن الغيظ هو ما يعتري النفس من شدة الغضب وسَوْرته، فإن كان سببه الحقد والحسد فهـو كالنار التي تتأجج في الصدر لا يطفئها إلا زوال النعمة عن المحسـود، وهذا هو الذي وصف الله بـه أعداء المسلمين في قوله عز وجل : ﴿و إذا لقوكم قالـوا آمنا و إذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتـوا بغيظكم، إنّ الله عليم بذات الصدور﴾ وقـد يكون سبب الغيظ أذى يلحقك من شخص دون أذى لحقه منك فتغضب لـذلك، وهذا هو الذي حضّ الله عز وجل على كظمـه هنا، وهو من أبرز صفات المتقين، وكظم الغيظ هو حبسُ النفس عن متابعة هواها في الغضب، وأصل الكظم مَخْرَج النَّفَس ويطلق على الإمسـاك والحبس ومنــه : كظم البعيرُ كظـومـا إذا أمسك على ما في جـوفه ولم يَجْتَرّ، والمكظوم : المكروب والممتلئ غيظـًا وأسفًا، وكظم الغيظ يجمع بين صفتي الصبر والحلم، وقـوله عـز وجل : ﴿والعافين عن الناس﴾ أي والتـاركين عقوبة من أسـاء إليهم وهم قادرون على مجازاتهم واستيفاء حقوقهم، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الكاظمين الغيظ والعافين عن النـاس في مواضع مـن كتابـه الكريـم وجعل الإحسان إلى من أسـاء إلى الإنسـان من أعظم ما يـزدلف به العبـد إلى الله عز وجل حيث يقـول : ﴿ولا تستوي الحسنـة ولا السيئة، ادفع بـالتي هي أحسن، فإذا الذي بينـك وبينه عداوةٌ كأنـه وليّ حميمٌ * وما يُلقّـاها إلا الـذين صبروا وما يُلقّـاها إلا ذو حظ عظيم﴾ وقـال عـز وجل في سـورة الشـورى في وصف المؤمنين : ﴿و إذا مـا غضبوا هم يغفرون﴾ وقال عز وجل في نفس المقام : ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها فمن عفـا وأصلح فأجـره على الله﴾ وقـال عـز وجل في نفس المقـام أيضـا : ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذٰلك لمن عـزم الأمور﴾ وقـال تعالى : ﴿خذ العفـو وأْمُرْ بالعُـرْف وأعرض عن الجاهلين﴾ وقـال تعالى : ﴿فـاصفح الصّفح الجميل﴾

وقال عز وجل : ﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ ولقد كان رسول الله ﷺ المثل الأعلى في هذا الباب ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يومٌ كان أشدّ من يوم أحدٍ؟ قال : «لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشدّ ما لقيته منهم يومُ العقبة ، إذ عرضتُ نفسي على ابن عبد يالِيل بن عبد كِلاَل ، فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ﷺ فناداني فقال : إنّ الله تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني مَلَك الجبال فسلّم عليّ ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا مَلَكُ الجبال وقد بعثني ربي إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشَبَيْن ، فقال النبي ﷺ : «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا» . وروى ابن ماجه بسند رجالُه محتجٌّ بهم في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من جُرْعةٍ أعظم عند الله من جرعة غيظٍ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله» . كما روى أبو داود والترمذي وحسّنه وابن ماجه من حديث معاذ ابن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظا وهو قادرٌ على أن يُنْفِذَه دعاه الله سبحانه على رءوس الخلائق حتى يخيّره من الحور العين ما شاء» . وقوله عز وجل : ﴿والله يحب المحسنين﴾ تذييلٌ مقرّرٌ لمضمون ما قبله ، وتقرير أن الإنفاق في السراء والضراء ، وكظم الغيظ والعفو عن المسيء من الناس من الإحسان الذي يحبه الله عز وجل ويثيب أهله أحسن الثواب .
وقوله عز وجل : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم

يعلمون﴾ أي والـذين إذا ارتكبوا جريمة من كبـائر السيئات وأقبحها كالـزنا ونحوه أو ضيّعوا على أنفسهم بعض أسباب سعادتها بترك بعض القربات أو فعل بعض السيئات التي لم تبلغ حدّ الفاحشة من المعاصي تذكروا عظمة الله ومقامهم بين يـديه يوم القيـامة فطلبوا من الله عـز وجل مغفرة ذنوبهم وتـابوا إليه، ولا يغفـر الذنوب أحد إلا الله عـز وجل، ولم يقيموا على معصيتهم بل أقلعوا عنها ونـدموا على فعلها وعزموا ألاّ يعـودوا إليها، وهم يعلمون أن من تاب تاب الله عليه وأنه لا توبة مع إصرار ولا ذنب مع استغفار، وهذا كقوله عـز وجل: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسـه ثم يستغفر الله يجد الله غفـورًا رحيمًا﴾ وهذا من فضل الله على المؤمنين أن قَـرَنَ التائب من الـذنب مهما كان بالمنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعـافين عن الناس المحسنين الذين يحبهم الله عز وجل. وقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قـال رسـول الله ﷺ: «إن عبـدًا أذنب ذنبا فقـال: رب أذنبت فاغفـره، فقال ربّه: أعَلِمَ عبدي أن لـه ربّا يغفر الذنب ويأخـذ به، غفرتُ لعبـدي، ثم مكث ما شـاء الله ثم أذنب ذنبا فقـال: رب أذنبت ذنبا فاغفره، فقـال ربه: أَعَلِمَ عبدي أن له ربـا يغفر الذنب ويأخـذ به، غفرتُ لعبـدي، ثم مكث ما شـاء الله ثم أذنب ذنبـا، قـال: رب أذنبتُ ذنبا آخـر فـاغفر لي، فقـال: أعلم عبـدي أن له ربـا يغفر الـذنب ويأخـذ به غفـرت لعبدي فليفعل ما شاء» اهـ وكما قـال عز وجل: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتـوبون من قريب فأولَئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما﴾ وقوله عز وجل: ﴿أولَئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعـم أجر العاملين﴾ وعد من الله عز وجل لهؤلاء السعداء، جعلنا الله بفضله منهم.

قال تعالى: ﴿قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذّبين* هٰذا بيانٌ للناس وهدى وموعظةٌ للمتّقين* ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلونَ إن كنتمْ مؤمنينَ* إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرحٌ مثلهُ، وتلك الأيام نداولها بين النّاس وليعلم الله الّذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداءَ، والله لا يحبّ الظّالمين* وليمحّص الله الّذين آمنوا ويمحق الكافرينَ.﴾.

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أنّ ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب ترك بعض الرماة مقاعدهم التي بوأهم رسول الله ﷺ إياها للقتال، وأن المسلمين انتصروا يوم بدر لأنهم صبروا واتقوا والتزموا بوصايا رسول الله ﷺ ثم أرشد الله عز وجل المسلمين إلى أسباب جلب الانتصار على الأعداء بالمحافظة على الطاعة والابتعاد عن المعصية واجتناب الربا وسائر المحرمات والمسارعة إلى جنة عرضها السموات والأرض بالإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين ومسارعة من يقع في معصية إلى الاستغفار والإنابة والتوبة النصوح، شرع من هنا في إكمال بقية قصة غزوة أحد وذكر أهمّ أحداثها وما فيها من العبر والعظات والآيات الشاهدات بأن محمدا هو رسول الله حقا وصدقا ﷺ، قال البخاري في صحيحه: باب غزوة أحد، وقول الله تعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميعٌ عليمٌ﴾ وقوله جل ذكره: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين* إن يمسسكم قرحٌ فقد مسّ القوم قرح مثلهُ، وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء، والله لا يحبّ الظالمين* وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين* ولقد

كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ وقوله: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾ وقوله: ﴿ولا تحسبنّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتا﴾ الآية. حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عبدا لوهاب حدثنا خالدٌ عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب» اهـ وقوله عز وجل: ﴿قد خلت من قبلكم سننٌ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ هذه تعزية ومواساة من الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم، أي قد مضت مني وقائع نقمة في المكذبين لرسلي المشركين بي كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، قد أمليت لهم ثم أخذتهم فكيف كانت عقوبتي لهم، فلا تظنوا أن نقمتي انقطعت عن عدوي وعدوكم للدولة التي أَدَلْتُهُم بها عليكم لأبتليكم بذلك، فامشوا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ممن كان على مثل ما عليه كفار قريش، فانظروا كيف أحلّ الله عقوبته بالمكذبين وجعل العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للمؤمنين، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم﴾ الآية، قول هِرَقْل لأبي سفيان في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دُوَلا وسِجَالاً، يُدالُ علينا المرّة ونُدال عليه الأخرى. وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنّ هرقل قال لأبي سفيان: وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمتَ أن قد فعل وأنّ حربكم وحربه تكون دولاً، ويدال عليكم المرّة وتدالون عليه الأخرى وكذلك الرّسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة. وقوله عز

وجل: ﴿هٰذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتّقين﴾ أي هذا الذي أوضحت لكم وعرّفتكموه تفسير للناس وإيضاح للأمم لتعريفهم بالابتلاء بالنصر والهزيمة ومردّ ذلك، وهذا التفسير نورٌ وأدبٌ لمن أطاع الله وأطاع رسوله محمدا ﷺ، وقوله عز وجل: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾ أي ولا تضعفوا ولا تبأسوا على ما أصابكم بأحد من القرح، وقوله تعالى: ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم الظاهرون عليهم المرفوعون فوقهم في الدنيا والآخرة، فالعاقبة الحسنة لكم، وكما قال عز وجل: ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْم وأنتم الأَعْلَوْن والله معكم ولن يَتِرَكم أعمالكم﴾ وقال البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه: وكان ابن عباس رضي الله عنهما مع أمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه. وقال: الإسلام يعلو ولا يُعلى. وقوله تعالى: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم صدقتم رسولي ﷺ فيما جاءكم به من عندي فلا تهنوا ولا تحزنوا. والمقصود تهييج المسلمين وحضّهم على سرعة الامتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والصبر على ما أصابهم من القرح، وقوله عز وجل: ﴿إن يمسسكم قَرْح فقد مسّ القومَ قَرْحٌ مثله﴾ أي إن يكن قد أصابكم في أحد قتل وجراحٌ فقد أصاب عدوّكم في بدرٍ وفي أحد قتل وجراحٌ مثلُ ما أصابكم، حيث كان شهداء بدر أربعة عشر شهيدا، وكان شهداء أحد سبعين شهيدا، وكان قتلى المشركين يوم بدر سبعين قتيلا وكان قتلاهم في أحد نيفا وعشرين قتيلا، وكان من بين قتلاهم يوم أحد صاحب لوائهم، كما أصيبوا بجراحات كثيرة في أحد، وعقر عامّة خيلهم بالنّبل، وقد أُسِرَ من المشركين سبعون يوم بدر ولذلك قال عز وجل: ﴿أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مِثْلَيْها قلتم أنّى هٰذا قل هو من عند أنفسكم﴾، وقوله عز وجل: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ أي نصرّفها بين الناس للبلاء والتمحيص، وقوله عز وجل: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾

وليمحّص الله الـذين آمنـوا ويمحق الكافـرين﴾ الـواو في قـوله عـز وجل: ﴿وليعلم الله﴾ للـدلالـة على محذوف كأنــه قيل: نـداولها بين النـاس لحكم جليلة لا تكاد تحصى وليعلم الله الـذين آمنوا منكم الخ. وأصل المداولة نقل الشيء من واحد إلى واحد آخر، وقولـه عز وجل: ﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ هو شبيـه بقوله عـز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنـة ولمّايعلم الله الذين جـاهدوا منكم ويعلم الصـابـرين﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمـدًا﴾ وقولـه: ﴿إلا لنعلم من يتّبع الرسـول ممّن ينقلب على عقبيـه﴾ وقــولـه عـز وجل: ﴿ولنبلــونّكم حتى نعلم المجـاهــدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ أي وليعلم الله في عالم الوجود والشهادة ما علمه في عالم الغيب قبل الـوجود والظهور، ومن الثابت المسلّم المقطـوع به أن علم الله متعلّق أزلاً بكل شيء، فمعنى: ﴿وليعلم الله الــذين آمنـوا﴾ أي وليُرى المؤمنُ من المنـافق، كما قال عـز وجل: ﴿وما أصـابكم يوم التقى الجمعـان فبإذن الله وليعلم المؤمنين* وليعلم الــذين نـافقـوا﴾، وقـولــه عـز وجل: ﴿ويتّخذ منكم شهداء﴾ أي وليكرم من أكـرم من المؤمنين بالشهادة في سبيل الله، وقـولــه: ﴿والله لا يحب الظـالمين﴾ أي والله يبغض المنـافقين الـذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، وفيه تنبيه إلى حبه عز وجل عبادَه المؤمنين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وليمحّص الله الـذين آمنوا﴾ أي وليختبر الذين آمنوا حتى يُخلّصهم بالبلاء الذي نزل بهم ويُعلي منازلهم في جنات النعيم، وقوله: ﴿ويَمْحَق الكـافرين﴾ أي ويبطل من المنـافقين قولهم بألسنتهم مـاليس في قلـوبهم حتى يحذرهم المؤمنــون، ويستأصل كـذلك جملـةً من الكــافـرين ويهلكهم. وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرّماة، وأمّر عليهم عبد الله، وقـال: «لا تبرحوا، إن رأيتمونـا ظهرنا عليهم فـلا تبرحوا،

وإن رأيتموهم ظهروا علينـا فلا تعينونا» فلما لقينا هـربوا، حتى رأيت النساء يشتـددن في الجبل، رفعن عن سـوقهن، حتى بـدت خـلاخلهن، فأخـذوا يقولـون: الغنيمة، الغنيمة. فقـال عبد الله: عهـد النبيّ ﷺ أن لا تبرحوا، فأبَـوْا، فلما أبَـوْا صرف الله وجـوههم، فأصيب سبعـون قتيـلا، وأشرف أبـو سفيان فقال: أفي القـوم محمدٌ؟ فقال: «لا تجيبوه»، قـال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ فقـال: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابن الخطـاب؟ فقال: إنّ هؤلاء قُتلوا، فلـو كانوا أحيـاءً لأجابوا، فلم يملك عمـر نفسه، فقال: كـذبت يا عدوّ الله، أبقى الله لك ما يخزيك. قال أبـو سفيان: اعْلُ هُبَلُ. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه»، قالـوا: ما نقول؟ قال: قولـوا: «الله أعلى وأجلّ»، قال أبو سفيـان: لنا العُـزّى ولا عُـزّى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبـوه» قـالوا: مـا نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم»، قال أبوسفيان: يومٌ بيوم بدر والحرب سجالٌ، وتجدون مُثلةً، لم آمر بها ولم تسؤني. وفي رواية: قال: جعل رسول الله ﷺ على الرّجّالة يوم أحد ـــ وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرّماة ـــ عبد الله بن جبير فقال: «إن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم» فهـزمهم الله، فأنـا والله رأيت النسـاء يشتـددن، وقـد بـدت خـلاخيلهن، وأَسْوُقُهن، رافعـات ثيابهنّ، فقـال أصحاب عبـد الله بن جبير: الغنيمة أي قـوم، الغنيمـة، ظهر أصحـابكم، فما تنتظـرون؟ فقـال عبـد الله بن جبير: أنسيتم مـا قال لكم رسول الله ﷺ؟ قـالوا: والله لنأتين النـاس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجـوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قـوله تعالى: ﴿والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا، فأصابوا منا سبعين، وكان النبـي ﷺ قد أصاب من المشركين يوم بدر أربعين ومـائة: سبعين أسيرا وسبعين قتيلا، فقـال أبو سفيـان: أفي القوم محمـدٌ؟ ـ ثـلاث مـرات ـــ فنهـاهم النبي ﷺ أن يجيبـوه، ثم قـال: أفي القـوم ابن أبي

قحافة؟ ـ ثلاث مرات ـ ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ـ ثلاث مرات ـ ثم رجع إلى أصحابه فقال: أمّا هؤلاء فقد قتلوا، فما ملك عمر نفسه، فقال: كذبت والله يا عدوّ الله، إنّ الذين عددتَ لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، قال: يوم بيوم بدر، والحرب سجالٌ، إنكم ستجدون في القوم مُثْلةً، لم آمر بها ولم تسؤني. ثم أخذ يرتجز: اعْلُ هُبَل، اعْلُ هُبَلُ، فقال النبي ﷺ: «ألا تجيبوه؟» ـ وذكره إلى قوله: «ولا مولى لكم». وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد، انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مُجَوِّبٌ عليه بِحَجَفَةٍ، وكان أبو طلحة رجلا راميا، شديد النَّزْعِ، لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرّ معه الجُعْبة من النّبل، فيقول: انثرها لأبي طلحة، قال: ويُشْرف النبيّ ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي وأمي لا تُشْرفْ، لا يصيبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة وأمّ سليم وإنها لمشمرتان، أرى خَدَمَ سُوقهما ينقلان القِرَب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة، إمّا مرّتين وإما ثلاثا من النعاس.

قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين* ولقد كنتم تمنّون الموتَ من قبل أن تلقوهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون* وما محمّدٌ إلاّ رسولٌ قد خلت من قبله الرّسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين﴾

بعد أن بيّن الله عز وجل بعض أسباب مداولة الحرب بين المسلمين والكافرين من تمييز المؤمنين من المنافقين، وإكرام بعض المؤمنين بالشهادة في سبيل الله، وحبّ الله للمؤمنين وبغضه للظالمين، ولتمحيص الذين آمنوا بمغفرة ذنوبهم ورفع درجاتهم، ومحق الكافرين، شرع هنا يبيّن السبب الأصلي والغاية القصوى من مداولة الحرب بين المؤمنين والكافرين، وأن طلاّب الجنة لا يستكثرون أن يبذلوا في سبيل الوصول إليها كلّ غالٍ ونفيس من أنفسهم وأموالهم، لأنهم طلاّب السلعة الغالية وكما قال أبو فراس:

تهون علينا في المعالي نفوسُنا ومن يطلب الحسناء لم يُغْلِها المهرُ

والجنة أفضل سلعة على الإطلاق، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على الحصول عليها وبذل النفس وكل شيء من الغالي والنفيس في سبيل ذلك، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي أُفْرِدَ يوم أحدٍ في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قال: «من يردّهم عنّا وله الجنة؟» ـ أو «هو رفيقي في الجنة» ـ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضا فقال: «من يردهم عنّا وله الجنّة» ـ أو «هو رفيقي في الجنة» ـ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه: «ما أنصَفْنا أصحابَنَا» كما روى البخاري ومسلم في

صحيحيهما واللفظ للبخاري من حديث أنس بن مـالك رضي الله عنه قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتـال بدر فقال : يا رسـول الله ، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليَرَيَنَّ الله ما أصنع ــ وفي رواية : لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرينّ الله مـا أُجِدّ ــ فلما كان يـوم أحـد ، وانكشف المسلمون ، فقـال : اللهم إني أعتذر إليك ممـا صنع هؤلاء ـ يعني أصحـابه ـ وأبـرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعني المشركين ــ ثم تقدّم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقـال : يا سعد ابن معـاذ ، هـذه الجنـة وربّ النضر ، إني أجد ريحهـا من دون أحـد ، فقـال سعـد : فما استطعت على مـا صنع ، قال أنس : فـوجـدنـا به بضعـة وثمانين ضربةً بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ، وقد مثّل به المشركـون ، فما عرفـه أحد إلا أختُـه ـ وهي الـرُّبَيِّعُ بنت النضر ـ بشـامة أو ببنانه ، قال أنس : كنّـا نُرى ـ أو نظنّ ـ أنّ هذه الآية نـزلت فيه وفي أشباهه : ﴿من المؤمنين رجـال صدقـوا ما عـاهـدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبـه ومنهم من ينتظر ومـا بدّلوا تبديلا﴾ . أمـا لفظ مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : عمّي الـذي سمّيت به لم يشهـد مع رسول الله ﷺ بـدرًا ، فشقّ عليه ، وقال : أوّل مشهـد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنـه ، فإن أراني الله مشهدًا فيما بعـد مع رسول الله ﷺ ليرينّ الله مـا أصنع . قال : فهـاب أن يقول غيرهـا ، قال : فشهـد مع رسول الله ﷺ يـوم أحد ، قـال : فاستقبل سعـد بن معاذ ، فقال له أنس : يا أبا عمرو ، أين تمرّ؟ قال : واهًا لريح الجنة ، أجده دون أُحُد ، قـال : فقاتلهم حتى قتل ، قـال : فوُجِـدَ في جسده بضعٌ وثمانـون من بين ضربة ورميـة وطعنةٍ . ثم ذكر نحـو ما تقدم ، وقـد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث جـابر بـن عبد الله رضي الله عنهما قـال : قـال رجلٌ لرسول الله ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قتلتُ ، أين أنا؟ قال : «في الجنة» ، فألقى تمراتٍ في يـده ، ثم قـاتل حتـى قتل . كما روى مسلم من حـديث أنس بن

مالك رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ أخذ سيفا يوم أحـد فقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطـوا أيديهم ــ كلّ إنسان منهم يقول: أنـا أنا ــ فقال: «من يأخذه بحقّه؟» فأحجم القـوم، فقال سِماك بن خَرَشَةَ أبو دُجَانـة: أنا آخذه بحقه، قـال: فأخذه ففلق به هام المشركين. كما روى البخـاري من حديث سعد بن أبي وقاص: نَثَلَ لي النبي ﷺ كنانتـه يوم أحد فقال: «ارْمِ فداك أبي وأمي» كما روى مسلم من حديث سعـد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ جمع له أبـويه يوم أحـدٍ قال: كان رجل من المشركين قـد أحرق المسلمين فقال له النبي ﷺ: «ارْمِ فـداك أبي وأمي» قال: فنزعتُ له بسهـمٍ ليس فيه نصلٌ فأصبت جنبه، فسقط، فـانكشفت عورتـه، فضحك رسول الله ﷺ، حتى نظرت إلى نـواجذه. ومعنى قولـه في الحديث: جمع له أبويه يـوم أحد، أي قال لـه: فداك أبي وأمي، ومعنى قـوله: قـد أحرق المسلمين، أي أثخن فيهم وصـار كـالنـار التي تحرق من تصيبـه. كما روى البخـاري ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: رأيت على يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحـد رجلين عليهما ثِيابُ بَياضٍ يقاتلان عنـه كأشدّ القتال، مـا رأيتهما قبلُ ولا بعـدُ. وقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث سهل بن سعد وهو يُسأل عن جُرْح رسولِ الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعـرف من كـان يغسل جُـرْح رسـول الله ﷺ ومـن كـان يسكب الماء وبما دُووِيَ، قال: كـانت فاطمة عليهـا السلام بنت رسـول الله ﷺ تغسله وعليٌّ يسكب الماء بالمِجَنّ، فلما رأت فـاطمة أنّ الماء لا يـزيد الدّمَ إلا كثـرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها، وألصقتهـا، فاستمسك الدّم، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُه يـومئذ، وجُـرح وجهـه، وكُسرت البيضـة على رأسه. وقـال ابن إسحـاق: حـدثني يحيى بن عبّاد بـن عبد الله بن الـزبير عن أبيـه عباد عن عبـد الله بن الـزبير عن الزبير أنـه قـال: والله لقد رأيتُني أنظـر إلى خَـدَم هند بنت عتبـة

وصواحبها مُشَمِّرات هوارب، ما دون أَخْذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخَلَّوْا ظهورنا للخيل، فأُتِينَا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إنّ محمـدًا قد قتل، فانكفـأنا وانكفأ علينا القـوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنو منه أحد من القوم. وقد روى البخاري في صحيحه من طـريق جعفر بن عمـرو بن أمية الضمـري عن وحشيّ قال: إنّ حمزة قتل طُعَيْمـة بن عـديّ بـن الخِيَـار ببـدر، فقـال لي مـولاي جُبَيْر بن مطعم: إن قتلتَ حمزة بعمّي فأنـت حـرّ، قـال: فلما أن خـرج النـاس عـام عَيْنَيْن، وعَيْنَيْن جبلٌ بحيـال أحد، بينـه وبينـه وادٍ، خرجت مع النـاس إلى القتال، فلما اصطفّوا للقتال، خرج سِبَاعٌ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليـه حمزة بن عبد المطلب، فقـال: يـا سباع يـا ابن أمّ أنمار مُقَطّعة البُظُـور، أَتُحادّ الله ورسولَـه ﷺ؟ قال: ثم شـدّ عليه، فكـان كأمس الذاهـب، قال: وكَمَنْتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّتِه حتى خرجت من بين وَرِكَيْه، قال: فكان ذاك العهد به. الحديث، ومع أنّ الجولة كانت للمشركين، فقـد دفع الله تبارك وتعالى بـالرّعب في قلوبهم، فـانصرفوا عن أرض المعركة، وامْتَطَوْا إبلهم راجعين إلى مكة، ففرغ المسلمون لشهدائهم وجرحاهم رضي الله عنهم. و(أَمْ) في قوله عز وجل: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري حيث انتقل من مواساتهم على ما أصيبـوا به من القـرح وما بيّن لهم من حِكَمِه إلى بيـان الغايـة القصوى من مـداولة الحرب بين المشركين والمسلمين، وإنكـار أن يتمنى الإنسان السلعـة الغـالية دون بـذل ثمن لها، أي أظننتم أن تـدخلوا الجنـة ولم تُبْتَلُـوا بالقتـال والشدائد ويظهر المجاهدون والصابـرون إلى حيز الوجود والظهور والشهود، وهذا كقولـه عز وجل: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنـة ولما يأتكم مثل الذين

خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إنّ نصر الله قريب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿الّم * أحسب الناس أن يُتْرَكُوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتَنُون﴾ ولقد أظهر الله عز وجل المجاهدين والصابرين من أصحاب رسول الله ﷺ حتى صاروا مضرب المثل في الشجاعة والصبر، وعطف الصابرين على المجاهدين ليشمل النساء الصابرات حيث لا جهاد عليهن، ولقد صارت بعض الصحابيات في ذلك مثلا يحتذى، فقد قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسماعيل بن محمد عن سعد بن أبي وقاص قال: مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أمّ فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: كلّ مصيبة بعدك جَلَلٌ. اهـ أي كلّ مصيبة إن سلم لنا رسول الله سهلةٌ يسيرة، فالجلل من الأضداد يطلق على السهل اليسير وعلى العظيم الكبير الكثير. وقوله عز وجل: ﴿ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ هذه الآية إشارة إلى ما كان من حرص بعض أصحاب رسول الله ﷺ على الاستشهاد في سبيل الله ممن لم يكونوا قد حضروا معركة بدر وتمنوا لقاء آخر مع المشركين رجاء النصر على أعداء الله أو الموت في سبيل الله فلما صارت معركة أحد ثبت بعضهم وانهزم بعضهم فكانت هذه الآية الكريمة ثناء على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعتابا للذين انهزموا، ومعنى تمنّيهم الموت هو رغبتهم أن يموتوا شهداء في سبيل الله، وليس ذلك من باب تمنّي الموت الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يتمنّينّ أحدكم الموت من ضرٍّ أصابه». الحديث. ومعنى: ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ أي فقد شاهدتم الموت عِيَانًا عندما قُتل الثابتون من

أصحاب رسول الله ﷺ بمرأى منكم ومنظر ، وقوله عز وجل : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئًا ، وسيجزي الله الشاكرين﴾ قد سيق لتربية نفوس المسلمين وتوطين قلوبهم على أن محمدا ﷺ لن يخلّد في الدنيا وأن البقاء لله وحده ، الذي يرسل الرسل وينزل الكتب ، فلا يليق بعاقل أن يرتد عن دين محمد إذا مات محمد ، لأن وظيفة محمد ﷺ هي تبليغ رسالة الحي القيوم الذي لا يموت . وأنّ من ارتد عن دينه إذا مات محمد ﷺ أو قتل ، فإنه لا يضر إلا نفسه ومن استمسك بالإسلام في حياة محمد أو بعد موته على حد سواء فهو شاكر لله وسيجزي الله الشاكرين أحسن الجزاء .
وسيقت هذه الآية هنا في قصة غزوة أحد لما أشيع من أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وليس قوله عز وجل : ﴿أفإن مات أو قتل﴾ شكا في علم الله بمصير محمد ﷺ إلى الموت أو القتل ، إذ المقصود الردّ على من أشاع في المعركة أن محمدا قتل ، والواقع أن الله جمع لرسوله ﷺ بين الموت على فراشه والشهادة ، حيث كان من أسباب موته ﷺ أكله من الشاة المسمومة يوم خيبر ، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : «ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر ، فهذا أَوَان وجدتُ انقطاع أَبْهَرِيّ من ذلك السم» . هذا وعندما مات رسول الله ﷺ غلب الحزن على الناس حتى كاد بعضهم يجن ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا بكر قال : أما بعد من كان منكم يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله : ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله : ﴿الشاكرين﴾ قال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبوبكر . الحديث .

قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابا مؤجّلا، ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزي الشّاكرين* وكأيّن من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحبُّ الصّابرين* وما كان قولهم إلاّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين* فآتاهم الله ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحبّ المحسنين﴾

بعد أن بين تبارك وتعالى أن محمدا ﷺ ما هو إلا رسولٌ من رسل الله الكرام عليهم السلام، الذين بعثهم الله عز وجل ليبلغوا رسالات الله، وليس عليهم إلا البلاغ، وقد مضت سنة الله في المرسلين أنهم يُبتلون وتكون لهم العاقبة الحسنة، وأنهم لا خلود لهم على الأرض، وأنه يجب على المؤمنين أن يستمسكوا بدينهم بعد موت النبي عليه السلام كاستمساكهم به في حياة النبي ﷺ لأن الله عز وجل هو المعبود وحده لا شريك له وهو الحي الذي لا يموت، بيّن عز وجل هنا أنه كتب لكل نفس أجلا مسمّى لا يتقدم ولا يتأخر حيث يقول عز وجل: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلاً﴾ أي وما كان لروح أن تفارق جسد صاحبها إلا بقضاء الله وقدره الذي جعل لكل نفس أجلا مسمّى، وأن لكل أجل كتابا، وكل نفس ذائقة الموت سواء كان بقتل أو بغير قتل إذا جاء أجلها المكتوب لها من غير تقديم أو تأخير كما قال عز وجل: ﴿كلّ نفس ذائقة الموت، وإنما تُوَفَّوْن أجوركم يوم القيامة﴾ وقال عز وجل: ﴿كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لكل أجل كتاب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿إنّ أجل الله لآتٍ، وهو السميع العليم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما يُعَمَّر من مُعَمَّر ولا يُنْقَصُ من عُمُره إلا في كتاب﴾ وكما قال عز وجل:

﴿هو الـذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمّى عنـده ثم أنتم تمترون﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿ولتبلغوا أجلا مسمّى﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون سـاعة ولا يستقدمون﴾ وفي ذلك حض على الجهـاد في سبيـل الله وأنّ الإقـدام والشجـاعـة لا يعجّل الموت ، وأن الجبن والفـرار لا يؤجل الموت ، ومعنى : ﴿كتـابا مـؤجّلا﴾ أي كتب الله عـز وجل كتابا أقّتـت فيه الآجال فلا تموت نفس إلا إذا جاء أجلهـا المؤجل لها عند الله عز وجل ولا تتأخـر عن أجلها بحال من الأحوال كما قـال عز وجل : ﴿ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلهـا﴾ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث ابن مسعـود رضي الله عنـه قـال : حـدثنـا رسـول الله ﷺ وهـو الصادق المصدوق قال : « إنّ خَلْق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين يوما ، ثم علقـة مثل ذلك ، ثم يكون مضغـةً مثل ذلك ، ثم يُبعث إليـه مَلَكٌ ، فيؤمـر بأربع : برزقه وأجله وشقيّ أو سعيدٌ ، فوالله إنّ أحدكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النـار حتى ما يكـون بينـه وبينها غير بـاعٍ أو ذراعٍ فيسبق عليه الكتـاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ، وإن الرجلَ ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكـون بينه وبينهـا غير ذراع أو ذراعين فيسبق عليه الكتـاب فيعمل بعمل أهل النار فيـدخلها » . كما روى البخاري ومسلم من حـديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال : «وكّل الله بالرَّحِم مَلَكـا ، فيقول : أي ربّ نطفةٌ ، أي ربّ علقـة ، أي ربّ مضغةٌ ، فإذا أراد الله أن يقضي خَلْقهـا قال : أي ربّ أذكـر أم أنثى ، أشقيٌّ أم سعيـد ، فما الـرزق ، فما الأجل ، فيُكْتَب كـذلك في بطن أمـه» هذا ونصـب ﴿كتابـا﴾ في قـولـه عز وجل : ﴿كتـابـا مؤجـلا﴾ على المصدر من معنى الكلام الـذي قبله فهو مفعول مطلق مـؤكد لمضمون الجملة التي قبله فعامله مضمـر تقديره : كتب الله ذلك كتابا ، نحو ﴿صُنْعَ الله﴾ و﴿وَعْـدَ الله﴾ و﴿كتابَ الله عليكم﴾ وهكـذا سائر مـا ورد في

القرآن الكريم من نحـو ذلك، وقوله عز وجل: ﴿ومن يرد ثواب الـدنيا نؤته منها ومن يـرد ثواب الآخرة نـؤته منهـا، وسنجزي الشاكـرين﴾ أي من كان عملـه للدنيـا فقط أعطيناه منهـا ماقـدّرنـا له فيهـا ولم يكن له في الآخـرة من نصيب، ومن قصد بعمله الـدار الآخرة أعطيناه ما يأملهُ وفوق مـا يأمله لأنه من الشاكرين الذين تأذّن الله عز وجل بأن يـزيدهم من فضله، ولذلك قال هنا: ﴿وسنجـزي الشاكـرين﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كـان يريـد حرث الآخرة نَزِدْ لـه في حرثه ومن كان يريد حـرث الدنيا نؤته منها ومـا له في الآخرة من نصيب﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من كان يريد العـاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاهـا مذمومًا مدحورًا* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيهـا وهو مـؤمن فأولَئك كـان سعيهم مشكـورًا﴾. وقـوله عـز وجل: ﴿وكأيِّن من نبيّ قـاتل معه رِبِّيُّون كثيرٌ فما وَهَنـوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعُفوا ومـا استكانوا، والله يحب الصابـرين﴾ هذا تأديبٌ يؤدّب الله عز وجل به المؤمنين، ويربي به النفـوس المسلمة على استقبال ما قد يصيبهم من القرح في ميدان الحرب عندما تكون الجولة لأعدائهم عليهم كما حدث في معـركة أحـدٍ، والـواقع أنّ المسلمين وعوا هـذا الـدرس تمامًا، وانصقلت بـه نفوسهم، وخالط مشاعـرهم، وصار مَلَكَة لهم حتى ضرب بهم المثل في هذا السبيل، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة «بانت سعاد» في وصف أصحاب رسول الله ﷺ:

ليسوا مَفَاريح إن نالت رماحهمو ... قومًا وليسـوا مجازيعًا إذا نِيلُـوا

وكذلك وصفهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدته التي يردّ بها على الزِّبْـرِقان بن بدر عنـدما قدم في وفـد بني تميم وألقى قصيدتـه المشهورة التي مطلعها:

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنـا ... منّا الملوكُ وفينا تنصـبُ البِيَـع

فأجابه حسّان رضي الله عنه بقصيدته التي يقول فيها في وصف أصحاب رسول الله ﷺ:

نسمو إذ الحـربُ نالتنا مخالبُها ... إذا الزعانفُ من أظفارها خشعُوا
لا يفخـرون إذا نالوا عدوّهمـو ... وإن أصيبـوا فلا خـُورٌ ولا هُلُعُ
كأنهم في الوغى والموتُ مُكتَنِـعٌ ... أُسْـدٌ بحَـلْيَةَ في أرساغها فَـدَعُ

ومعنى قوله عز وجل: ﴿وكأيّـن من نبيّ قاتل معه ربّيّون كثيرٌ﴾ أي وكثيرٌ من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله وقاتل معهم جموعٌ كثيرة من أتباعهم لتأييد دين الله ونصرة رسلـهِ، فقولـه: ﴿كأيّن﴾ هي بمعنى «كم» الخبرية التكثيريـة كما قال عز وجل: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ فـ(كم) فيها هي الخبرية التكثيرية، والربّيّون هم الجمع وقـد وصف الله عز وجل الربيين المقاتلين مع الرسول بـأنهم كثير وهو يدل على أن المراد بالربّيّين العـدد أو الجمع الموصوف بأنه كثير، وقوله عز وجل: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ يفيد أن هؤلاء الـرّبّيين الكثير المقاتلين مع رسولهم لنصر دينهم قد ابْتُلُـوا كثيراً، وصـارت الجولة لأعـدائهم عليهم مـرات، ومع ذلك ثبتـوا مع رسولهم ﷺ ولم يفرّوا، واحتسبـوا ما نالهم من القرح في سبيـل الله عند الله عز وجل وصبروا، وقد مـدحهم تبارك وتعـالى وأثنى عليهم ووصفهم بقولـه عز وجل: ﴿فما وهنوا لما أصـابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكـانوا﴾ وهذه الصفـات الثـلاث هي الـذروة في الثبات على الحق، والـرسـوخ في الإيمان، والصبر عند الشدائد، فقد نفى الله تبارك وتعـالى عنهم الوهن عند المصيبة، والضّعف، والاستكانة، وهذا هو المثل الأعلى للعزة بالإسلام والثبات عليه، ومعنى: ﴿فما وهنـوا لما أصـابهم في سبيل الله﴾ أي فما جَبُنـوا، ومـا استـولى الخوف عليهم، ومـا فترت عـزيمتهم بسبب مـا مسّهـم من القـرح، لأنهم يحتسبـون ذلك عند الله عـز وجل، وقولـه: ﴿وما ضَعُفـوا﴾ أي وما خـارت

قواهم، وقوله عز وجل: ﴿وما استكانوا﴾ أي وما تضعضعوا وما خشعوا أمام عدوّهم، وقد ذكرت قريبا ما أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما أن أبا سفيان نادى بعد المعركة يوم أحد: أفي القوم محمد؟ ــ ثلاث مرات ــ أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ــ ثلاث مرات ــ أفي القوم ابن الخطاب؟ ــ ثلاث مرات ــ ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وكيف أجابه عمر إذ قال له: كذبت والله يا عدوّ الله إن الذين عددت لأحياء كلّهم، وقد بقي لك ما يسوؤك، وهذا لا شك مظهر من مظاهر عزة الإسلام في نفوس المسلمين بعد معركة أحد مع أن الجولة كانت عليهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾ دليل على أن أبرز صفات الصابرين هي تحمّل الشدائد في سبيل الله، وحبس النفس عن الوهن والضعف والاستكانة وأن من كان بهذه المثابة أحبّه الله عز وجل، ومن فاز بمحبة الله فاز بعز الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ بعد أن أثنى الله عز وجل على هؤلاء المجاهدين في سبيل الله بنفي الوهن والضّعف والاستكانة عنهم، أتبع ذلك هنا بذكر محاسنهم القولية معطوفةً على ما تقدمها من الجمل المبيِّنة لمحاسنهم الفعلية، أي وما كان دأبهم وديدنهم إلا قولهم مع ثباتهم وصبرهم وحسن فعلهم: ﴿ربنا اغفر لنا ذنوبنا و إسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾. وهذه الدعوات الأربع تقرّر أن الإنسان السّويّ مهما بلغ من التجلّد والصبر والثبات فإنه يتحتم عليه أن يحارب الغرور من نفسه، وأن يجاهد هواه كما يجاهد عدوّه، وأن يعتقد في قرارة قلبه أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن يخاف على نفسه من حَوْبة المعاصي والتقصير في حق الله، وأن يطلب من ربه مغفرة ذنوبه و إسرافه في أمره، لأن الإنسان كلما كان بالله

أعرف كان من الله أخوف، والمؤمن دائما وأبدا يخاف على نفسه من سيئاته وأنها كالجبل يخاف أن يقع عليه، وأن يسأل الله عز وجل أن يثبّت أقدامه عند لقاء العدو، لأنّ من أخطر ما يسبّب الهزيمة هو زلزلة الأقدام بسبب زلزلة القلوب، ولذلك كان من دعاء أصحاب رسول الله ﷺ الذي كانوا يرتجزون به ومعهم رسول الله ﷺ:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأنزلَنْ سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وأن يعتقد المسلم اعتقادا جازما بأن النصر من عند الله فيضرع إلى الله عز وجل أن ينصره على القوم الكافرين. وقوله عز وجل: ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾ أي فاستجاب الله عز وجل لهم ومنحهم ثواب الدنيا من التمكين في الأرض والنصر على الأعداء والثناء الجميل، والحياة الطيبة، كما منحهم حسن ثواب الآخرة حيث يدخلهم جنات النعيم ويصيرون في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وإنما خص ثواب الآخرة بالحُسْن للتنبيه على جلالته وعظمته لأنه غير زائل ولا يشوبه تنغيص، ولم يصف ثواب الدنيا بالحُسْن لأنه نعيم زائل مع ما يشوبه من التنغيص، وفي تذييل الآية الكريمة بقوله: ﴿والله يحب المحسنين﴾ بشارة عظيمة للمنكسرين بين يدي الله عز وجل الثابتين على الحق في السراء والضراء بأن الله عز وجل يحبهم وأنهم محسنون، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

قـال تعـالى : ﴿يا أيّها الّـذين آمنـوا إن تطيعـوا الّذين كفـروا يـردّوكم على أعقابكـم فتنقلبوا خاسرين* بل الله مـولاكـم وهو خيرُ النّاصرين* سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، ومأواهم النّار وبئس مثوى الظـالمين* ولقد صـدقكم الله وعده إذ تحسّـونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمـر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكـم من يريد الدّنيـا ومنكم من يريـد الآخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقـد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين﴾ .

بعد أن حضّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على الاقتداء بأنصار الأنبياء الذين قاتلوا معهم في سبيل الله ، فإذا كانت الجولة عليهم ثبتوا على الحق ، فما وهنوا لما أصـابهم في سبيل الله ومـا ضعفوا ومـا استكـانوا ، وذكـر بعض صفـاتهم ليتأسّى بهم المؤمنـون ، حذّرهم هنـا من طـاعة الكـافرين وبخـاصة اليهـود والمنافقين الذين استغلّوا فرصة ما أصاب المسلمين من القرح وأخذوا يُرْجِفُون بين المسلمين ، وينشرون الأكاذيب ويتفوّهون بكلمات من الشّر لـزلزلة قلوب المؤمنين كقولهم في تأييـد موقف عـدو الله عبد الله بن أبيّ رأس المنـافقين : لو أطاعونا ما قتلوا ، وقولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وقولهم : لو كان محمد رسولاً مـن الله ما جُرح وما هُـزم جنوده . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفـروا يردّوكم على أعقابكـم فتنقلبوا خاسرين﴾ أي يـا معشر من آمن بالله ورسـولـه من أصحـاب محمد ﷺ وأتبـاعهم : إن تنقادوا للـذين كفروا وتتّبعوا مـا يلقونه لكم من الشبـه ، وتصدّقوا مـا يفترونه على الإسلام مما يزعمونه نصحا لكم ، يحملوكم على الردّة بعد الإيمان والكفر بالله وبآيـاته وبرسوله بعـد الإسلام لأنهم ودّوا لو تكفرون كما كفـروا فتكونون سـواءً ، ويتمنـون أن تـرجعـوا عن دينكم ، ولـو أطعتمـوهم خسرتم الـدنيـا

والآخرة، وقوله عز وجل: ﴿بل الله مولاكم وهو خير النّاصرين﴾ هو إضراب عما يُفْهَم من مضمون ما أفادته الآيـة التي قبله كأنه قيل: إنهم ليسوا أنصارًا لكم ولا أعوانـا ولا أولياء ولا ممن يحبّ الخير لكم حتى تطيعوهم، بل الله هـو وليّكم ومُعِينكم ونـاصركم على أعـدائكم فلا تطلبـوا النصرة إلا منـه فـاستنصروه دون غيره واحـذروا كل الحذر أن تستنصروا بـأعـداء الله وأعـداء المرسلين وأعدائكم فإنهم يبغونكم الغوائل، ويَرْصُدُونكم بالمكاره ويتربصون بكم الدوائر، فـاعتصموا بحبل الله لأنـه تبارك وتعالى خير النـاصرين إذ هو القادر الذي لا يعجزه شيء، العالم الـذي لا يخفى عليه شيء، الكريم الذي يجود على أوليائه بإعزازهم وتكريمهم من واسع فضله وجزيل عطائه، المالك للدنيا والآخرة. وقوله عـز وجل: ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًـا﴾ هذا وعدٌ من الله عز وجل للمؤمنين وبيان للون من ألوان نصر الله عز وجل لهم وطريـقٍ من طرق خذلان عدوّهم، وهو إلقـاء الرّعب مـن المسلمين في قلوب أعـدائهم، وقـد فعل الله ذلك في نفس غزوة أحـد كما نبهت لذلك أكثر من مـرة حيث كانت الجولة للكـافرين ومع ذلك انطلقوا على وجـوههم بعد المعركة ممتطين إبلهم متجهين إلى مكـة، وقد خصّ الله نبيـه محمـدا ﷺ من بين الأنبياء والمرسلين بخصـائص منهـا نصره بـالـرعب مسيرة شهـر، فقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أُعطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهن أحد قبلي، نُصرت بالـرّعب مسيرة شهرٍ، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيّما رجلٍ من أمتي أدركتـه الصلاة فليصلّ، وأُحِلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحـد قبلي، وأُعطيت الشفـاعة، وكـان النبيّ يبعث إلى قـومـه خاصـةً وبعثت إلى الناس عامّةً». ولفظ مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قـال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمسًـا لم يُعْطَهنّ أحـدٌ قبلي، كان

كلّ نبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وجُعلتْ لي الأرض طيّبة طهورًا ومسجدًا فأيما رجل أدركته الصلاة صلّى حيث كان، ونُصِرت بالرّعب بين يدي مسيرة شهرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعة» ومعنى قوله عز وجل: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرّعب﴾ أي سأملأ قلوب المشركين خوفًا وفزعًا وهلعًا وجزعًا من المسلمين مما يزلزل أقدام المشركين عند ملاقاة المسلمين، وقوله عز وجل: ﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا﴾ أي بسبب شركهم بالله وعبادتهم للأصنام، وانقيادهم للشيطان دون دليل أو برهان، وقوله عز وجل: ﴿ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين﴾ أي وأجمع لهم مع خزي الدنيا عذابَ الآخرة حيث يصيرون إلى جهنم خالدين فيها أبدا قد جعلها الله عز وجل مأواهم ومثواهم، والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى هو المكان الذي يأوي إليه الإنسان، والمثوى هو مكان الإقامة المنبئة عن المكث. نعوذ بالله من مأواهم ومثواهم، وقوله عز وجل: ﴿ولقد صدقكم الله وَعْدَه إذ تَحُسُّونهم بإذنه﴾ هذا تذكير للمسلمين بأنهم يُنْصَرون على أعدائهم ماداموا صابرين متقين مسارعين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، ولذلك عندما التقى المسلمون والكافرون في أحد وبدأت المعركة كانت قلوب المسلمين مطمئنةً وأقدامهم ثابتةً في أرض المعركة وكانت قلوب المشركين مملوءة رعبًا وفزعًا مع كثرة عَدَد وعُدَد المشركين وقلة عَدَد وعُدَد المسلمين حتى صار المسلمون يَحُسُّون المشركين أي يستأصلونهم قتلا بإذن الله ولا يثبت أمامهم أحدٌ من المشركين وفرّوا من أرض المعركة حتى لحق بعضهم بالطائف كما ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ ما أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب، رضي الله عنهما قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرّماة، وأمّر عليهم

عبـد الله، وقال : «لا تبرحـوا، إن رأيتمونـا ظهرنـا عليهم فلا تبرحـوا، وإن رأيتمـوهـم ظهروا علينـا فـلا تعينونـا» فلما لقينـا هـربوا، حتى رأيت النسـاء يشتـددن في الجبل، رفعن عـن سـوقهنّ حتى بـدت خـلاخلهن، فأخـذوا يقولـون: الغنيمة، الغنيمة، فقـال عبد الله: عهـد النبي ﷺ أن لا تبرحوا. الحديث. فالحَسُّ هو الاستئصال بالقتل كما قال جرير:

تحسّهم السّـيوف كمـا تسـامـى حـريقُ النار في الأَجَم الحصيد

وقال آخر:

حسسناهم بالسيف حسّا فأصبحت بقيّتـهم قـد شـرّدوا وتـبدّدوا

والحَسُّ بـالسيف شبيه بـالحشّ والحصد بـالمنجل، حيث كان أصحـاب رسـول الله ﷺ يحصدون المشركين حصـدا كما يحصد الإنسـان الزرع والنبـات بالمنجل، ومعنـى قوله تبـارك وتعالى: ﴿بإذنـه﴾ أي بعلمه وحكمـه وقضائه وتسليطـه إيـاكم عليهم، بسبب إيمانكم وصبركم وتقـواكـم وطـاعتكم لله ولرسـوله محمـد ﷺ، وقولـه عز وجل: ﴿حتى إذا فشلتم وتنـازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّـون﴾ المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصيـانهم هـو ما كـان من الـرمـاة عندمـا رأوا المسلمين حصـدوا المشركين وانتصروا عليهم وهربـوا من أرض المعركة وسقـط لواؤهم بعد قتل صـاحبه، وانكشفت أرض المعـركة من المشركين وظهـرت الغنائم، فأخـذ بعض الرمـاة يقولون: الغنيمـة، الغنيمة، فذكّرهـم أميرهم عبـد الله بن جبير رضي الله عنه وعنهم وصيـةَ رسول الله ﷺ لكنهم في غمـرة فرحـة النصر فشلوا أي تـراخَوْا وضعف صبرهم، ونـازعوا أميرهم، وعصَـوْا أمر رسول الله ﷺ حيث أمـرهم بأن لا يبرحوا مكانهم مهما حدث للمسلمين من نصر أو هزيمة إلا إذا أمرهـم رسـول الله ﷺ بالنـزول من مقاعـدهم التي بوأهم إيـاها للقتـال، فكان مـا حدث من الرماة سببا فيما أصاب المسلمين مـن القرح بعد ما أراهم ما يحبون

من نصر الله وتأييده لعباده المتقين، وقد جاء في حديث البخاري الذي سُقْتُ صدره آنفا عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهنّ حتى بدت خلاخلهنّ، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عَهِدَ النبي ﷺ أن لا تبرحوا، فأَبَوْا، فلما أَبَوْا صرف الله وجوههم. الحديث. وفي لفظ للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: جعل رسول الله ﷺ على الرجّالة يوم أحدٍ ـ وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرماة ـ عَبد الله بن جبير، فقال: «إن رأيتمونا تَخَطَّفُنا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم» فهزمهم الله، فأنا والله رأيت النساء يشتددن وقد بدت خلاخيلهن وأَسْوُقُهن، رافعات ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتينّ الناس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين. الحديث. ولا شك أن شؤم المعصية وآثارها السيئة قد تصيب من ارتكبها وينال غُبَارُها من لم يرتكبها، ولذلك نبّه الله تبارك وتعالى المسلمين في هذه القصة إلى هذه الحقيقة ليعلم من يرتكب معصية أنه قد يضرّ المجتمع الذي يعيش فيه وإن لم يشاركوه في هذه المعصية، وقوله تبارك وتعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ بيان لحال الفريقين المتنازعين من الرماة، فالذين يريدون الدنيا هم الذين تركوا مقاعدهم التي بوّأهم إياها رسول الله ﷺ، والذين يريدون الآخرة هم الذين ثبتوا في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء أميرهم الجليل عبد الله بن جبير رضي الله عنهم جميعا، وقوله عز وجل: ﴿ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين﴾ أي ثم ردّكم عن قتال المشركين بعد أن أراكم فيهم ما

تحبون من هزيمتكم إياهم وظهـوركم عليهم فصرف وجوهكم عنهم لمخالفة بعضكم أمـر رسـول الله ﷺ ليختبركم ويمتحنكم ولينبّهكم على الحرص على طاعة أوامر رسوله ﷺ الـذي لا يأمركم إلاّ بما فيه خير دينكم ودنياكم، ولقد تفضل الله عليكم فصفح عنكم ولم يدّخر لكم عقـوبة مخالفتكم هذه إلى يوم القيامـة، بل جعل مـا أصابكم في المعـركة كفـارةً لهذه المخالفـة، والله تبارك وتعـالى صـاحب جُـودٍ وإحســان وتَفَضُّل على المؤمنين، ومن جميل وجليل فضله عليهم عفـوه عن الرمـاة الذين تـركوا مقاعـدهم فلم يستأصلهم، ولم يجعل عقوبتهم بعذاب النار.

قال تعالى : ﴿إذ تُصعدون ولا تلوُون على أحد والرّسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمّا بغمّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون﴾ ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنةً نعاسا يغشى طائفةً منكم وطائفةٌ قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليةِ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل إنّ الأمر كلّه لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهُنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الّذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما فى صُدوركم وليمحّص ما فى قلوبكم ، والله عليمٌ بذات الصّدور﴾ .

لما ذكر الله تبارك وتعالى أنه صرف المسلمين عن المشركين ليبتليهم بين هنا صفة صرفهم عن المشركين فقال عز وجل : ﴿إذ تُصْعِدُون ولا تَلْوُون على أحدٍ والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ أي صرفكم عنهم حيث انطلقتم على وجوهكم مُبعِدين في الأرض ولا يلتفت أحدٌ منكم إلى ما وراءه ولا يقف أحد لأحد ، ورسول الله ﷺ ثابت في أرض المعركة يناديكم من ورائكم : إليّ عباد الله ، إليّ عباد الله ، وإنما فصل بين قوله : ﴿صرفكم عنهم ليبتليكم﴾ وبين قوله : ﴿إذ تُصْعِدون﴾ بقوله عز وجل : ﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين﴾ لتعجيل البشارة بعفو الله عز وجل عمن فرّ عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، وأن الله عظيم الفضل والجود على المؤمنين ، وفي هذا تنبيهٌ للناس إلى منزلة أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنه لا يليق بمن ينتمي إلى الإسلام ممن يجيئون بعد الصحابة أن يجعلوا أنفسهم حكّامًا على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ، ويتطاولون عليهم ، كما يفعل أهل الأهواء الذين يعادون أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ، وقد نبّه إلى ذلك رسولُ الله ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما كتب كتابا لأهل مكة ، وبعثه مع

ظعينةٍ يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يدًا، فأطلع الله عز وجل نبيه ﷺ على ذلك فأرسل عليًا والزبير والمقداد وأدركوا المرأة في روضة خاخ كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله ﷺ وأخذوا الكتاب، وأتوا به رسول الله ﷺ فلما قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال له رسول الله ﷺ: «إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعلّ الله اطّلَعَ إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». ولذلك كان مذهب أهل السنة والجماعة التّرضّي على جميع أصحاب رسول الله ﷺ وحبهم جميعًا، والكف عما شجر بينهم أو ذكر عنهم، وحمله على أحسن المحامل، فإن ساعة منهم مع رسول الله ﷺ تعادل دُهُورًا من أعمال غيرهم، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى شيء من ذلك حيث يقول فيما رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تَسُبّوا أصحابي فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه». كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، لا تسبّوا أصحابي، فو الذي نفسي بيده لو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهبا ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه». هذا والعرب يفرّقون بين قولهم: أصعد يُصْعِد إصعادا، وقولهم: صعِد يَصْعَدُ صُعودًا، فالإصعاد هو الانطلاق والذهاب في الأرض المستوية وبطون الأودية والشعاب، أما الصعود فهو الارتقاء والارتفاع على الجبال أو السلاليم أو الدّرج ونحو ذلك من المرتفعات. ومن استعمال الإصعاد بمعنى مطلق السفر قول أعشى قيس في قصيدته التي قالها يمدح بها رسول الله ﷺ قبل أن يحول المشركون بينه وبين الإسلام:

ألا أيُّهذا السّائلي أيـن أَصْعَدتْ فإنّ لها من بطن يثرب موعدا

في إحدى روايات هذا البيت، فقد استعمل أصعد بمعنى أبعد في

الذهاب وأمعن فيه. وأنشد أبو عبيدة:

قد كنتِ تبكـين على الإصعـاد　　فاليـوم سُرِّحْتِ وصاح الحادي

وكما قال الآخر:

هواي مع الركب اليمانين مُصْعِدٌ　　جنيـب وجثماني بمـكة مُوثَـق

وفي قوله عز وجل: ﴿والرسول يـدعوكم في أخراكم﴾ لفت انتباه إلى ثبات رسـول الله ﷺ وشجاعتـه وكمال طمأنينتـه عنـد مواجهـة الكفـار في أحلك الأوقـات، وهو شبيـه بموقفـه ﷺ كذلك يـوم حنين عندمـا تولى المسلمـون مـدبـرين قبـل أن تنـزل السكينـة عليهم، قـال ابن كثير في تفسيره: وفي الصحيحين من حديث شعبة عـن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن رجلا قـال له: يـا أبا عمارة، أفـررتم عن رسـول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكنّ رسـول الله ﷺ لم يفر، إن هـوازن كانوا قـوما رمـاةً، فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا، فأقبل الناس على الغنائم، فـاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ - وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء - وهو يقـول: «أنا النبيّ لا كـذب، أنا ابن عبـد المطلب». قلتُ: وهذا في غايـة ما يكون من الشجاعة التـامة، إنه في مثل هذا اليـوم في حومة الوغى، وقـد انكشف عنه جيشه، وهـو مع هذا على بغلـة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح لفرّ، ولا لكرّ، ولا لهربٍ، وهو مع هـذا أيضا يركضها إلى وجوههم، وينوّه بـاسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلـواتُ الله وسلامه عليه دائما إلى يـوم الديـن، وما هـذا كلّـه إلا ثقةً بـالله وتـوكـلاً عليه، وعلما منـه بأنـه سينصره، ويُتِمُّ ما أرسله بـه، ويظهر دينه على سائر الأديان اهـ وقد قدمت قريبـا ما رواه البخاري من حديـث البراء رضي الله عنه في قصة الرمـاة: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم مـا قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا:

والله لنأتينّ الناس فلنصيبنّ من الغنيمة، فلما أتوهم صُرِفَتْ وجوههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى: ﴿والرسول يدعوكم في أُخْراكم﴾ فلم يبق مع النبي ﷺ غير اثني عشر رجلا. الحديث. وقوله عز وجل: ﴿فأثابكم غمّا بغمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ قال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿فأثابكم غَمّا بغَمّ﴾ أي فجازاكم بفراركم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم، ومعصيتكم ربّكم ﴿غما بغم﴾ يقول: غمّا على غمّ. وسمّى العقوبة التي عاقبهم بها من تسليط عدوهم عليهم حتى نال منهم ما نال (ثوابا) إذ كان عِوَضًا من عملهم الذي سخطه ولم يرضه منهم، فدلّ بذلك جلّ ثناؤه أن كلّ عوضٍ كان لمعوَّضٍ من شيء من العمل - خيرًا كان أو شرًّا - أو العِوَض الذي بذله رجل لرجل أو يد سلفت له إليه، فإنه مستحق اسم «ثواب» كان ذلك العوض تكرمة أو عقوبة، ونظير ذلك قول الشاعر:

أخاف زيادًا أن يكون عطاؤه ... أَدَاهِمَ سُودًا أو مُحَدْرَجةً سُمْرًا

فجعل «العطاء» القيود اهـ وهذا الشاعر هو الفرزدق، والمراد بالأداهم جمع أدهم وهو القيد، والمحَدْرجة: السّياط، وقد ألحق الله عز وجل بهم غموما كثيرة منها غمّهم بما أصابهم من العدو في أنفسهم وأموالهم، وغمّهم بالهزيمة، وغمّهم بما أصيب به الرسول ﷺ من الشجة وكسر الرّباعية، والغم الأكبر بما أرجف به المرجفون من أن رسول الله ﷺ قد قُتِلَ، وغمهم بما صاروا يخافونه على أنفسهم من غضب الله بسبب معصية ترك مقاعد القتال التي بوّأها رسول الله ﷺ للرماة. وقد بيّن الله عز وجل أنه عفا عنهم وتفضل عليهم لإيمانهم بالله ورسله، وأنه إنما ألحق بهم هذه المصائب لتربية أنفسهم على الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وبيان عجز الإنسان عن معرفة عاقبة الأمور حيث قد يُمْتَحَن بخير تكون عاقبته شرا وقد يمتحن بشرّ تكون

عـاقبته خيرا، كما قـال عز وجل: ﴿وعسـى أن تكرهـوا شيئا وهـو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهـو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وإذا أسلم الإنسان وجهـه لله عز وجـل وأطاع الله وأطاع رسـولهﷺ فـإن عاقبتـه تكون حميدة ما دام مستمسكـا بطاعة الله وطاعة رسولـه ﷺ، لأن الشريعة لا تأمر الإنسان إلا بما ينفعه في الدنيا والآخرة، وإذا أيقن الإنسان بذلك وعلم أن ما شاء الله كان ومـا لم يشأ لم يكن فإنه لا يحزن على ما فاته أو أصابـه كما قال عز وجل: ﴿مـا أصـاب من مصيبـة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتـاب من قبل أن نَبْرَأَها، إنّ ذٰلك على الله يسير* لكيلا تَأْسَـوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم، والله لا يحب كلّ مختال فخـور﴾. وقوله عز وجل: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ وعد للمستجيبين لله ولرسوله ﷺ ووعيد لمن لم يستجب لله ولرسوله ﷺ. وقولـه عز وجل: ﴿ثم أنـزل عليكم من بعـد الغمّ أَمَنَةً نُعَاسًـا يغشى طائفةً منكم﴾ هذه آية من آيـات الله عز وجل جعلها الله عز وجل للمؤمنين يوم بدر ويوم أحدٍ حيث سلّط النعاس على المؤمنين كما ذكر هنا وكما ذكر عن نعاسهم يـوم بدر بقوله تبـارك وتعالى: ﴿إذ يُغَشِّيكم النّعاسَ أمنةً منـه﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنـه قال: لقد وقع السيف من يد أبي طلحـة إما مـرتين وإما ثـلاثا من النعـاس. كما روى البخاري من حديث أبي طلحة رضي الله عنه قال: كنت ممن يَغْشَاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مـرارا، يسقط وآخذه، ويسقط وآخذه، وكـان من آية الله أن أنزل النعاس على هذه الطائفـة المؤمنة تسكينا لنفوسهم وتطميناً لهم، أما الطـائفة الأخـرى التي لم ينـزل عليها النعـاس فقد وصفهـا الله بصفات، الأولى: أنهم أهمتهم أنفسهم فـلا يهمهم إلا نجـاة أنفسهم من القتل دون أن يهتمـوا بنجاة الـرسول ﷺ وأصحـابه رضي الله عنهم، وهـذا يشعر بنفـاقهم وجبنهم وخوفهم. والصفـة الثانيـة: أنهم يسيئون الظن بـالله كأهل الجاهلية

وأن الله لن ينصر رسوله كما قال عز وجل: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزُيِّنَ ذٰلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السَّوْء وكنتم قوما بُورًا﴾ والصفة الثالثة: إظهارهم أنهم خرجوا كُرْها ولو كان الأمر لهم ما خرجوا مع رسول الله ﷺ، ومقصودهم بث الفتنة وإساءة الظن برسول الله ﷺ، فردّ الله عز وجل شبهتهم وباطلهم ببيان أن أمر الحياة والموت وسائر الأمور بيده وحده، ثم نبه رسولَه ﷺ إلى نفاق أصحاب هذه المقالة وفضحهم حيث يقول: ﴿قل إن الأمر كله لله، يُخْفُون في أنفسهم ما لا يُبْدُون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنا هٰهُنا﴾ أي ما قُتِلَ منا أحد. ثم بين عز وجل أن من كتب عليه القتل لن يتأخر عن مكان مصرعه فقال: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ كما قال عز وجل: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيّدة﴾ فالحذر لا ينجي من القدر، والتدبير لا يدفع التقدير، فمن كتب الله عليه القتل في مكان لا بد من خروجه وبروزه إلى مصرعه، وقوله عز وجل: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليُمَحِّصَ ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور﴾ أي وقد جعل الله عز وجل الجولة الأولى في أُحُد للمسلمين ثم جعل الجولة الثانية للكافرين لِحِكَمٍ لا يحصيها إلا الله، وليميز الخبيث من الطيب، ويبرز للمؤمنين ما تكنه صدور المنافقين، والله عليم بالسرائر والضمائر.

قال تعالى: ﴿إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إنّ الله غفورٌ حليمٌ* يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذٰلك حسرةً في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصيرٌ* ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرةٌ من الله ورحمةٌ خيرٌ ممّا يجمعون* ولئن متّم أو قُتلتم لإلى الله تحشرون﴾

بعد أن ذكر عز وجل الآية التي تفضل بها على المؤمنين في معركة أحد من إنزال النعاس عليهم تأمينا لهم وتطمينًا، وهي معجزة ظاهرة، ثم ذكر شيئا من فلتات ألسنة المنافقين وفضحهم وكشف سترهم وبين أنه أجرى معركة أحد على هذا الوجه الذي تمت به لحكمٍ جليلة ومنها إظهار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب، ذكر تبارك وتعالى هنا ما تفضل به على المؤمنين الذين زلّت أقدامهم فانهزموا عن رسول الله ﷺ في أحد وأعلن للعالمين البشارة بعفوه عنهم وتجاوزه عن زلّتهم حيث يقول عز وجل: ﴿إنّ الذين تولَّوْا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿منكم﴾ إشارة إلى أنهم مؤمنون وليسوا منافقين، ومعنى: ﴿تولوا منكم يوم التقى الجمعان﴾ أي انهزموا عن رسول الله ﷺ يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد، وقوله عز وجل: ﴿إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي إنما كان سبب انهزامهم أن الشيطان أوقعهم في هذه الزلّة غير المتعمّدة التي لم تكن كفرا ولا عنادا وهم غير معصومين من مثلها، مع أنهم ما أطالوا زمن التّولّي والفرار بل كرّوا ورجعوا، وأحدقوا برسول الله ﷺ واستشهد منهم من استشهد، وكان من

فضل الله عـز وجل عليهم تعجيل بشارتهم بعفـوه عنهم وتجاوزه عن زلتهم، والمعروف كما تقدم قـريبا أن أهم إساءة عرفت عنهم هي تـركهم مقاعدهم. وأكّد الله عـز وجل أنه عفـا عنهم بقوله تبـارك وتعالى: ﴿ولقـد عفا عنكم﴾ وقال هنا: ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾، وقوله عز وجل: ﴿إنّ الله غفورٌ حليمٌ﴾ تـذييل لتعليل عفـو الله عنهم وتأكيـده، ولم يؤثـر بحمـد الله عن واحـد من أصحاب رسول الله ﷺ أنـه تكلم بكلمة تشعر بندمـه على الخروج مع رسول الله ﷺ إلى أحد، بل كـان الواحد منهم يتمنى أن يمزّق جسمـهُ قطعة قطعة ولا يشاك رسول الله ﷺ بشوكة، بخلاف من غُمِـزوا بالنفاق وعُرِفوا به فإنهم هم الـذين فضحتهم فلتـات ألسنتهم، كما ذكر الله عـز وجل عنهم في الآيـة السابقـة، ولذلـك حذّر الله تبارك وتعـالى المؤمنين من التشبـه بهم في أقوالهم الدالة على مـرض قلوبهم، ووصفهم بالكفر حيث يقـول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنـوا لا تكونوا كالـذين كفروا وقالوا لإخـوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كـانوا غُـزًى لو كـانـوا عندنـا ما مـاتـوا وما قُتِلـوا ليجعل الله ذٰلك حسرةً في قلوبهم﴾ وفي هـذا تحذير شديد من أن يقـول أحدٌ هذه المقالـة، وأن من قال عن إنسان سافر للتجارة أو غيرها فمات أو خرج مجاهدا فقتل: لو لم يسافر ما مـات، أو لو لم يجاهـد ما قتل، فإنّ من قـال هـذه المقالـة كفر بـالله المحيي المميت، الذي قدّر لكل نفس أجلا تموت عنـد نهاية أجلها، وحدد لها أرضا لاتفـارق الروح بـدنها إلا فيها، كما قـال عـز وجل: ﴿وما تـدري نفس بأي أرض تموتُ﴾ ولله در الشاعر حيث يقول:

مشـيناها خطًى كُـتِبت علينا ... ومن كُتِبت عليـه خطـى مشـاها

ومـن كـانت منيّتـه بـأرض ... فليـس يموتُ في أرض سـواهـا

ومعنى: ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ أي قالـوا هذا القول من أجل إخوانهم الذين ماتوا أو قتلوا، وليس المراد أنهم تحدّثوا بقولهم هذا مع إخوانهم الذين ماتوا أو

قتلوا، وهذا أسلوبٌ معروف عند العرب ومنـه قوله عز وجل: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنـوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه﴾ ومعنى قـوله عز وجل: ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي إذا سـافروا فيها وسـاروا للتجارة أو غيرهـا، والمقصود أنهم ماتـوا في سفرهم هذا، وأصـل الضرب في الأرض هو الذهـاب فيها من قـولهم: ضربت الطير تضرب أي ذهبت تبتغي الـرزق، وضرب في الأرض ضَرْبا وضَرَبَـانا: خرج تـاجرا، ومنه قـوله عز وجل: ﴿وآخـرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناحٌ أن تقصروا من الصلاة﴾ ومعنى قوله: ﴿أو كانوا غُزًّى﴾ أي أو كانوا غزاة، وإنما عطف قوله: ﴿أو كـانوا غزى﴾ على قوله: ﴿ضربوا في الأرض﴾ من باب عطف الخاص على العام، إذ الخروج في الغزو ضربٌ في الأرض وإنما ذُكِرَ بعد دخوله فيما قبله لأنه المقصـود بالذات في هذا المقام وما ذكر قبله هو توطئة له، على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب في الأرض كما في قصة غـزوة أحد، والغُزّى جمع غازٍ كـركّع وراكع، وصُوّم وصائم ونُـوّم ونائم وشُهّد وشاهد وغُيّب وغـائب، وقوله عز وجل: ﴿ليجعل الله ذُلك حسرةً في قلـوبهم﴾ أي إذا صـان المسلمـون أنفسهم ولم يتلفظـوا بمثل كـلام هـؤلاء المنافقين الكافرين وأيقنوا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن القعود عن الغزو لن يمنـع من الموت إذا جاء الأجل، وحـرص المسلمون على الخروج إلى الغزو والجهاد كان ذلك حسرة في قلـوب المنافقين ولاسيما إذا وصل المسلمون بسبب الغـزو إلى الغنائم العظيمـة والاستيـلاء على الأعـداء والفوز بـالنصر، وقوله عز وجل: ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي والحياة والموت بيد الله وحده فإليه يرجع الأمـر كلّه ولا يحيا أحـد ولا يموت أحدٌ إلا بقضـائه وقدره، وقولـه عز وجل: ﴿والله بما تعملـون بصير﴾ وعـد للمـؤمنين الـذين يمتثلـون تعـاليم الإسـلام ويبتعـدون عن مشـابهة الكفـار والمنـافقين في أقـوالهم وأفعـالهم

واعتقاداتهم المنحرفة عن الصراط المستقيم، وتهديد لمن لم يمتثل أوامر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متُّم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ شروع في تحقيق أن ما يحذرون ترتبه على الغزو أو السفر من القتل في سبيل الله أو الموت ليس مما ينبغي أن يحذر بل مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون، ويحرص عليه العقلاء الراشدون، لأن الموت سبيل كل حي، كما قال قطريّ بن الفجاءة الخارجي:

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحكِ لن تراعي
فإنك لو طلبتِ بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لن تطاعِي
سبيل الموت غاية كلّ حي ... فداعيه لأهل الأرض داعي
فصبرًا في مجال الموت صبرا ... فما نيلُ الخُلود بمستطاعِ
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيُطوى عن أخِ الخنع اليَراعِ

والموت في سبيل الله هو من أغلى أماني الصالحين، لعلمهم بما أعده الله عز وجل لمن يموت في سبيل الله من رفيع الدرجات في جنات النعيم، فقد روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقْتَل عشر مرات لما يرى من الكرامة»، وفي رواية ـ: «لما يرى من فضل الشهادة» قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يخاطب جل ثناؤه عباده

المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا أيها المؤمنون في شك من أنّ الأمور كلّها بيد الله، وأنّ إليه الإحياء والإماتة كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب، ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاتهُ، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أنّ موتًا في سبيل الله أو قتلاً في الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغيد عيشها الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو اهـ وقال الفخر الرازي رحمه الله: إنّ رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوه: أحدها أن من يطلب المال فهو في تعب من ذلك الطلب في الحال، ولعله لا ينتفع به غدا لأنه يموت قبل الغد، وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينتفع به لأن الله لا يخلف وعده، وقد قال: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ وثانيها: هب أنه بقي إلى الغد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فكم من إنسان أصبح أميرا وأمسى أسيرا، وخيرات الآخرة لا تزول لقوله: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك﴾ وقوله: ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ﴾ وثالثها: بتقدير أن يبقى إلى الغد ويبقى المال إلى الغد لكن لعله يحدث حادثٌ يمنعك عن الانتفاع به مثل مرض وألم وغيرهما، ومنافع الآخرة ليست كذلك، وخامسها: هب أن تلك المنافع تحصل في الغد خالصةً عن الشوائب ولكنها لا تدوم ولا تستمر، بل تنقطع وتفنى، وكلما كانت اللذة أقوى وأكمل كان التأسّف والتحسّر عند فواتها أشدّ وأعظم، ومنافع الآخرة مصونةٌ عن الانقطاع والزوال، وسادسها: أن منافع الدنيا حسّية ومنافع الآخرة عقلية، والحسية خسيسةٌ، والعقلية شريفةٌ، أترى أنّ انتفاع الحمار بلذة بطنه وفرجه يساوي ابتهاج الملائكة المقربين عند إشراقها بالأنوار الإلهية؟ اهـ وقوله عز وجل: ﴿ولئن متّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ أي ومهما كانت أسباب

مفارقة أرواحكم أبدانكم سواء كانت بموت أو بقتل، فإنّ مصيركم وحشركم وجمعكم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، المعبود بالحق، العظيم الشأن، الواسع الرحمة، الجزيل الإحسان، الذي يجزي كل عامل بما عمل، ويزيد الصالحين من فضله وجوده وإحسانه، ولا حاكم سواه يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿والأمر يومئذ لله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿مالك يوم الدين﴾ وقد ذكر الله تبارك وتعالى الموت والقتل في ثلاثة مواضع في هذا المقام من سورة آل عمران تقدّم الموت على القتل في الأول منها وفي الثالث وتقدم القتل على الموت في الثاني وذلك في الأول لمناسبة ما قبله من قوله عز وجل: ﴿إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى﴾ فرجع الموت لمن ضرب في الأرض والقتل لمن غزا، وأما الثاني فلأنه محل تحريض على الجهاد فقدّم الأهم الأشرف، وأما في الثالث فقدّم الموت لأنه أغلب وأكثر، فقد جمعت الآية بين ألوان بلاغية من المعاني والبديع.

قال تعالى: ﴿فَبِما رحمةٍ منَ الله لِنْتَ لهم ولو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورْهُمْ في الأمر فإذا عزمتَ فتوكّلْ على الله، إنّ الله يحبُّ المتوكلينَ* إن ينصركم الله فلا غالب لكمْ وإن يخذلكمْ فمن ذا الّذي ينصركم من بعده، وعلى الله فلْيَتوكّل المؤمنون﴾.

بعد أن أخبر عز وجل أنه تفضل فعفا عن المنهزمين عن رسول الله ﷺ من المؤمنين يوم أحد أشار إلى حسن معاملة رسول الله ﷺ لهم، ورحمته بهم وأنه لم يخاطبهم بالتغليظ والتشديد ولم يقسُ عليهم بسبب انهزامهم عنه ﷺ ولم يوبّخ أو يعنّف أحدًا منهم، وأثنى على رسوله ﷺ بسبب لين معاملته لهم وأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم، واستشارتهم في الشئون ذات البال، حيث يقول عز وجل هنا: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ و(ما) في قوله عز وجل: ﴿فبما رحمة﴾ لإفادة تعظيم رحمته ﷺ وتفخيمها وتوكيدها كأنه قيل: فبسبب رحمة عظيمة طبعك الله عليها، وجعلها لك سجيّة ومَلَكَةً عاملتَ المنهزمين عنك باللين والرفق والرحمة والتلطف، وقد وصف الله رسوله محمدا ﷺبأنه بالمؤمنين رءوف رحيم حيث يقول عز وجل: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ وفي تخصيص رحمته ورأفته ﷺ بالمؤمنين إشعار بأن أعداء الله وأعداء المرسلين ليسوا أهلا لرحمة الله ولا لرحمة رسوله ﷺ ولا لرحمة المؤمنين، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في وصف رسوله محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم: ﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أذلّة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ وقوله عز وجل: ﴿ولو كنتَ فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾ نفى الله عز وجل عن رسوله وحبيبه وسيد خلقه وأفضل أنبيائه محمد ﷺ الفظاظة وغلظ

القلب، والفظاظة هـي الجفوة في العشرة قولا وفعلا، وغلظ القلب هـو كونه جافيا قاسيـا خاليا من الشفقة والرحمة واللين والرّقـة والرفق، والفظاظة تنشأ عن غلظ القلب، وإنما قدّم ذكر الفظاظة على ذكر غلظ القلب لأن الفظاظة هي المُشَاهَد الظاهر المُدْرَك بـالحسّ المنبئ عن قسوة القلب وغلظه، وقد كان من أبـرز صفات رسـول الله ﷺ التي عرّفهـا الله عز وجل لـلأنبياء السـابقين ليصفـوه ﷺ لأممهم حتى يعـرفـوه إذا بُعـث ﷺ أنـه ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّ هذه الآية التي في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شـاهدا ومبشّرا ونذيرا﴾ قال: في التوراة يـا أيها النبي إنا أرسلناك شـاهـدا ومبشرا ونـذيرا، وحِـرْزا لـلأميين، أنت عبـدي ورسـولي، سمّيتك المتـوكّل، ليس بفظ ولا غليظٍ، ولا سخّـاب بـالأسـواق، ولا يـدفع السيئـة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضـه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلـه إلا الله، فيفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلـوبا غلفا.
ومراد عبد الله بن عمرو بن العـاص رضي الله عنهما من قوله: في التوراة، هو من إطلاق كلمة التوراة على مجموع كتب العهـد القديم، لا أنها التوراة المنزّلة على موسى ﷺ، وهـو اصطلاح لبعض المسلمين وبعض أهـل الكتاب، إذ أنّ هذا النص الذي ذكره عبد الله بـن عمرو رضي الله عنهما إنما هو موجود في نبوات بعض أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، ومعنى قوله عز وجل: ﴿لانفَضُّوا من حولك﴾ أي لتفرّقوا عنك، ولم يسكنوا إليك وتردَّوا في مهاوي الردى، فمـن فضل الله على الناس أن ملأ قلوب رسله إليهـم بالرحمة والـرفق، ونبّههم إلى ذلك كما قـال لموسى وهـارون عليهما السـلام لما أرسلهما لفـرعون: ﴿فقـولا لـه قولا ليّنـا لعلّـه يتذكّـر أو يخشى﴾ وقـوله عـز وجل: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمـر فإذا عزمت فتوكّل على الله﴾

هذه قـواعد السيـاسة الرشيـدة التي تربط بين الراعي والـرعية بـرباط الحب والثقة والطمأنينـة ، وفي قوله عز وجل لـرسوله وحبيبه محمـد ﷺ : ﴿فاعف عنهم﴾ أي تجاوز عن مسيئهم فيما ليس من حقـوق الله عـز وجل ، ولـذلك كان رسـول الله ﷺ لا ينتقم لنفسه قط ، فقد روى البخـاري في صحيحه من حديث عائشـة رضي الله عنها قالت : ما خُيّر النبيّ ﷺ بين أمـرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمٌ فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه ، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليـه قط حتى تنتهك حرمـات الله فينتقم لله . وفي رواية لمسلم من حديث عائشـة رضي الله عنها قالت : ما ضرب رسـول الله ﷺ شيئا قطّ بيده ولا امرأةً ولا خـادما إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ومـا نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء مـن محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى . كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنـه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُـرْدٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشيـة فأدركه أعـرابيٌّ فجبذه بـردائه جبذةً شديـدةً ، فنظرتُ إلى صفحة عـاتق النبي ﷺ وقد أثّرت بها حـاشية البرد من شدة جبذته ثم قال : يا محمد مُـرْ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه ، فضحك ثم أمر له بعطـاء . وفي أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ هنـا بقوله تعالى له في المنهزمين عنه يوم أحد : ﴿فـاعف عنهم﴾ مع قوله تبارك وتعالى عنهم : ﴿ولقد عفا عنكم﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ مع ما قدّمه في وصف المسـارعين إلى مغفـرة من ربهم وجنـة عرضهـا السمـوات والأرض حيث يقـول عـز وجل : ﴿والكـاظمين الغيظ والعـافين عن النـاس﴾ في كل ذلك إشارة إلى حبّ الله عـز وجل للعفو عن عبـاده والصفح عنهم ، ولذلك أمـر إمـام المرسلين محمدا ﷺ بـالعفـو والصفح في مـواضع كثيرة من القـرآن العظيم حيث يقـول عـز وجل : ﴿خـذ العفـو وأمـر بـالعُـرْف وأعـرض عن الجاهلين﴾ ويقول : ﴿فـاصفح الصفح الجميل﴾ ويقول : ﴿فـاصفح عنهم

وقل سلام﴾ . وقوله عز وجل : ﴿واستغفر لهم﴾ هذه هي القاعدة الثانية من قواعد السياسة الرشيدة ، أي واسأل الله عز وجل أن يغفر للمسيئين ، كما قال عز وجل : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما﴾ أما القاعدة الثالثة من قواعد السياسة الرشيدة فهي قوله عز وجل : ﴿وشاورهم في الأمر﴾ أي واستخرج آراءهم فيما تريد أن تفعله من الأمور ذات البال التي لم ينزل عليك وحي بها ، تطييبًا لقلوبهم وليستنّ بك ولاة أمور المسلمين من بعدك ، وأصل الاستشارة والمشاورة مأخوذة من قولهم : شار العسلَ وأشاره واشتاره واستشاره إذا استخرجه من الخلية أو الوَقْبة ، والوَقْبة هي الكُوّة والنُّقرة في الصخرة ونحوها يتخذها النحل بيتا ويضع فيها العسل ، وقد أعظم الله عز وجل شأن الشورى حيث يأمر هنا أكمل خلقه عقلا وإدراكا ووعيا وفهما ومعرفة وخبرة بالأمور أن يستشير أصحابه رضي الله عنهم فيما لم ينزل عليه وحيٌ فيه ويستخرج ما عندهم من آراء ، وكان ﷺ إذا استشار أصحابه وأشاروا برأي واحد أخذ به ﷺ وإذا اختلفت آراؤهم اختار الأيسر منها على المسلمين ، وقد جعل الله عز وجل الشورى من أبرز صفات المسلمين حيث يقول عز وجل في سورة أطلق عليها اسم سورة الشورى : ﴿وأَمْرُهم شورى بينهم﴾ ، قال البخاري في صحيحه : باب قول الله تعالى : ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ ﴿وشاورهم في الأمر﴾ وأن المشاورة قبل العزم والتبيّن لقوله تعالى : ﴿فإذا عزمت فتوكّل على الله﴾ فإذا عزم الرسول ﷺ لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله . ثم قال البخاري رحمه الله : وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها ، فإذا وضح الكتاب أو السنّة لم يتعدّوه إلى غيره اقتداء بالنبي ﷺ ، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة ، فقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : «أمرتُ أن

أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين ما جمع رسول الله ﷺ ثم تابعه بعدُ عمرُ، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورته، إذ كان عنده حكم رسول الله ﷺ في الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدّين وأحكامه، قال النبي ﷺ: «من بدّل دينه فاقتلوه» وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شبّانا، وكان وقّافا عند كتاب الله عز وجل اهـ ويتحتم على المستشار أن يمحّض من استشاره النصح وأن يخلص في الاستشارة، وأن يكون أمينا، وأن يشير عليه بما فيه المصلحة، فقد روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسنٌ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». وروى ابن ماجه من حديث أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن». قال في الزوائد: إسناد حديث أبي مسعود صحيح، رجاله ثقات اهـ ولا شك أنه ما ندم من استشار، وينبغي أن يستشار في كل أمر أهل الخبرة به بعد الوثوق من سلامة دينهم وعقولهم وحبّهم للخير ونصحهم كما قال الشاعر:

شاور صديقك في الخفيّ المشكل ... واقبل نصيحة ناصحٍ متفضّلِ
فالله قد أوصى بذاك نبيّه ... في قوله: شاورهم وتوكّل

وكما قال الشاعر الآخر:

وإن باب أمر عليك التوى ... فشاور لبيبًا ولا تعصه

ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإذا عزمت فتوكّل على الله، إنّ الله يحبّ المتوكلين﴾ أي فإذا صحّ عزمك على إمضاء ما تريد، من جهاد عدوك مما رأيت فيه المصلحة لدينك وأمتك فامض لما تريد بغضّ النظر عن خلاف من خالفك ووفاق من وافقك، وكن في عزمك معتمدا على الله وحده ومتوكلا عليه دون غيره راضيا بما يقضيه الله عز وجل لأنه يحب المعتمدين عليه، وفي

هذا دليل ظـاهر على أن بذل الأسبـاب والاستشارة لا ينافي التوكل على الله ، وقوله عز وجل : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾ أي إن يُعِنكم الله على عدوكم فلن يغلبكم أحدٌ مهما كان عَدَده وعُدَده ، وإن يخذلكم فيكلكم إلى أنفسكم ويترك نصركم فلن تُنصروا ولو كان معكم من العدد والعُـدد أضعاف ما عند عدوّكم ، فمن نصره الله فهو المنصور ومن لم ينصره الله فهو المقهور، ونصر الله يُنال بطاعته وتقواه فاعتمدوا على الله وحده وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

قال تعالى: ﴿وما كان لنبي أن يغل، ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة، ثم توفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم، وبئس المصير. هم درجات عند الله، والله بصير بما يعملون. لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.﴾

بعد أن أكَّدَ تبارك وتعالى أنَّ مَنْ يَنْصُرُهُ الله لا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ وأن مَنْ يَخْذُلُهُ الله لا يَنْصُرُهُ أَحَدٌ، وأشار إلى أن الاعتماد على الله والتوكُّل عليه هو سبب النصر والفلاح. حذَّر هنا أشد التحذير من الغُلُولِ وبيَّن سُوءَ عاقبته، وأن الله عز وجل يَفْضَحُ الغالَّ يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ومن المُلاَحظ أن الله عز وجل حذَّر في سياق قصة أحد من تعاطي الربا ومن الغلول، وهما من أكبر الكبائر، حتى يجتنب المسلمُ المجاهدُ في سبيل الله ما يُحْبِطُ عمله، ويُبْطِلُ جهاده لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وقوله عز وجل: ﴿وما كان لنبي أن يغل﴾ هو شبيه بقوله عز وجل: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله﴾ الآيتين. أي ما يتأتى في العقل أن يَصْطَفِي الله إنسانا يبعثه الله عز وجل نبيا فَيَغُلَّ، وقد ذكرت في تفسيرها أن هذا النوع من النفي يُعَبَّرُ عنه بالنفي التام لأن النفي فيه من جهة العقل أي يستحيلُ عقلا أن يَصْدُرَ هذا من نبيٍّ من أنبياء الله المصطفين الأخيار والمقصود من هذا النفي هنا هو تشديد أمر الغُلُول وبيان قُبْح فِعْلِهِ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: الغُلُول بضم المعجمة واللام أي الخيانة في المغنم قال ابن قتيبة: سمى بذلك لأن آخذه يَغُلُّه في متاعه أي يخفيه فيه، ونقل النوويُّ الإجماع على أنه من الكبائر ا. هـ ومعنى قوله عز

وجل: ﴿ومن يغلل يأت بما غَلَّ يوم القيامـة﴾ أي ومن يأخذ شيئًا من المغنم خفيـة يَفْضَحْـهُ الله عز وجـل على رؤوس الخلائق يوم القيـامـة حيث يبعثـه حـاملا لما غَلَّ وقـد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: قام فينا النبي ﷺ فـذَكَر الغُلُـولَ، فَعَظَّمَهُ وعَظَّمَ أَمْرَهُ، قـال: لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يوم القيـامة على رقبته شاةٌ لها ثُغَـاءٌ، على رقبته فرس لـه حَمْحَمَةٌ يقول: يـا رسولَ الله أغثني فأقول: لا أَمْلِكُ لك شيئـا، قد أَبْلَغْتُكَ، وعلى رقبتـه بعير له رُغَـاءٌ، يقـول: يا رسـول الله أغثني فأقـولُ: لا أَمْلِكُ لك شيئا قد أبلغتك، وعلى رقبته صامتٌ، فيقولُ: يا رسول الله أغثني فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، أو على رقبتـه رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وقوله في الحديث: وعلى رقبته صامتٌ أي فوق عنقه ذهب وفضة أو هو كل مال لا رُوحَ له. كما روى البخاري من حديث عبدالله بـن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كان على ثَقَلِ النبي ﷺ رجلٌ يقال له كَـرْكَرَةُ فمات، فقال رسول الله ﷺ: هو في النار، فـذهبوا ينظرون إليه، فَـوَجَدُوا عباءةً قـد غَلَّهَا. كما روى مسلم من حديث عمر بـن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا كانَ يـومُ خَيْبَرَ أقبل نَفَرٌ من أصحاب النبـي ﷺ، فقالـوا: فلانٌ شهيد، وفـلان شهيد، حتـى مرُّوا على رجل فقالـوا فلانٌ شهيد، فقـال النبي ﷺ: كلاَّ، إني رأيتُه في النـار، في بُرْدَةٍ غَلَّهَـا أو عَبَاءَةٍ. كما روى مسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه قـال: خـرجنا مـع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نَغْنَـمْ ذَهَبًا ولا وَرِقـاً، غَنِمْنَا المتاعَ والطعامَ والثيابَ، ثم انطلقنـا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ عَبْدٌ له، وَهَبَهُ له رجلٌ من جُذَامَ يُدْعَى رِفَاعَةَ بنَ زيد من بني الضُّبَيْبِ، فلما نزلنا الوادي قـام عَبْدُ رسـولِ الله ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَـرُمِيَ بِسَهْم، فكان فيـه حَتْفُهُ، فقلنا: هنيئاً له الشهادةُ يا رسـول الله، قال رسولُ الله ﷺ: كلاَّ والذي نَفْسُ

محمدٍ بيـده، إنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عليه نـاراً، أخذها من الغنـائم يوم خيبرَ، لم تصبها المقـاسم قال: ففزع النـاس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقـال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: شِرَاكٌ من نارٍ أو شِرَاكَانِ من نارٍ. كما روى مسلم من طريق مُصْعَب بن سعد قال: دخل عبدالله بنُ عمر على ابن عامرٍ يَعُـودُهُ وهو مريض فقال: أَلاَ تدعو الله لي يـا ابن عمر؟ قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: لا تُقْبَلُ صـلاةٌ بغير طُهُورٍ، ولا صَدَقَةٌ من غُلُولٍ. وقـولُه عز وجل: ﴿ثمَّ تُوفَّى كل نفس مـا كسبت وهم لا يظلمون.﴾ قال أبو السعود العمادى في تفسيره: أي تُعْطَى وافيا جزاء ما كَسَبَتْ، خيراً أو شراً كثيراً أو يسيراً، ووَضع المكسوب مـوضع جزائه تحقيقـاً للعدل، ببيـان ما بينهما من تمام التنـاسب كَمًّا وكَيْفاً كأنهما شيءٌ واحـدٌ، وفي إسناد التَّـوْفِية إلى كل كاسب، وتعليقها بكل مَكْسُوبٍ، مع أن المقصـود بَيَانُ حال الْغَال عند إتيـانه بما غلَّـه يـوم القيامـة، من الـدلالة على فخـامـة شَأنِ اليوم، وهَـوْلِ مَطْلَعِهِ، والمُبَالَغَة في بيان فَظَاعَـةِ حال الغالِّ ما لا يَخْفَى، فإنه حيث وُفِّي كلُّ كاسبٍ جَـزَاء ما كسبه، ولم يُنْقَصْ منـه شيء وإن كان جُـرْمُهُ في غايـة القلَّةِ والحقارة فلأنْ لا يُنْقَصَ من جزاء الغـالِّ شيء وجُرْمُهُ من أَعْظَمِ الجَرَائِمِ أَظْهَرُ وأَجْلَى «وهم» أي كلُّ الناس المدلـول عليهم بكل نَفْسٍ «لا يُظْلَمُونَ» بـزيادة عِقَابٍ أو بِنَقْصِ ثواب اهـ وقولُه عز وجل: ﴿أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم﴾ أي أيستوي في عقل أحد من آمن بالله وصدق رسول الله ﷺ وعَمِلَ بطاعة الله وسعى في مرضـاته وترك الغُلُول وسائر ما نهاه الله عز وجل من المعـاصي، هل يَسْتَوِي هـذا الصالحُ المطيع هُـوَ ومَن يكفر بـالله، ويُكَـذِّبُ رسلـه، ويَعْصِي ربَّهُ بـالغُلُـول أو غيرهـا من المعـاصي؟ لا يستويان أبداً في عقل مَنْ له أدنى مُسْكَةٍ من عقل، إذ أن الصالح ثوابه الجنةُ والفَـاجِرَ مأواه ومصيره إلى جهنم، وقـوله عـز وجل: ﴿وبئس المصير.﴾ أي

وقَبُحَ وَذُمَّ مَصِيرُ هَؤلاء الفجار، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هم درجاتٌ عند الله﴾ تأكيد لمضمون الآية السابقة، وأن الصالحين والفجارَ لا يستوون، فهم مُخْتَلِفُوا المنازل، حيث يصير المؤمنون إلى جنة عرضها السموات والأرض في درجات ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، ويصير الفجار إلى دركات النار التي يَهْوِي بعضُهم إلى بعضها سبعين خريفا، وقولُه تبارك وتعالى: ﴿والله بصير بما يعملون﴾ أي إنه لا يظلم أحداً لأنه شهيد على ما عملوا ويجزي كلَّ عامل بما عمل وهذا المقام نظير قوله تعالى: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون.﴾ وقوله تعالى: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومَن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم.﴾ وقال عز وجل: ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون.﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون. أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون. وأما الذين فسَقُوا فمأواهم النارُ﴾ الآية. وحتى في نظر الشيوعيين الذين يقولون: لا إلّه والكون مادة فإنه لا يستوي عندهم من يسرق أموال الناس ومن يبذل ماله للناس فيما يرونه من مصالحهم، مع انتكاس فطرتهم وانقلاب موازين الحق لديهم، وهل يُسوِّي أحدٌ بين كافل اليتيم وبَيْنَ مَنْ يأكل أموال اليتامى ظلما؟ وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.﴾ بعد أن وصف الله عز وجل حبيبه محمدا ﷺ بكمال الرحمة والشفقة، ووصف له قواعد السياسة الرشيدة وأمر المؤمنين بالاعتماد على الله

والتوكل عليه، والالتجاء إليه وحده لا شريك له في طلب النصر على الأعداء ووصف جميع أنبياء الله بطهارة النفس، وفرَّق بين من اتَّبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله، مما أطبقت العقول على التفريق بينهما حيث لا يستوي الصالحون والفجار في نظر عاقل، ذكر نعمته الكبرى ومِنَّته العظمى على المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله ﷺ بأنه تَفَضَّل عليهم بأعظم رسول وأفضل نبيٍّ وأكمل شريعة، وأبقى دينٍ وأوفى نظام وأشمله وأدقِّه حيث أنعم عليهم وأحسن إليهم إذ بعث لهم نبياً من أنفسهم يقرأ عليهم القرآن الكريم المشتمل على جميع قواعد العقائد والسلوك والمعاملات وما يتصل بالدنيا وما يتصل بالآخرة وقد جعله الله عز وجل تبيانا لكل شيء ومهيمنا على كل كتاب قبله، فيه نبأ المتقدمين، وخبر المتأخرين وحَلُّ قضايا الناس أجمعين، وهو الفَصلُ ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدَى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراطُ المستقيمُ، لا تزيغ به الأهواء، ولا تَلْتَبِسُ به الألسنة، ولا يَشْبَعُ منه العلماء، ولا يَخْلَقُّ عن كثرة الرَّدِّ، كلما تكرر زادت حلاوته، ولا تنقضي عجائبه، وهو مأدُبَةُ الله المعروضة بين عباده لتغذية أجسامهم وأرواحهم، وشفاء أمراضهم وأسقامهم، من قال به صدق، ومن عمل به أُجِرَ، ومَنْ حَكَمَ به عَدَلَ، ومن استمسك به واتَّبَعَ مَنْهَجَهُ هداه إلى جنات النعيم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويزكيهم﴾ أي ويطهرهم بترغيبهم في الطيبات وترهيبهم من المحرمات، وتحذيرهم من سائر النجاسات، سواء كانت حسية أو معنوية ومعنى قوله عز وجل: ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي ويبين لهم مجمل الكتاب، وقد يَخُصُّ عُمُومَهُ، ويُعَمِّمُ خُصُوصَه، ويُقَيِّدُ مُطْلَقَه، ويطلق مُقَيَّدَه، بوحي من ربه، حيث أسند الله عز وجل بَعْضَ بيان القرآن لرسوله ﷺ حيث يقول: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم

يتفكرون . ﴾ والحكمة هي الفقه في الدين واتباع سنة النبي الكريم، وَوَضْعُ الأمور في مواضعها، وفي قوله عز وجل : ﴿وإن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين . ﴾ إشارة إلى كمال نعمة الله وتمام منته حيث أخرج الله عز وجل العرب والعجم من الظلمات إلى النور فقد كانت أمم الأرض عند بعثته ﷺ في حيرة وضلالة، قد نظر الله عز وجل إليهم فمقتهم عَرَبَهُم وعجمهم، إذ كانوا كلُّهم يتخبطون في دياجير ظلام الجاهلية، وكانت بلاد العرب لا تعرف غير الغارة والسلب والنهب، ووأد البنات، وانتهاك الحرمات، وكان الرجل المجوسيُّ يتزوج بنته، ويشعل ناراً ثم يسجد لها ويعبدها، وكان الأوروبيون لا يقِلُّون في جهالتهم عن الأسيويين والإفريقيين، فلما جاء الإسلام أرشد الناس إلى قواعد العدل، وهَدَى إلى الصراط المستقيم. لقد كانت مدينة روما لا يُعْرَفُ فيها طريق مُعَبَّدُ، ولا سراجٌ يضيء حاراتها وشوارعها، فلما جاء الإسلام وعرف المسلمون المدنية الحقيقية بلَّطوا الشوارع ونظَّموها. وكتب عمر رضي الله عنه إلى عماله في الأمصار بتخطيط الشوارع في الحاضرة والبادية، وأضيئت الشوارع بالليل، وانتشر كل هذا بعد ذلك في غرب أوروبا لما دَخَلُوا في الإسلام، ثم انتشرت هذه المدنية في سائر أوروبا لأول مرة في التاريخ. وقد أشار الله عز وجل إلى نعم الله هذه على الناس حيث يقول : ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلواْ عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، وهو العزيز الحكيم. ذٰلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم﴾ .

قال تعـالى : ﴿أو لما أصابتكم مصيبـة قد أصبتم مثليها قلتـم أنى هٰذا قل هو من عنـد أنفسكم، إن الله على كل شيء قديـر . وما أصـابكم يوم التقى الجمعان فبـإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نـافقوا، وقيل لهم تعـالوْا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لـو نعلم قتالا لاتبعناكم، هم للكفر يومئذ أقـرب منهم للإيمان، يقـولـون بأفواههـم ما ليس في قلـوبهم، والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لـو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .﴾

بعد أن ذكَّـر الله عز وجل المؤمنين بنعمتـه الكبرى ومنته العظمى بـإرسال أفضل رسله وأكمل خلقه محمد ﷺ إليهم بأكمل الشرائع، وأن الله أخرجهم به من الظلمات إلى النـور وهداهم به من الضلال المبين الـذي كان يحيط بهم من كل وجه، نَبَّـهَ هنا إلى إعزازه لعبـاده الصالحين المتبعين لرسولـه محمد ﷺ وأنَّ ما قد يصيبُ المسلمين إنما هو بسبب من تقصيرهم في طاعة هذا الرسول العظيم والنبي الكـريم ﷺ، وأجـاب عن شبهـة أثـارهـا بعض النـاس ممن يظنـون بالله غير الحق ظنَّ الجاهليـة حيث تسـاءلـوا : من أين جـاءتنا هـذه المصيبة؟ وكيف نُهْزَمُ ورسول الله معنا ونحن مسلمـون وهم كافرون؟ والقصد من السؤال هـو إثارة الشُّبَهِ بين المسلمين، وقد كـان الجواب الذي أجاب الله عز وجل به في هذه الآية الكـريمة قاطعا لشبهتهم مُفْحِماً لهم، حيث ذكر أن المشركين إن كانوا نَالُوا من المسلمين مـرة فقد نال المسلمون منهم مرتين، وإن كان المشركـون أصابـوا عددا من المسلمين فقـد أصاب المسلمـون منهم مثلى العـدد الـذي أصيب من المسلمين، فـالحرب وإن كـانت دولا فـإن كفـة المسلمين كـانت راجحـة، حيث انتصر المسلمـون في بدر وهـزم المشركـون، وانتصر المسلمون في أول معـركة أُحُـد فكانت للمسلمين جـولتان : جـولة في

بدر وجولةٌ في أحد، ولم يحصل المشركون إلا على جولة واحدة، كما أن المسلمين أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة رجلٍ: سبعين قتيلا وسبعين أسيرا، وأصاب المشركون من المسلمين في أحد سبعين شهيدا، فالمسلمون أصابوا منهم مثلَى ما أصابوا من المسلمين. ثم بَيَّن أن ما أصاب المسلمين في أحد ليس بسبب الإسلام بل بسبب مخالفة أمر الإسلام حيث ترك بعض الرماة مقاعدهم التي بوَّأهم إياها رسول الله ﷺ وحذرهم أن يتركوها إلا إذا أَرْسَلَ إليهم، فلما خالفوا أمر رسول الله ﷺ أصيبوا بالمصيبة التي أصابتهم. وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هٰذا؟ قل هو من عند أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي إن الله تبارك وتعالى قادر على نصركم لو ثبتم وصبرتم، كما أنه قادر على التخلية إذا خالفتم وعصيتم، وهو سبحانه لا يعجزه شيء ولا يفوته شيء وأمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، وبعد أن بين عز وجل أن ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب من عند أنفسهم وأنه عز وجل قادر على كل شيء أشار كذلك إلى بعض وجوه الحكمة في جعل الجولة في آخر المعركة يوم أحد للمشركين حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لا تَّبعناكم﴾ أي وما حدث لكم يوم تواجَه الجمعان: جمع المسلمين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان، وكان التقاء الجمعين يوم أحد، ومعنى قوله: ﴿فبإذن الله﴾ أي فهو كائن بعلم الله وقضائه وقدره وحكمته البالغة التي من جملتها أن تعرفوا أن نصر الله إنما يُجْلَبُ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وهذا تأكيد لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ ومن حكمته كذلك تمييز المؤمنين من المنافقين،

حيث يقول عز وجل: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من نجاح المؤمنين عند هذا الامتحان والابتلاء، إذ ظهر منهم كمال الإيمان والاستسلام لله عز وجل، ولذلك بشَّرهم الله عز وجل أكثر من مرَّة بعفوه عنهم كما تقدم، وقوله عز وجل: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزلا من ظهور نفاق المنافقين، فإن المصائب تبرز العَدُوَّ من الصديق كما قال الشاعر:

جزى الله الشدائد كلَّ خير علمت بها عَدُوِّي من صديقي

وإنما قال عز وجل: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ولم يقل: وليعلم المنافقين كما قال: ﴿وليعلم المؤمنين﴾ لإفادة ثبات المؤمنين على الإيمان واستمرارهم عليه ورسوخهم فيه وأن النفاق قد حدث لبعض ضعاف الإيمان، فعبَّر في جانب المؤمنين بصيغة اسم الفاعل الدالة على الاستمرار وعبَّر في جانب الآخرين بموصول صِلَتُهُ فِعْلٌ للدلالة على التجدد والحدوث كأنه قيل: وما أصابكم يومئذ فهو كائن بإذن الله ولتمييز الثابتين على الإيمان والذين أظهروا النفاق. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾ هو مستأنف لبيان بعض مواقف المنافقين المخزية ممن كان نفاقهم قد عرف قبل معركة أحد، وهو عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلول لعنه الله ومن معه، الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ من المدينة عند خروجه ﷺ إلى أحد فلما كانوا في بعض الطريق رجع عبدالله بن أُبيٍّ بثلث الجيش، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿وإذ غدوت من أهلك تبوِّئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ أن رسول الله ﷺ استشار الناس، واستقر رأيهم على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدو الله عبدالله بن أُبيٍّ ابن سلُولَ رجع

بنحو ثلث النـاس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبدالله بن عمـرو بن حرام السَّلَمِيُّ والـدُ جابـر رضي الله عنهما أن يحملهم على متـابعة رسـول الله ﷺ، وقال لهم: تعالوا قاتلُوا في سبيل الله أو ادفعُوا، فقال عبدالله بن أبي ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكـم، وهذه المقالة ولا شك أظهرت لكثير من المؤمنين الذين كانوا يغترون بعبدالله بـن أبي ويحسبونه مسلما حقا أنه رجل سُوءٍ ولـذلك كان إظهار عبـدالله بن أبيٍّ هذه المقـالة من أظهر حِكَم معـركة أحد التي قضاها الله عز وجل وقَدَّرها، فقد أبرزت هذه المقالة مكنون نفسه، وكما قال الشاعر:

ومهما تكـن عنـد امريء مـن خَلِيقَةٍ      وإن خالهـا تخـفى على النـاس تُعْلَمِ

فقد فضحه الله عز وجل، وفي قول عبـدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنـه لعبد الله بـن أبيٍّ والذين معـه: تَعَـالَوْا قـاتلـوا في سبيل الله أو ادفعـوا، إشـارةٌ إلى خبرة عبـدالله بن عمـرو بن حـرام رضي الله عنـه بفنـون الحرب، وأن من لا رغبة له في القتال والالتحام في المعركة مع العدو يمكن أن يستفاد منـه بأن يجعل في الخطِّ الخلفي من المعـركة ليحمي ظهـور المقاتلين، وقول عدو الله عبدالله بن أبيٍّ ومن معه من المنافقين: لو نعلم قتالا لاتبعناكم هو كـذب ظاهـر من هؤلاء المنـافقين؛ لأنهم يعلمون أن أبـا سفيان مـا جاء بجيشه العـرمرم ونزل عنـد أحد إلا لقتـال المسلمين والثأر لقتلى المشركين يوم بدر، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿هم للكفـر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ إشارة إلى تذبذب المنافقين وترددهم بين الإيمان والكفر. وأنهم قد يقتربون من الكفر حينا ويقتربون من الإيمان حينا كما قال عز وجل فيهم: ﴿مذبذبين بين ذٰلك لا إلى هـؤلاء ولا إلى هٰؤلاء﴾ وكما شبههم الله عـز وجل بقولـه تبارك وتعـالى: ﴿يكـاد البرق يخطف أبصـارهم كلما أضـاء لهم مشـوا فيـه وإذا أظلم عليهم قامـوا﴾ قال شيخ الإسلام ابـن تيمية رحمه الله: لما انهزم المسلمون يـوم أحد،

وشج وجه النبي ﷺ، وكسرت رَبَاعِيَتُه، ارتد طائفة، نافقوا، قال تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين .﴾ وقال تعالى: ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتَّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون.﴾ فقوله: ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينافق قبل ومن نَافَقَ ثم جَدَّدَ نفاقا ثانيا، وقوله: ﴿هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان﴾ يبيِّن أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن يَتَسَاوَيَا، وإما أن يكونوا للإيمان أقرب، وكذلك كان، فإنَّ ابن أبيٍّ لما انخزل عن النبي ﷺ يوم أحدٍ، انخزل معه ثُلُثُ الناسِ، قيل كانوا نحو ثَلَاثمائة، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داعٍ إلى النفاق، فإنَّ ابن أُبي كان مُظْهِراً لطاعة النبي ﷺ والإيمان به، وكان كلَّ يوم جمعة يقوم خطيبا في المسجد، يأمر باتباع النبي ﷺ، ولم يكن ما في قلبه يظهرُ إلا لقليل من الناس إن ظهر، وكان مُعَظَّماً في قومه، كانوا قد عزموا على أن يُتَوِّجوه، ويجعلوه مثل المَلِكِ عليهم، فلما جاءت النُّبُوَّةُ بَطَلَ ذلك، فَحَمَلَهُ الحسد على النفاق، وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود، فلما جاء النبي ﷺ بدِينِه وقد أظهر الله حسنه ونوره مالت إليه القلوبُ، لا سيما لما نصره الله يوم بدر، ونَصَرَهُ على يهود بني قينقاع صار معه الدينُ والدنيا، فكان المقتضى للإيمان في عامة الأنصار قائماً، وكان كثير منهم يعَظِّمُ ابن أبيٍّ تعظيماً كثيراً ويُواليه، ولم يكن ابن أبيٍّ أظهر مُخَالَفَةً تُوجِبُ

الامتياز، فلما انخزل يـوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيه ويأخـذ برأي الصبيان ـ أو كما قال ـ انخزل معه خلق كثير، منهم من لم ينافق قبل ذلك اهـ وقول ابن تيميـــة رحمه الله: يبين أنهم لم يكـونـــوا قبل ذلك أقـــرب منهم، بل إمــا أن يتساويـا، وإما أن يكـونوا لـلإيمان أقرب، وكـذلك كان. يـريد رحمه الله أن هؤلاء المنافقين كانوا قبل هذه الموقعة إما قد تساوى عندهم الإيمان والكفر أو كانوا للإيمان أقرب، لكنهم عند هذه الواقعة كانوا أقرب إلى الكفر وأبعد عن الإيمان، وقوله عز وجل: ﴿يقولـون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون.﴾ أي يظهـرون الإسلام بألسنتهم ويبطنـون النفاق والله لا تخفى عليه خافية، وذكرُ الأفواه للتأكيد كما في قوله: ﴿يطير بجناحيه﴾. وقوله عز وجل: ﴿الذين قالـوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا مـا قتلوا، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.﴾ أي يقولـون لأجل إخوانهم في النسب أو الـدار والجوار لا أنهم إخوانهم في الـدين، الذيـن استشهدوا يـوم أحد: لـو أطاعونا وانخزلوا عن محمد كما انخـزلنا عنه وقعدنا عن لقاء جيش أبي سفيان ما قتلوا، فـوبخهم الله عز وجل وَرَدَّ باطلهم بقولـه عز وجل: ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صـادقين﴾ أي قل لهم يـا محمـد إن صـدقتم في مقالتكم فادفعوا الموت عن أنفسكم وهو آت لكم لا محالة.

قال تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين. الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوْهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسَسْهم سوء واتَّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. إنما ذٰلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين.﴾

هذه الآيات هي خواتيم المسك التي نزلت في قصة غزوة أحد، وبعد أن فضح الله مقالة المنافقين الذين أظهروا الشماتة بالمسلمين فيما أصيبوا به من شهدائهم حيث قالوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، وردعهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا جاءهم إن كانوا صادقين، بشَّر هنا المسلمين بأن شهداءهم أحياء عند ربهم يرزقون، حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون.﴾ أي ولا تظنَّن يا محمد أو يا كل من يتأتى منه أن يخاطب بهذا الخطاب أنَّ من فارقت روحه جسده وقتله أعداء الله لاستمساكه بدين الإسلام هو ميِّت كسائر الموتى الآخرين، لأن الله تعالى خصَّهم بمزية لا ينالُها إلا من قتل في سبيل الله حيث أحياهم حياة كريمة خاصة بهم وأجرى عليهم أرزاقهم، فهم يحسون، ويلتذون، ويتنعَّمون، وهم فَرِحُونَ مَسْرُورُون بما منحهم الله من الكرامة والفضل، وبما حباهم به من جزيل الثواب والعطاء والأجر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ، بل أحياءٌ

وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ . ﴾ أن الله تبارك وتعالى ينبـه المسلمين إلى عدم إطلاق لفظ الموتى على الشهداء الذين يُقتلون في سبيل الله، سواءٌ كانوا قد قتلوا في معركة مع الكافـرين كشهداء بـدر وغيرهم، أو قتلوا في غير المعركـة كَسُمَيَّة أمِّ عَمَّار ابن ياسر رضي الله عنهـا التي كان عَدُوُّ الله أبـو جهل يُعَذِّبُهَا بالنـار، ويقول لها: اذكري آلِهَتَنَـا بخير، واذكري محمداً بسـوءٍ، فتشهدُ أنَّ محمـداً رسول الله ﷺ فَضَرَبَهَا بِحَرْبَتِهِ فَقَتَلَهَـا فكانت أوَّل شهيد في الإسـلام، وقد أخبر الله عز وجل أنَّ الشهداء أحياء عند ربهم يُرزَقُون، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياةٌ دنيويـة بل هي حياةٌ بَرْزَخيَّـةٌ خاصةٌ منحها الله تبـارك وتعالى للشهداء، وقد فسرهـا رسول الله ﷺ، فقـد روى مسلم في صحيحه من طـريق مسروق قال: سألنـا عبدالله بن مسعود عـن هذه الآية: ﴿ولا تحسبنَّ الـذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقـون﴾ الآية، قال: إنا قد سألنا عن ذلك، فقـال: أرواحهم في أجوافِ طير خُضْرٍ، لها قنـاديل مُعَلَّقَةٌ بـالعرش، تسرح من الجنـة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلـك القناديل، فـاطَّلع عليهم ربُّهم اطـلاعةً، فقـال: هل تشتهـون شيئا؟ قـالـوا: أيَّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعـل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا. قالوا: يا ربِّ نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَلَ في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أنْ ليس لهم حاجةٌ تُـرِكُوا، وقوله عز وجل: ﴿ولَكن لا تشعرون﴾ يُـوحى بأن حياةَ الشهداءِ لا يعلمهـا إلا الله عز وجل، وما دام قـد أخبر ربُّ العزة جل وعلا أن الشهـداء أحياء عند ربهم يـرزقون، وعَلَّمنا رسول الله ﷺ بعض صور من حيـاتهم التي علَّمَهُ الله عز وجل بها فما علينا إلا التسليم، مع يقيننا أنهم فارقوا الحيـاة الدنيا، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدُلّ عليه الحديث الصحيح المتقـدم حيث قالوا: نريد أن تَـرُدَّ أرواحنا في أجسـادنا حتى نُقتل في سبيلك مـرة أخرى لكننـا لا نُسَمِّيهم

أمواتـا ، وإنما نسميهم شهداء ، وقد استشهـد في غزوة أحد سبعـون شهيداً ، أربعة من المهاجرين وهم حمزة بـن عبد المطلب سيد الشهداء ، ومصعب بن عمير، وعبـدالله بـن جحش وشماس بن عثمان المخـــزومي رضي الله عنهم واستشهد من الأنصار ستة وستون شهيـدا ، وقوله تبارك وتعالى : ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضلـه ويستبشرون بالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .﴾ أي إن الشهداء عند ربهم أحياء يـرزقون حال كونهم مسرورين بما منحهم الله عـز وجل من فضلـه حيث شرَّفهم بـالشهـادة ، والفوز بـالحيـاة الأبدية السعيدة ، والـزلفى من الله عز وجل ، والتمتع بالنعيم المخلد المُعَجَّل لهم ، وهم مسرورون من إخوانهم الـذين تركوهم من خلفهم أحياء في الـدنيا على منهج الإيمان والجهـاد وطـاعـة الله ورسولـه ﷺ وأنهم إذا استشهـدوا في سبيل الله لحقوا بهم ونالوا من كرامـة الله وجوده مثل ما نالوا ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تـركوه وراءهم ، وكما أنهم يستبشرون ويفرحون بالـذين لم يَلْحَقُوا بهم من خلفهم فإنهم يستبشرون ويفرحـون أيضا لأنفسهم بما رزقـوا من نعم الله التي أنعم بها عليهم ، وفضله الـذي منحهم إياه ، وقـد قـال محمد بـن إسحاق : حـدثني إسماعيل بن أميـة عن أبي الـزبير عن ابن عبـاس قـال : قـال رسـول الله ﷺ : «لما أصيب إخـــوانكم بأحـد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضْرٍ، تـرد أنهار الجنة ، وتأكل مـن ثمارها ، وتأوي إلى قنـاديل من ذهب ، في ظل العـرش ، فلما وَجَـدُوا طيبَ مَشْرَبِهِمْ ومَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يَزْهَدُوا في الجهاد ، ولا ينكِلُوا عن الحرب فقال الله تعالى : فأنا أبلغهم عنكم ، فأنزل على رسـولـه ﷺ هؤلاء الآيـات : ﴿ولا تحسبنَّ . .﴾ قـال ابن إسحـاق وحـدثني الحارث بن الفضيل عن محمود بن لبيـد الأنصاري عن ابن عباس أنـه قال :

قال رسول الله ﷺ: الشهداء على بارق نهر بباب الجنة. في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرةً وعشيا. اهـ. وقوله عز وجل: ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ أي ويفرحون أيضا بأن الله يتقبل من جميع المؤمنين أعمالهم الصالحة، ولا يبطل جزاء من صدَّق رسوله وعَمِلَ بما جاء به من عند الله، وقوله عز وجل: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتَّقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسَسْهم سوءٌ واتَّبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم.﴾ هذه الآيات تتحدث عن قصة غزوة حمراء الأسد التي توجه إليها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من غزوة أحد، وقد ذكرت أكثر من مرة في سياق تفسير الآيات السابقة التي تتحدث عن غزوة أحد أن الله عز وجل ألقى الرعب في قلوب المشركين مع أن الجولة الثانية وهي الأخيرة كانت لهم، فانصرفوا عن أرض المعركة وامْتَطوْا إبلهُم راجعين إلى مكة وقد أَلْهَمَ الله تبارك وتعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخرج في اليوم الثاني من معركة أحد في إثر المشركين مخافة أن يرجعوا، ليريهم أن بأصحابه قوةً، وأنَّ معركة أحد لم تخضدْ شَوْكَةَ المسلمين، فَنَدَبَ المسلمين الذين شهِدُوا معركة أحد ـ مع ما بهم من القرح ـ فانتدب منهم سبعون رجلا، فخرج بهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا بحمراء الأسد على الطريق بين مكة والمدينة ــ وهي على بُعد ثمانية أميال من المدينة المنورة، فَعَسْكَروا بها، وكان المشركون قد نزلوا بالرَّوحاء، فلما أفاقوا من رعبهم تلاوموا وقالوا: أصبنا أشراف أصحابِ محمدٍ وقَادَتَهُمْ ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟ فأجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد ذُكِرَ أن مَعْبَدَ ابنِ أبي مَعْبَدِ الخزاعيَّ مَرَّ برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد وكان معبدٌ يومئذ مشركا إلا أنَّ خزاعة مُسْلِمَهُمْ وَكَافِرَهُمْ كانوا عَيْبَةَ نُصْحِ لرسول الله ﷺ

بتهامة، صَفْقَتُهُمْ معه ﷺ، لا يُخْفُونَ عنه شيئا، فقال معبدٌ لرسول الله ﷺ: يا محمد، أَمَا واللهِ لقد عَزَّ علينا ما أصابك، وَلَوَدِدْنَا أَنَّ الله عافاك فيهم، ثم انطلق معبدٌ ـ ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد ـ حتى لَقِيَ أبا سفيان ومَنْ معه بالرَّوحاء ـ والرَّوحاء على الطريق بين مكة والمدينة وهي على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة ـ وقد أخذ أبو سفيان وَمَنْ معه من المشركين أُهْبَتَهُمْ مُجْمِعِينَ الرجعة لاستئصال المسلمين، وكان معبدٌ الخزاعيُّ قد تَجَرَّدَ من ثيابه عندما أقبل على الرَّوحاء إمعانا في تخويف المشركين على عادة النذير العُريان، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءَك يا معبد؟ قال: محمدٌ خرج في أصحابه يَطْلُبُكُمْ، في جَمْعٍ لم أرَ مثله قط، يتحرقون عليكم تَحَرُّقاً، قد اجتمع معه من كان تَخَلَّفَ عنه في يومكم، وندموا على ما صَنَعُوا، فيهم من الحَنَقِ عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول؟ قال: ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد أَجْمَعْنَا الكَرَّةَ عليهم، لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ، قال: فإني أنهاك عن ذلك، ولقد حملني ما رأيتُ على أنْ قلتُ فيهم أبياتاً من الشعر، قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كَادتْ تُهَدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سَالَتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ
تَرْدِي بِأُسْدٍ كرام لا تنابِلَةٍ ... عند اللقاءِ ولا ميلٍ مَعَازِيلِ
فَظَلْتُ عَدْواً أظنُّ الأرضَ مائلةً ... لما سَمَوْا برئيسٍ غيرِ مخذولِ
فقلت وَيْلَ ابن حرب من لقائكمو ... إذا تَغَطْمَطَتِ البطحاءُ بالجيلِ
إني نذيرٌ لأهل البَسْلِ ضاحيةً ... لكل ذي إربةٍ منهم ومَعْقولِ
من جيش أحمَدَ لا وَخْشٍ تَنَابلَةٍ ... وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيلِ

وما أن سمع المشركون من معبدٍ ما قال لهم حتى كادت قلوبهم تنخلع من الرعب والذُّعر، فانطلقوا على وجوههم نحو مكة، ولَقِيَ أبو سفيان نَعِيم بن

مسعود الأشجعيَّ أو ركباً من عبد القيس، فجعل لمن لَقِيَ منهم محمداً ﷺ وأخبره أن أبا سفيان والذين معه قد جَمَعُوا لملاقاة محمد ﷺ وصحبه وردَّه عنهم أن يعطيهم أحمالا من زبيب بعكاظ، فجاء نعيم بن مسعود الأشجعي أو الرهط من عبد القيس إلى رسول الله محمد ﷺ وصحبه وقالوا له وللمسلمين: إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاحذروا لُقياهم وخافوهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون زادهم ذلك القول إيمانا بالله ويقينا بنصره، وقالوا حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل، ولما تيقنوا أن المشركين هَرَبُوا إلى مكة رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وأنزل الله عز وجل في قصة حمراء الأسد هذه الآيات. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوْا أجر عظيم.﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أَبَوَاكَ منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسولَ الله ﷺ ما أصاب يومَ أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إِثْرِهِمْ؟ فانتدب منهم سبعون رجلا، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير. كما روى البخاري من حديث ابن عباس قال: حَسْبُنَا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار، وقَالَهَا محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جَمَعُوا لكم فاخْشَوْهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل اهـ والناس في قوله: ﴿قال لهم الناس إن الناس﴾ هو عام أريد به الخصوص فالمراد بالناس الذين قالوا: هو نعيم الأشجعي أو الرهط من عبد القيس، والناس الذين جمعوا هم أبو سفيان ومن معه. ومعنى: حسبنا الله ونعم الوكيل: أي الله يحفظنا من كل شر ونعم المولى لمن وليه وكَفَلَهُ ممن فوَّض أمره إليه، وقوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم﴾ أي

رجعوا إلى المدينـة بالنعمـة والفضل وصرف السوء واتبـاع الرضـا . وفضل الله كبيرٌ وقوله : ﴿إنما ذُلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مـؤمنين﴾ أي إنما ذلكم الشيطـان يخوفكم أولياءه المشركين فـلا تخافـوا منهم لأنهم حزب الشيطـان وحزب الشيطـان هم الخاسرون، وامنعوا قلـوبكم أن يتسرب لها الخوف إلا من الله وحده لأن هذا هو شأن المؤمنين .

قال تعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئا، يريد الله ألا يجعل لهم حظًّا في الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، ولهم عذاب مهينٌ . ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى قصة غزوة حمراء الأسد وما فيها من الدلالة على رسوخ الإيمان في قلوب المهاجرين والأنصار الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح وأن الله عز وجل صانهم من كل شر وأرجعهم إلى المدينة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله ولما كان رسول الله ﷺ قد أحزنه اندفاع المنافقين في الضلال، وارتداد بعض ضعاف الإيمان إلى الكفر بعد مصاب المسلمين في أحد، وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على دخول الناس في الإسلام لِيَسْلَمُوا من عذابِ يومِ القيامةِ، وكان هذا الحزن يؤثر على نفس رسول الله ﷺ كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين.﴾ لذلك نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الحزن إذا رأى اندفاع الكفار في كفرهم، وبيَّن له ﷺ أن كفر الكافر لا يضُرُّ الله شيئا. وأن الله لو أراد أن يجعل لهم حظًا في الجنة لَوَفَّقَهُمْ للدخول في الإسلام. وفي هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ ومواساة له، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي ولا يؤلمك ما تراه من اندفاع بعض الناس في الكفر،

واتباعهم لشياطين الجن والإنس، وكما قال عز وجل: ﴿يا أيها الرسولُ لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنهم لن يضروا الله شيئا﴾ زيادةُ تثبيت ومواساة وتسلية لرسول الله ﷺ ولتقرير حقيقة أن معصية العاصين وكفر الكافرين لا يضر الله شيئا و إنما وبال ذلك على مرتكبيه، كما أن طاعة الطائعين لا تنفع الله شيئا؛ لأن الله غني عن العالمين ولذلك قال هنا: ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من طريق سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولانيِّ عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما رَوَى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوتُه فاسْتَكْسوني أكْسكُم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني ولن تبلغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني، يا عبادي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ و إنسكم وجِنَّكُمْ كانوا على أَتْقَى قَلْبِ رجلٍ واحِدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكُمْ و إنْسَكُمْ وجِنَّكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نَقَصَ ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم و إنسكم وجِنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلَّ إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحْصيهَا لكم ثم أوفِّيكم إيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ». قال سعيد: كان أبو إدريسَ الخَوْلَانِيُّ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا على رُكْبَتَيْهِ اهـ والمرادُ بالإرادة في قوله عز وجل: ﴿يريد الله ألا

يجعل لهم حظا في الآخرة﴾ هي الإرادة الكونيـة القَدَرِيَّةُ التي بمعنى المشيئة لا الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبـة، والمراد بالحظ هنـا هو النَّصيبُ من نعيم الجنة، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الذين اشتروا الكفـر بالإيمان لن يضرُّوا الله شيئـا ولهم عذاب أليم﴾ هـو مَزِيـدُ مُوَاسـاةٍ لرسـول الله ﷺ ببيان أن عمـوم الكفار الذين رَضُوا بالكفر بـالله ورسله بَدَلَ الإيمان بالله ورسله هم أصحاب الصفقـة الخاسرة، فإن وَبَالَ كفـرهم عائدٌ عليهم، ولن يضروا الله شيئـا ولن يمنعوا عزَّ الإسلام وانتشاره وارتفـاع رايته في العالمين ولن يتمكنوا بكفرهم من إطفاء نور الله مهما جَمَعُوا وبَذَلُـوا وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على إخلاص اليقين والانقطاع إلى الله وحـده، والرضا بقضائه وقَـدَرِه، وبَذْل النفس والنفيس في سبيل الله وابتغاء مرضاته، ليسلموا مـن عقوبة الله المؤلمة الموجعة التي أعدها لمن اشترى الكفر بالإيمان، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما نملي لهم ليزدادوا إثما، ولهم عذاب مهين.﴾ أي ولا يَظُنَّنَّ الـذين كفـروا أنما نُـوَسِّـعُ عليهم في أرزاقهم ورَغَـدِ عيشهم وعـدم تعجيلهم بعقــوبـات معــاصيهم هـو لمصلحتهـم، بل إنما نَفْعَلُ ذلك بهم استـدراجـاً لهم من حيث لا يعلمـون، فإنَّ حكمـة الحكيم اقتضت أنـه إذا سخط على العبد واشتدَّ غَضَبُهُ عليه أَمْلَى لـه وأرخَى له في عيشه ليأخذه أخذ عزيز مُقْتَدِرٍ فيكون ذلك أشـدَّ في العقوبة، وأعظم في الإيلام وفي ذلك يقول تبارك وتعـالى: ﴿والذين كَذَّبُوا بـآياتنا سنستـدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إنَّ كيدي متين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إنَّ كيدي متين.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أيحسبون أنما نمـدُّهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات، بل لا يشعرون.﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يـريـد الله ليعـذبهم بها في الحيـاة الـدنيـا وتـزهق أنفسهم وهم

كافرون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون . ﴾ وأصل الإملاء هو التوسعة والإرخاء يقال : أمليت للبعير في القيد أي أرخيت له ووسعت ، والعاقل إذا تواترت عليه النعم ازداد شكره لله عز وجل مع خوفه أن تكون استدراجاً ، والفاجر إذا تواترت عليه النعم ازداد بَغْياً وكفراً وطغياناً ، والله تبارك وتعالى يعطي الدنيا لمن يحبه ولمن لا يحبُّهُ ، ومن يحبه الله عز وجل إذا أعطاه النعمة شكر الله عليها ، ومن لا يحبه الله إذا أنعم الله عليه بنعمة اعتقد أنها من عِلْمِه وقد قال عز وجل في وصف غرور بعض الكفار بالنعمة : ﴿فإذا مسَّ الإنسان ضُرٌّ دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة ولٰكنَّ أكثرهم لا يعلمون . ﴾ وكما قال عز وجل عن قارون : ﴿إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنَّ مفَاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي﴾ الآيات . وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ ، قال : ثم قرأ : ﴿وكذٰلك أَخْذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليم شديد . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ما كان الله لِيَذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطَّيِّب ، وما كان الله لِيُطْلِعَكُمْ على الغيب ولٰكن الله يَجْتَبِي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله ، وإن تؤمنوا وتتقوا فَلَكُم أجر عظيم . ﴾ هذه هي خاتمة الآيات التي تحدثت في هذه السورة الكريمة عن غزوة أحد وغزوة حمراء الأسد الملحقة بها ، وقد أشار الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى

الفقه فيما ابتلى به المسلمين في غزوة أحد وفي غزوة حمراء الأسَد، وهو أنَّ المجتمع السعيدَ لا يقوم على أفرادٍ مختلفي العقائد، متناقضي الميول والاتجاهات في الباطن في الوقت الذي يبدو للناس أنهم وحدَةٌ متماسكة متحابون متعاطفون؛ لأن اختلاط الخبيث بالطيب يُلْحق الضرر بالطيب من حيث لا يدري أن الذي يخالطُهُ خبيث، واختلاط المنافقين بالمؤمنين دون تمييز أخطر على المؤمنين من أن تختلط بهم الأفاعي والحيات والعقارب، ولما كان المنافق يبطن كفره ويظهر الإسلام والانقياد لله ورسوله، وقد حجب الله عز وجل الغيب عن الخلق لأنه وحده هو علام الغيوب، ولا يُظْهِرُ على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يُطلِعُه على بعض الغيب، اقتضت حكمةُ الله عز وجل أن يُطلعَ رسوله ﷺ على أشخاص بعض المنافقين فَيَعْرِفَهُمْ بأسمائهم أو سيماهم أو لَحْنِ القول، ولم يكن من الحكمة أن يعرف ذلك كلُّ فرد من المؤمنين، فلذلك هيأ الله تبارك وتعالى من الحوادث والجولات بين المؤمنين والكافرين في أُحُدٍ وغيرها فانكشف نفاق كثير من المنافقين وعرف المؤمنون الخبيث من الطيب والعدوَّ من الصديق، وعلى المؤمن أن ينقاد لله وأن يستجيب لرسله عليهم الصلاة والسلام ومن يؤمن بالله ورسله ويتق الله عز وجل في جميع شأنه فله عند الله عز وجل أجر عظيم وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه﴾ أي ما كان الله ليترك المؤمنين يندسُّ في صفوفهم المنافقون دون تمييز، ولذلك قال: ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ وأشار إلى أنه ليس من الحكمة إطلاع كلِّ فرد فردٍ من المؤمنين على نفاق كل فرد فرد من المنافقين حيث يقول: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء﴾ أي فيطلع الرسول على بعض الغيب، ومن ذلك تعريفه ببعض المنافقين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من صفاتهم في سورة التوبة التي

فضحتهم وبينت مخازيهم، وقال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم. ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم، ولتعرفنَّهم في لحن القول، والله يعلم أعمالكم.﴾ وقد أخبر رسول الله ﷺ حذيفة رضي الله عنه ببعض أسماء المنافقين، وكان يُسَمَّى صاحب سرِّ رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين.

قال تعـالى: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضلـه هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوّقـون ما بخلوا به يوم القيـامة، ولله ميراث السموٰات والأرض، والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الـذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهـم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق . ذٰلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد . الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لـرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النـار، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين . ﴾

بعد أن حـرَّضَ الله تبارك وتعالى على بـذل النفس في الجهاد في سبيل الله، وأكَّد ذلك بصور تجعل مَن به رشد يحرص على القتال لإعلاء كلمة الله، شرع هنـا في التحـريض على بـذل المال في سبيل الله، وأكـد ذلك ببيـان الـوعيـد الشديد لمن يبخل ببذل المال في وجوه الخير التي أوجب الله على الأغنياء بذل جزء معين فيها وعلى رأسها الزكاة التي جعل الله تبارك وتعالى من مصارفها ما يبذل للغزاة، وقـوله عز وجل: ﴿ولا يحسبن الذين يبخلـون بما آتاهـم الله من فضله هـو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوَّقون مـا بخلوا به يوم القيـامة، ﴾ أي ولا يظنَّنَّ الذين يكنـزون أموالهم ويشحون بها فـلا يخرجون منها مـا فرض الله عليهم فيهـــا أنهم يفعلـــون خيراً لأنفسهم بل هم يفعلـــون لأنفسهم شرا ويقدمـونها إلى عذاب الله، وأن الله تبـارك وتعالى سيجعلهـا عليهم طـوقا في أعناقهم يوم القيـامة وفي قوله عز وجل: ﴿بما آتـاهم الله من فضله﴾ أي هو عاريـةٌ بأيديهم جعلهم الله عز وجـل مستخلفين فيه، وقد جـاد به عليهم، وقد أكـد الله عز وجل وخامة عـاقبةِ البخل بتَخْطِئَةِ أهله المتـوهمين خَيْرِيَّتَهُ، حيث قـال: ﴿ولا يحسبن الـذين يبخلـون بما آتاهـم الله من فضلـه هـو خيرا لهم﴾ ثم قـال: ﴿بل هو شر لهم﴾ للتنصيص على شَرِّيَّتِـهِ المفهومـة من نفي

خيريته للمبالغة في تأكيد أنـه شرٌّ لهم، ولا خير لهم فيه بحال من الأحوال، ثم قال عز وجل: ﴿سيطـوَّقون ما بخلوا بـه يوم القيامة﴾ لبيـان كيفية شَرِّيته بِذكر صورة مزعجة مخيفة من صور عقوبة أهله عند الله يوم القيامة، وقد قال البخـاري في صحيحه: بـابٌ ﴿ولا يحسبن الـذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله هـو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوَّقـون ما بخلـوا به يوم القيـامة، ولله ميراث السمٰوات والأرض، والله بما تعملـون خبير. ﴾ سيطـوقـون كقـولك: طَوَّقْتُهُ بِطَوْقٍ، حدثني عبدالله بن منير سَمِعَ أبـا النضر حدثنا عبدالرحمن هو ابن عبدالله بن دينار عن أبيـه عن أبي صالح عن أبي هريرةَ قـال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ آتـاه الله مالاً فلم يـؤدِّ زكاتـه مُثِّلَ لـه مالُـه شجاعـاً أَقْرَعَ، لـه زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يوم القيامة يأخذ بِلِهْـزِمَتَيْهِ يعني بِشِدْقَيْهِ، يقول: أنا مَالُكَ، أَنَا كَنْـزُكَ، ثم تلا هـذه الآية: ﴿ولا يحسبنَّ الـذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله﴾ إلى آخر الآية، والمراد بالشجاع الأقـرع هو الثعبان الذي ابْيَضَّ رأسُه من كثرة السم، وقولـه عز وجل: ﴿ولله ميراث السمٰوات والأرض﴾ المقصود منـه بَيَـانُ أنَّ هؤلاء البخـلاءَ الـذين يَشُحُّـونَ فلا يُـؤَدُّونَ حقَّ الله في أمـوالهم سينتقلون عنها لا محالة، إذ لا بقاء إلا للحى القيـوم الذي له ملك السموات والأرض، وقد كانت أموال الناس عاريةً بيد من جعلهم مُسْتَخْلَفِينَ فيها فإذا ماتوا رُدَّتْ العـارية إلى صاحبها الذي كـان قد أعارهم إياهـا، وقد فاتهم أن يُقَدِّموا لأنفسهم خيرا إذا بَخِلُوا بحق الله عز وجل فيها ولم يُؤَدُّوا ما ألزمهم الله تبارك وتعـالى بأدائه منهـا، ومآل جميع مـا في السموات والأرض لـه وحده لا شريك لـه كما قـال عـز وجل: ﴿إنـا نحن نـرث الأرض ومن عليهـا وإلينـا يرجعـون. ﴾ وقوله عز وجل: ﴿والله بما تعملـون خبير﴾ وعيد شديـد للذين يبخلون بما آتـاهم الله من فضله، ولكل من يخالف أمر الله عـز وجل، ووعد للمحسنين من عبـاد الله حيث أخبر عز وجـل أنه ذو خبرة وعلم بجميع مـا

يفعلـه عباده، محيط بـذلك كله وسيجـازي المحسن بإحسـانه من فضلـه، ويجازي المسيئين بعـدلـه، ولا يظلم ربك أحـدا مـع عفـوه عمن يشـاء من عباده. وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿لقـد سمع الله قول الـذين قـالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب مـا قالـوا وقتلهـم الأنبياء بغير حقٍّ﴾ هـذه صورة من صور جهل الإنسـان بربـه وعدم معـرفته بخـالقه ورازقه، حيـث قال بعض هؤلاء الجاهلين: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولا شـك أن اليهود يعتبرون أجرأ خلق الله عز وجل على وصف الله تبـارك وتعالى بما لا يليق بـه، فهم يصفون الله عز وجل بالبخل والشُّح كما قال تبـارك وتعالى عنهم: ﴿وقالت اليهود يَدُ الله مغلولـة، غلت أيديهم ولعنـوا بما قالـوا، بل يداه مبسوطتـان ينفق كيف يشاء،﴾ وقد أضاف الله تبـارك وتعالى إلى قبيح قولهم هذا قبيح فعلهم حيث قال هنا: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ وفي هذا السياق الكريم تحذير شديد للمسلمين المَدْعُـوِّينَ للبـذل في سبيل الله من أن تتـأثـر نفـوس بَعْضِهِم من بعض ما يلقيه اليهـود من الشُبَه وما يفترونه من وصـف الله بما لا يليق به عز وجل، وفي اقتران مـا وَصَفُوا الغَنِيَّ الكريـم بأنه فقير وأنهم أغنياء بـأنهم قتلة الأنبياء مما يجعل من له مسكة من عقل يحذر منهم أشد الحذر، ولا يتشبه بهم في فعل ولا خبر، والسين في قـولـه عـز وجل ﴿سنكْتُبُ مَا قَـالُـوا﴾ لتأكيـد الوعيـد، أي لن يفوتنا أبدا تسجيلـه عليهم وتدوينُه في صحائفهم لكـونه في غاية الجُرْم والمقصـود أنه سيعذبهم به ويـذيقهم عذاب الحريق ولن يغفر لهم هـذه الخطَيئـة أبـدا، فـلا يأملـون عفـو الله عنهم بحـال من الأحـوال، كما سنكتب عليهم قتلهم أنبيـاء الله بغير حق ولـن نعفـو عمن قتل نبيـا أبـدا، وتَـوَسُّطُ هذا الـوعيـد بين جرأتهم في وصـف الله بأنه فقير وأنهم أغنيـاء وبين جرأتهم في قتلهم الأنبياء لتعجيل مَسَاءَتِهِم وأنه لن يَمْحُوَ هذه الخطايا بحال من الأحوال، حيـث صاروا أجرأ خلق الله على الله وعلى رسلـه، ولا شك أن

كل ذنب يـرتكبه إنسـان يكتب عليـه في صحيفة عملـه، وهو مكتـوب قبل ذلك في اللوح المحفوظ، غير أنَّ مَنْ يَتَفَضَّلُ الله بعفوه عن ذنبه أو يتوبُ توبةً نصوحـا في الوقت الـذي تقبلُ فيه توبتـه فإنَّ الله عز وجل يمحـو سيئته من صحيفته ولا يـؤاخذه بِزَلَّته، أمـا هذا القول البَشِعُ على الله عـز وجل وكذلك قتل الأنبياء فقـد أشار الله عز وجل بقولـه: ﴿سنكتب ما قالـوا﴾ إلى أنه لن يمحو هذه السيئـة أبدا ولن يغفر لمرتكبها بحال من الأحوال ولـذلك قال عز وجل بعدهـا: ﴿ونقول ذوقوا عذاب الحريق.﴾ أي ونقـول للقائلين بأن الله فقير ونحن أغنيـاء، القـاتلين أنبياء الله بغير حـق نقول لهم: ذُوقُـوا عـذاب الحريق أي عذاب نار محرقةٍ مُلْتَهِبَةٍ، فالنار اسم جامعٌ للملتَهِبة وغير الملْتَهِبة قـال ابن جريـر: وإنما الحريق صفة لما يـرادُ أنها مُحْرِقةٌ كما قيل: عـذاب أليم يعني: مؤلم. ووجيع يعني مـوجع اهـ فإن قـال قائل: كيف قيل: ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حـق﴾ والمعروف أن الذين قـالوا: إن الله فقير ونحن أغنيـاء هم المعـاصرون لـرسـول الله ﷺ ولم يكن من أولئـك أحـدٌ قتل نبيـا من الأنبيـاء فالجواب: أن المعاصرين منهم القـائلين بأن الله فقير راضون بما فعل أوائلهم وأسلافهم من قتل من قتلوا من الأنبياء، وكانوا على منهاجهم من استحلال ذلك واستجازته، وقد هَمُّوا بقتل النبي ﷺ أكثـر من مرة فهم لم ينسلخوا من أعمال آبائهم البشعـة، ولم يخرجوا عن كـونهم إخوان القـردة والخنازيـر وقتلة الأنبياء، وقوله تبارك وتعـالى: ﴿ذٰلك بما قدمت أيديكم وأنَّ الله ليس بظَلَّام للعبيد.﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وأمـا قوله: ﴿ذٰلك بما قدمت أيـديكم﴾ أي قولنا لهم يـوم القيامة: ﴿ذوقـوا عذاب الحريق﴾ بما أسْلَفَتْ أيديكم، واكْتَسَبَتْهَـا أيام حياتكم في الدنيـا، وبأن الله عدلٌ لا يَجُورُ فَيُعَـاقب عبدا لـه بغير استحقاق منـه العقـوبة، ولكنـه يجازي كلَّ نفس بما كسبت، ويوفِّي كلَّ عـاملٍ جزاء ما عَمِلَ، فجازى الـذين قال لهم ﴿ذٰلك﴾

يوم القيامة من اليهـود الذين وَصَفَ صِفَتَهُمْ ، فأَخْبَرَ عنهم أنهم قالوا : ﴿إن الله فقير ونحن أغنيـاء﴾ وقتلوا الأنبيـاء بغير حق بما جَـازَاهُـمْ به من عـذاب الحريق ، بما اكْتَسَبُوا من الآثام ، واجْتَرَحُوا من السيئات ، وكذبوا على الله بعد الإعذار إليهم بالإنذار ، فلم يكن تعالى ذِكْرُهُ بما عاقبهُم به من إذَاقَتِهِمْ عذابَ الحريق ظـالما ولا واضعاً عُقُوبَتَـهُ في غير أهلها ، وكـذلك هو جـل ثناؤه غيرُ ظَلَّامٍ أَحَـداً من خلقه ، ولكنه العـادلُ بينهم والمُتَفَضِّلُ على جميعهم بما أَحَبَّ مِنْ فَوَاضِلِهِ ونِعَمِهِ اهـ وقولُه تبارك وتعالى : ﴿الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا ألاَّ نؤمن لـرسولٍ حتى يأتينـا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُـهُ النارُ ، قل قـد جاءكم رسل من قبلي بالبينـاتِ وبالذي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُـمْ إنْ كنتم صادقين .﴾ هذا بيان لفـرية أخرى من مفتريات اليهود على الله وعلى رسله حيث زعموا أن الله وصَّاهـم ألا يُصَدِّقُوا رسولا من الرسل أو نبيا من الأنبيـاء إلا إذا قدَّم أَمَامَهُمْ قربانا لله عز وجل وجاءت النـار وأكلت هذا القـربان وهم يبصرون . وأرادوا بهذه الفـرية الطعنَ في نبوة خـاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ حيث لم يجئهم بقـربان تأكلـه النـار ، كما أنهم يَعْتَلُّون بهذه الـدعـوى الكـاذبة أمـامَ رعـاعهم حيث يُـوهِمُونَهُمْ أنهم لم يـدخُلُوا في دين محمـد لأنـه لم يجئهم بقـربان تأكلـه النـار ، والثـابت أن الله عز وجل لما جعل الغنـائم محرمـة على بني إسرائيل كانـوا إذا جمعوا الغنائم جاءت نـار فأكلتها ، تَعَنَّتَ بعضهم فطلبوا من بعض أنبيائهم أنهم لن يصدقوهم مهما جاءوا بالمعجزات إلا إذا كانت إحدى هذه المعجزات أن يُقَرِّبَ النبي قـربانـا وتَأْتِي النارُ فتأْكُلَهُ وقـد أيد الله عـز وجل بعض أنبيائه بهذه المعجزة ، وليست لكـل نبيٍّ ولا شرطا في تصديق جميـع الرسل ، لأن الله عـز وجل إذا أَيَّد الـرسـول بأي معجزة كـانت وَجَبَ تصـديقه ، ومعجـزاتُ موسى عليه السلام عند فرعون كانت بأمور ليس من بينها نارٌ تأكل القربان ، فَرَدَّ الله عز وجل هنا بـاطلهم ، وأفحمهم في شبهتهم ، حيث قال : ﴿قل قد

جـاءكم رسـل من قبلي بـالبينـات وبـالـذي قلتم فلم قتلتمـوهم إن كنتم صادقين . ﴾ أي قد جاءتكم الرسل قبل محمد ﷺ بمعجزات كثيرة وبالمعجزة التي طلبتموهـا تعنتاً لا استرشادا . فلم قَتَـلَ أسلافكم هؤلاء الأنبيـاء الذين جـاءوهم بما طلبـوا ورضيتم أيها المعـاصرون من أبنـائهم فعلهم إن كنتم أنتم تطلبون المعجزة لـلإرشاد لا للتَّعَنُّتِ ، مع أن محمداً ﷺ قد جـاءكم بالبينات الحسية والمعنوية التي يؤمن على مثلهـا البشر، وأنتم تعرفون في قرارة نفوسكم أن محمدًا رسول الله كما تعرفون أبناءكم ولكنكم تكتمون الحقَّ وأنتم تعلمون .

قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير . كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنةفقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . لتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرا، وإن تصبروا وتتَّقوا فإنَّ ذٰلك من عزمِ الأمورِ . ﴾

بعد أن أبطل تبارك وتعالى شبهة القائلين لرسوله محمد ﷺ إن الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النارُ، وأفحمهم بما لا يدع مجالا للشك أنهم متعنتون لا مسترشدون ذكر لرسوله محمد ﷺ أنهم إذا لم يؤمنوا به بعد هذه البينات، واستمروا على التكذيب كان الحامل لهم هو العناد لا طلب الحق، لأن شُبَهَهُم قد أزيلتْ، ومُفْتَرياتِهِمْ قد أبطلتْ فلا تبتئسن بتكذيبهم، فإن هذا التكذيب لك ليس أمراً مختصا بك من بين سائر الأنبياء بل شأنُ جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء والطعن فيهم مع أنَّ حالهم في ظهور المعجزات على أيديهم وفي نزول الكتب إليهم كَحَالِكَ ومع هذا فإنهم صبروا على ما نَالَهُم من أولئك الأمم واحتملوا ما تَعَرَّضُوا له من الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله عز وجل، فكن مُتَأَسِّيا بهم، سالكا مسلكهم، حيث يقول عز وجل: ﴿فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿فإن كذبوك فقد كُذب رسل من قبلك﴾ أي فلستَ أول مكذَّب حيث كُذب إخوانك المرسلون من قبلك، ولا شك أن مما يُهَونُ على النفس مُصيبتها كونها عامةً كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لا أزال أرى عجولا ... ونائحةً تَنُوحُ ليوم نحس

وما يبكيـن مثـلَ أخـي ولكـن أُسَلِّي النفـس عنـه بـالـتـأسـي

والمراد بالبينات : المعجزاتُ والحُجَجُ والبراهينُ الدالة على صدقهم ، والمراد بالزبُر: الكتبُ كما قال امرؤ القيس :

لِمَـنْ طَلَلٌ أَبْـصَرتُـهُ فَـشَـجَانـي كَـخَـطِّ زَبُـورٍ في عَـسِيبِ يمـانـي

وعلى هذا فالعطف في قوله : ﴿والكتاب المنير﴾ لمزيد فضله وتأكيد شرفه ، وقد يراد بالزبر الصحف وبالكتـاب المنير التوراة والإنجيل ، وقد يراد بالزُبر: الزواجـر والمواعظ من الزَّبْـرِ وهو الزجـر يقال : زَبَـرْتُ الرجلَ إذا زجـرتُه عن الباطل وسمي الكتـاب زبورا لما فيه من الـزَّبْرِ والزجر عن مخالفـة الحق ، وقد سُمِّي كتـاب داود عليـه السلام زبـورا لكثـرة مـا اشتمل عليه من الـزواجـر والمواعظ ، والمراد بالمنير: أي الواضح المضيء الذي ينير الطريق للسالكين إلى الله عـز وجل فيسيرون على منهج الـرشد ، وهم على بصيرة وبـرهـان وصراط مستقيم ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا الذكـر في مقام آخر من كتابه الكريم في سـورة فاطـر حيث قـال : ﴿وإن يكـذبـوك فقد كـذَّب الـذين مِنْ قَبْلِهم جاءتهم رسلهم بالبينـات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخـذت الذين كفروا فكيف كان نكير. ﴾ وقـوله عز وجل : ﴿كلُّ نفسٍ ذائقة الموت ، وإنما تـوفون أجوركم يوم القيامة﴾ هو لتأكيـد تسلية رسول الله ﷺ والمبالغة في إزالة الحُزْنِ من نفسه ، وفيه وعيـد لِلْمُتَمَادِينَ في ضلالهم ، المعاندين للحـق بعد ما تَبَيَّنَ ، المكذبين لرسـول الله ﷺ مع ظهور براهين صدقه ومعجـزاته ﷺ ، وكأنه قيل لهؤلاء المعاندين : لن تُفْلِتُوا من عقـاب الله ، فستموتون ، وستلقون من عقاب الله وعـذابـه ما تُجْزَون بـه على عنـادكم وكفـركم واستمـراركم على ضـلالكم وغيّكم ، ولستم بمخلَّدِين في هذه الدنيـا ، بل أنتم راحلون عنها منتقلون إلى دار الحســاب والجزاء في الآخــرة حيث تُـوفَّى كل نفس مــا كسبت وهم لا يظلمون . والـدنيا ليست دار جـزاء وإنما هي دار العمل ، وقولـه عز وجل :

﴿فمن زُحْـزِحَ عن النار وأدْخِلَ الجنـة فقـد فاز، ومـا الحياة الـدنيا إلا متـاع الغُرُورِ . ﴾ بعد أن أوضح تبارك وتعالى أن مَرَدَّ الناس إلى الله عز وجل وأن كل نفس تُوفَّى مـا كسبت وهم لا يظلمون أشار إلى أن الناس في الآخـرة فريقان : فريق في الجنة وفـريق في النار، لأنهم إما شقي أو سعيد، ﴿فأمـا الذين شَقُوا ففي النار لهم فيهـا زفير وشهيق. خالدين فيها مـا دامت السمٰوات والأرض إلا مـا شـاء ربك إن ربك فعَّـال لما يـريد. وأمـا الـذين سُعِـدُوا ففي الجنـة خـالـدين فيهـا مـا دامت السمٰوات والأرض إلا مـا شـاء ربك عَطَـاءً غير مجذوذ. ﴾ ولذلك قـال عز وجل هنا : ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النـار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز، ومـا الحياة الدنيا إلا متَاعُ الغـرور. ﴾ أي فمن نُحِّي عن النار وأبعد عنهـا فقد نجـا وظفر بـالنعيم المقيم، ومـا لذات الـدنيـا وشهواتها وزينتهـا وزَخَارِفُهَا إلا مُتْعَةٌ مُضمَحِلَّةٌ لا بقـاء لها ولا دوام فلا يركن إليها إلا المغرورون المخدوعـون، وقد روى مسلم في صحيحـه من حديث عبـدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قـال : كنا مـع رسول الله ﷺ في سفـر، فَنَزَلْنـا مَنْزِلا، فمِنَّا من يصلح خِبَاءَهُ ومنا مَنْ ينتضل ومنـا مَنْ هو في جَشَرِهِ إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : الصلاة جـامعةً، فاجتمعنا إلى رسـول الله ﷺ، فقال : إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كـان حقـاً عليـه أن يَـدُلَّ أُمَّتَـهُ على خير مـا يعلمـه لهم، ويُنْـذرهم شَرَّ مـا يعلمـه لهم، وإن أمتكم هـذه جعل عـافيتهـا في أولها، وسيصيب آخـرها بـلاءٌ وأمورٌ تنكـرونها، وتجيء فتنـة فيُرَقِّقُ بعضها بعضـا، وتجيء الفتنـة فيقولُ المؤمن هـذه مُهْلِكَتِي ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقـول المؤمن : هذه، هـذه. فمن أحبَّ أن يُزَحْزَحَ عـن النار ويُدْخَلَ الجنـة فَلْتَأْتِهِ مَنِيتُهُ وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخـر ولْيَأْتِ إلى الناسِ الذي يُحِبُّ أن يُؤْتَى إليه. الحديث. وقوله تبارك وتعـالى : ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولَتَسْمَعُنَّ من الـذين أوتوا الكتـاب من قبلكم ومن الذين أشركـوا أذًى كثيرا، و إن تصبروا

وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. ﴾ هذا مقامٌ آخَرُ من مقامات مواساة رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم وإشارة إلى أن أذى أعداء الإسلام للمسلمين لن يتوقَّف، وأنهم سيبذلون كلَّ ما يُمْكِنُهُم من إيذاء المسلمين في أنفسهم وفي أموالهم، والغرض من هذا الإعلام هو أن يوطِّنَ المسلمون أنفسهم على الصبر وعدم الجزع مما قد يصيبهم مستقبلا، لأن من عادة النفس إذا تهيأت للبلاء قبل نزوله، كان وقوعه أخفَّ وقْعًا عليها ومعنى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ولتسْمعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ أي لتُخْتَبَرُنَّ بشيء من الأذى يصيبكم في أموالكم وأنفسكم لرفع درجاتكم أو تكفير سيئاتكم، وسَيَنَالُكُمْ أذًى كثيرٌ من الكتابيين والمشركين. قال البخاري في صحيحه: بابٌ، «ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيراً» حدثنا أبو اليمان أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزهريِّ قال: أخبرنا عروةُ بن الزبير أنَّ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أخبره أنَّ رسول الله ﷺ رَكِبَ على حمار، على قَطيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وأردف أسَامة بن زيد وَرَاءَهُ يَعُودُ سعد بن عبادَةَ في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعةبدر، قال: حتى مَرَّ بِمَجلسٍ فيه عبدالله بن أبيٍّ ابن سَلُولَ، وذلك قبل أنْ يُسْلِمَ عبدالله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عَبَدَةِ الأوثان واليهود، وفي المجلس عبدالله بن رَوَاحَةَ، فلما غَشِيتِ المجلس عَجَاجةُ الدَّابةِ خَمَّرَ عبدالله بن أبيٍّ أنْفَهُ بردائه، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسَلَّمَ رسول الله ﷺ عليهم ثم وقف، فنزل فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبدالله بنُ أبيٍّ ابن سلول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رَحْلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبدالله بن رَوَاحَةَ: بلى يا رسول الله، فاغْشَنَا به في مجالسنا، فإنا نُحِبُّ ذلك، فاسْتَبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَتَثَاوَرُونَ، فلم

يزل النبي ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حتى سَكَنُوا، ثـم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادةَ، فقال له النبي ﷺ: يـا سعد ألم تَسْمَعْ ما قال أبو حُبابٍ؟ يريد عبدالله بن أبي، قال: كذا وكـذا. قال سعد بنُ عُبَادَةَ يا رسول الله، اعْفُ عنـه، واصفح عنه، فـوالذي أَنْـزَلَ عليك الكتابَ لقـد جاء اللهُ بـالحق الـذي أَنْزَلَ عليـك لقد اصطلح أَهْـلُ هذه البُحَيْرةِ على أنْ يُتَـوِّجُـوه فَيُعَصِّبُوهُ بالعصابة، فلما أبى الله ذلـك بالحق الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك، فذلك فَعَلَ به ما رأيت، فَعَفَا عنـه رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ وأصحابُه يَعْفُونَ عن المشركين، وأهل الكتاب، كما أَمَرَهُم الله، ويَصْبِرونَ على الأذَى، قال الله عز وجل: ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا﴾ الآية، وقال الله: ﴿ودَّ كثير من أهـل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفـارا حسدا من عنـد أنفسهم﴾ إلى آخر الآيـة، وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفـو ما أمره الله بـه، حتى أذِنَ الله فيهم، فلما غـزا رسول الله ﷺ بدراً، فَقَتَلَ الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعَبَـدَة الأوثـان: هذا أمـرٌ قـد تَـوَجَّـه، فَبـايَعوا الـرسـول ﷺ على الإسلام، فأسلَمُوا. وقوله عز وجل: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذٰلك من عزم الأمـور.﴾ أي وإن تحبسوا أنفسكم عن الجزع فيما تتعـرضـون له من الابتـلاء والاختبار في أموالكم وأنفسكم وما تتعرضـون له من أذى الذين أوتوا الكتاب والمشركين وتحتسبـوا ما تصـابـون به من ذلك عنـد ربكم فإنكم تكـونون قـد أخذتم بأحسن مناهج الـرشد مما ينبغي لكل عاقل أن يعزم عليـه ويَلْتزِمَ به.

ولذلك أمر الله عز وجل المسلمين بالصبر والتقـوى في هذه المقامات المتقاربة من سورة آل عمـران للتأكيد على المسلمين بسلـوك هذا المنهج الـرشيد حيث قـال: ﴿وإن تصبروا وتتقـوا لا يضركم كيـدهم شيئـا﴾ وقـال: ﴿بلى، إن تصبروا وتتقـوا ويأتـوكم من فورهـم هٰذا يمـددكم ربكم بخمسـة آلاف من

الملائكة مسَـوِّمِين . ﴾ لينال المسلمون بـذلك الدرجـات العلى ويحصلوا على الفوز في الـدنيا والآخرة وليكـونوا من المحسنين كما قال عـز وجل : ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

قال تعـالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الـذين أوتوا الكتاب لتبيننـه للناس ولا تكتمونـه فنبذوه وراء ظهـورهم واشتروا به ثمنـا قليلا فبئـس ما يشترون . لا تحسبن الـذين يفرحـون بما أتـوا ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا فـلا تحسبنهم بمفـازة من العـذاب ولهم عـذاب أليم . ولله ملك السمٰوات والأرض ، والله على كل شيء قديـر. إن في خلق السمٰوات والأرض واختـلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب .﴾

بعد أن أشار الله تبـارك وتعالى إلى بعض أقوال اليهود المنحـرفة من زعمهم أن الله فقير وهم أغنياء ، وما افتروه على الله حيث قـالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسـول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ومـا ردَّ الله عز وجل به شبهتهم ، وأدحض فـريتَهُم ، وقَبَّح فعلهم حيـث وصفهم بأنهم قتلـةُ الأنبيـاء ، ووَطَّنَ نفـوس المسلمين على استقبـال ما ينـالهم من أذى المشركين واليهـود بـالصبر وتقـوى الله عز وجل ، ذكـر عز وجل هنـا قبيحـةً من قبائحهم وهي نبـذهم كتاب الله وراء ظهورهم وبيعه بثمن زهيد من حطام الدنيا الفانية حيث يقول عـز وجل : ﴿وإذ أخـذ الله ميثـاق الذيـن أوتوا الكتـاب لَتُبَيِّنُنَّـهُ للنـاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون .﴾ قال ابن كثير رحمه الله : هذا تـوبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الـذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنـوا بمحمد ﷺ ، وأن يُنَوِّهُوا بِذِكْرِهِ في النـاس فَيَكُـونُوا على أُهْبَـةٍ من أمـره ، فإذا أرسلـه الله تابعـوه ، فكَتَمُـوا ذلك وتَعوَّضُوا عما وُعِدُوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدُّونِ الطفيف ، والحظِّ الدنيويِّ السَّخيف ، فَبِئْسَتِ الصفقةُ صَفْقَتُهُمْ ، وبئست البيعةُ بيعَتُهُم ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ ، فَيُصِيبَهُم ما أصابهم ، وَيَسْلُكَ بهم مَسْلَكَهُمْ ، فَعَلَى العلماء أن يَبْـذُلُوا ما بِأَيـديهم من العلم النافـع ، الدالِّ على

العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئـا، فقد ورد في الحديث المرويّ من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: من سئل عن علم فكَتَمَهُ أُلْجِمَ بِلِجام من نار اهـ وقولُه عز وجل: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الـذين يفرحون بما أَتَوْا ويُحِبُّون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازة من العـذاب ولهم عذاب أليم﴾ هذا وعيد لكل مَنْ يعملُ معصية ويفرحُ بها، ولكل مَـنْ يُحِبُّ أن يُثْنَى عليه بِفِعْلٍ لم يَفْعَلْه، كما هو شأن المنافقين واليهـود، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رجـالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ وسلم كانـوا إذا خَرَجَ النبي ﷺ للغزو تَخَلَّفُـوا عنه وفَرِحُـوا بمقعدهم خلاف رسـول الله ﷺ، فإذا قَدِمَ النبي ﷺ اعْتَذَرُوا إليه وحَلَفُـوا، وأَحَبُّوا أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلـوا فنزلت: ﴿لا تحسبـن الذين يفـرحون بما أتـوا ويحبون أن يحمـدوا بما لم يفعلـوا فلا تحسبنَّهم بمفـازة من العـذاب﴾ كما روى البخـاري ومسلم واللفظ لمسلم أن مروان قـال: اذهب يا رافع ـ لبوّابـه ـ إلى ابن عباس فقل: لئن كان كلُّ امـرئ منا فَرِح بما أتَى وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معـذبا لنُعَذَّبَنَّ أجمعون، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلتْ هذه الآية في أهل الكتـاب، ثم تـلا ابنُ عبـاس: ﴿وإذ أخذ الله ميثـاق الـذين أُوتُـوا الكتـاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للنَّـاسِ ولا تكتمـونه﴾ هـذه الآيـة، وتلا ابن عبـاس: ﴿لا تحسبن الـذين يفـرحون بما أتـوا ويحبـون أن يحمدوا بما لم يفعلـوا﴾ وقـال ابن عباس: سألهم النبيُّ ﷺ عن شيء فكَتَمُـوهُ إياه وأخبروه بغيره، فَخَرَجُـوا قد أَرَوْهُ أن قد أخبروه بما سألهم عنه واسْتَحْمَدُوا بذلـك إليه، وفَرِحُوا بما أَتَوْا مِنْ كتمانهم إيـاه ما سألَهم عنـه اهـــ ولا شك أن حديث أبي سعيـد الخدري نصٌّ متفق عليه بأن هـذه الآية نزلت في المنافقين ولا يمنع ذلك أن تكـون نزلت في المنافقين وفي اليهـود كما أنَّ قولَ ابن عبـاس رضي الله عنهما: إنما أنزلـت هذه الآية في أهل الكتاب، لا يمنَعُ أن تكون أنـزلت فيهم وفي المنافقين، والسياق

العام للآيات هو في المنافقين واليهود كما أن لفظ هذه الآية عام يشمل الوعيد لكل مَنْ فعل فعلا غير محمود وفرح به، وأحبَّ أن يُحْمَدَ بما لم يفعل سواء كان منتسباً للإسلام أو كان من أهل الكتاب لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وإن كان السَّبَبُ يدخل فيه دُخُولاً أَوَّلِيًّا لأن اللفظ العامَ سِيقَ من أجله فلا يخرج منه كما نص على ذلك الأصوليُّون، أمَّا ما يفعله الإنسان من عمل صالح، ويفرح بتوفيق الله عز وجل له وإعانته عليه فليس بداخل في هذا الوعيد حيث أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمن تَسُرُّهُ حَسَنَتُهُ وتَسُوؤُه سيئته فقد روى الترمذي من طريق عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال خَطَبَنَا عمرُ بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قُمْتُ فيكم كَمَقَامِ رسول الله ﷺ فينا، فقال: أُوصِيكم بأصحابي ثم الذين يَلُونَهُم ثم الذين يَلُونَهُمْ، ثم يَفْشُو الكذِبُ حتى يَحْلِفَ الرجلُ ولا يُستحلَفَ، ويَشْهَدَ الشاهدُ ولا يُسْتَشْهَدَ، أَلاَ لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامرأة إلا كان ثَالِثَهُمَا الشيطان عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقَةَ، فإن الشيطان مع الواحد، وَهُوَ من الاثنين أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجنةِ فَلْيَلْزَمِ الجماعة، مَنْ سَرَّتْهُ حسنتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فذلك المؤمنُ. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه، وقد رواه ابنُ المبارك عن محمد بن سُوقَةَ وقد رُوِي هذا الحديث من غير وجهٍ عن عُمَرَ عن النبي ﷺ اهـ ومعنى قوله: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم.﴾ أي فلا تَظُنَّنَّ يا محمد هؤلاء الذين هذه صِفَتُهُمْ بمنجاة من عقوبة الله وشديد عذابه، وقد أُعِدَّ لمن هذه صِفَتُهُ عقابٌ مؤلمٌ موجعٌ، ويجوز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ وبقوله: ﴿فلا تَحْسَبَنَّهُم﴾ لكل من يتأتى منه الحسبانُ، والمقصود على كل حال هو قَطْعُ طَمَعِ هؤلاء المنافقين واليهود في النجاة من عذاب الله وأليم عقابه، وفي توجيه الخطاب لغيرهم للتنبيه على بطلان آراء هؤلاء المنافقين واليهود والحَطِّ من قدرهم، لاَ أنَّ رسول

الله ﷺ يظنُّ أنهم بمنجاة من عـذاب الله وعقوبتـه إن كان الخطـاب له ﷺ، وذِكْـرُ قولِـه: ﴿فـلا تَحْسَبَنَّهُم﴾ بعد قـولـه: ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ للتأكيد وطُـولِ الفصل بين المفعـول الأول وهو قـولـه: ﴿الذين يفـرحـون بما أتوا ويحبـون أن يحمـدوا بما لم يفعلوا﴾ والمفعـول الثاني وهـو قولـه: ﴿بمفازة من العـذاب﴾ والمفازة هي الصحراء والفلاةُ والبرية القفر الخالية من الماء، مأخوذة من الفوز وهو يطلق على النجـاة والظَّفَرِ بـالخير وعلى الهلاك فهو من الأضـداد قال في القاموس المحيط: والمَفَازَةُ المَنْجَاةُ والمَهْلَكَـةُ والفَلاَةُ لا ماءَ بها وفَوَّزَ مات وقال الجوهري في الصحاح: الفَوْزُ: النجاةُ والظَّفَرُ بالخير، والفَوْزُ أيضاً: الهَلاَكُ، تقول منهما: فَازَ يَفُوزُ، وفَوَّزَ أي مات، ومنه قولُ الشاعر:

فَمَنْ للقَوافي شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَـــا إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَّزَ جَـــرْوَلُ

وقال الكُمَيْتُ:

وما ضـرهــا أنَّ كعبـاً ثَــوَى وَفَـوَّزَ مِن بعـده جَـــرْوَلُ

وأفازه الله بكذا فَفَازَ به أي ذهب به، وقـوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾ أي بمنجاة منه، والمفازة أيضا واحدة المفاوز قال ابن الأعرابي: سُمِّيَتْ بذلك لأنها مَهْلَكَةٌ من فوَّز أي هَلَكَ وقال الأصمعي: سميت بذلك تَفاؤُلا بالسلامـة والفوز اهـ قال أبو السعود العماديُّ في تفسير قـوله عز وجل هنا: ﴿ولهم عذاب أليم﴾: بعدما أشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حَقَّقَ أن لهم فـرداً منـه لا غـايـة لـه في المدَّةِ والشِّـدَّةِ، كما تُلَـوِّحُ بـه الجملـة الاسميـة، والتنكير التفخيميُّ والوصف اهـ وقـوله عـز وجل: ﴿ولله مُلْكُ السَّمَـٰوات والأرض، ﴾ أي ولله وحـده لا شريك لـه السلطـان القـاهـر في السمـوات والأرض يتصرف فيهما، كيف يشـاء ويـريد إيجاداً أو إعـدامـا أو إحياء أو إماتَة أو تعذيباً أو إثـابةً دون أن يكون لغيره شائبةُ دَخْلٍ في شيء من ذلك بـوجه من الـوجوه، وقولـه تعالى: ﴿والله على كـل شيء قديـر﴾ زيادة

تقرير لكمال مالكيته وتمام قدرته وشمول مشيئته لكل شيء في السموات وفي الأرض، وفي ذلك تنديد بالذين قالوا إنَّ الله فقير، وأنهم لن يفلتوا من عقاب الله مَلِك السموات والأرض ومَالِكِهمَا، وربِّ كل شيء وسَيِّدِهِ، الحَكَم العَدْلِ، الذي له المُلْك وله الحُكْمُ، وله الخَلْقُ وله الأمر، وقوله عز وجل: ﴿إنَّ في خلق السَّمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.﴾ استئناف سيق لتقرير مضمون ما سَبَق من اختصاصه عز وجل بالسلطان القاهر، والمُلْك الباهر، والقدرة الكاملة الشاملة، وتصديرُ هذه الجملة الكريمة بإنَّ لتأكيد الاعتناء بتحقيق مضمونها ولفتِ انتباه ذوي البصائر للتفكر فيها، ليشاهدوا براهين ألوهيته وربوبيته وأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، كما قال عز وجل: ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض﴾ وقد ذكر عز وجل في هذا المقام: خلق السموات والأرض، واختلافَ الليل والنهار. وقد قال عز وجل في سورة البقرة: ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفُلْكِ التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المُسَخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون.﴾ ولما كان المقام في سورة البقرة مقام سياق أدلة ألوهيته حيث قال: ﴿وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم.﴾ ناسب أن يُفَصِّلَ دلائل التوحيد، أما في هذا المقام فإنَّ المقصود هو ردع القائلين بأن الله فقير وردع الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فاكْتُفِيَ في هذا المقام بذكر شواهد مُلْكِهِ وقدرته، حيث نبه على ذلك بخلقه السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وتكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل، حيث إنَّ من كان له لبٌّ وفهم فإنه يرى في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات وحُجَجاً وبراهينَ تدل على أن الله تعالى هو الحق المبين،

الغني عن العـالمين، الملك القـدوس السـلام المؤمن المهيمن العزيـز الجبـار المتكبر الخالق البارئ المصور، جل جلالـه وتقدست أسماؤه، ولا يدرك ذلك إلا أولـو الألباب أي أصحـاب العقـول، ولذلك ختم هـذه الآيـة الكريمـة بقولـه: ﴿لآيات لأولي الألباب﴾ كما ختم آيـة سورة البقرة بقولـه: ﴿لآيات لقوم يعقلون.﴾

قال تعالى: ﴿الـذين يذكرون الله قياما وقعـودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ربَّنا مـا خلقت هٰذا بـاطلا سبحـانك فقنا عـذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئـاتنا وتوفنـا مع الأبرار. ربنا وآتنا مـا وعدتنا على رسلك ولا تخزنـا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.﴾

بعد أن ذكـر الله تبارك وتعالى شَـوَاهِدَ مُلْكِـهِ وقُدْرَتِهِ ونبّـه إلى أنه إنما يَنْتَفِعُ بهذه البراهين والآيات أُولُـو الألْبَابِ وأصحـابُ العقول، ذكـر هنا جُمْلَـةً من صِفَات أولى الألبـاب وهي تَـدُورُ بين الذكـر والفِكْرِ وهما أبـرَزُ صفات أولى الألباب وأصحاب العقول فقال عز وجل: ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنـوبهم ويتفكـرون في خلق السمٰوات والأرضِ﴾ أي الـذين يُشغِلُـونَ ألسنتهم بذكـر الله عز وجل وتحميده وتقـديسه وتمجيده والثناء عليـه وشكره على آلائه، وترديد أسمائه الحسنى وصفاتـه العلى فإنه من أحبَّ شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنترة:

ولقد ذَكَرْتُكِ والرماحُ نَوَاهِـــلٌ ... منّي وَبِيضُ الهند تَقْطُرُ من دَمِـي

ولقد أشـار الله عز وجل بقـوله: ﴿قيـاما وقعـودا وعلى جنوبهم﴾ إلى أنهم يستغرقون عموم أحوالهم وأوقاتهم، ولا يفترون عن ذكره وشكره والثناء عليه، وهم يـرَدِّدُون فِكْـرَهُمْ وَنَظَـرَهُمْ فيما يحيـط بهم وتقعُ عليـه أَعْيُنُهُم من العـالَم العُلْويِّ والسُّفْلِيِّ حيث يجدون صُنْعًـا بديعًا مُحْكَماً مُتْقَناً، يـدل على أنَّ خالقه وصانعَهُ ومُبْدِعَهُ إلٰه واحدٌ حيٌّ قيومٌ متصف بجميع صفات الكمال لذاته منزه عن كل نقص، له الأسماء الحسنى والصفات العُلَى، وقد ذم الله تبارك وتعالى مَنْ لا يتفكر في خلق السموات والأرض حيث يقـول عز وجل: ﴿وكَأَيِّنْ من

آية في السمٰوات والأرض يمـرُّون عليها وهم عنها مُعرِضـونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿قل انظروا ماذا في السمٰوات والأرض ، ومـا تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السمٰوات والأرض ومـا بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمًّـى ، ﴾ وقد ذكـر الله عـز وجل أن ذوي الألباب الـذاكرين الله عز وجل المتفكـرين في خلق السموات والأرض يقـولون : ﴿ربنـا ما خَلَقْتَ هـذا باطِـلاً سبحانك﴾ أي يـا سَيِّدَنَـا ومَالِكَنَا ومُدَبِّرَ أمورنـا ومُصْلِح شئوننا ما خَلَقْتَ وأَوْجَدْتَ السموات والأرض البديعة الصُّنْعِ ، العظيمة الشَّأنِ باطلاً أي عَبَثاً عَارِياً عن الحكمة تَنَزَّهْتَ عن ذلك يـا عليم يـا حكيم ، وقـد أشـار الله تبـارك وتعـالى إلى خلق السمـوات والأرض بالحق في مقام إثباته للبعث والحساب وجـزاء الكافرين بالنار وجزاء المؤمنين بالجنة وأنَّهُ لو لم يكن هناك حسـابٌ وثوابٌ وعقابٌ يوم القيامة لكان خَلْقُ السموات والأرضِ وما بينهما باطلاً أي عَبَثاً وَلَعِباً يتنزه الله عز وجل عنه حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿وما خَلَقْنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلاً ، ذُلك ظَنُّ الذين كفروا ، فَوَيلٌ للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات كـالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كـالفجار. ﴾ إذ ليس كُلُّ فاجرٍ وظالم ينال جزاء فجوره وظلمه في الحياة الدنيا ، فكم من مجرم يُفْلِتُ من يـد حُكَّام الحيـاة الدنيـا ، لكنه لن يفلت من يـد الحَكَم العدل الـذي يضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا ، وفي ما حكاه الله عز وجل عن هـؤلاء الصالحين من تقـدمة هـذا القول : ﴿ربنـا ما خَلَقْتَ هـٰذا باطـلاً سبحانك﴾ المقْـرونِ بالتفكر في خلق السموات والأرض إشعارٌ بـالتوسل إلى الله عز وجل بين يَـدَي الدعاء بـالعمل الصالح وتنزيـه الله عز وجل عن كل نقص ولذلك رَتَّبُوا الدعاء على هذا التوسل بالفاء حيث قالوا : ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي فَصُنَّا واحفظنا وأَجْرِنَا من عـذاب جهنم . وقوله عز وجل : ﴿ربنا

إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار. ﴾ بيانٌ لتضرع الصالحين إلى الله عز وجل وجُؤَارِهم إليه سبحانه بذكر السبب الذي يحملهم على طلب الوقاية من عذاب النار، لأن من دَخَلَهَا أُخْزِيَ خِزْيا لا خِزى أكبر منه، وعُذِّبَ عذابا لا عذابَ أشدُّ منه، وأهينَ إهانة لا إهانةَ أفْظَعُ منها، حيث لا يدفع عنهم عذابَ الله دافع، وكان مقتضى السياق أن يقال: ومالهم من أنصار، لكنَّ مقتضى الحال اقتضى وَضْعَ الظاهر وهو لفظُ الظالمين موضع الضمير لذمهم والإشعار بسبب دخولهم النار وهو ظُلْمهم بوضعهم معصية الله موضع طاعته وأنَّ الله عز وجل ما ظلمهم بإدخالهم النار، ولكنهم هم الظالمون، وقوله عز وجل: ﴿ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ﴾ هذا تَوَسُّلٌ ثانٍ بين يدي خمس دعوات طَلَبُوهـا من الله عز وجل، حيث توسلوا إليه تبارك وتعالى بأنهم استجابوا لرسول الله محمد ﷺ لما سمعوه يدعو إلى الإيمان فآمنوا بالله وصَدَّقُوا المرسلين، ولا شك أن كلَّ داعٍ إلى الإيمان من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة إنما يَدْعُون على منهج كتاب الله وهَدْي رسول الله ﷺ، والذين يستجيبون لهم هم في حكم المستجيبين لرسول الله ﷺ والدعوةُ الأولى من الدعوات الخمس هي طلب مغفرة ذنوبهم، والدعوة الثانية هي طلب تكفير سَيِّئاتهم، والدعوةُ الثالثة هي أن يلْحِقَهُم الله عز وجل بالصالحين ويتوفاهم مع الأبرر ويختم أعمالَهُم بالصالحات، والدعوةُ الرابعة هي أن يؤتيهم الله عز وجل ما وعدهم على ألسنة رسله من نعيم الجنة لمن مات على الإيمان، والدعوة الخامسة هي أن يُنْجِيهُم من النار المخزية يوم القيامة، وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. ﴾ وفي بدء الدعوات في هذا المقام الكريم بسؤال الله عز وجل أن

يَقِيهُم عذاب النار المُخْزِيَةِ لمن يَدْخُلُهَا، وخَتْم هذه الدعوات بسؤال الله عز وجل أن لا يُخْزِيهُم يوم القيامة بدخول النار إشارةٌ إلى أن الفائز السعيد هو من زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة، ولله در القائل:

تَقُولُ مَالَكَ لمْ تَضْحَك وقد نَظَرتْ عَيْنَاكَ مُضْحِكَ ثَكْلَى ذَاتَ أَفْكَارِ

فَقُلْتُ يَمْنَعُ ضِحْكِي جَهْلُ عاقبتي وإنما يضحك الناجي من النارِ

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أمة محمد: والله لو تعلمون ما أعلم لَضَحِكْتُمْ قليلاً ولبكيتم كثيراً» في حديث الكسوف وفي تذييل هذه الدعوات بقوله عز وجل: ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ إشعار بكمال الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل بالثناء عليه بأنه لا يخلف الميعاد والمقصود من هذا النفي التأكيد بأنه صادق الوعدِ والإشارة إلى أنهم لا يخافون من خُلْفِ وعده عز وجل ولكنهم يخافون من أن يُزِلَّهُم الشيطان ويَخْشَوْن على أنفسهم من سوء العاقبة نسأل الله عز وجل أن يُثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه سميع الدعاء. والمراد بالميعاد الوَعْدُ، وقولُه عز وجل: ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا﴾ هو شبيه بقوله عز وجل: ﴿وما كان قولَهُم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾ هذا وقد كان رسول الله ﷺ إذا قام من نومه قَعَدَ فنظر إلى السماء ثم قرأ: ﴿إن في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ فقد أخرج البخاري من طريق شَرِيكِ بن عبدالله بن أبي نَمِرٍ عن كُرَيْبٍ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بتُّ عند خالتي ميمونةَ، فَتَحدَّثَ رسول الله ﷺ مع أهله ساعةً ثم رَقَدَ فلما كان ثلث الليل الآخِرِ قعد فنظر إلى السماء، فقال: ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.﴾ ثم قام فتوضأ، واسْتَنَّ فَصَلَّى إحدى عشرةَ ركعةً ثم أذَّنَ بلالٌ، فصلى ركعتين ثم خرج فَصَلَّى الصبح وفي لفظ للبخاري

من طريق مَخْرَمَـةَ بن سليمان عن كُرَيْبٍ عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قال: بِتُّ عند خالتي ميمونة، فقلتُ: لأَنْظُرَنَّ إلى صلاة رسول الله ﷺ، فَطُرِحَتْ لرسول الله ﷺ وِسادةٌ، فنام رسول الله ﷺ في طُولِهَا، فجعل يَمْسَحُ النومَ عن وجهه، ثم قرأ الآيات العشر الأواخـر من آل عمران حتى خَتَمَ، ثم أتى شَناً مُعَلَّقًـا، فأخذه فتـوضأ، ثم قام يصلي، فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مثلَ مـا صَنَعَ، ثم جئت فَقُمْتُ إلى جَنْبِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ على رأسي، ثم أَخَذَ بأُذُنِي فَجَعَلَ يَفْتِلُهَا، ثـم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثـم صلى ركعتين ثم صلى ركعتين، ثـم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم أوتـر. كما روى البخـــاري ومسلم من طـريق مَخْرَمَةَ بن سليمان عـن كُرَيْبٍ مـولى عبـدالله بن عباس أن عبـدالله بن عبـاس أخبره أنـه بـات عنـد ميمـونـة زوج النبي ﷺ وهي خـالتُـه، قـال: فاضْطَجَعتُ في عرض الوسادةِ واضْطَجَعَ رسول الله ﷺ وأهلُه في طُولِهَا، فنام رســول الله ﷺ حتى انتصف الليلُ، أو قَبْلَـــهُ، بقليل، أو بَعْــدَهُ بقليل ثم استيقظ رسـول الله ﷺ فَجَعَلَ يَمْسَحُ النَّـوْمَ عن وجهـه بِيَدَيْـهِ ثم قـرأ العَشْرَ الآيات الخواتِمَ من سـورة آل عمران، ثم قـام إلى شنٍّ مُعَلَّقَةٍ، فتَـوضَّأَ منها، فَأَحْسَنَ وُضُـوءَهُ، ثم قام يصلي، فَصَنَعْتُ مِثْلَ مـا صَنَعَ، ثم ذهبت فَقُمتُ إلى جنبـه، فَـوَضَعَ رسولُ الله ﷺ يَـدَهُ اليمنى على رأسي، وأخـذ بأذني بيـده اليمنى يَفْتِلُهَـــا، فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثـم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أوتـر ثم اضطجع حتى جـاءه المُؤَذِّنُ، فقـام فصلى ركعتين خَفِيفَتَين، ثم خـرج فصلى الصبح. وفي لفظ لمسلم من طريق محمـد ابن علي بن عبـدالله بن عباس عن أبيـه عن عبـدالله بن عباس أنـه رقد عنـد رسول الله ﷺ، فاستيقظ فَتَسَوَّكَ وتـوضأ وهو يقول: ﴿إنَّ في خلق السمٰوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألبـاب.﴾ فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قـام فصلَّى ركعتين فأطال فيهما القيام والركـوع والسجود

ثم انصرف فنام حتى نَفَخَ ثم فَعَلَ ذلك ثلاثَ مراتٍ ستَّ ركعات، كُلُّ ذلك يَسْتَاكُ ويتوضأ ويقرأ هؤلاءِ الآيات، ثم أوتر بثلاثٍ، فأذَّن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نُوراً، واجعل في سمعي نُوراً، واجعل في بَصرِي نُوراً، واجعل من خلفي نُوراً، ومن أمامي نُوراً، واجعل من فوقي نُوراً ومن تحتي نُوراً، اللهم أعطني نُوراً، اهـ والظاهر أن رواية محمد بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس كانت في ليلة أخرى. والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله في الحديث: قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران هو تَجَوُّزٌ لأنها إحدى عشرة آية لا عشرُ آيات، هذا والأوصاف التي ذكرها الله عز وجل لذوي الألباب في هذا المقام تُشبِهُهَا الأوصاف التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الوارد في فضل مجالس الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله عز وجل تنادوْا: هَلُمُّوا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربُّهم وهو أعلم: ما يقول عبادي قال: يقولون يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول هل رأوني فيقولون لا والله ما رأوك فيقول كيف لو رأوني قال يقولون لو رأوك كانوا أشدَّ لك عبادة وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحاً فيقول فماذا يسألون قال: يقولون يسألونك الجنة قال يقول وهل رأوها قال: يقولون والله يا رب ما رأوها قال يقول فكيف لو رأوها قال يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال فمم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار. الحديث.

قال تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقُتِلُوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب. لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله، وما عند الله خير للأبرار. وإن من أهل الكتاب لمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلاً، أولئك لهم أجرهم عند ربهم، إن الله سريع الحساب.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من صفات أولى الألباب التي اشتملت على بيان مواظبتهم على ذكر الله، وتفكرِهم في خلق السموات والأرض، وضراعتِهم وابتهالِهِم إلى الله عز وجل أن يَقِيهُم عذاب النار المخزية لمن دَخَلهَا، وسؤالهم ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم وأن يتوفاهم مع الأبرار وأن يدخلهم الجنة، وأن لا يخزيهم يوم القيامة، بعد تقديم الثناء عليه والتوسل بذلك وباستجابتهم لداعي الإيمان، وانخراطهم في سلك المؤمنين بين يدي دعائهم ثم ختم هذا الدعاء بالثناء عليه بِصِدْقِ وَعْدِه وأنه لا يخلف الميعاد، ذكر عز وجل هنا أنه استجاب لهم دعاءهم ولم يُخَيِّبْ رجاءَهم حيث قال تبارك وتعالى: ﴿فاستجاب لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فَأَجَابَهُم سَيِّدُهُمْ ومالِكَهُمْ ومُصْلِحُ شُئُونِهِم وَمُدَبِّرُ أمورهم، والعربُ يستعملون استجاب له واستجابه وأجابه بمعنى واحد كما قال عز وجل هنا: ﴿فاستجاب لهم﴾ وقال في سورة الشورى: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدُهُم من فضله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ

إذا دعاهُ ويَكْشِفُ السُّوءَ ويَجْعَلُكُم خُلَفَاء الأرض﴾ وقد جَمَعَ الشاعرُ كعبُ ابن سعدِ الغَنَوِيُّ بَيْنَ استجاب وأجاب في بيت من شعره في رثاء أبي المِغْوَارِ حيث يقول :

وَدَاعٍ دَعَا : يَا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى فَلَمْ يَستَجبْهُ عند ذاك مُجِيبُ

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على الذين يدعونه ويسألونه حوائجهم، ويبتهلون إليه وحده حيث يقول : ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستَجيبوا لي وليؤمنوا بي لَعلَّهم يَرشُدُون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيَدخُلون جهنَّم داخرين . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ بعد أن بشَّرَ الله تبارك وتعالى عباده الصالحين بأنه استجاب لهم دعاءهم حضَّ عموم عباده على الإقبال على طاعته ، والتَّزَوُّدِ بالأعمال الصالحة ، من أي لون كانوا أو من أي جنس ، لأن الله عز وجل لا ينظر إليهم باعتبار ذكورهم أو إناثهم أو صورهم أو ألوانهم أو أنسابهم أو أوطانهم وإنما ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم فمهما عمل العبد عملا فإنه عز وجل يُحْصِيه ويحفظه ويثيب عامله عليه ، ولا يَفُوتُه شيء من عمل خلقه ولو كان مثقال ذرة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ بِغَضِّ النظر عن جِيله أو قَبِيله أو كونه ذكراً أو أنثى فالكلُّ لآدم وآدم من تراب ، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم ، ولما كانت أعمالُ الخير متفاوتة الدرجات ذكر الله تبارك وتعالى هنا صورا مُشْرِقَةً من أعمال الخير وَجَعَلَهَا تبارك وتعالى في الذروة من العمل الصالح المُسْتَجْلِبِ لرضوان الله عز وجل ، ووعَدَ أَهْلَهَا بتكفير سيئاتهم ، وإدخالِهِم جنات تجري من تحتها الأنهار حيث قال عز وجل هنا : ﴿فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقَاتلُوا وَقُتِلُوا لأكفِّرنَّ عنهم

سيئـاتهم ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تجري من تحتهـا الأنهارُ ثـوابا من عنـد الله، والله عنده حُسْنُ الثواب. ﴾ وهذه الصفات يـدخل فيها المهاجرون إلى الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ والمهاجرون من مكة إلى المدينة، ويدخل فيها كذلك سائر من يهاجر مـن دار الكفر إلى دار الإسلام إلى يوم القيامـة، وكذلك كلُّ منْ أخرجُـوا من ديارهـم بسبب استمساكهم بـدين الإسلام إلى يوم القيـامة، وكذلك كلُّ مـن أُوذيَ في سبيل الله، وجَاهَدَ أعـداءَ الله، وفاز بـالشهادة في سبيل الله، وفي هذا حض لأصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على الصبر وتقوى الله عز وجل ليفوزوا بما وعد الله عـز وجل في هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم أصحاب هـذه الصفات بتكفير سيئاتهم وإدخالهم جنات النعيم. وقـوله عز وجـل: ﴿ثوابا مـن عند الله، والله عنده حُسْـنُ الثواب﴾ إشـارة إلى أن الثواب الـذي يثيبُ الله عـز وجل بـه المؤمنين جزاءً لهم على مـا عملوا وأبلُوا في الله عز وجل تَمَسُّكاً بدينـه وإعزازاً لشرعه ونُصْرةً لرسله وكتبه، وجهاداً في سبيلـه هو ثوابٌ عظيم لا يبلغـه وصف الواصفين لأنـه عطاءٌ من عند الله العظيم الكـريم الذي أخبر عنه رسـولُه وخاتَمُ أنبيـائه وأفضلُ خلقه محمدٌ ﷺ فيما رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: قال الله تعـالى: أعددت لعبـادي الصالحين مـا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطـر على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم: ﴿فـلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. وقوله عز وجل: ﴿لا يَغرنك تقلب الـذين كفروا في البـلاد. متاع قليـل ثم مأواهـم جهنم وبئس المهاد. ﴾ هـذا خطـاب لكل من قـد يغترُّ بما يشـاهـد ما عليـه الكفـار من الترف والنعمـة والغبطة والسرور ورغد العيش والصحة مما أمـدَّهم الله عز وجل به إملاء لهم واستـدراجـاً لأنـه قـريب الـزوال، سريع الاضمحـلال، ثم ينتقلـون عنـه ويخلِّفونَه وراءهـم، ويستقبلـون الحسرة التي لا تنتهي والحزن الذي لا يزول في

نـار جهنم كما قال عـز وجل : ﴿مـا يُجادل في آيات الله إلا الـذين كفروا فـلا يغررك تقلُّبُهُم في البلاد . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمــون . وأملي لهم إنَّ كيــدي متين . ﴾ ومعنى : ﴿لا يَغُــرَّنَّكَ﴾ أي لا يَخْدَعَنَّكَ ، والتَّقلُّبُ في البلاد كِنـايةٌ عن التَّنَقُّلِ والأسفـار في طلب التجارات وجلْبِ الأرزاق والحصول على ملـذات الحياة الدنيـا من جهات الأرض ؛ لأن الـدنيـا هي جَنَّتُهم ، وهي في الـواقع سِجْن المؤمن ؛ لأن النعيم الحقَّ والمتـاعَ الذي لا يـزول ، ولا تُدْرِكُـه المُنَغِّصَاتُ ، هو متـاع الجنة ونعيمُهَـا . وقد روى مسلم من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قـال : الدنيـا سِجْنُ المؤمن وجنَّةُ الكافر. وقولـه تبارك وتعالى : ﴿لَكن الذين اتَّقوا ربَّهم لهم جنَّات تجري من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها نُـزلا من عند الله ، ومـا عند الله خير لـلأبرار. ﴾ لما ذكـر عز وجل حـال الكفـار بِقلَّةِ نفع تقلبهم في التجـارة وتصرفهم في البلاد واستدراجهم برغد العيش مما قد يتوهم مُتَوَهِمٌ أنَّ التجارة من حيث هي مختصة بـذلك فاستدرك أن المتقين وإن تَقَلَّبُوا في البـلاد فإنه لا يضرهم ذلك وأنَّ لهم ما وعدهم الله عز وجل من جنات النعيم ، ومعنى قوله تبـارك وتعالى : ﴿نـزلا من عنـد الله﴾ أي ضِيَافَـةً وإكـراما من الله عـز وجل للمتقين ، والنُّـزُلُ في الأصل هو مَـا يُعَدُّ ويُهَيَّأ للضيـف إكرامـاً لَهُ ، ثم صـار يطلق على كل رزقٍ وعطـاءٍ ومكـافأةٍ ومنـه قـولـه تعـالى : ﴿ أولَئك لهم رزق معلومٌ . فواكهُ وهم مُكْرَمُـون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين . يطاف عليهم بِكَأْسٍ من معين . بيضاء لـذة للشاربين . لا فيها غَـوْلٌ ولا هم عنها يُنـزَفُـون . وعنـدهم قـاصرات الطـرف عِينٌ . كأنهن بيض مكنـون . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قال قائل منهم إني كان لي قرينٌ . يقول أئنك لمن المصـدقين . أءِذا متنا وكنـا تـرابا وعظـامـا أءِنَّا لمدينـون . قـال هل أنتم مطلعون . فـاطلع فرآه في سواء الجحيـم . قال تالله إن كـدت لتردين . ولولا

نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هٰذا لهو الفوز العظيم . لمثل هٰذا فليعمل العاملون . أذٰلك خير نزلا أم شجرة الزَّقُّوم . ﴾ وكما قال عز وجل فيما أعده لأعدائه في النار: ﴿فنزلٌ من حميم﴾ وكما قال عز وجل فيما أعده لأوليائه في الجنة : ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون . نزلا من غفور رحيم . ﴾ وقوله عز وجل : ﴿وما عند الله خير للأبرار﴾ هذا تذييل للإشعار بأن الصفات المذكورة هي من أعمال البر التي من مات عليها كان مع الأبرار تحقيقا لدعوتهم : ﴿وتوفَّنا مع الأبرار. ﴾ وأن الذي أعده الله للأبرار لا تدانيه نعمة من نعم متاع الحياة الدنيا الزائلة الفانية التي منحت للذين تقلبوا في البلاد. وقوله عز وجل : ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمنُ بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولٰئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب . ﴾ هذا بيان لمحاسن بعض أهل الكتاب الذين سارعوا إلى الإيمان بالله وتصديق رسوله محمد ﷺ والإيمان بالقرآن وبالتوراة المنزلة على موسى وبالإنجيل المنزل على عيسى عليهما السلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه ، وقد ذكر عز وجل لهٰؤلاء مَنْقَبَتَيْنِ : الأولى ظهورُ الخشوع لله عليهم المنبعث من إيمانهم ، والثانيةُ أنهم يخالفون المحرفين للكلم من بعد مواضعه الكاتمين للحق من أهل الكتاب ، فهم لا يَرْضَوْنَ ببيع ما علموا من الحق بِعَرَضٍ من الدنيا ، وَيؤْثِرون أمرَ الله عز وجل على هَوَى أنفسهم ، وقوله عز وجل : ﴿أولٰئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ إشارةٌ إلى علو منزلتهم عند الله ، وأنهم يؤتَوْنَ أجرهم مرتين بما صبروا ، ويُعْطَوْنَ كِفْلَيْن من رحمة الله ، وفي قوله عز وجل في فواتح سورة آل عمران : ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . ﴾ وقوله في خواتم السورة : ﴿وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل

إليهم﴾ تأييـد للقول بأن الحروف المفـرقة في أوائل السـور إشارة إلى التحـدي والإعجاز حيث يذكر الله عز وجـل عقب هذه الحروف في افتتاحيات السُّورِ القرآن صراحة أو ضمنـا ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمن بـه أو مكذِّبٍ له وأن المؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بِخِزي الـدنيا وعـذاب الآخرة ثـم يختم السورة بمثل مـا بدأهـا بـه من مدح القـرآن والمؤمنين به وذمِّ المكذبين وبيان سـوء عاقبتهم كما أشرتُ إلى ذلك في افتتاحية سورة البقرة. وقـوله عز وجل: ﴿إنَّ الله سريع الحساب﴾ تأكيـد لنفوذ علمه بجميع أعمال خلقه. كما قال عز وجل ﴿ونَضَـعُ الموازين القسط ليوم القيامة فـلا تظلم نفس شيئـا وإن كان مثقـال حبـة من خردل أتينـا بها، وكفى بنـا حاسبين.﴾

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنـوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتَّقوا الله لعلكم تفلحون﴾

هذه خـاتمة المسك من سورة آل عمران، وقد أمـر الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بالصبر والمصابـرة والمرابطة والتقوى وبين لهم أن تطبيق هذه الأوامر الأربعة يـوصلهم إلى الفلاح والفوز والنجاة، ولما كـانت هذه السورة المبـاركة اشتملت على قصة وفد نصارى نجـران حيث نزل في ذلك نحو ثمانين آية من صدرهـا واشتملت على قصة غزوة أحـد حيث نزل في ذلك نحـو ستين آية، وفي كل قصـة من القصتين تجلت ألـوان من الصراع بين الحق والبـاطل، انتهت بظهـور الحق واندحـار الباطل، إن البـاطل كان زهـوقاً، ولما كـانت المجابهة بين الحق والبـاطل تقتضي من المؤمنين التـزام الصبر لأنه دعامـة من أهم دعامات النصر، ذكر الله عز وجل هـذه الصفة الكريمة في مواطن كثيرة من هذه السـورة الكريمة، وبـدأ ذلك بالثناء على الصـابرين حيث جعلهم على رأس عبـاده الصـالحين حيث يقـول: ﴿قل أؤنبئكم بخير من ذالكم، للـذين اتَّقوا عنـد ربهم جنات تجري مـن تحتها الأنهار خـالدين فيهـا وأزواج مطهـرة ورضوان من الله، والله بصير بـالعباد. الـذين يقـولون ربنـا إننا آمنـا فاغفر لنا ذنـوبنا وقنا عذاب النار. الصابـرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفـرين بالأسحـار.﴾ وقـال عز وجل في تثبيت المؤمنين وتحذيـرهم من اتخاذ بطانـةٍ كافرة في الآية التي تلتهـا مباشرة الآياتُ التي نزلت في قصـة غزوة أحد وحمراءِ الأسد وكأنها بمثـابة التمهيد لذلك حيث يقـول عز وجل: ﴿إن تمسسكم حسنة تسـؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحـوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيـدهم شيئـا، إن الله بما يعملـون محيط.﴾ ثم قـال عـز وجل في مقدمات قصة غزوة أحد وحمراء الأسد مذكرا عباده المؤمنين بنصر الله لهم يوم

بدر: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هٰذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . ﴾ ثم قال عز وجل في فقه غزوة أحد : ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين . ﴾ ثم قال عز وجل : ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وَهَنُوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . ﴾ ثم قال عز وجل لتوطين نفوس المؤمنين على ما سيصيبهم من الأذى من أعداء الإسلام : ﴿لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذًى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذٰلك من عزم الأمور. ﴾ ثم ختم هذه السورة المباركة بهذه الآية الكريمة حيث أمر المؤمنين فيها بالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله عز وجل حيث يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . ﴾ والفرق بين الصبر والمصابرة أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع مما يصيبها من مصيبة أو يلزمها من تكاليف وما قد تتعرض له من شهوات مُحرمَةٍ ، وأما المصابرة فهي مُغَالَبَةُ أعداء الله بالصبر في مواطن الحروب ، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشدَّ منه وأشقَّ ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿ورابطوا﴾ أي أقيموا في الثغور رابطين خَيْلَكُم فيها مترصدين للعدوِّ ، مستعدين له ، كما قال عز وجل : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ وقد وعد الله تبارك وتعالى المرابطين في سبيل الله لحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين بالأجر الجزيل والثواب الجليل فقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعديِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم

من الجنة خير من الدنيـا وما عليها، وروحةٌ يروحُهـا العبد في سبيل الله تعالى أو الغدوةُ خير من الدنيا وما عليها. كما روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: رباط يوم وليلة خيرٌ من صيام شهر وقيـامه، وإن مات فيه أجريَ عليه عَمَلُـهُ الذي كان يعمل، وأُجْرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأمنَ الفتَّانَ، كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن فَضَالَةَ بن عبيـد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كلُّ ميِّت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطـا في سبيل الله، فإنه يُنَمَّى له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤمَن من فتنـة القبر، كما روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل، كما روى ابن ماجـه بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنـه عن رسول الله ﷺ قال: من مات مرابطا في سبيل الله أُجريَ عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأَمِنَ من الفتَّـانِ، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفـزع الأكبر. كما روى الترمـذي وقال: حـديث حسن عن ابن عبـاس رضي الله عنهما قـال: سمعت رسول الله ﷺ يقـول: عينان لا تَمَسُّهما النـار: عَيْنٌ بكت من خشية الله، وعين باتـت تحرُس في سبيل الله. هذا ويدخل في معنى المرابط في سبيل الله من ربط فَرَسَه وأعده للجهاد في سبيل الله وإن كان في أهله وقـد أشار رسول الله ﷺ إلى فضلـه، فقد روى البخـاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: طوبى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَـانِ فرسه في سبيل الله، أَشْعَثَ رأسُـهُ، مُغْبَرَّةٍ قَـدَمَـاهُ، إن كـان في الحراسـة كـان في الحراسة، وإن كـان في الساقة كان في السـاقة. الحديث. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مِنْ خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمْسِكٌ بِعِنَـانِ فرسه في سبيل الله، يطير على متنه كُلَّمَا

سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طـار على متنه، يبتغي القتل أو الموتَ مَظَانَّهُ. الحديث. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم مـن حديث أبي هريـرة رضي الله عنه قال: قيـل يا رسول الله: فـالخيل قال: الخيل ثـلاثة: هي لـرجل وِزْرٌ وهي لرجل ستْرٌ، وهي لرجل أجرٌ، فأما التي هي لـه وِزْرٌ فرجلٌ رَبَطَهَا رِيَاء وفخرا ونِواءً لأهل الإسلام فهي له وِزرٌ، وأما التي هي له سِتْرٌ فَرَجُلٌ ربطها في سبيل الله ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظهـورها ولا رقـابها، وأما التي هي لـه أجر فـرجل ربطها في سبيل الله لأهـلِ الإسلام في مَرْج وروضـةٍ، فما أكلتْ من ذلك المرج أو الـرَّوْضَةِ من شيء إلا كُتِب لـه عَدَدَ مـا أَكَلَتْ حسنـاتٌ، وكُتِبَ لَهُ عَـدَدَ أرواثها وأبوالها حسنات، ولا تقطع طِوَلَهَا فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنـاتٍ، ولا مَرَّ بها صاحبها على نهر فَشَرِبَتْ منه ولا يريد أن يَسْقِيهَا إلا كتَب الله له عَدَدَ ما شَرِبَتْ حسناتٍ. الحديث. كما روى البخاري في صحيحـه من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: مَن احْتَبَسَ فـرساً في سبيل الله إيمانـا بالله وتصديقـا بِوَعْـدِه فإنَّ شِبَعَهُ ورِيَّهُ وَرَوْثَهُ وَبَوْلَـهُ في ميزانه يوم القيامة. يعنـي حسناتٍ. كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الأعمال الصالحة تُعَدُّ رِبَاطاً فقد روى مسلم في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ قال: أَلاَ أَدُلُّكُمْ على مـا يمحو الله به الخطـايا، ويرفع به الـدرجات؟ قالوا: بلى يـا رسول الله، قال: إسْباغُ الوُضُـوءِ على المكاره، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد، وانتظـار الصلاة بعد الصلاة، فذالكم الرباطُ، فذالكم الـرباط، وهذه البشارة لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثـر الخطا إلى المساجد وانتظـر الصلاة بعد الصلاة بأنـه مرابط شبيهة ببشارة رسول الله ﷺ مَنْ صلى في مسجد قباء ركعتين بأنَّ له أَجْرَ عُمْرَةٍ فقد روى الترمذي وقال حـديث حسن غريب عن أسيْدِ بنِ ظُهَيْرٍ الأنصاري رضي الله عنـه وكان من أصحـاب النبي ﷺ يُحَدِّثُ عن النبي ﷺ أنه قـال:

صلاةٌ في مسجد قباء كعمرةٍ، وقد صححه المنذري في الترغيب والترهيب حيث قال: ولا نعرف لأَسَيْدٍ حديثا صحيحا غير هذا. اهـ كما روى أحمد والنسائي وابن ماجه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث سهل بن حُنَيْفٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ تَطَهَّرَ في بيته، ثم أتى مسجد قباءَ فصلى فيه صلاةً كان له كأجر عمرة. ولا خلاف عند أهل العلم على أن من كانت عليه عمرةٌ فصلى ركعتين في مسجد قباء لا تسقط العمرة عنه بهذه الصلاة التي صلاها في مسجد قباء، إذ المقصود بيان عظيم الأجر لمن صلى في مسجد قباء، وكذلك بيان عظيم الأجر لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثر الخطا إلى المساجد وانتظر الصلاة بعد الصلاة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وقوله عز وجل: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون.﴾ هذا هو الأمر الرابع من هذه الأوامر التي اشتملت عليها هذه الآية الخاتمة الجامعة لأسرار الأحكام والحِكَم التي سيقت من أجلها هذه السورة المباركة، وتقديم الأمر بالصبر والمصابرة والمرابطة في الذكر قبل الأمر بتقوى الله عز وجل لأن الصبر والمصابرة والمرابطة كلَّها من أسباب تقوى الله عز وجل كجميع الأوامر والنواهي التي جاءت في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله محمدﷺ إذ كلها تدور في فلك تربية تقوى الله عز وجل في نفوس عباده ليفوزوا في العاجلة والآجلة، ويَسْعَدُوا في الدنيا والآخرة، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى القرآن العظيم هُدًى للمتقين، وقد نبَّهَ الله تبارك وتعالى إلى ذلك عند ذكر كثير من الأحكام والعبادات سواءٌ كانت بدنية أو مالية أو غير ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولَكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

والموفون بعهدهم إذا عَاهَدُوا والصابرين في البأساء والضراء وحينَ البأسِ، أولٓئك الذين صدقوا وأولٓئك هم المتقون.﴾ ثم قال في تشريع القصاص: ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون.﴾ ثم قال في تشريع الوصية: ﴿حقا على المتقين.﴾ ثم قال في تشريع الصيام: ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون.﴾ ثم قال: ﴿كذالك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون.﴾ وقد تم تفسير هذه السورة المباركة بعد صلاة فجر يوم الخميس السادس عشر من شعبان سنة تسع وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية بمنزلنا بمدينة الرياض فلله الحمد والمنة.





# تفسير سورة النساء



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا.﴾

هذه سورة النساء، وقد يطلق عليها اسم سورة النساء الطولى، كما قد يطلق على سورة الطلاق سورة النساء القُصرى، وسميت سورة النساء لأن الله شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء وأخرجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعماق المهانة والاستكانة إلى حيث اسْتَنْشَقْنَ ريح العزة والكرامة، وجعل لهن نصيبا من الميراث بعد أن كنَّ نصيبا من الميراث، وفرض الله لهن على الأزواج مهرا، جعله حقا خالصا للمرأة تتصرف فيه كيف تشاء، وحرَّم على الرجال عَضْلَهُنَّ، في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام، ومناسبة افتتاحية هذه السورة الكريمة لخاتمة السورة التي قبلها أنه ذكر في ختام السورة السابقة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون.﴾ وذكر في افتتاحية هذه السورة الكريمة الأمر بتقوى الله عز وجل حيث يقول: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إنَّ الله كان عليكم رقيبا.﴾ كما أن الله عز وجل قال في خواتيم المسك من سورة آل عمران: ﴿أني لا أضيع عَمَلَ عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ وقال في مطلع سورة النساء: ﴿خلقكم من نفس واحدة وخَلَق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء﴾ مما يؤكد أن

بعضهم من بعض، فالمناسبة بين خواتيم سورة آل عمران ومطلع سورة النساء في غاية الوضوح والظهور. وهذه السورة مدنية فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: وما نَزَلَتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلا وأنا عنده ﷺ تعني أنه قد تزوجها ودخل عليها قبل نزول سورة البقرة وسورة النساء، وهذا يَرُدُّ قولَ بعض الناس: إن قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ حيث وقع في كتاب الله فهو مكي. ولأنه قد وقع في البقرة: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾ وقال: ﴿يا أيها الناس كُلُوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ وسورة البقرة مدنية كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها المذكور آنفاً، قال ابن كثير في تفسيره: والبقرة جَمِيعُها مدنية بلا خلاف اهـ ومما ينبغي لفت الانتباه إليه من وجوه إعجاز القرآن أَنَّ الله تبارك وتعالى افتتح سورتين من القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس﴾ وهما سورةُ النساء هذه وسورة الحج، ومن العجيب أن سورة النساء هي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، وسورة الحج هي السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن. كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة النساء أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿ يا أيها النَّاس اتقوا ربكم﴾ كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة الحج أمرهم بتقوى الله عز وجل حيث قال: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ ومن العجيب كذلك أنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمرِهِمْ بتقوى ربهم في سورة النساء علل ذلك بذكر نشأتهم الأولى، وأنه بعد توجيه النداء إلى الناس وأمْرِهِمْ بتقوى ربهم في سورة الحج علل ذلك بذكر نشأتهم الثانية ومَعَادِهِمْ، فسبحان من أَنْزَلَ هذا الكتابَ الذي أحكمت آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لدن حكيم خبير. وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الناسُ﴾ خطاب يَعُمُّ جميع المكلفين الموجودين عند مجيء هذا الخطاب كما يَعُمُّ من يجيء من الناس ويبلغُ حدَّ التكليف إلى يوم القيامة، ولا خلاف عند علماء أمة محمد ﷺ أَنَّ

آخر هذه الأمـة مُكَلَّفٌ بما كُلِّفَ به أوَّلُهَا، وقد صدَّر الله عـز وجل أوامر هذه السورة المبـاركة بتقـواه عز وجل وهي مـراقبته في السر والعلن والعسر واليسر والشـدة والرخـاء والمنشط والمكـره، وفي جميع الأحـوال، وقولـه عـز وجل: ﴿الذي خلقكم من نفس واحـدة﴾ تنبيه على قدرته عز وجـل وأنه لا يعجزه شيء حيث خلق جميع الناس من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وأشكالهم وصورهم وأقطـارهم وأعصارهم، والمراد بـالنفس الواحـدة التي خلق الله عز وجل منهـا جميع الناس هـو آدم عليه السـلام، وقـد خلقه الله عـز وجل من قبضة قَبَضَهَـا من تراب الأرض وقد اجتمع في هـذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض، ولذلك جـاء بنو آدم على هذه الألوان كما روى أحمد وأبو داود والترمـذي وقـال الترمـذي: حسـنٌ صحيح من حـديث أبي مـوسى الأشعـري رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: إنَّ الله خلق آدم من قبضـة قَبَضَهَا من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسـود وبين ذلك، والسَّهْـلُ والحَزْنُ وبين ذلك، والخبيثُ والطيِّبُ وبين ذلك. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قال: خَلَقَ الله آدم طُولُهُ سـتـون ذراعا، ثم قال: اذهب فَسَلِّمْ على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يُجِيبُونَك فإنها تَحِيَّتُكَ وتحيةُ ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالـوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمةُ الله، فكلُّ مَن يَـدْخُلُ الجنـةَ على صـورة آدم، فلم يـزل الخلق ينقص حتى الآن.

وقولـه عز وجـل: ﴿وخلق منها زوجهـا﴾ هو زيادة تنبيـه على عظيم قـدرته ونعمته، أي وخلق وأوجد من هذه النفس الواحدة زوجةً لهذه النفس تسكن إليها وتطمئن بها والمراد بهذه الزوج حواء عليها السلام أمُّ جميع بني آدم حيث خلقها الله عـز وجل من ضِلَعٍ من أضلاع آدم كما روى البخـاري ومسلم من حديـث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: استـوصوا بـالنساء

خيرا، فإنَّ المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعــوج شيء في الضِّلَع أعـلاه، فإن ذَهَبْتَ تقيمه كسرتَـه، وإن تركتـه لم يزل أعـوجَ، فاستـوصوا بـالنساء خيرا.
ووصف النفس بأنها واحـدة مع أن المراد بها آدم وهو ذكرٌ لمراعـاة لفظ النفس فإنَّ لفظ النفس مؤنث حتى لو أريـد به المذكر، كما أن لفظ الزوج يطلق على الذكر وعلى الأنثى فيقال: هذا زوج فـلانة وهذه زوج فلان. وقد بين الله عز وجل أن من آيـاتـه أن خلق للـرجل زوجـة يسكن إليهـا حيث يقـول تبـارك وتعـالى: ﴿هو الـذي خلقكم من نفس واحـدة وجعل منها زوجهـا ليسكن إليهـا﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿ومن آيـاته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجـا لتسكنـــوا إليهـــا وجعل بينكم مـــودةً ورحمةً، إن في ذٰلك لآيـــات لقـــوم يتفكرون.﴾. ففي تخصيص الله عز وجل الذكور بصفاتٍ وأعضاءِ الذكورية وتخصيص الإنـاث بصفـاتٍ وأعضـاءِ الأنوثيـة ممـا يُهَيِّئُهُنَّ للحمل والـولادة والإرضاع وغير ذلك آيـات وبراهين لذوي البصائر والأفكار الـذين يُعْمِلُونَ نظرهـم ويتدبرون في خلـقِ الذكر والأنثى فيعـرفون أن ذلك صُنـعُ الله الذي أتقن كلَّ شيء، وأنـه لا إله غيره ولا معبـود بحق سواه وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿وَبَثَّ منهما رجـالا كثيرا ونسـاءً﴾ أي وذَرَأَ ونَشَرَ وفرَّق من النفس الـواحـدة وزوجهـا يعني آدم وحـواء ذكورا كثيرين وإنـاثـاً كثيرةً وفي قولـه عـز وجل: ﴿ونساءً﴾ ولم يقل: ونساءً كثيرة اكتفاء على طريق الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاكتفاء حيث ذكر هذا الوصف مع الرجال فاكْتُفِيَ بذكره في ذلك عن ذكـره في النســاء وقـولـه: ﴿رجـالاً﴾ و ﴿نسـاءً﴾ ولم يقل: ذكـورا وإنـاثـا لتأكيد الكثـرة والمبـالغـة فيهـا بوصـول الكثير من النـوعين إلى مبلغ الإنجاب على أن وصف الذكـر بالرجولية قـد يطلق عليه من وقت ولادته كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخـاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ألحقوا الفـرائض بأهلها فما بَقِيَ فهو لأوْلَى رجلٍ

ذَكَرٍ . وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿واتقـوا الله الذي تسـاءلون بـه والأرحام﴾ أي واملَئُوا قلـوبكم بالخوف من الله عز وجل حتى تكـونوا على حذر شـديد من مخالفة أمره أو الوقوع في معاصيـه ، واحذروا أن تقطعوا أرحامكم ، وهذا على قراءة ﴿والأرحام﴾ بالنَّصْبِ ، وهي قراءة القراء السبعة ما عدا حمزة فإنه قرأها بالجر وفي قـراءة العامـة هذه إشعار بخطـورة قطع الرحم ، وتنبيـه إلى وجوب التـواصل بين الأقارب ، ولـذلك وَعـدَ الله عز وجل الـرحمَ بأن مَنْ وصلهـا وصله الله ومن قطعها قطعه الله ، فقـد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال : إن الله تعالى خَلَقَ الخلقَ حتى إذا فَرَغَ منهم قامت الرحم فقالت : هـذا مقامُ العائذ بك من القطيعة قال نعم ، أمـا تَـرْضِينَ أنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَك وأَقْطَـعَ مَنْ قَطَعَك ، قـالت : بلى ، قـال : فَذَلِكِ لَكِ ثم قال رسـول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم : ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتُقَطِّعُـوا أرحامكم . أولَئك الـذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم . ﴾ وفي قولـه عز وجل : ﴿الذي تساءلون بـه﴾ تنبيه للعباد على أن الله عـز وجل قد جبـل النفوس على الإقـرار به حتى في الجاهليـة إذ كانوا يقـرون به ، ويسأل بعضهم بعضا به عـز وجل فيقول الإنسان منهم لمن أراد منه حاجـةً أسألك بالله ، كما يفعل ذلك المسلمون أيضـا ولذلك جاء في قصة الأبـرص والأقرع والأعمى التي رواهـا البخاري ومسلم من حـديث أبي هـريرة رضي الله عنـه أنـه سمع النبي ﷺ يقول : إن ثـلاثـة من بني إسرائيل أبرص وأقـرع وأعمى أراد الله أن يبتليهم . الحديث ، وفيه أنـه قال لـلأبرص : أسألك بالذي أعطاك اللـون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أَتَبَلَّغ عليه في سفري . وأنه قال لـلأعمى : أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري . وقد حض رسول الله ﷺ على قضاء حـاجة من سأل بالله ، فقد قال أبو داود : حـدثنا عثمان بن أبي شيبـة ثنا جـرير عن الأعمش عن مجاهـد عن

عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأَعْطُوهُ. الحديث وقال النسائي: أخبرنا قتيبة قال: حدثنا أبو عَوَانَةَ عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿والأرحام﴾ بالجر على قراءة حمزة معطوف على الضمير المجرور في قوله: ﴿الذي تَسَاءَلُونَ به﴾ أي ويسأل بعضكم بعضا بالرحم، والسؤال بالرحم على غير قصد القسم جائز والمقصودُ به الاستعطاف، وليس من باب القسم بغير الله الذي جعله رسولُ الله ﷺ شركا وكفرا، فإذا قلتَ: أسألك بالرحم أي أسألك بسبب الرحم فإنه لا يكون إقساما بالرحم، ولذلك جاز؛ لأن الرحم توجب لأصحابها بَعْضِهِمْ على بعض حقوقا، وقوله عز وجل: ﴿إن الله كان عليكم رقيبا﴾ أي إن الله عز وجل مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم مُطَّلِعٌ على سَرائركم وظواهركم شهيد عليكم فراقبوه مراقبة مَنْ يراه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم.

قال تعالى: ﴿وآتـوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلـوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكـم، إنه كان حوبًا كبيرا. وإن خفتم ألا تقسطـوا في اليتامى فانكحـوا ما طاب لكم من النسـاء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعـدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم، ذٰلك أدنى ألا تعولوا﴾.

بعد أن صدَّر الله تبارك وتعالى هذه السورة المباركة بأمر الناس بتقوى ربهم الـذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها، وبث منهما رجـالاً كثيراً ونساءً، ثم أكـد ذلك الأمر حيث أمـرهم مرة ثـانية في نفس الآيـة بتقوى الله الذي يسأل بعضهـم بعضا به حتى في جـاهليتهم، وحذرهم بعـد ذلك من قطيعـة الرحم، شَرَعَ يُـوصي عباده بـوجوب رعـاية اليتـامى والمحافظـة على حقوقهـم، وصيانـة أموالهم، في ثماني أيات بـدأت من الآية الثـانية مـن هذه السورة الكريمة إلى نهاية الآية التاسعة منها، نبه فيها بصفة خاصة إلى حقوق اليتيمات وحـذَّر أولياءهن مـن العبث بهذه الحقوق أو تضييعهـا ولا سيما فيما يتصل بشأن الزواج منهن، وبيَّن الطريق السَّوِيَّ لتدريب اليتامى على حُسْن المحافظـة على أموالهم إذا بلغـوا سنَّ الرُّشْدِ، ولما كـان المال قد جعلـه الله عز وجل قيامـا للناس وكما قيل: المالُ عَصَبُ الحيـاة ـ صدَّر الله عـز وجل هذه الوصايـا بوجوب المحافظـة على مال اليتيم مطلقا حيث يقـول تبارك وتعالى: ﴿وآتوا اليتـامى أموالهم ولا تتبـدلوا الخبيث بـالطيب، ولا تأكلـوا أموالهم إلى أموالكـم، إنه كـان حوبا كبيرا﴾ ثـم ختم هذه الـوصايـا بقولـه تعالى: ﴿إن الـذين يأكلـون أمـوال اليتامـى ظلما إنما يأكلون في بطـونهم نـارا وسيصلـون سعيرا﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وآتوا اليتـامى أموالهم﴾ أي وأعطوا اليتامى أموالهم التي هي لهم تحت أيـديكم، باعتبـاركم أوصياء عليهم، وهـذا الأمر يشمل صورتين: الأولى أن يكون اليتيم دون سنِّ الرُّشد وحينئذ يكون الوصى

مأمورا بأن يـدفع له مـا يحتاجـه من الطعام والكسوة وسـائر نفقاتـه من مال اليتيم الـذي تحت يـد الـوصي، إذ أنـه قبل البلـوغ لا يجوز أن يُمَكَّنَ من الاستبداد بكامل مـاله، كما قال عز وجل: ﴿فإن آنستم منهم رشـدا فادفعوا إليهم أموالهم﴾ والصـورة الثانيـة هي تسليمه كـاملَ مالِه بعـد بلوغ الـرشد، وأطلق عليه اسم اليتيم باعتبـار ما كان، وفي التعبير به إشعـار بسرعة الدفع إليـه حيث هو قـريب العهد بتسميتـه يتيما، وهـو شبيه بقـوله عـز وجل في المطلقة الـرجعية: ﴿وإذا طلقتم النساء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُـوهنَّ بمعروف أو سَرِّحُوهُنَّ بمعروف﴾ إذ المراد من بلـوغ الأجل هو مقاربة بلـوغه، لأنه إذا انتهى الأجل وانقضت العدة فإنـه لا يملك عليها حق الـرجعة كما أوضحت ذلك في تفسير سورة البقرة، وقوله عز وجل: ﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب﴾ تحذير شديد للأوصياء وغيرهم من أكل المال الحرام مطلقا، وتغذية الجسم به بَدَلَ تغذيته بالحلال الطيب، ويدخل في ذلك التحذير من أكل مال اليتامى من بـاب أولى إذ السيـاق فيـه، وقولـه عـز وجل: ﴿ولا تأكلـوا أمـوالهم إلى أمـوالكم﴾ هو تحذيـر آخـر شديـد لـلأوصياء وغيرهم من الطمع في أمـوال اليتامى، وتنديد بمن يكون غنيـا من الأوصياء ولا يَتَوَرَّعُ عن ضَمِّ مال اليتيم إلى مالـه بقصد زيادة ثـروة الوصي وسَلْبِ حق اليتيم، وفيـه إشارةٌ إلى أن من كان فقيراً من الأوصياء فإن له الحقَّ أن يأكل من مـال اليتيم بالمعروف كما قال عز وجل: ﴿ومـن كان غنيا فليستعفف ومـن كان فقيرا فليأكل بـالمعروف﴾ والتعبير بـالأكل في قـوله عـز وجل: ﴿ولا تأكلـوا أمـوالهم﴾ لأنه المقصـود الأعظم من الاستيـــلاء على المال، وليس ذلك قصراً للتحـــريم على الأكل وحده بل المقصود منه النهي عن أكل أمـوال اليتامى والاستيلاء عليها بطريق غير مشروع سواء كان أكـلا أو شربا أو كسوة أو مركبا أو مسكنـا أو إتلافا أو إهداءً أو غير ذلك من وجوه إضـاعة مال اليتيم. وقوله تبـارك وتعالى: ﴿إنه

كـان حوبًـا كبيراً﴾ أي إنَّ التعدي على أمـوال اليتامى إثم عظيم وجـرم كبير وذنب مُهْلِكٌ لصـاحبـه مُتْلِفٌ لـه فـالحُوبُ هو الإثم والهلاك، وقـولُـه عـز وجل: ﴿وإن خِفْتُم ألا تُقسِطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثْنى وثلاث ورباع﴾ بعد أن أمر الله عز وجل في الآيـة السابقة بإيتاء اليتامى أمـوالهم وحـذَّر من إتلافهـا وأكلهـا شرع هنـا في التنبيه على حقـوق النسـاء اليتيمات ووجَّه الخطاب لأولياء يتامى النساء بوجوب المحافظة على حُقُوقِهِنَّ وبخاصـة إذا كان وليُّ اليتيمـة ممن يباح لـه الزواجُ بها، وحذَّرَهُـم من أفعال أهل الجاهلية حيث كان الواحد من هـؤلاء الأولياء إذا كانت عنده يتيمة وهو وليهـا، فإن كانت جميلـة ولها مالٌ رغب فيهـا لما لها وجمالها وتزوجهـا دون أن يعدل في صداقها، فحذَّرهم الله عز وجل من ذلك وأمرهم إذا لم يتمكنوا من الإقسـاط في حق يتـامى النساء الـلاتي تحت ولايتهم أن يبتعـدوا عن الـزواج منهن، وأن الله عز وجل قد وسع عليهم بأن أباح لهم أن يتزوجوا ما طاب لهم من النسـاء مثنى وثـلاث ورباع، ومعنـى قولـه عـز وجل: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتـامى فانكحوا مـا طاب لكم من النساء مثنى وثـلاث ورباع﴾ أي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكم أنكم لن تعدلوا في يتـامى النساء اللاتي تحت ولايتكم بإعطـائهـن حَقَّهُنَّ في الصـداق وحسن العشرة وعـدم أكل أمـوالهن فلا تنكحـوهنَّ وقـد وسَّع الله عز وجل عليكـم فتزوجـوا غيرهنَّ من النسـاء إن شئتم تـزوجتم زوجتين أو ثـلاث زوجـات أو أربع زوجـات من طيبـات النساء، وقـد أجمع علماء الأمة ممن يُعْتَـدُّ بإجماعهم على تحريم الجمع بين أكثر من أربع نساء قال الشـافعي رحمه الله: وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وهذا الذي قـاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء اهـ وقد قال أبوداود في سننـه: باب في من أسلم وعنده نساءٌ أكثر

من أربع أو أختان. حدثنا مسدد ثنا هشيم ح وثنا وهب بنُ بقية، أخبرنا هشيم عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن الحارث بن قيس قال مسدد: ابن عميرة وقال وهب: الأسدي قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: اختر منهن أربعًا. قال أبو داود: وحدثنا به أحمد بن إبراهيم ثنا هشيم بهذا الحديث فقال: قيس بن الحارث مكان الحارث بن قيس قال أحمد بن إبراهيم هذا الصوابُ، يعني قيس بن الحارث. حدثنا أحمد بن إبراهيم ثنا بكر بن عبدالرحمن قاضي الكوفة عن عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى عن حميضة بن الشمردل عن قيس بن الحارث بمعناه اهـ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما سبب نزول هذه الآية الكريمة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قول الله: ﴿وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حَجْر وليها تُشَارِكُه في ماله، فَيُعْجِبُهُ مالُها وجَمَالُها، فيريدُ وَلِيُّها أن يتزوجها بغير أن يُقْسِطَ في صداقها فَيُعْطِيهَا مثلَ ما يُعْطِيهَا غيره، فَنُهُوا أن ينكحُوهُنَّ إلا أنْ يُقسِطُوا لَهُنَّ ويَبْلُغُوا بهن أعلى سُنَّتِهِنَّ من الصَّدَاق، وأمِرُوا أن يَنْكِحُوا ما طاب لهم من النساء سِواهنَّ، قال عروةُ: قالت عائشة: ثم إن النَاسَ اسْتَفْتَوْا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ في النساء قل الله يُفْتِيكُمْ فيهن وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت: والذي ذَكَرَ الله تعالى أنه يُتْلَى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: ﴿وإن خفتم أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فانْكِحُوا ما طاب لكم من النساء﴾ قالت عائشة: وقولُ الله في الآية الأخرى: «وتَرْغَبُون أن تنكحوهُنَّ» رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حَجْرِهِ حين تكون قليلة المال والجمال

فَنُهُوا أن يَنْكِحُوا ما رَغِبُوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رَغْبَتِهِمْ عنهن. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: ﴿وإن خِفْتُمْ أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى﴾ قالت: أُنزِلَتْ في الرجل تكون له اليتيمة وهو وليُّها ووارثُها ولها مالٌ، وليس لها أحدٌ يُخَاصِمُ دونَهَا فلا يُنْكِحُهَا لما لها، فَيَضُرُّ بها، ويسيء صُحْبَتَهَا، فقال: ﴿إن خفتم أن لا تُقسِطُوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ يقول: ما أَحْلَلْتُ لكم وَدَعْ هذه التي تَضُرُّ بها، وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: ﴿وما يُتْلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾ قالت: أُنزِلَت في اليتيمة تكون عند الرجل فَتَشْرَكُهُ في ماله، فيرغب عنها أن يَتَزَوَّجَها، ويَكْرَهُ أن يُزَوِّجَها غَيْرَهُ فَيَشْرَكه في ماله، فَيَعضِلُهَا، فلا يتزوجها ولا يزوجها غَيْرَهُ. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: ﴿يستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن﴾ الآية قالت: هي اليتيمة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون قد شرِكَتْهُ في ماله حتى في العَذْق فيرغب يعني أن ينكحها ويَكْره أن يُنكِحَهَا رجلا فَيَشْرَكُهُ في ماله فَيَعْضِلُهَا اهـ وفي لفظ للبخاري من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: ﴿وإن خفتم أن لا تُقْسِطُوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثُلاثَ ورُبَاعَ فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تَعُولُوا.﴾ قالت: يا ابن أختي، اليتيمة تكون في حَجْر وليها فيرغب في مالها وجمالها، يريد أن يتزوجها بأدنى من سنة صداقها، فَنُهُوا أن يَنكحوهُنَّ إلا أن يُقْسِطُوا لَهُنَّ فَيُكْمِلُوا الصداقَ، وأُمِرُوا بنكاح مَنْ سِوَاهُنَّ من النساء، وقوله عز وجل: ﴿فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾ أي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكم أنكم لا تستطيعون العدل بين الزوجتين أو الزوجات إن عَدَّدْتم الزوجات فاقتصروا على التزوج من امرأة

واحــــدة أو على الجواري السرارى حيث لا يجب القَسْـمُ بينهن وإن كـــان مستحبا، وقوله عـز وجل: ﴿ذٰلك أدنى ألا تعولوا.﴾ أي ذلك أقرب إلى ألا تَجُورُوا، فـالعَوْلُ يطلق على الميل يقـال: عَـالَ الميزانُ عَـوْلاً إذا مالَ وعـال في الحكم أي جَـارَ وظلم، ولا شك أن شريعـة الإسلام عنـدمـا أباحت تعـدد الزوجات إلى أربع واشترطت في التَّعَدُّدِ أن يتوافر رُكْنُ العدل من جانب الزوج بين الزوجـات، كانت أكمل الشرائع السماوية في هذا البـاب كما هي كذلك في كل تشريعاتها ففـي التوراة التعدد ولـو إلى مئات، والـذين حرَّمُـوا التعدد سَقَطُـوا في بـــراثن الخليـلات، مـع أن التعـدد إلى أربع قــد يكـون ضرورة شخصية، وقد يكون ضرورة طبيعيـة وقد يكون ضرورة اجتماعية، والأصل في الحياة الـزوجية السعيـدة أن يكون للرجل زوجـة واحدة وقـد تمس الحاجة إلى كفالـة الرجل الواحد لأكثـر من زوجة، وأن ذلك التعدد قد يكـون لمصلحة الأفراد من الـرجال والنساء، كما قـد يكون لحمايـة المجتمع وحفظه من أدران الفساد، ولله الحكمة البالغة.

قال تعـالى: ﴿وآتوا النسـاء صَدُقـاتهن نحلة فإن طبن لكم عـن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا. ولا تـؤتوا السُّفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا.﴾

بعد أَنْ وَصَّى الله تبارك وتعالى بوجوب رعاية حقوق يتامى النساء وذكر في سياق ذلك إرشـاده لأولياء يتامى النسـاء إذا خافوا عَدَمَ استطـاعتهم للعدل فيهن أن يتـزوجـوا من غيرهن حيث وسَّـع عـز وجل عليهم وعلى غيرهم من الرجال أن يَتَزَوَّجُوا من طيبـات النساء مثنى أي اثنتين أو ثُلاث يعني ثلاثا أو رُباعَ يعني أربعا فإن علموا من أنفسهم عجزا عن العدل في القَسْم عند تعدد زوجاتهم فليقتصروا على زوجة واحدة حتى لا يجوروا، إذ أن مَن تزوج امرأتين فمال إلى إحـداهما جاء يـوم القيـامة وأَحَـدُ شقيـه مائل، وإن لم يتمكنـوا من الـزواج مـن حـرة فليقتصروا على مـا تحت أيـديهم من الجواري السراري إن وُجِدْنَ، وقد قال النسائي: أخبرنا عمرو بـن علي قال حدثنا عبدالرحمن قال حدثنـا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بَشير بن نَهِيكٍ عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ: «من كـان له امـرأتان يَمِيلُ لإِحْـدَاهُمَا على الأخرى جـاء يومَ القيامة أَحَـدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ». وقال ابن ماجـه: حدثنا أبو بكـر بن أبي شيبة ثنا وكيع عن همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بَشِير بن نَهِيكٍ عن أبي هريرة قـال: قال رسـول الله ﷺ: «من كانت لـه امـرأتان يميل مع إحـداهما على الأخرى جاء يومَ القيامة وأَحَدُ شِقَّيْـهِ سَاقِطٌ». وقال أبو داود في سننه: حدثنا أبو الوليد الطيـالسيُّ ثنا هَمَّامٌ ثنا قتادةُ عن النضر بن أنس عن بشير بن نَهِيكٍ عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ قـال: «من كانت لـه امرأتـان فَمَالَ إلى إحداهما جاء يوم القيامـة وشِقُّهُ مائل». وقال الترمذي: حدثنا محمـد بن بَشَّارٍ حدثنا عبدالرحمن بنُ مهدي حـدثنا همام عن قتادة عن النضر بن أنس عن بشير بن

نَهيك عن أبي هـريرة عن النبي ﷺ قـال: «إذا كان عنـد الرجل امرأتـان فلم يَعْدِلْ بينهما جَاءَ يوم القيامة وشِقُّهُ ساقط». قال أبو عيسى: وإنما أَسْنَدَ هذا الحديث هَمَّامُ بنُ يحيى عن قتـادة، ورواه هشام الـدَّسْتَوَائيُّ عن قتـادة قال: كان يُقَـالُ. ولا نعرف هذا الحديثَ مـرفوعا إلا من حـديث هَمَّام، وهَمَّامٌ ثقةٌ حافِظٌ اهـ وقد أرشـد رسول الله ﷺ من لم يستطع من ذوي النشاط الزواجَ أن يصوم فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قـال لنا رسـول الله ﷺ: «يا معشر الشبـاب من استطاع منكـم الباءة فَلْيتزَوَّجْ، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحْصَنُ لِلْفَـرْجِ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَـاءٌ». وبعد هذه الوصية الكـريمة من الله عز وجل برعـاية حقوق يتـامى النساء، وتحذيـر الرجـال من الجَوْرِ على الزوجـات مطلقا فَـرَضَ على الرجال هنا إيتاء النساء صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً حيث يقول عز وجل: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلـة﴾ أي وأَعْطُوا النساءَ مُهُورَهُنَّ عَطِيَّةً واجبةً وفـريضةً لاَزِمَةً، وقد حتمت الشريعـة الإسلاميـة في هذه الآية المهـر للنساء على الـرجال، ولم تُبِحْ لأحَدٍ أن يتزوج بـلا مهر بحال من الأحوال وحرمت نكـاح الشِّغَارِ، وقد أشار الله عـز وجل إلى أنه أذِنَ لنبيهﷺ دون غيره من الأمَّـة أن يتزوج من المرأة التي وهبت نفسهـا للنبي ﷺ إن رغب في نكـاحهـا بلا مهـر ولم يجز الله عـز وجل ذلك لغير رسـول الله ﷺ مطلقـا حيث يقـول تبارك وتعـالى: ﴿يـا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهنَّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنـاتِ عمك وبنـاتِ عماتك وبنـاتِ خـالك وبنـاتِ خـالاتك الـلاَّتي هَاجَـرْنَ معك وامرأة مـؤمنة إن وَهَبَتْ نَفْسَهَـا للنبي إن أراد النبي أن يستنكحهـا خالصـةً لك من دون المؤمنين، قـد علمنـا ما فـرضْنـا عليهم في أزواجهم ومـا ملكت أيمانهم لكيـلا يكـون عليك حـرج، وكـان الله غفـورا رحيما.﴾ وبتحتيم المهر على الزوج للزوجة وجَعْلِهِ حقا خالصا لها تتصرف فيه

كيف تشاء تكون المرأة في ظل الشريعة الإسلامية قد تميزت على نساء العالمين، لأن كتب العهد القديم وإن كانت قد فرضت للمرأة مهرا لكنها لا تُمَلِّكُهُ لها بالفعل إلا إذا مات زوجُها أو طلَّقَهَا، لأنها لا يحل لها عندهم أن تتصرف في مالها وهي ذات زوج. وفي قوله عز وجل: ﴿نِحْلَةً﴾ إشارة إلى أن هذا المهر عطيَّة من الله للمرأة، كما أنه يجب على الرجل أن يعطي زوجته المهر بطيب نفس منه، والصَّدُقَاتُ جمع صَدُقةٍ بفتح الصاد وضم الدال وهو اسم من أسماء المَهْر يقال فيه: صَدُقة بفتح الصاد وضم الدال ويقال فيه: صَدَقة بفتح الصاد والدال، ويقال فيه: صَدْقة بفتح الصاد وسكون الدال، وصَدَاق بفتح الصاد وصِداق بكسر الصاد. كما أن النحلة تطلق على العطية من غير عوض عن طيب نفس كما أن في التعبير بها كذلك في هذا المقام إشعاراً بسموٍّ مقصد هذه العطية في الإسلام وقال الزجاج ﴿نحلةً﴾ تَدَيُّنا، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا.﴾ أي فإن طابت أَنْفُسُهُنَّ لكم عن شيء من الصداق ووهبنه لكم دون خديعة أو إضرار منكم لهن فخذوه وانتفعوا به، وما أكلتم منه على هذه الصفة فهو هَنِيءٌ مَرِيءٌ، وتخصيص الأكل بالذكر لأنه معظم وُجُوه التصرفات المالية كما أشرت إلى ذلك قريبا في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ والمقصود من قوله عز وجل: ﴿فكلوه هنيئا مريئا﴾ هو المبالغة في إباحة الانتفاع به وإزالة أية تَبِعَةٍ بسببه، والهنيء المريء هو السائغ الطيب المحمود العاقبة الذي لا تنغيص فيه، الجالبُ للمسرة المزيل للمَضرَّة، والتعبير بقوله: ﴿فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا﴾ ولم يقل فإن وهبن لكم منه شيئا للتأكيد على ضرورة التأكد من رضا المرأة وأن عطاءها هو عن طيب نفس لا يشوبه إكراه أو خداع من الزوج أو غيره، وهذا في غاية لفت الانتباه إلى صيانة حقوق النساء في الإسلام وإحاطتهن بسياج حصينة تحميهن من

العَبَث بحقوقهن. وقوله عز وجل: ﴿ولاَ تُـؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالكم التي جَعَلَ الله لكم قيـامـا﴾ بعد أن أمـر الله عـز وجل أوصيـاء اليتامى بإيتـاء اليتـامى أموالهم، كما أمر عز وجل بإيتاء النساء صدقاتهن نحلة نَهَى عز وجل هنا عن تمكين السفهـاء مـن التصرف في أمـوالهم، وحـرَّمَ إطـلاق أيـديهم فيهـا، واستبـدادهم بها، مُبَيِّنـاً تبارك وتعـالى أن الله عـز وجل جعل الأمـوال قيامـا للناس، تقـوم عليها معايشهم، وتقوى بها أجسـامهم وأنفسهـم، ويَحْصُلُونَ بها على الكثير من مصالح دينهم ودنيـاهم، ويبتعد الإنسان الرشيـد بسببها عن مقعد الحسرة والندامـة ولذلك كثرت وصايا الإسلام بـالمحافظة على المال وصيـانته حتى قطعت يـد السـارق في ربع دينار، وفي قـولـه عز وجل هنـا: ﴿أمـوالكم التي جعل الله لكم قيـامـا﴾ وقـولـه عـز وجل في سـورة المائدة: ﴿جعل الله الكعبـة البيت الحرام قيـامــا للنــاس والشهــر الحرام والهدي والقلائد﴾ إشارة إلى أن قيام الناس وصـلاح معاشهم ومعادهم لا بد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يُقَـوِّمُ أرواحهم والمالُ الذي يُقَوِّمُ أبدانهم، وقد رسم الله عـز وجل للمسلمين أحسن المناهـج للتصرف في الأموال حيث يقـول: ﴿ولا تجعل يـدك مغلولـة إلى عنقك ولا تبسطهـا كُلَّ البسط فتقعـد ملـوما محسـورا﴾ وقـال في وصف عبـاده الصالحين: ﴿والـذين إذا أنفقـوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذٰلك قواما﴾ والسفهاء جمع سفيه، والسَّفَه في اللغة يطلق على معان منهـا: الجنون والجهلُ والطَّيْشُ وخِفَّـةُ العقل وعدمُ الـرشد وصِغَرُ السِّن والانحـراف عن سواء السبيل، وبهذا قد يكون السَّفَـهُ صفةَ ذم كما قد لا يكون صفةَ ذم كصغـر السِّنِّ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى سبحانه عن تمكين السفهـاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياما أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحجرُ على السفهـاء، وهم أقسام، فتـارةً يكون الحجـر للصِّغَرِ فإنَّ الصَّغير

مسلوبُ العبـارة، وتارةً يكـون الحجرُ للجنـون، وتارة لسـوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وتارة للفَلَس وهو ما إذا أحاطت الـديونُ برجل وضاق مالُه عن وفائهـا اهـ وظـاهر السيـاق يُشْعِرُ أن قـوله: ﴿أمـوالكم﴾ يريـد الأموال المملـوكـة للسفهـاء بإرث أو غيره بـدليل قـولـه عـز وجل في نفس الآيـة: ﴿وارزقـوهم فيها واكسُـوهُم﴾ وإنما جاءت الإضـافة للمخـاطبين لأنهم هم المسئولـون عن التصرف فيها، ولتهييـج عواطفهم بشـدة المحافظـة عليها كما يحافظون على أموالهم التي يمتلكونها، وهذا شبيـه بقوله تبارك وتعالى: ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم﴾ وقوله عـز وجل: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ وقوله عز وجل: ﴿ثم أنتم هـٰؤلاء تقتلون أنفسكم﴾ ومعلـومٌ أنَّ الـرجل منهم ما كـان يقتل نفســه وإنما كـان بعضهم يقتـل بعضـا، كما أن في إضـافـة الأمـوال للمخاطبين إفـادة نَهْي كل إنسان عن تسليم مـاله لسفيـه من السفهاء وعن إضـاعة المال لأي سبب كـان، وهـذا من كمال تنبيـه الناس إلى أن المالَ هـو عَصَبُ الحياة، وأن إتـلافه وتبذيره هـو من أعمال الشياطين ولذلك قـال عز وجل: ﴿إنَّ المبـذرين كانـوا إخوان الشيـاطين وكان الشيطـان لربـه كفورا﴾ وقـال عز وجل هنـا: ﴿التي جعل الله لكم قيـامـا﴾ قـال الفخر الـرازي في تفسير هذه الآيـة: اعلم أنه تعـالى أمر المكلفين في مـواضع من كتابـه بحفظ الأموال قال تعـالى: ﴿ولا تبذِّرْ تبذيرا. إن المبذرين كانـوا إخوان الشياطين﴾ وقال تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومـا محسورا﴾ وقـال تعالى: ﴿والـذين إذا أنفقوا لم يسرفـوا ولم يقتروا﴾ وقد رغَّبَ الله في حفظ المال في آية المداينـة حيث أمر بالكتابة والإشهـاد والرهن، والعقلُ أيضا يـؤيد ذلك لأن الإنسان مـا لم يكن فارغ البال لا يُمْكِنُـهُ القيامُ بتحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ولا يكونُ فارغ البال إلا بواسطة المال، لأنه به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار، فمن أراد الدنيا بهذا الغَرَضِ كانت

الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المُعِينَـةِ له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المُعَوِّقات عن كسب سعادة الآخرة اهـ وقوله عز وجل: ﴿وارزقوهم فيها واكسوهم﴾ أي أَجْرُوا عليهم ما يحتاجونه من الطعام والمسكن والكُسوة من هذه الأموال التي لهم تحت أيديكم وتصرفكم، وإنما قال عز وجل: ﴿وارزقوهم فيها﴾ ولم يقل: وارزقوهم منها، إشارة إلى أنه ينبغي لمن تحت يده أموالُ السفهاء أن يسعى في إنمائها بالوجوه المشروعة كالاتجار بها واستثمارها لتكون نفقة السفيه من أرباحها لا من أصولها، وقوله عز وجل: ﴿وقولوا لهم قولا معروفا﴾ أي وأحسنوا كلامكم مع السفهاء وقولوا لهم قولا جميلا يؤثر في القلب فيزيل السفه أو يقلصه لأن القول غيرَ الجميل لا يزيد السفيه إلا سَفَهاً، وقد تؤثر الكلمة الحسنة اللينة الجميلة في نفس السفيه تأثيرا تجعله من أرشد الراشدين.

قال تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاحَ فإن آنستم منهم رشْداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبدارا أن يكبروا، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم، وكفى بالله حسيبا. للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كثر، نصيبا مفروضاً﴾.

بعد أن نَهَى الله تبارك وتعالى أولياءَ السفهاء عن تمكين السفهاء من الاستبداد بأموالهم وأمرهم أن يرزقوهم فيها ويكسوهم ويقولوا لهم قولا معروفا، أمر هنا أوصياء اليتامى بتدريب من تحت أيديهم من اليتامى على حسن التصرف في المال بأن يعطوهم قليلا من المال ويأذَنُوا لهم في التصرف فيه لاختبارهم ومعرفة مَنْ يحسن التصرف، ومن يسيء التصرف فإن نمَّاه وأحسن التصرف فيه كان ذلك أمارةَ نجابته وتوسم الخير فيه، وإن أساء التصرف فيه وبذَّره وبدَّدَهُ كان ذلك أمارةَ تَمَكُّنِ السفه منه، على أنه إذا نجح هذا اليتيم في الاختبار وأحسنَ التصرف في المال فإنه لا يجوز دفع جميع ماله له إلا بشرطين: هما بُلُوغُ الحُلُم وإيناس الرشد وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بَلَغُوا النكاحَ فإن آنستم منهم رُشْداً فادفعُوا إليهم أموالهم﴾ أي واختبروا أيها الأوصياء يتاماكم قبل بلوغهم الحُلُم بتدريبهم على التصرف في قليل من المال تحت إشرافكم فإذا بلغوا الحُلُمَ وأدركوا السن الذي يصلحون فيه للنكاح والإنجاب، وعلمتم منهم الرشد بما أبصرتموه من حسن تصرفهم فيما اختبرتموهم به من المال القليل، وأنهم صاروا أهلا للتصرف في جملة أموالهم، فادفعوا أموالهم إليهم. ولا شك أن اختبار اليتامى يتفاوت بحسب بيئتهم وظروف حياتهم وما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة

فيكـون اختبارهم وتـدريبُهُم في البيع والشراء، وإن كانـوا من أهل الزراعـة فيكـون اختبـارهـم وتـدريبهم في هــذا الشأن وكـذلك الصُّنَّـاع وأصحـاب الحرف، وسائر الأمور التي يُعْرَفُ به نجابةُ اليتيم أو سفاهته. وبلوغ النكاح يكون بالاحتلام وهـو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الـدافق الذي يكون منه الـولد وهـو المني وإذا استيقظ رأى ذلك في ثيـابـه، كما قـال تبارك وتعـالى: ﴿وإذا بَلَغَ الأطفـالُ منكم الحُلُمَ فليستأذنـوا كما استأذن الـذين من قبلهم﴾ وقد اعتبرت الشريعة الإسلامية ثلاثة أشيـاء يُعْرَفُ بها بلوغ النكاح في الذكور والإناث، وشَيْئَيْنِ يُعْرَفُ بأي واحد منهما البلوغُ في الإنـاث، فالأشياء الثلاثة المشتركة بين الذكـور والإناث هي الاحتلامُ أو بلـوغ خمس عشرة سنة أو نبات الشعرِ الخشن المعـروف بالعانـة، وأما يختص بالإنـاث فهو الحيض والحَبَل. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق نافع قال حدثني ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ عَـرَضَهُ يوم أُحُد وهـو ابن أَرْبَعَ عَشَرَةَ سنةً فلم يُجِزْنِي، ثم عَـرَضَنِي يـوم الخنـدق وأنا ابـن خمس عشرة سنةً فأجـازني، قـال نـافعٌ: فَقَدِمْتُ على عمر بن عبـدالعزيز وهو خليفةٌ، فَحَدَّثْتُـهُ هذا الحديث فقال: إنَّ هـذا لَحَدٌّ بين الصغير والكبير، وكتب إلى عُمَّالِهِ أن يَفْـرِضُـوا لمن بَلَغ خمس عشرةَ. وقال أبو داود: حـدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيـان أخبرنا عبدالملك ابن عمير حـدثني عطية القُـرَظِيُّ قال: كنـت من سَبْي بني قريظـة فكانـوا ينظـرون فمـن أنبت الشعـرَ قُتل ومَنْ لم يُنْبِتْ لم يُقْتَـلْ فكنتُ فيمن لم يُنْبِت. حـدثنا مسـدد ثنـا أبـو عوانـة عن عبـدالملك بن عمير بهذا الحديث قـال: فكَشَفُـوا عانتي فَـوجَـدُوهَـا لم تنبت فجعلوني في السَّبي، وروى ابـن ماجـه والترمذي وقـال: هذا حديث حسن صحيح من طـريق عبدالملك بن عمير عن عطية القرظيِّ قال: عُرِضْنَا على النبي ﷺ يوم قريظة فكان مَنْ أَنْبَتَ قُتِلَ ومن لم يُنْبِتْ خُلِّيَ سبيلُه، فكنتُ ممن لم يُنْبِتْ فَخُلِّيَ سبيلي. وأورد النسائي في

باب متى يقع طلاقُ الصبي، من طريق عبد الملك بن عميرٍ عن عطية القرظيِّ قال: كنت يوم حُكْمِ سَعْدٍ في بني قريظة غلاما، فَشَكُّوا فِيَّ، فلم يجدوني أَنْبَتُّ فاسْتُبْقيتُ فها أنَا ذا بَيْنَ أَظْهُرِكُم. اهـ وقد أجمع العلماء على أن حيض الأنثى أو حَبَلَهَا يُعْتَبرُ بُلُوغا، وفي التعبير بالدفع في قوله عز وجل: ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ تنبيه إلى وجوب الإعطاء بالفعل وعدم جواز التأخير، وقوله عز وجل: ﴿ولا تأكلوها إسرافا وبِدَارا أن يَكْبَرُوا﴾ هو تأكيد للأمر بالدفع وتقرير له وتشديد في النهي عن حبسها عنهم، وإشارة إلى جواز أكل الوصي من مال اليتيم بالمعروف عندما يكون الوصي فقيراً، وقد نَهَى الله عز وجل هنا عن أمرين: الأول تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الإسراف، والثاني تحريم أكل الوصي من مال اليتيم على طريق الاغتنام منه قبل بلوغ اليتيم وقبل انتزاعه من الوصي، وأصل الإسراف تجاوزُ الحد المباح إلى ما لم يبح على طريق الإفراط، وقوله عز وجل: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ هذا تصريح بجواز أكل الوصي الفقير من مال اليتيم بالمعروف بعد التلويح بذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تأكلوها إسرافا﴾ كما ذكرتُ ذلك قريباً، وقد أخرج البخاري في التفسير من طريق هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿ومنْ كان غنِيا فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كان فقيرا فَلْيَأْكُل بالمعروف﴾ أنها نَزَلَتْ في مال اليتيم، إذا كان فقيرا أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف. وأخرج البخاري في البيوع في باب (من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والكيل والوزن) من طريق هشام بن عروة عن أبيه أنه سمع عائشة رضي الله عنها تقول: ﴿ومن كان غنيا فَلْيَسْتَعفِفْ ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ أنزلت في والي اليتيم الذي يُقيم عليه ويُصلح في ماله، إن كان فقيرا أكل منه بالمعروف. وأخرجه مسلم في التفسير من صحيحه من

طريق عَبْدَةَ بن سليمان عن هشـام عن أبيه عن عائشة في قـوله : ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالت : أنزلت في والي مال اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه . ثم أخرجه من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيـه عن عائشة في قوله تعالى : ﴿ومن كان غنيـا فليستعفف ومن كـان فقيرا فليأكل بـالمعروف﴾ قـالت : أنـزلت في ولي اليتيم أن يُصيبَ من مالـه إذا كان محتاجاً بقدر مـالِهِ بالمعروف . وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿فإذا دفعتم إليهم أمـوالهم فأشهـدوا عليهم﴾ أي فإذا أعطيتم يـا معشر ولاة اليتامى أموال الذين بَلَغُوا من اليتـامى النكاح وبعد إيناس الرشد منهم وسَلَّمتـوهـم أموالهم بـالفعل فأشهـدوا عليهم باستيفـائهم ذلك منكم وأنكم قد برئتم من عهدة أموالهم التي كانت تحت أيديكم لهم . وبهذا النظام الدقيق المحكم في حفـظ أموال اليتامى وهي تحت يـد الوصي ، وفي صيـانتها فلا تُسلَّمُ لليتيم إلا بعـد بلوغ النكاح وإيناس رُشْـدِه وفي التنبيه على الإشهاد عند الاستيفـاء ، وأن الوصي قد بـرئت ذمته ، مع الوصـايا السابقـة المحكمة المُتْقَنَةِ برعـاية حقوق اليتامى وحقـوق النساء في هذا المقام الكـريم من سورة النساء مع ما سيجيء من التشريعات السامية والأنظمة الدقيقة البديعة التي ترسم لـلإنسانيـة أكرمَ المناهج وأحْكَمَ الأنظمـة ، قد سَمَتْ شريعـة الإسلام فـوق كل تشريع ، وارتفعت على كل نظـام ، ومن أَحْسَنُ من الله حكما لقـوم يـوقنون . وقـوله عـز وجل : ﴿وكفى بـالله حسيبا﴾ دليل على مـا امتازت بـه الشرائع السماويـة على الأنظمــة الأرضيــة ، إذ أن مـن أبــرز الفــروق بين التشريعات السماوية وبين القوانين الـوضعية أن الشريعة لا تقتصر على مجرد وضع النظام الـرشيد السَّديد بل تعمل على تـربية النفس على الخوف من الله عـز وجل وأن مَـنْ يخالف تشريع الله يتعـرَّضُ لِسَخَطِ الله ومقتــه وغضبـه ، فيكون الإنسان رقيبا على نفسه في تطبيق شرع الله ، بخلاف الأنظمة الوضعية

فإنها لا تلتفت إلى ذلك ولا تقدر عليه، فلو فُرِضَ أن المسلمَ كانَ في صحراء خاليةٍ، بعيدا عن أعين الناس، ورأى إحدى المغريات المحرمة عليه، فإنه لا يعتبر نفسه خاليا، لعلمه أن عين الرقيب الحسيب تراقب حركاته وسكناته كما قال الشاعر:

إذا ما خلوتَ الدهر يوما فلا تقل خَلَوتُ ولكن قل: عَلَيَّ رقيبُ

ففي تذييل هذه الآية الكريمة المشتملة على هذه التشريعات الرشيدة السديدة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ لفت انتباه إلى هذه الحقيقة، حيث ذَيَّلَها بهذا الوعيد الشديد لمن جَحَدَ الحقَّ أو ظَلَمَ الخَلْقَ، والحسيب تأتي بمعنى المحاسب وبمعنى الكافي، إذ يقول الإنسان لمن ظلمه: حَسْبُهُ الله، أي يحاسبه الله على ما يفعل من الظلم، وتقول: حسيبك الله وحسبُكَ أي كافيك، وهذا الوعيد لولي اليتيم إعلام له أن الله تعالى مُطَّلعٌ عليه يَعْلَمُ باطنه كما يعلم ظاهره حتى يَحْذَر من تضييع شيء من مال اليتيم كما أن فيه وعيدا لمن بلغ من اليتامى واستوفى حقه من وصيه حتى يحذر من أن ينكر شيئا قد استوفاه من وصيه ويدعي عليه ما ليس له بحق. كما أن فيه وعيدا للشهود حتى يحذروا من تغيير الشهادة أو كتمانها، وقوله عز وجل: ﴿للرجال نَصيبٌ مما تَرَكَ الوالدان والأقربون وللنساء نَصيبٌ مما ترك الوالدان والأقربون مما قَلَّ منه أو كثر، نصيبا مَفْرُوضاً﴾ شروع في إبطال ما كان عليه عادةُ أهل الجاهلية من حرمان النساء والأطفال من الميراث حيث كانوا يقولون: إنما يرث من يَحْمِي الذمار ويدافع عن القبيل ويحوز الغنائم. ولما كان إخراج الناس عن عاداتهم يشق عليهم تدرج الإسلام في إثبات حق النساء والأطفال في الميراث، لِيَسْهُلَ على المسلمين تَلَقِّيه، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بيَّن فيها أن الإرث غيرُ مُخْتَصٍّ بالرجال بل هو مشترك بين الكبار والصغار من الذكور والإناث سواء كان الميتُ والدا أو

قريبا ثمَّ أكَّد عز وجل هذا الحقَّ بقوله: ﴿مما قلَّ منه أو كَثُرَ﴾ حتى لا يختص الـرجـال بأدوات الموتى من الـرجال بـل صار لـلأنثى حق في فـرس الـرجل وسيفـه، وعباءتـه وعمامتـه، ورمحه ونعلـه وعصاه. ثم أكَّـد عـز وجل ذلك بقوله: ﴿نصيباً مفروضـاً﴾ أي حظا مُحَتَّما لا بد من تسليمه لمستحقه، كما أن في تخصيص النسـاء بـالذكـر والنصيب كـالـرجـال للإيـذان بأصـالتهن في استحقاق الميراث، واقْتُصِرَ في هذه الآية الكريمة على مجرد إثبات حق الرجال والنسـاء في الميراث وأنـه نصيب مفـروض، وذكـر ذلك على سبيل الإجمال لتَتَشَوَّفَ النفوس إلى معرفته وتستعد لتلقّيهِ.

قال تعالى: ﴿وإذا حَضَر القسمة أُولُواْ القربى واليتامى والمساكين فارْزُقُوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا. ولْيخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا. إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا. يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كنَّ نساء فوق اثنتين فلهن ثُلُثا ما تَرَكَ وإن كانت واحدة فلها النِّصف، ولأبويه لكل واحد منهما السُّدُسُ مما ترك إن كان له ولدٌ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث، فإن كان له إخوة فلأمه السُّدس، من بعد وصية يوصِي بها أو دين، آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا، فريضة من الله، إنَّ الله كان عليما حكيما﴾

بعد أن مَهَّدَ الله تبارك وتعالى لبيان أنصبة المواريث وأثبت حق النساء في الميراث وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان النساء من الميراث لَفَتَ عز وجل هنا انتباه الناس إلى أن بعض الأقارب لا يرثون مع أنهم قد يشتركون في الحزن على الميت للقرابة التي بينهم وبينه، فأمر عز وجل بمنح من حضر قسمة التركة من الأقارب الذين لا يرثون جَبْراً لخواطرهم شيئا يسيرا من التركة عند قسمتها لا سيما إذا كان الميت لم يوص لهم بشيء من التركة، وذلك إذا كان الورثة كبارا بالغين راشدين ممن يحق لهم مثل هذا التصرف، لما في ذلك من حسن العشرة والأدب الجميل وصلة الأرحام، وكذلك بمنح من حضر القسمة من اليتامى والمساكين إشاعة للإحسان ورحمةً بهؤلاء حيث قال عز وجل: ﴿وإذا حضر القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: المعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراءُ من القرابة الذين لا يرثون واليتامى والمساكين قسمة مال جزيل فإنَّ أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوْا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شيءَ

يُعْطَوْنَه ، فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم أن يُرضَخَ لهم شيءٌ من الوسط يكون براً بِهِمْ ، وصدقةً عليهم ، وإحسانا إليهم ، وَجَبْراً لِكَسْرِهم اهـ وقد قال البخاري في صحيحه باب ﴿وإذا حَضَرَ القسمة أوْلوا القربى واليتامى والمساكينُ﴾ الآية ، حدثنا أحمد بن حُمَيْد أخبرنا عُبَيْدُ الله الأشجَعِيُّ عن سفيانَ عن الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وإذا حضر القسمةَ أوْلوا القربى واليتامى والمساكين﴾ قال : هي مُحْكَمَةٌ ، وليست بمنسوخة . تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس . وقولُ البخاري هنا : تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس قد وصله البخاري في كتاب الوصايا حيث قال : بابُ قولِ الله تعالى : ﴿وإذا حضر القسمة أوْلوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه﴾ حدثنا محمد بن الفضل أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية نُسِخَتْ ، ولا والله ما نُسِخَتْ ولكنَّها مما تهاونَ الناسُ ، هما واليان : والٍ يرث وذاك الذي يرزقُ ، ووالٍ لا يرث فذاك الذي يقول بالمعروف ، يقول : لا أملك لك أن أُعطيك اهـ وقولُ ابن عباس رضي الله عنهما : ولكنهما مما تَهَاوَنَ الناسُ . يَدُلُّ على أن الأمر في قوله عز وجل : ﴿فارزقوهم منه﴾ للإرشاد والاستحباب لا للإيجاب لأنه لو كان للإيجاب ما تهاون الناس وهم من السلف الصالح رضي الله عنهم الذين كانوا أحرص الناس على أداء الواجب وعمل الخير، وقولُه تبارك وتعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا .﴾ هذا تحذير وتخويف لولاة اليتامى وأمرٌ لهم بالحِرصِ الشديد على مصالح اليتامى ورعايتهم في أموالهم وأبدانهم وأخلاقهم وسلوكهم ، وأن يكونوا لهم كما يكون الأب الرحيم لولده البارّ، ويُنَبِّهُهُم إلى أنَّه كما يَدِينُ الإنسانُ يُدَانُ ، فَلْيَضَعُوا نُصْبَ أَعْيُنِهم صُورةً يَتَخَيَّلُون فيها أنهم في سياقة

الموت وأنهم يُخلفون وراءهم ذريةً صغارا عاجزين، فهل يرضون أن يقوم الأوصياء على ذريتهم الصغار الضِّعاف بالإساءة إليهم والتقصير في رعايتهم وأكل أموالهم إسرافاً وبداراً أن يكبروا؟ وما دام لا يرضى أحد لنفسه بذلك فلا يجوز له أن يرضى لأيتام غيره الذين هم تحت ولايته بذلك بل عليه أن يعاملهم كما يحب أن تُعَامَلُ ذريته الضِّعَافُ من بعده، فَلْيتق الله عز وجل في أيتام غيره الذين جعلهم الله عز وجل تحت ولايته وليحسن إليهم في تربيتهم وتعليمهم ومراعاة حسن سيرتهم وسلوكهم، وليحافظ على سلامة أموالهم وأبدانهم وأن يرعاهم كما يرعى أبناءه وذريته، وأن يعدل فيهم بالفِعْلِ والقَول السديد الرشيد وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا.﴾ هذه هي الآية الأخيرة من الآيات التي ساقها الله عز وجل في صدر هذه السورة المباركة التي يوصي عز وجل فيها عباده بوجوب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم، وصيانة أموالهم، وأبدانهم وأخلاقهم، وقد توعَّد الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما سواءٌ كانوا أوصياء عليهم أو كانوا غير أوصياء بأنهم سيصلون سعيرا وأن الذي يأكلونه من أموال اليتامى ظلما هو نار يدخلونها في بطونهم بأنفسهم، ومعنى قوله عز وجل ﴿ظلْماً﴾ أي بغير حق، وقوله عز وجل: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ هو غاية قصوى في التقبيح والتنفير، كما أن قوله عز وجل: ﴿وسيصلون سعيرا﴾ هو غاية قصوى في التهديد والوعيد، ومعنى: ﴿وسيصلون سعيرا.﴾ أي وسيدخلون نارا هائلة محرقة متَّقِدة مشْتَعِلة ذات لَهَبٍ، وقد أشار الله عز وجل إلى أن أكل مال اليتم ظلما من أكبر الكبائر حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إنه كان حوبا كبيرا.﴾ وقال: ﴿إنما يأكلون في بطونهم نارا﴾ وقال: ﴿وسيصلون سعيرا.﴾ وقد حذَّر الله عز وجل من قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حيث يقول

تبارك وتعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده﴾ في سُورَتي الأنعام والإسراء، وقد عـدَّ رسول الله ﷺ أكل مال اليتيم في السبع الموبقـات فقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال: اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قالـوا: يا رسول الله وما هنَّ؟ قـال: الشركُ بالله والسِّحْرُ وقتل النفس التى حـرَّمَ الله إلا بالحق وأكْلُ الـربا، وأكـل مال اليتيم، والتَّـولِّي يـوم الزحـف، وقَذْف المُحْصَنَـاتِ المؤمنات الغافلات. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ شروع في تفصيل أحكام المواريث المجملـة في قوله عز وجل: ﴿للرجـال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما تـرك الوالدان والأقربون مما قلَّ منه أو كَثُـرَ، نصيبـا مفـروضا.﴾ وقـد أحكم الله تبـارك وتعـالى الميراث لـلأولاد ولـلآباء، ولـلأزواج، وللكلالـة، ولما كان ميراث الأولاد والآبـاء والأزواج لا يسقط بحال قَـدَّم الله بيان أحكام ميراث الأولاد ذكورا و إناثـا والآباء، حيث قـال عـز وجل: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم للـذكـر مثل حظ الأنثيين﴾ أي يأمـركم الله عـز وجل ويعهـد إليكـم ويفـرض عليكم في شأن مـا يستحقـه أولادُكم من تركاتكم وأمـوالكم بعد موتكم، وقوله عـز وجل: ﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾ جملة مسـوقة لبيـان الوصيـة وتفسيرها، أي للذكـر منهم مثل نصيب الأنثيين فإذا خَلَّفَ الميت ذكـرا واحـدا وأنثى واحـدة فللذكـر سهمان وللأنثى سهم، و إذا كان الـوارث جماعة من الذكور وجماعـة من الإناث كان لكل ذكـــر سهمان ولكل أنثى سهـم، و إذا حصل مع الأولاد وارث آخـــر كالأبـوين وأحد الـزوجين فهم يأخذون سهـامهم ويكون البـاقي بين الأولاد للـذكـر مثل حظ الأنثيين، ومن حكمـة جعـل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل أن الشريعـة الإسلامية الغـراء أوجبت على الرجل أن ينفق على المرأة، فبهذا يكـون نصيبها في الميراث مسـاويا لنصيب الرجل تـارة وقد تكـون أوفر

حظًّا منه، فلو فرضنا أن ميتـا مات عن ولدين: ذكر وأنثى وترك ثلثمائة ألف مثلا كـان للذكر مـائتا ألف وللأنثـى مائة ألف. فإذا تزوج هـو فإنَّ عليه أن يعطي امرأته مهرا، وأن يعد لها مسكنا، وأن ينفق عليها من ماله سواء كانت فقيرة أو غنية ففي هـذه الحالة كـانت ماليته بينـه وبين زوجته فيكـون نصيبه بالفعل مسـاويا لنصيب أخته، وقـد يكون أقلَّ منه على أنه إذا وُلِـدَ له أولاد يكون عليـه نفقتهم وليس على أمهم منهـا شيء، وأما أخته فإنها إن تـزوجت أخذت مهـرا من زوجها، وتكون نفقتهـا على بعلها، ويمكن أن تستثمـر ما ورثته من أبيهـا وتُنَمِّيَه لنفسها دون أن تطـالَبَ بنفقات على بيت الـزوجية أو على أولادها، ولله الحكمـة البالغـة، وقولـه عز وجل: ﴿فإن كنَّ نسـاءً فوق اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما ترك وإن كانت واحدةً فلها النِّصْفُ﴾ أي وإن مات الميتُ وخَلَّفَ بنتين فما فوق فلهما أو فلهن ثُلُثَـا التركة، وإن كان خلَّف بنتـا واحدة فلها نصف التركة، ويُفْهَـمُ من ذلك أنه لو خلَّفَ ولداً واحداً فقـط كانت له التركة كلُّهـا وفي التنصيص على النساء إبطال لما كـــان عليـه أهل الجاهلـية من حـرمان النسـاء من الميراث، وفي هـذا التعبير لون من الإعجـاز والإيجاز بليغ، وإذا كان الله عـز وجل قد جعل لـلأخت الواحـدة النصف وللأختين الثلثين في قوله عز وجل: ﴿إن امرؤ هَلَكَ ليـس له ولد وله أخت فلها نصف ما تـركَ وهو يرثها إن لم يكن لها ولـد، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان ممـا تركَ﴾ فإنَّ البنتين أولى من الأختين بأن يكـــون لهما الثلثـان، والقـرآن العظيم يفسر بعضه بعضا، وقـد تفطن البخاري رحمه الله لذلك فأورد حديـث جابر رضي الله عنـه في تـوريث الأختين الثلثين تحت قـولــه تعـالى: ﴿يـوصيكم الله في أولادكم﴾ الآية للدلالة على أن للبنتين الثلثين كالأختين حيث قال البخاري: باب قوله ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ حدثنـا إبراهيم بنُ موسى حدثنا هشام أن ابن جُرَيج أخبرهم قال أخبرني ابنُ المنكدر عن جـابر رضي الله عنه قال:

عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلِمةَ ماشيين فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئا فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ عليَّ فأفقت فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقد رواه مسلم أيضا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما ميراث البنتين فقد قال تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين، فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ وإن كانت واحدةً فلها النصف﴾ فدَلَّ القرآن على أن البنت لها مع أخيها الذكر الثلث، ولها وحدها النصف، ولما فوق اثنتين الثلثان، بقيت البنت إذا كان لها مع الذكر الثلث لا الربع، فأن يكون لها مع الأنثى الثلث لا الربع أولى وأحرى، ولأنه قال: ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف﴾ فقيد النصف بكونها واحدةً فَدَلَّ بمفهومه على أنه لا يكون لها إلا مع هذا الوصف، بخلاف قوله ﴿وإن كنَّ نساء﴾ ذكر ضمير ﴿كنَّ﴾ و ﴿نساءً﴾ وذلك جمع، لم يمكن أن يقال: اثنتين، لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين، ولأن الحكم لا يختص باثنتين فلزم أن يقال: ﴿فوق اثنتين﴾ لأنه قد عُرِفَ حكم الثنتين، وعُرِفَ حكم الواحدة، وإذا كانت واحدة فلها النصف، ولما فوق الثنتين الثلثان، امتنع أن يكون للبنتين أكثر من الثلثين فلا يكون لهما جميع المال، لكل واحدة النصف فإنَّ الثلاث ليس لهن إلا الثلثان. ثم قال رحمه الله: وأيضا فإن الله لما قال في الأخوات: ﴿وإن كانتا اثنتين فلهما الثُلثان مما ترك﴾ كان دليلا على أن البنتين أولى بالثلثين من الأختين ثم اسْتَشْهَد رحمه الله بسنة رسول الله ﷺ حيث أعطى ابنتي سعد بن الربيع الثلثين ثم قال: وهذا إجماع لا يصح فيه خلافٌ عن ابن عباس اهـ
وقوله عز وجل: ﴿ولأبويه لكل واحد منهما السُّدُسُ مما ترك إن كان له ولد﴾ أي وإذا كان للميت أبوان وأولاد فيفرض لكل واحد من الأبوين السُّدُسُ، فإن لم يكن للميت إلا بنتٌ واحدة فُرِضَ لها النصف وللأبوين لكل واحد منهما السُّدُسُ، وأخذ الأبُ السدسَ الباقي بالتعصيب، فَيُجْمَعُ له في هذه

الحالة بين الفرض والتعصيب، وقوله عز وجل: ﴿فإن لم يكن له ولدٌ وَوَرِثه أبواه فلأمه الثُّلثُ﴾ أي فإن لم يكن للميت ولد ذكر أو أنثى وانفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأم ثلث التركة ويكون الباقي للأب بالتعصيب المحض.
أما إذا لم ينفرد الأبوان بالميراث بأن كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوجُ النصف وإن كانت زوجة أخذت الربع ويكون الباقي بعد نصيب الزوج أو الزوجة للأم ثلثه وللأب ثلثاه، وبهذا أفتى عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي وبه يقول زيد بنُ ثابت وابن مسعود وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة، وقوله عز وجل: ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السُّدُسُ﴾ هذا هو الحال الثالث من أحوال الأبوين وهو اجتماعهما مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ولكنهم مع ذلك يَحْجُبُون الأم من الثلث إلى السدس، فيفرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن للميت وارث سوى الأبوين أخذت الأم السدس وأخذ الأب الباقي من التركة، ويكاد الإجماع ينعقد على أن الأخَويْنِ كالإخوة في حجب الأم عن الثلث إلى السدس، وقوله عز وجل: ﴿من بعد وصية يُوصي بها أو دين﴾ أي إن تقسيم التركة إنما يتم بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصية الشرعية وقد حكى ابن جرير إجماع الأمة على ذلك وقال ابن كثير: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدينَ مقدم على الوصيةاهـ وإنما قدمت الوصية في الذكر وإن كانت مؤخرة عن الدين في الوفاء للاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، وقوله عز وجل: ﴿آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيُّهم أقرب لكم نفعاً، فريضةً من الله، إن الله كان عليما حكيما.﴾ أي إنكم يَخْفَى عليكم في حقيقة الأمر مَنْ هو الأنْفَعُ لكم في دنياكم وأخراكم أيأتيكم هذا النفع من جهة آبائكم أو من جهة أبنائكم فقد يكون الأب أنفع وقد يكون الابن أنفع فاقتضت حكمة الحكيم العليم أن يفرض هذه الفرائض بحكمته البالغة على هذا المنهج العظيم والتقسيم البديع.

قال تعالى : ﴿ولكم نصف ما تـرك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن ، مـن بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تـركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن ممـا تركتم ، من بعد وصية توصون بها أو دين ، وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحـد منهما السُّدس ، فإن كـانـوا أكثر من ذٰلك فهم شركـاء فى الثلث ، من بعـد وصيـة يُوصَى بها أو دين غير مُضَـارٍّ، وصيـة من الله ، والله عليم حليم . تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتهـا الأنهار خالـدين فيها ، وذٰلك الفـوز العظيم . ومن يعص الله ورسولـه ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين . ﴾

بعد أن أوضح الله تبـارك وتعالى أنصبة الأولاد ذكورا وإنـاثا من ميراثهم في تركـة والدهم ، وبيَّن كذلك نصيب الأبوين من ميراثهما من ولـدهما شَرَعَ هنا يُفَصِّل ميراثَ الزوج من زوجته وميراثَ الزوجة من زوجها ، ثم ميراثَ الإخوة لأمٍّ ، وبـدأ عز وجل ببيـان نصيب الزوج من ميراثـه في زوجته حيث يقـول : ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولـد ، فإن كان لهن ولد فلكم الـربع مما تـركن﴾ يعني عز وجـل أن الزوج يستحق من تـركة زوجتـه نصف التركة إذا كـانت الزوجـة ماتت ولم تترك ولـدا أو ولدَ ولـدِ مهما تَسَلْسَلَ ، فإن كانت الزوجـة الميتة تركت ولداً أو وَلَدَ وَلَـدِ مهما تَسَلْسَلَ ، ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كـان أو أكثر ، وسـواء كان الولـد من هذا الـزوج أو من زوج آخر فإنَّ الزوج يستحق ربع تركة زوجته التي تركـت ولدا ، وقوله عز وجل : ﴿من بعد وصيـة يوصين بها أو دين﴾ أي إنما يستحق الـزوج هـذا النصيب من الميراث بعد سـداد دين الميت وتنفيذ وصيته ، وقـد ذكرت في تفسير الآية السـابقة أن الإجماع منعقد على تقديم الدَّيْنِ على الوصيـة وأشرت إلى سبب تقديم الوصية

في الذكر على الدين وأن ذلك لـلاهتمام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، ولا سيما أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكـان إخراجها شاقا على الورثة كما أن في تقديم الـوصية على الدين في الـذكر تذكيرا بنعمـة الله عز وجل على الميت حيث أطعمه الله عز وجل من ماله نصيبا يتقرب به إلى الله عز وجل في أبواب الخير التي يوصي فيها الميت ليستدرك ما فاته أيام مُهْلته، حتى لا ينقطع عنه ثواب العمل الصالح بعد موتـه، حيث إن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، منها الصدقة الجارية، وقـد جمع الله عز وجل بين الوصية والدين لِيَعْرِفَ المسلمون أن سهام الورثة إنما تعتبر بعـد الوصية كما تعتبر بعد الدين، ومن مظاهـر تقديم الدين على الـوصية أن الدَّيْنَ لو استغـرق التركة سقطت الوصية وسقط حقّ الورثة في الميراث. وقوله عز وجل: ﴿ولهنَّ الرُّبع مما تركتم إنْ لم يكن لكم ولدٌ، فإن كان لكم ولد فلهنَّ الثمنُ مما تركتم، من بعد وصية توصون بها أو دين﴾ يعنـي عز وجل أن الزوجة تستحق من تـركة زوجها ربع التركة إذا كان الزوج قد مات ولم يترك ولداً أو وَلَدَ ولَدٍ مهما تسلسل، فإن كان الزوج الميـت تَرَكَ ولداً أو ولَـدَ وَلَدٍ مهما تسلسـل، ذكرا كان أو أنثـى، واحداً كان أو أكثـر، وسواء كـان الولد من الـزوجة الـوارثة أو من زوجـة أخرى فإن الـزوجة إنما تـرث الثمن فقط مـا دام زوجها الميت قـد تـرك ولدا، وقـد أجمع العلماء على أن الزوج إنْ مات وتـرك زوجة واحدة فلها هذا الـذي ذكر الله عز وجل من الربع عنـد عدم الولد للـزوج أو الثمن عند وجود الولـد للزوج فإن كان الميت تـرك زوجتين أو ثلاثا أو أربعـا فإنهن يشتركن جميعا في هـذا الذي فرض الله عز وجل من الربع أو الثمن فهو فرض الزوجة الواحدة أو الزوجتين أو الثـلاث أو الأربع. ولا خـلاف في ذلك عنـد أهل العلم، وقـولـه تبـارك وتعالى: ﴿وإن كان رجـلٌ يورَثُ كَلاَلَةً أو امرأة ولـه أخٌ أو أختٌ فلِكلٍّ واحدٍ منهـا السُّـدس، فإن كـانـوا أكثـر من ذلك فهم شركـاء في الثُّلث.﴾ أصلُ

الكَلاَلَةِ في اللغة يطلق على معانٍ كثيرة مختلفة منها الإعياء ومنه قولُ الأعشى :

فأَلَيْتُ لا أَرْثَـى لها من كَـلاَلَـةٍ ولا من حَفى حتى تلاقى محمـدا

وقيل هي من قولهم : تكلَّلـه الشيء إذا أحاط به ومنه الإكليل وهـو التاج والعصابة المحيطة بالرأس وكما قال امرؤ القيس :

أَصَـاحِ تَـرَى بَرْقـاً أُرِيكَ وَمِيضَـهُ كَلَمْـعِ اليَـدَيْـنِ في حَبِيٍّ مُكَـلَّـلِ

وقد ذكـر الله تبارك وتعـالى ميراث الكلالة في مـوضعين من كتابـه الكريم حيث قال عـز وجل هنا : ﴿وإن كان رجل يـورث كَلاَلَة أو امـرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السُّدس﴾ والموضع الثاني في آخر آية من سورة النساء وهي الآية المعـروفة بآيـة الصيف حيث يقول عـز وجل : ﴿يستفتونك قل الله يُفتيكم في الكَلاَلَة ، إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ، فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ، وإن كانوا إخـوةً رجالا ونسـاءً فَلِلـذَّكَرِ مثْلُ حظ الأنثيين .﴾ وقـد أجمع العلماءُ على أن الإخوة في الموضع الأول هم الإخوة للأم لقـوله تبارك وتعالى : ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ ولا خلاف بين أهل العلم على أنَّ الإخوة للأب والأم أو الأخوة لأب ليس ميراثهم كذلك وأن المراد بـالإخوة في آية الصيف هم الإخـوة الأشقاء أو الإخوة لأب حيث ترث الأخت المنفردة النصف من أخيهـا الذي ليس له ولد وإذا انفرد الأخ ورث جميع تـركة أخته التي مـاتت وليس لها ولد ، ولا شك أن الأخ لا يـرث شيئا أبـدا من ميراث أخته التي ليس لها ولـد إذا كان لها والـد ، فـاتضح من الآيتين الكريمتين أن الكـلالة هـو من مـات وليس له والـد ولا ولـد ، ودلت الآيتان على أن الإخـوة كلَّهم كـلالة ، قـال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله عز وجل : ﴿فلكل واحد منها السُّدسُ ، فإن كانوا أكثر من ذٰلك فهم شركاء في الثلث﴾ : وإخـوة الأم يخالفون بقية الـورثة من وجوه : أحـدها أنهم يـرثون من أدلـوا به وهي الأم ، والثـاني : أن ذكورهم وإنـاثهم في الميراث

سواء، والثالث: لا يرثون إلا إن كان مَيِّتُهُم يُورَثُ كَلَالَةً فلا يرثون مع أبٍ ولا جَدٍّ ولا وَلَدٍ ولا ولَدِ ابنٍ، الرابع: أنهم لا يُزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذُلك فهم شركاء في الثلث﴾ أي وإن كان الميتُ المُورِّثُ لا والد له ولا ولد سواء كان ذكرا أو أنثى وقد خلَّف هذا الميتُ وارءه أخاً لأمه أو أختًا لأمه فإن نصيب الأخ من الأم أو الأخت هو السدس من التركة لكل واحد منهما، فإن كان الإخوة لأم أكْثَرَ من ذلك مهما كان عددهم. فليس لهم من التركة إلا الثلث يشتركون فيه بالتساوي، الأنثى والذكر فيه سواء، وقوله عز وجل: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين غَير مضارّ﴾ تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن الوارث إنما يستحق نصيبه الذي جعله الله عز وجل له بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصيته، حيث ذكر ذلك في آيتي المواريث هنا أربع مرات وقد قيد في المرة الرابعة بقيد عدم المضارة للورثة من الموصي، وهذا القيد مرادٌ في المرات الثلاث السابقة فلا يجوز للموصي أن يدخل الضرر على الورثة كأن يوصي لوارث أو يوصى بما زاد على الثلث، أو أن تكون وصيته لقصد الإضرار بالورثة دون قصد القربة إلى الله عز وجل، أو أن يُقر بدينٍ كاذبًا أو أن يُوصى في مرض الموت بدين ليس عليه ليضر بالورثة أو ببعضهم، وبهذا التشريع المحكم المتقن تُصان حقوقُ الورثة كما تصان حقوقُ مُورثيهم، فما أجمل وأدقَ وأعظم هذا التشريع الذي شرعهُ الحكيم العليم، وبعث به النبي الأميَّ سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله عز وجل: ﴿وصيةً﴾ هو مصدر مؤكد لقوله تبارك وتعالى في صدر الآية السابقة: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقد أضافه إلى الله زيادة في تأكيده وتحريم التهاون فيه وتضييعه، كما قال عز وجل في تذييل الآية السابقة: ﴿فريضة

من الله﴾ وهذا كله تأكيد لحفظ حقوق الورثة من التلاعب بها وكذلك صيانة حقوق المُورِّثين، وقد تقدم أن معنى ﴿يوصيكم﴾ أي يفرض عليكم، فذيل الآية الأولى بمصدر من معنى يوصيكم وذيَّل الآية الثانية بمصدر من لفظ يوصيكم حيث قال في الآية الأولى: ﴿فريضة من الله، إن الله كان عليما حكيما.﴾ وقال في الآية الثانية: ﴿وصيةً من الله، والله عليم حليم.﴾ لتنبيه عباده إلى سُمُوِّ تشريعه، وتحذيرِ مَنْ ضَيَّع هذه الفرائض بأنه لولا حِلْمُ الله عز وجل لعاجله بالعقوبة، ثم زاد تأكيد ذلك ببيان أن هذه الفرائض التي فرضها في شأن اليتامى والنساء والمواريث هي حدود الله التي حدَّها لعباده ليلتزموا بها ويقفوا عندها ولا يجوز لهم مجاوزتُهَا وأنه أعَدَّ لمن حافظ على حدود الله جنات تجري من تحتها الأنهار كما أَعَدَّ لمن ينتهك حرمات الله ويتعدَّى حدوده ناراً يَخْلُدُ فيها، وله عذاب مهين، حيث يقول عز وجل: ﴿تلك حُدُودُ الله، ومنْ يُطِعِ الله ورسولَهُ يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها، وذلكَ الفوزُ العظيم. ومن يعص الله ورسوله ويَتَعَدَّ حدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارا خالدًا فيها وله عذابٌ مُهِينٌ.﴾ وحدود الله تبارك وتعالى هي الأشياء التي بيَّن تحريمها أو تحليها وأمر بالوقوف عندها قال الأزهري: حُدُودُ الله عز وجل ضربان: ضربٌ منها حُدُودٌ حَدَّها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحلَّ وحرَّم، وأمر بالانتهاء عما نَهَى عنه منها. ونَهَى عن تَعَدِّيها، والضربُ الثاني عقوباتٌ جُعِلَتْ لمن رَكِبَ ما نهى عنه، اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: قال: ابن الأثير: وفي الحديث ذكر الحد والحدود في غير موضع، وهي محارمُ الله وعُقُوباتُهُ التي قرنها بالذنوب، وأصل الحد: المنع والفصل بين الشيئين فكأن حُدُودَ الشرع فَصَلَتْ بين الحلال والحرام، فمنها ما لا يُقْرَبُ كالفواحش المحرَّمةِ ومنه قولُه تعالى: ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ ومنه ما لا يُتَعَدَّى كالمواريث المُعَينة

وتزويـج الأربع . ومنه قـوله تعـالى : ﴿تلك حدود الله فـلا تعتدوهـا﴾ ومنها الحديث : إنى أَصَبْتُ حَـداً فَأَقِمْـهُ عليَّ أي إني أصبت ذنبا أَوْجَبَ عليَّ حـدًّا أي عقوبـة اهـ وقد يطلق الحد على مـا هو حق لله عـز وجل مما فيه عقـوبة مقدرة كحد الزنا والقذف والسرقة ، أو لم تكن فيه عقوبة مقدرة كالتعزير ومنه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي بُـردة الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقـول : لا يجلد فـوق عشرة أسواط إلا في حـد من حدود الله ، أي إلا في حق من حقوق الله . وفي قوله عـز وجل في وصف أهل الجنة ﴿خالدين فيها﴾ بالجمع ، وفي وصف أهل النار ﴿خالدًا فيها﴾ لمراعاة معنى مَنْ في الجمع ومـراعـاة لفظهـا في الإفراد مع الإشـارة إلى مـا لأهل الجنـة من الاجتماع على سرر متقابلين والإشارة إلى ما فيه أهل النار من الوحشة والانفراد في سجن الجحيم ، مع العذاب المهين ، نسأل الله بمنه أن يحشرنا مع السعداء إنه عفوٌّ كريم برٌّ رحيم .

قال تعالى : ﴿والَّـٰتِي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . والَّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ، إنَّ الله كان توابا رحيما . إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولَٰئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهُم الموتُ قال إني تبت الآنَ ولا الذين يموتون وهم كفار، أولَٰئك أعتدنا لهم عذابا أليما . ﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بصيانة الأموال وأكد بصفة خاصة على صيانة حقوق اليتامى ، وحقوق النساء ورغَّبَ في أثناء ذلك في صيانة الأعراض حيث أمر الرجال بأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء مثنى وثلاث ورباع مما يُثْمِرُ العِفَّةَ وحمايةَ الأعراض شرع هنا في تشريع عقوبة الاعتداء على الأعراض ، وتَدَرَّج في تحديد هذه العقوبة لنَقْلِ الناس من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام ، حيث أَمَرَ الله تبارك وتعالى هنا بِسَجْن المرأة التي تزني حتى تموت ، وأشار عز وجل إلى أنَّ هذا الحكم ليس هو الحكمَ النِّهَائيَّ في هذه الجريمة البشعة وإنما هو تمهيد قبل تقرير الحكم النهائي الذي يستمر إلى قيام الساعة حيث يقول : ﴿والـلاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شَهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموت أو يجعل الله لهنَّ سبيلا . ﴾ قال الفخر الرازي : اعلـم أنه تعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمرَ بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالجميل وما يتصل بهذا الباب ضمَّ إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، فإنَّ ذلك في الحقيقة إحسان إليهنَّ ، ونظر لهنَّ في أمر آخرتهن ، وأيضا ففيه فائدة أخرى : وهو أن لا يجعل أمر الله الرجال بالإحسان إليهن سببا لترك إقامة الحدود عليهن

فيصير ذلك سببا لوقوعهن في أنواع المفاسد والمهالك، وأيضا فيه فائدة ثالثة، وهي بيان أن الله تعالى كما يستوفي لخلقه فكذلك يستوفي عليهم، وأنه ليس في أحكامه محاباةٌ ولا بينه وبين أحد قرابةٌ، وأنَّ مَدَارَ هذا الشَّرْعِ الإنصاف والاحتراز في كل بابٍ عن طَرَفَي الإفراط والتَّفريطِ اهـ ومعنى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم﴾ أي واللاتي يَفْعَلْنَ الجريمة البشعةَ المستقبحة المُسْتَهْجَنَةَ الكبيرة والمراد بالفاحشة هنا زنى النساء المسلمات، والخطاب في قوله عز وجل: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ للولاة والحكام والقضاة ومعنى: ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي فاطلبوا ممن يدَّعي هذه الجريمة الفاحشة على المرأة إحضار أربعة رجال من المسلمين يشهدون بأن هذه المرأة المدَّعى عليها ارتكبت هذه الجريمة، وأنهم شاهَدُوا ما يَشْهَدُون عليه بلا شك ولا ظن بل بالمعاينة، ولا بدَّ في هؤلاء الشهود أن يكونوا رجالاً، فلا تقبل في هذه الشهادة شَهَادَةُ النساء، ولا بد أن يكون هؤلاء الشهودُ معروفين بالعدالة لأن الله اشترط عدالة الشهود في البيوع والرجعة، وهذا أكبر وأعظم وأولى.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنَّ الموتُ أو يجعل الله لهنَّ سبيلا.﴾ هذا هو حكم الله عز وجل على من زنت من النساء وثبت لدى الحاكم الشرعي زناها بشهادة أربعة رجال عدول من المسلمين أن تُسْجَنَ إلى أقربِ الأجلين وهما مَوْتُهَا أو أن يجيء تشريع يَنْسَخُ هذا الحكم حيث أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿أو يَجْعَلَ الله لهنَّ سبيلاً.﴾ وقد كان هذا الحكم هو الطور الأول في هذا الشأن وكان يشمل كلَّ زانية بكرا كانت أو ثيبا، وقد استمر هذا الحكم حتى جاء الطور الثاني من أطوار هذا الحكم في سورة النور حيث قال عز وجل: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جَلْدةٍ﴾ وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ أنَّ هذا الحد الذي بيَّنته هذه الآية

وهي الآيـة الثانيـة من سـورة النور هـو حـدُّ زنا البكـر رجـلا كان أو امـرأةً، وأضافت إليـه السنَّةُ تغريب عـام، وأن حدَّ الثيب المُحْصَنِ هو جلـده مائة ورجمه بالحجارة إلى الموت رجلا كان أو امرأة، وأن هذا هو السبيل الذي أشار الله عز وجل إليه بقوله تبـارك وتعالى: ﴿أو يجعل الله لهن سبيلا.﴾ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: خُذُوا عني، خذوا عني، فقـد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جَلْدُ مائة ونَفى سنـة، والثيبُ بالثيب جَلْدُ مائةٍ والـرجْمُ، ومعنى قوله ﷺ: خذوا عني، خـذوا عني: أي تَلَقَّوْا هذا الحكم مني واحفظوه، ومعنى قـوله ﷺ: فقد جعل الله لهن سبيـلا، أي فقد بيَّن الله تبارك وتعـالى السبيل الذي أجملـه في قولـه عز وجل: ﴿أو يجعل الله لهن سبيـلا﴾ ونسخ به مـا كان قـد شرعه في حق اللائي يأتين الفـاحشة من النساء بقولـه تعالى: ﴿واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهنَّ في البيوت حتى يتوفَّاهنَّ الموتُ أو يجعل الله لهنَّ سبيـلا.﴾ وقوله ﷺ: البِكْرُ بالبِكْـر جَلْدُ مـائةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ أي حـدُّ زنا البكـر بالبكـر أنْ يُضْرَبَ كلُّ واحدٍ منهما مائةَ جلدةٍ وأنْ يُغرَّبَ عاما، والمرادُ بـالبِكر هنا هو من لم يجامعْ في نكاح صحيح وهو حرٌّ بـالغٌ عاقلٌ، وقوله ﷺ: والثيبُ بالثيِّبِ جَلْـدُ مائةٍ والرجم أي وحدُّ زنـا الثيب بالثيـب أن يضرب مائة جلدة وأن يـرجم بالحجـارة حتى يموت، والمراد بالثَّيِّب هنا هو الحرُّ البـالغ العاقل المجامع في نكاح صحيح، وقوله ﷺ: البكر بالبكر وقوله الثيب بالثيب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له فلو زَنى بكـر بثيب أو ثيب ببكر فإن حَدَّ الثيب غير حد البكـر فلكل واحد منهما حـده وقـد بَيَّنَ ذلك رسـول الله ﷺ في حـد العسيف في الحديث المتفق عليه عند البخـاري ومسلم من رواية أبي هريرة وزيـد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك

الله إلا قَضَيْتَ لي بكتاب الله، فقال الآخرُ وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال: قل، قال: إن ابني كان عسيفاً على هذا، فزنَى بامرأته، وإني أخبرت أنَّ علي ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدةٍ، فسألت أهلَ العلم فأخْبَرُوني أن ما على ابني جَلْدُ مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لأَقْضِيَنَّ بينكما بكتاب الله: الوليدة والغنَمُ ردٌّ عليك، وعلى ابنك جلدُ مائة وتغريب عامٌ، واغدُ يا أُنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها. وقد أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن الرجم ثبت بقرآن نُسِخَ لفظه وبقي حكمه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال: إنَّ الله بعث محمدا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيما أنزلَ الله عليه آية الرجم، قرأناها، ووَعَيْنَاهَا، وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رسولُ الله ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدهُ، فأَخْشَى إن طال بالناس زمان أن يقولَ قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضةٍ أنزلها الله، وإن الرجم حقٌّ في كتاب الله على من زنى إذا أُحْصِنَ من الرجال والنساء إذا قامت البينة، أو كان الحَبَلُ، أو الاعتراف. اهـ وقد أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت رجم الزاني المحصن وأنه حكْمٌ محكمٌ إلى يوم القيامة. أما الطور الثالث من أطوار تشريع عقوبة الزنا فهو نسخ جلد الثيب قبل رجمه حيث لم يأمر رسول الله ﷺ بجلد التي زنى بها العسيف أي الأجير وإنما أمر أُنيساً برجمها إن اعترفت ولم يذكر الجلد كما تقدم قريبا في حديث الصحيحين من رواية أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما، كما أنه ﷺ رَجَمَ ماعزا، والغامدية، والجُهَنيةَ واليهوديَّ، واليهودية، ولم يثبت بخبر صحيح أنه جلدهم قبل الرجم. وقوله عز وجل: ﴿واللَّذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما، إن الله كان توابا رحيما.﴾ أي ومن فَعَلَ هذه الفاحشة وهي الزنا منكم أيها الرجال

فعُقُوبَتُهُ أن يؤذى بما يردعُ مثلـه من الضرب بالنعال والجريد دون حد محدود، والتثنية في قـوله عـز وجل: ﴿واللذان يأتيـانها منكم﴾ لبيان صِنْفى الـرجال البكر والثيب، وقد علمتَ أن هذا الحكم قد نسخ وصار إلى جلد البكر مائة وتغريب عـام ورجم الثيب بالحجـارة إلى الموت. هذا، وبينـة إثبات الـزنا لم تتغير في سائر هذه الأطـوار فلا بُدَّ فيها من أربعة شهود عـدول من الرجال، كما أشار الله عز وجل إلى ذلـك في سورة النور حيث يقول: ﴿والذيـن يَرْمون المحصنات ثم لم يأتـوا بأربعة شهـداء فاجلـدهم ثمانين جلدة﴾ الآيتين. وفي جعل الشهـود لإثبـات الـزنـا أربعـة سترٌ على العبـاد وتغليظ على المدَّعِي، و إشعار بعظم جـرم الزنـا وبشاعتـه، وكَرَاهيـة لإشاعـة الفاحشة في الـذين آمنوا، هـذا وقد كانت شريعة التـوراة تقضي برجم الزاني مطلقا بكـرا كان أو ثيبا ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التثنية في الفقرة ٢٠ و٢١ فيمن تزوج فتـاة على أنها بكر، فلـم يجد لها عُذرَةً يقول: ولكـن إن كان هـذا الأمر صحيحا لم تُوجَدْ عُذْرَة للفتاة يُخْرِجُون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجالُ مدينتهـا بالحجـارة حتى تموت، وفي الفقرتين ٢٣ و٢٤ منـه: إذا كانـت فتاةٌ عذراءُ مخطـوبةً لرجل فوجـدها رجل في المدينة واضطجع معها، فأخـرجوهما كليهما إلى بـاب تلك المدينـة وارجموهما بالحجـارة حتى يمـوتـا. ولا شك أن التشريع الإسلامي قـد رفع الله عز وجل به الإصر والأغـلال التي كانت على بني إسرائيل. وقولـه عز وجل: ﴿فإن تـابا وأصلحا فأعـرضوا عنهما، إن الله كان توابا رحيما. إنما التـوبة على الله للذين يعملون السُّوءَ بِجَهَالَـةٍ ثم يتوبون من قريب فأولَئك يتـوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما. وليست التـوبة للذين يعملون السيئـات حتى إذا حضر أحدهم الموتُ قال إني تبتُ الآن ولا الذين يمـوتون وهم كُفَّـارٌ، أولَئك أعتدنـا لهم عذابا أليما.﴾ أي فـإن عرفتم صحة التوبة من هؤلاء المذنبين فـلا تعنفوهما ولا تُثَرِّبُوا عليهما فلا تُعيِّرُوهما إن

الله يتـوب على التائبين، وهـو أرحم الراحمين. وهـو يقبل تـوبة التـائب غير المُصِرِّ، فمن تاب تـاب الله عليه، إلا من تاب عند الموت أو مات كـافرا فإن الله عز وجل لا يقبل توبته، وقد هيأ الله لمن مات كافرا عذابا أليما في جهنم، وبئس المصير، عياذا بالله منها.

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا.﴾

بعد أن ذكر عز وجل جملة من التشريعات التي تحمي حقوق النساء، وتصون كرامة المرأة، وأكد عز وجل على مشاركة المرأة أخاها في الميراث، وأن لها نصيبا من الميراث كما أن للذكر نصيبا من الميراث وأعلن عز وجل أن هذه الفرائض والتشريعات هي حدود الله، وبشر من يحافظ على حدود الله بجنات تجري من تحتها الأنهار، وحذَّر منْ يتعدى حدودَ الله بأنه يُعَرِّضُ نفسه لعذاب الله في نار الجحيم، ثم بَيَّنَ عقوبة الزانية والزاني في الطور الأول من أطوار تشريع عقوبة هذه الجريمة ورغَّب في التوبة وحذَّر من الإصرار على المعصية، أخذ في بيان المزيد من حقوق النساء ورفع ما كان يصيبُ المرأة من العَنَتِ في الجاهلية حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحلُّ لكم أن تَرِثُوا النساء كَرْهًا ولا تَعْضُلُوهنَّ لتذْهَبوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إلا أن يأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبيِّنَةٍ﴾ وهو يشير عز وجل بذلك إلى أن أهل الجاهلية كانوا أحيانا يعتبرون المرأة نصيبا من الميراث وأنه يُحَرِّم ذلك على المؤمنين، كما يَنْهَى المؤمنين عن عضل النساء ظُلْماً وعُدْوَاناً، قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بنُ مقَاتِلٍ حدثنا أسباط بنُ محمد حدثنا الشَّيْبَانِيُّ عن عكرمة عن ابن عباس قال الشيباني: وذَكَرَهُ أبو الحسن السُّوَائيُّ ولا أظُنُّهُ ذكره إلا عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ قال: كانوا إذا مات الرجلُ كان أولياؤهُ أَحَقَّ بامرأته، إن شاء بَعْضُهُم تزوَّجَها وإن شَاءُوا زَوَّجُوها، وإن شاءوا لم يُزَوِّجُوهَا، فهم

أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هـذه الآية في ذلك. وبهذا الخبر الصحيح الثابت في سبب نزول هذه الآية الكـريمة يتبيّن فضل الله عز وجل على النساء في ظل شريعة الإسـلام حيث أوجب رعايـة حقوقهن وحتم على الـرجال دفع الضر عنهن وحـرَّمَ جَعْلَهنَّ نصيبا من الميراث بعـد أن قرر لهن نصيبـا من الميراث، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿يـا أيها الذين آمنـوا لا يحل لكم أن تـرثوا النسـاء كرها﴾ أي يا معشر من آمن بـالله ورسوله لا يجوز لكم أن تعتبروا امرأة ميتكم ميراثا لكم وتجعلـوا أنفسكم أحق بها من نفسها وأوليائها مكـرهين لها على ما تشاءون دون رضـاها، فإن هذا الفعل من أقبح أفعال الجاهليـة التي أنقذكم الله منها حيث أرسل لكم نبيَّ الرحمة محمـدا ﷺ وأنزل عليه الكتاب المشتمل على حماية حقوق المرأة من عبث الجاهلين، وتعنت الظـالمين، وهداكم به إلى الصراط المستقيم، وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ولا تعضُلُوهنَّ لتذهبـوا ببعض ما آتيتموهنَّ﴾ هـذه هي الوصية الثـانية من وصايا هـذه الآية الكريمـة بتحريم الإضرار بالنسـاء، أي ولا يحل لكم يا أزواج النساء أن تحبسوا المرأة وتمنعـوها من التمتع بالحياة الزوجية الكريمة لأجل أن تحملوها على إعطائكم بعض ما بذلتمـوه لها من صـداق أو غيره وتستردوه منها دون أن يكـون منها تقصير في حقكم، قال ابن جرير رحمه الله: نهى الله جل ثناؤه زوج المرأة عن التضييق عليها والإضرار بها وهو لصحبتها كارهٌ، ولفـراقها مُحِبٌّ، لتفتديَ منه ببعض ما آتاهـا من الصداق وإنما قلنا: ذلك أولى بالصحـة لأنه لا سبيل لأحد إلى عضل المرأة إلا لأحد رجلين إمـا لزوجها بالتضييق عليهـا وحبسها على نفسه وهو لَهَا كارهٌ، مُضَارَّةً منـه لها بذلك ليأخذ منها ما آتاها بافتـدائها منه نَفْسَهَا بذلك، أو لـوليِّها الذي إليه إنكـاحها، وإذا كان لا سبيل إلى عضلهـا لأحد غيرهما وكـان الوليُّ معلـوما أنـه ليس ممن آتـاها شيئـا فيقال إنْ عَضَلَهَـا عن النكاح: عَضَلَهَا ليذهب ببعض ما آتاها كان معلوما أنَّ الذي عَنَى الله تبارك

وتعـالى بنهيه عـن عَضْلِهَا، هـو زَوْجُهَـا الذي لـه السبيلُ إلى عضلهـا ضراراً لِتَفْتَديَ منه اهـ وقد حرَّم الله عز وجل الإضرار بـالمرأة في جميع صور الإضرار وبخاصة من يُلْحِقُ الإضرار بزوجته ليستردَّ منها بعض ما دفعه لها من صداق حيث قال عز وجل في سورة البقـرة: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئا إلا أن يخافـا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فـلا جناح عليهما فيما افتدت بـه، تلك حـدود الله فلا تعتدوهـا، ومن يَتَعَـدَّ حدود الله فأولٓئك هم الظـالمون.﴾ وقـال عـز وجل في نفس السـورة أيضـا: ﴿ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذُلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هُزُوًا.﴾ وقال هنـا: ﴿ولا تعضلوهنَّ لتذهبوا ببعض مـا آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ وقال في نفـس هذا المقام أيضا: ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطـارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونـه بهتانا وإثما مبينـا. وكيف تأخـذونـه وقـد أفضى بعضكم إلى بعض وأخـذن منكم ميثاقا غليظـا.﴾ وقال عز وجل في سورة الطـلاق: ﴿ولا تُضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ وحـرَّم على ولي نكـاح المرأة عضلهـا إذا رغبت في زوج كفء حيث يقول في سـورة البقرة: ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهُنَّ فـلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضـوْا بينهم بالمعروف﴾ وقولـه تبارك وتعالى: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي لا يحل لكم إلحاق الأذى بالمرأة إلا في حالة ارتكابها جريمة ثـابتة فلكم في هذه الحالة إيـذاؤها بالقدر الـذي أذن الله لكم فيه في كتابـه أو في سنة رسـوله محمـد ﷺ، وبعد أن صـدَّرَ الله عز وجل هـذه الآية الكريمـة بنَهيَيْنِ أحدهما قـوله تبارك وتعـالى: ﴿لا يحل لكم أن ترثـوا النساء كـرها﴾ والثـاني قـولـه تبارك وتعـالى: ﴿ولا تعضلـوهنَّ لتذهبـوا ببعض مـا آتيتمـوهن إلا أن يأتين بفـاحشـة مبيِّنة﴾ أَتْبَعَ ذلـك في نفس الآية بـوجـوب الإحسان إلى النساء وعشرتهن بالمعروف مبيِّناً الحكمـة العظيمة في هذه الوصية

الإلهية حيث يقول: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهنَّ فَعَسَى أن تكْرَهُوا شيئا وَيَجْعَلَ الله فيه خيرا كثيراً.﴾ ومعنى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي وأحسنُوا صُحْبَتَهُنَّ وأَدُّوا حقوقهن التي فرض الله عز وجل عليكم لهن، وخافوا الله فيهن، ولا تسيئوا معاملتهن، وتَجَمَّلُوا لهن في أقوالكم وأفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحبون أن يتجملن لكم في أقوالهن وأفعالهن وهيئاتهن، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي المسلمين بالنساء كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استوصوا بالنساء خيرا. الحديث، كما روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عمرو بن الأحوص الجُشَمِيِّ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، وذكَّر وَوَعَظَ ثم قال: ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هنَّ عَوانٍ عندكم، ليس تَمْلِكُون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فَعَلْنَ فاهجروهنَّ في المضاجع واضربوهن ضَرْباً غير مُبَرِّحٍ، فإن أطَعْنَكُم فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلا، ألا إنَّ لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا، فَحَقُّكُمْ عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ من تكرهون ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكْرَهُون، ألا وحقُّهُنَّ عليكم أن تحسنوا إليهنَّ في كسوتهن وطعامهنَّ. ومعنى قوله ﷺ: هُنَّ عوانٍ عندكم، أي هنَّ شبيهاتٌ بالأسيرات، فالعواني جمع عانية قال في القاموس: والعواني: النساء لأنهن يُظْلَمْنَ فلا ينتصرن، والتعنية الحبس اهـ والعاني الأسير، وقد شبه رسول الله ﷺ الزوجة في دخولها في طاعة الزوج تحت حكمه بالأسير وقوله ﷺ: فإن فَعَلْنَ فاضربوهن ضربا غير مُبَرِّح، يشعر بأن ذلك إنما يجوز للزوج إذا ارتكبت زوجته هذه الفاحشة المبيِّنة، وأن المراد بها النشوز وعدم الانقياد، وليس المراد الزنا لأن الزنا ليست عُقُوبته أن تضربَ المرأة ضربا غير مُبَرِّحٍ، والضرب المُبَرِّحُ هو الشديد الشاقُّ، وقد روى أبو داود بسند

صحيح من حديث إياس بن عبدالله بن أبي ذباب رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: لا تَضْرِبُوا إماءَ الله فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ذَئِرْنَ النساءُ على أزواجهن، فَرَخَّصَ في ضَرْبِهِنَّ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثيرٌ، يَشكُونَ أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءٌ كثيرٌ، يَشكُونَ أزواجهن، ليس أولئك بخياركم. ومعنى: ذَئِرْنَ أي اجْتَرأْنَ، ومعنى أطاف أي أحاط، ومعنى: بآل بيت محمد أي بأزواج رسول الله ﷺ ورضي الله عنهن. وقوله عز وجل: ﴿فإن كَرِهْتُمُوهُنَّ فعسى أن تَكْرَهُوا شيئا ويجعَلَ الله فيه خيرا كثيرا.﴾ هذا هو التوجيه الرشيد والحكمة الغالية البليغة التي تُرَبِّي في نفس المسلم التسليم لأمر الله، والرضا بقضاء الله في كل نازلة تنزل بالإنسان سواء كانت متصلة بالحياة الزوجية أو غيرها كما قال عز وجل: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.﴾ ولا شك أن الاستمساك بهذه الوصية الإلهية هو الأساس المكين لبناء البيت السعيد فإن المسلم قد يَسُوؤه خُلُقٌ من زوجته لكنه إذا فكَّر وَجَدَ بها نِعَماً جليلة وخيرا كثيراً، من سكون النفس والأولاد مما لا يستطيع الإنسان حَصرهُ، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يَفْرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِهَ منها خُلُقاً رَضِيَ منها آخر، أو قال: غيرهُ. ومعنى: يَفْرَكُ يُبْغِضُ والعاقل يَرَى أن كمال النعمة إنما يكون في الجنة، وكما قال الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القَذَى ظَمِئْتَ وأيُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ

فينبغي للمسلم أن يحرص على أن يكون خيراً لأهله فقد روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: أكمل المؤمنين أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم.

قال تعالى : ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكـان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتـانا وإثما مبينا* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكـم ميثاقا غليظـا . ولا تنكحوا مـا نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَفَ، إنه كَانَ فاحشة ومقتا وساء سبيلا .﴾

بعد أن بيَّن عـز وجل في الآية السابقة وجـوب معاشرة الزوجة بـالمعروف، ورغَّب الزوج في الصبر على ما قد يراه من بعض ما يكره من خَلْقٍ أو خُلُقٍ في زوجته، شَدَّدَ النكير هنا على الزوج الذي يرغب في طلاق زوجته ليتزوج بَدَلَهَا زوجةً أخـرى وكان قـد أكثر لها الصـداق ويُحَاوِلُ أن يأخذَ بعض مـا ثبت في ذمته لها من صداق، فَحرَّمَ على الزوج أن يأخـذ شيئا من صداق زوجته التي يرغب في طـلاقها مـا دامت ليست ناشـزا ولم تأت بفاحشـة، ولا يجوز له أن يستكثر صداقا التزم به لها مهما بلغ حتى لـو كان قنطارا من الذهب، ما دام قد دخل بها وأفضى إليها وأفضت إليه، وسياق الآيـة الكريمة يشعر بأن هذا الزوج لا يريـد الجمع بين زوجتين وإنما يريد تطليقَ زوجة ليتـزوج بَدَلَهَا زوجةً أخـرى ولا يفعل ذلك عـادةً إلا من كان كـارهـا للـزوجة الأولى التـي يريـد طـلاقهـا، ومعنى قـوله عـز وجل : ﴿وإن أردتم استبـدال زوج مكـان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخـذوا منه شيئا﴾ أي وإن رغب أحدكم في فراق زوجتـه ليتزوج بَـدَلَهَا زوجةً أخـرى فـلا يحل له أن يظلم الـزوجـة التي يريـد طلاقهـا، بأن يَقْهَرَهَا ويأخذ شيئـا مما كان أَصْـدَقَهَا حتى ولو كان أَصْـدَقَهَا قنطارا من الذهب لأنه صار حقا خـالصا لها لا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئا إلا بطيب نفس منها، وقولـه تبارك وتعالى : ﴿أتأخذونه بهتـانا وإثما مُبينا .﴾ هو توبيخ للزوج الذي يحاول الاستيلاء على مهـر زوجته وأكله بالباطل، وأن مَنْ فَعَلَ ذلك كـان مـرتكبا لعـدة جـرائم وهي أَخْـذُهُ مالَ غيره ظلما، وأنـه

بمحاولة استرداد المهر من زوجته يَبْهَتُهَا إذ قد يَظُنُّ من يُحْسِنُ الظنَّ به أنه ما أخذ ذلك إلا لوقوفه على خيانة من زوجته، وأنَّ مَنْ أخذ شيئا من المهر الذي كان دفعه لزوجته بغير طيب نفس منها يكون قد ارتكب إثماً واضحًا وجريمة فاضحة، قال في القاموس: بَهَتَهُ كمَنَعَهُ بَهْتاً وَبَهَتاً وَبُهْتَاناً قال عليه ما لم يَفْعَلْ، والبَهِيتَةُ: الباطلُ الذي يُتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلَانِهِ، والكذِبُ كَالْبُهْتِ بالضم اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا.﴾ هو زيادةٌ في تأكيد توبيخ من يأخذ شيئا من مهر زوجته التي أصدقها إياه، وتشديد في الإنكار على من فعل ذلك مع بيان أنه قد استوفى منها مُقَابِلَ هذا الصداقِ بإفضائه إليها، وإفضائِهَا إليه، وأن بينها وبينه ميثاقا غليظا حيث أخذها بأمانة الله واستحل فرجها بكلمة الله، فكيف يليق بمسلم أن يفعل ذلك وينتهك هذه الحرمات، وينقض تلك المواثيق، وقوله عز وجل: ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ أي وقد وصل بعضكم إلى بعض وصار الزوج وزوجَتُه كأنهما جسمٌ واحد لا يَحْجِزُ بينهما شيءٌ، وكَشَفَ خِمَارَهَا واطلَّع منها على ما لم يُبَحْ لوالديها الاطلاعُ عليه منها، وأصلُ الإفضاءِ في اللغة الوصولُ والمخالطة والمباشرةُ ويقال للشيء المختلط فضاً ومنه قول الشاعر:

فقلت لها يا عمتي لكِ ناقتي ... وتَمْرٌ فَضاً في عَيْبَتِي وزَبِيبُ

ويقال: القوم فَوْضَى فضاً أي مختلطون لا أمير عليهم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وأخذْنَ منكم ميثاقا غليظا.﴾ أي وأعطيتموهُنَّ عهدا مُوثَّقاً مُغَلَّظاً مُشَدَّداً عند عقد نكاحكم عليهنَّ أن تُمْسِكُوهُنَّ بمعروف أو تُسَرِّحُوهُنَّ بإحسان وأنكم إنما تستحلون التمتع بهن، ومخالَطَتَهُنَّ بهذا الصداق فكيف تَسْتَبِيحُونَ نقض هذا الميثاق الغليظ الذي ألزمكم الله عز وجل والتزمتم به لنسائكم، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبدالله رضي الله

عنهما أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بعرفة: فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فُروجهُنَّ بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوطِئْن فرشَكُم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، ولهن عليكم رِزقُهُنَّ وكِسْوتُهُنَّ بالمعروف. الحديث. وقال البخاري في صحيحه: بابُ الشروط في النكاح، وقال عمر: مَقَاطعُ الحقوق عند الشروط، وقال المِسْورُ بن مخرَمة: سمعت النبي ﷺ ذكر صِهْراً له فأثنى عليه في مصاهرته فأَحْسَنَ قال: حَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَوَعَدَنِي فَوَفَى لي، حَدَّثَنَا أبو الوليد هشام بنُ عبدالملك حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة عن النبي ﷺ قال: أحقُّ ما أوفيتم من الشروط أن توفُوا به ما استحللتم به الفروج. ورواه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: إن أحقَّ الشروط أن يُوفى به ما استحللتم به الفروج. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَفَ﴾ شروعٌ في بيان مَنْ يَحْرُمُ نكاحها من النساء، وقدَّم تحريم ما نكح الآباء على غيره من المحرمات، وجعله في آية خاصة، ولم يَسْرُدْهُ مع سائر المحرمات في الآية الأخرى لأنه على قبحه كان فاشياً في الجاهلية، ولذلك ذَمَّهُ الله عز وجل بأكثر مما ذمَّ به الزنا حيث قال في الزنا: ﴿ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا.﴾ وقال في نكاح زوجة الأب: ﴿إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا.﴾ وقد كان من تناقضات الجاهلية أنهم يُحَرِّمُون زوجةَ الابن المتَبنَّى ولا يحرمون نكاح زوجة الأب كما كانوا كذلك يستبيحون الجمع بين الأختين، ولا شك أن الجمع بين الأختين أقلُّ في القبح وإهانةِ الرحم من نكاح زوجة الأب ولذلك بدأ الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء بتفظيع نكاح زوجة الأب، وتبشيعه، وختم المحرمات من النساء في الآية التالية بتحريم الجمع بين الأختين، وختم كلا منهما بقوله عز وجل: ﴿إلا ما قد

سلف﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: حدثني محمد بنُ عبدالله المُخَرِّمِيُّ قال: حدثنا قُرَادٌ حدثنا ابن عُيَيْنَةَ وعمرو عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُحَرِّمُون ما يَحْرُمُ إلا امرأة الأب، والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾ ﴿وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف﴾ اهـ وهذا الخبر الصحيح الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنهما إنما كان في جاهلية العرب أما أهل جاهلية العجم فقد كان بعضهم يستبيحون الزواج من الأخوات والبنات، وقد أجمع أهل العلم على أنه بمجرد عقد نكاح الأب على المرأة يحرمها على الابن وإن لم يدخل بها الأب، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء﴾ الآية يُحَرِّمُ الله تعالى زوجات الآباء تكرمةً لهم، وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده، حتى إنها لَتَحْرُمُ على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مُجْمَعٌ عليه اهـ وقولُ ابن كثير رحمه الله: أن تُوطَأَ من بعده، أي أن يطأها الابن من بعد أبيه. والتعبير بما في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم﴾ لأن المقصود تبشيعُ هذا النكاح والتنفيرُ منه وذلك لأن العرب يُعَبِّرُون بمنْ عن ذات العاقل ويُعَبِّرُون بما عن غير العاقل أو عن صفة العاقل لا ذاته، ومن ذلك ما أثرَ أن أكثم بنَ صيفي حكيم العرب عندما علم ببعثة رسول الله ﷺ عَزَمَ على التوجه إليه ولقائه فقال له بنوه: أنت قد كَبِرتْ، ويشُقُّ عليك السفر ونحن نكفيك فتوجه رجلان من بَنِيهِ إلى النبي ﷺ، وسألاهُ: مَنْ أنت؟ وما أَنْتَ؟ فقال: أما من أنا فأنا محمد بنُ عبدالله وأما ما أنا فأنا محمد رسول الله، فسألاه أن يقرأ عليهما شيئاً من القرآن، فقرأ عليهما: ﴿إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون.﴾ فرجعا إلى أبيهما أكثم بن صيفي وقالا له: سألناه عن

نسبه فأبى أن يرفع نسبـه وسألناه عن صفته فأخبرنا أنـه رسول الله وسألناه عما جاء به فقرأ علينـا هذه الآية: ﴿إن الله يأمر بالعـدل والإحسان﴾ الآية. فقال أكثم بن صيفي: يـا قـوم سارعـوا إلى اتبـاع هـذا الـرجل فإنه يأمـر بمكـارم الأخلاق وينهى عن سَفْسَـافِهَا. وعلى هذا الأسلـوب العربي الفصيح البليغ جاء التعبير بها في قـوله تعالى: ﴿ولا تنكحـوا ما نكح آباؤكم﴾ للتنـديد بمن يجلس من زوجة أبيه مجلس أبيه منها، ويُقَارِفُهَا كما قَارَفَهَا أبوه، ولا شك أن العاقل يشمئـز من ذلك تمام الاشمئزاز ولا يرضـاه لنفسه أبداً، وقد قـال أبو داود في سننه: حدثنا مُسَدَّدٌ ثنا خالد بنُ عبدالله ثنا مطرف عن أبي الجهم عن البراء بن عـازب قـال: بينـا أنـا أطـوف على إبل لي ضَلَّتْ، إذْ أقبل رَكبٌ أو فوارسُ معهـم لِوَاءٌ، فجعل الأعرابُ يطيفـون بي لمنزلتي من النبـي ﷺ إذ أتَوْا قُبَّةً فاستخرجوا منها رجلا فَضَرَبوا عُنُقَهُ، فسألت عنه فذكروا أنه أعرس بامرأة أبيه اهـ وإلا في قـوله: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ بمعنى بعد أي بعـد ما مضى منه ما مضى مما كـان لا ينبغي لعاقل أن يقارفه. وليس قولـه عز وجل: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ تقـريراً لما كانـوا عليه في الجاهليـة من نكاح ما نكح الآبـاء. وأنه معفوٌ عنـه، فإن سياق القرآن العظيم وما وَصَفَ بـه هذا النكاح بعد قـوله: ﴿إلا ما قـد سَلَفَ﴾ من قوله: ﴿إنه كـان فاحشة ومقتا وسـاء سبيلا﴾ يأبى ذلك، بل إنما جاء قولـه عز وجل: ﴿إلا ما قد سَلَفَ﴾ لإفـادة أنهم كانوا في جاهليتهم يقترفـون ذلك، وقد أشرت إلى ذلك قـريباً، وأن العربَ مـا نكحوا من المحرمات سوى زوجـة الأب والجمع بين الأختين وأنه تبارك وتعالى عَقَّبَ تحريم نكاح زوجـة الأب بقوله: ﴿إلا ما قـد سَلَفَ﴾ كما عَقَّبَ بذلك تحريم الجمع بين الأختين، ولم يُعَقِّبْ غيرهما من المحـرمـات بهذا التعقيب لأنـه لم يكن سلف منه شيء في جاهلية العرب، وقد وصف الله تبارك تعالى نكاح ما نكح الآبـاء بأنه فـاحشة ومقتٌ وأنـه سـاء سبيلا، والفـاحشة هي الجريمـة

الكبيرة المستَبْشَعَـةُ المستقبحـة، والمقتُ هو أشـدُّ البُغْضِ المقـرون بـالغضب والاستحقـار، ومعنى ﴿وسـاء سبيـلا﴾ أي بئس طـريقـا ومنهجـاً مـا كنتم تفعلـونه من نكـاح ما نكح آبـاؤكم من النساء المُسْتَقْبَحِ عقـلا وشرعا وعـادةً وعُرْفاً.

قال تعالى: ﴿حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم الَّـٰتِي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم الَّـٰتِي في حجوركم من نسائكم الَّـٰتِي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفورا رحيما.﴾

بعد أن صدَّر الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء في النكاح بتحريم نكاح زوجة الأب وَجَعَلَهَا في آية خاصة بها تشديداً في التحذير من نكاحها بسبب ما كان يقترفه أهل الجاهلية من ذلك، أتبع ذلك ببيان تحريم نكاح ثلاث عشرة امرأة جَمَعَهُنَّ في آية واحدة وهي قوله تبارك ﴿ حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرَّضَاعَة وأمهاتُ نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحَلاَئلُ أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، إن الله كان غفوراً رحيماً.﴾ وهذه النساء المحرمات منهن سَبْعٌ حرمت بسبب النَّسب واثنتان بسبب الرضاعة، وأربع بسبب المصاهرة، وكُلُّهُنَّ مُحَرَّمَاتٌ على التأبيد إلا الجمع بين الأختين فإنه تحريم مؤقَّتٌ بالجمع إذ يجوز إذا بانت منه زوجته أن يتزوج أختها عند خلائها من موانع النكاح، ولذلك جعل الله عز وجل الجمع بين الأختين آخر هذه المحرمات بالرغم من أن أهل الجاهلية كانوا يقترفون ذلك لكنْ لما كان تحريمها مؤقتا أَخَّرهَا في الذكر، وقد ألحقت السنةُ الصحيحة تحريمَ الجمع كذلك بيْنَ المرأة وعمتها والمرأة وخالتها فقد روى الجماعة من حديث أبي

هـريـرة رضي الله عنـه قـال : نَهَى النبي ﷺ أن تُنْكَحَ المرأة على عمتهـا أو خالتهـا . وبهذا تكون المحرمـات بسبب المصاهـرة سَبْعاً ، فالمحـرمات بسبب النسب هُنَّ الأم والبنت والأخت والعمـة والخالـة وبنتُ الأخ وبنتُ الأخت ، والمحرمتان بسبب الـرضاع هي الأم من الرضاعة والأخت من الرضـاعة ، أما السَّبْعُ المحرمـاتُ بالمصـاهرة فهي زوجة الأب كما تقـدم في الآية السـابقة وأمُّ الزوجة وبنتُ الزوجة المدخول بها المعـروفةُ بالربيبة ، وزوجةُ الابن والجمعُ بين الأختين والجمعُ بين المرأة وعمتهـا والجمع بين المرأة وخـالتها ، ولا نـزاع عنـد أهل العلم في أن المراد بقوله تبارك وتعـالى : ﴿حُرِّمت عليكم أمهاتكم﴾ الآية هـو تحريم نكاح هـؤلاء النسـوة ، والمرادُ بالأم في الآيـة هي كلُّ أنثى لها عليك ولادةٌ ، فيدخل في ذلك أُمُّكَ التي حملتك في بطنها وأمهاتها وجَدَّاتُها وأمُّ الأب وجدَّاتُه وإن عَلَوْنَ ، والمراد بـالبنت هي كلُّ أنثى لك عليها وِلادةٌ فيدخل في ذلك بنتك لصلبك وبناتها مهما نَزَلْن ، وبنت ابْنِكَ وبناتُها مهما نَزَلْنَ كذلك ، والمراد بالأخت كـلُّ أنثى شَارَكَتْكَ في أبـويك أو أَحدِهما ، والمراد بالعمـة كلُّ أنثى شاركتْ أباكَ أو جَدَّكَ في أبويـه أو أحدِهما مهما كان ، والمراد بالخالة كلُّ أنثى شاركت أمَّكَ في أبويها أو أحـدِهما مهما كان ، والمراد ببنت الأخ كلُّ أنثى كـان لأخيك عليهـا ولادةٌ فيـدخل في ذلك بنت أخيك لصلبـه وبنـاتُها مهما نَزَلْنَ . و المراد ببنت الأخت كلُّ أنثى لأختك عليها ولادة فيدخل في ذلك بنت أختك التي حملتهـا في بطنها وبنـاتُهَا مهما نَزَلْنَ ، وقـوله تعالى : ﴿وأمهـاتكم اللاتي أرضعنكم وأخـواتكم من الرضاعـة﴾ الرضاعـة هي امتصاص الطفل اللبن من ثـدي المرأة فإذا أرضعت المرأة طفلا حـرمت عليه لأنها صـارت أمًّا لَهُ ، وحرمت عليه بنتها لأنها صـارت أخته ، وحرمت عليه أخت من أرضعته لأنها صارت خالَتَهُ ، وأمُّها لأنها صـارت جدَّته ، وبنت زوجها صاحب اللبن لأنها أختُه ، وأختُ زوجهـا صاحب اللبن لأنها صارت عَمَّتَـهُ ، وأم صاحب

اللبن لأنها صارتْ جدَّتَه، وبنـاتُ بني المرأة التي أرضعته وبناتُ بناتها لأنهن بناتُ إخوته وبناتُ أخواته وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ أُرِيـد على ابنـة حمزة فقـال: إنها لا تحل لي، إنها ابنـةُ أخي من الرضـاعة ويَحْرُمُ من الـرَّضَـاعَةِ مـا يَحْرُمُ من النسب، وفي لفظ للبخاري من طـريق عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن أن عـائشةَ زوجَ النبي ﷺ أخبرتها أن رسـول الله ﷺ كـان عنـدهـا وأنها سمعـت صـوت رجلٍ يستأذن في بيت حفصـة، قـالت: فقلت: يا رسـول الله هـذا رجل يستأذن في بيتك، فقـال النبي ﷺ أُرَاهُ فلانا، لعم حفصةَ من الرضاعـة، قالت عائشة: لو كان فلانٌ حياً ـ لعمهـا من الرضاعة ـ دَخَلَ عليَّ؟ فقال: نعم، الرضـاعة تُحَرِّمُ ما تُحَرِّمُ الولادةُ. وفي لفظ لمسلم من طـريق عروة عن عائشة أنها أخبرتـه أن عَمَّهَا من الرضـاعة يُسَمَّى أفلح استأذن عليها فَحَجَبَتْهُ، فأخبرتْ رسـول الله ﷺ فقال لها: لا تَحْتَجِبِي منـه فإنه يَحْرُمُ من الـرضـاعة مـا يَحْرُمُ من النسب. وفي لفظ لمسلم من حـديث ابن عبـاس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قـال: ويَحْرُمُ من الرضاعة ما يَحْرُمُ من الـرحم. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري: قال العلماء: يُسْتَثْنَى من عمـوم قولـه: يَحْرُمُ من الرضـاع ما يحرم من النسب أربع نسوة، الأولى: أم الأخ في النسب حـرام لأنها إمَّا أمٌّ وإما زوج أب، وفي الرضاع قد تكون أجنبيةً فَتُرْضِـعُ الأخ فلا تَحْرُمُ على أخيه، الثانية: أمُّ الحفيد حـرام في النسب لأنها إمَّا بنـتٌ أو زوجُ ابنٍ، وفي الرضـاع قـد تكون أجنبيـة فترضع الحفيدَ فلا تَحْرُمُ على جَـدِّه، الثالثة: جَدَّةُ الـولدِ في النسب حرام لأنها إمَّا أمٌّ أو أُمُّ زوجة، وفي الرضاع قد تكون أجنبيـةً أرضعت الولدَ فيجوز لوالده أن يتزوجهـا، الرابعةُ: أختُ الـولدحـرامٌ في النسب لأنها بنتٌ أو ربيبةٌ، وفي الرضـاع قد تكون أجنبيـةً فَتُرضِعُ الوَلَـدَ فلا تَحْرُمُ على الوالـد اهـ ولا شك أن محرمية الرضـاع إنما تختص بتحريم التناكح وجواز الخلوة والنظر والمسـافرة أما

ما عدا ذلك من التوراث ووجوب الإنفاق والعتق بالملك فهذا خاص بالنسب ولا دخل للرضاع فيه، ولو رَضَعَ عُمَرُ من عائشة مَثَلاً، ولعائشة بنون وبناتٌ ولعُمَرَ إخوةٌ لم يرضعوا من عائشة فإن جميع أبناء وبناتِ عائشة يكونون إخوةً لِعُمَرَ مهما اختلفت أعمارهم ولا يكون إخوةُ عمر من النسب الذين لم يرضعوا من عائشة إخوةً لأبناء وبنات عائشة لأن الحرمة إنما تنتشر بين كل اثنين رضعا من ثدي المرأة مهما اختلفت أوقات رضاعهم. وقد وَرَدَ الرضاعُ في هذه الآية الكريمة مطلقا لم يُقَيَّدْ بمقدار مُعَيَّنٍ وقد قَيَّدَ رسول الله ﷺ هذا الإطلاق بأن المصة والمصتين لا تُحَرِّمُ وأن الرضاع المُحَرِّمَ هو ما كان خَمْسَ رضعات مشبعات، وقد جعل الله تبارك وتعالى من وظائف رسول الله محمد ﷺ أن يُبَيِّنَ للناس ما نُزِّلَ إليهم حيث يقول عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ وبيانه ﷺ للذكْرِ يشمل تقييدَ المطلق و إطلاق المقيد وتخصيص العموم وبيانَ المجمل وقد أخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ وسلم: لا تُحَرِّمُ المَصَّةُ والمَصَّتانِ. كما أخرج مسلم من حديث أم الفضل رضي الله عنها قالت: دخل أعرابي على نبي الله ﷺ وهو في بيتي فقال: يا نبيَّ الله إني كانت لي امرأة، فتزوجتُ عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرأتي الحُدْثَى رضعةً أو رضعتين، فقال نبيُّ الله ﷺ: لا تُحَرِّمُ الإمْلاَجَةُ والإملاجتانِ. وفي لفظ لمسلم من حديث أم الفضل أن نبي الله ﷺ قال: لا تُحَرِّمُ الرضعةُ أو الرضعتان أو المصة أو المصتان. اهـ والمصة هي المرةُ الواحدةُ من المصِّ ويقال لها: الإملاجةُ والرضعةُ وهي تَنَاوُلُ الثدي برفق وامتلاجُ لَبَنِهِ أي امتصاصُهُ لِمَرَّةٍ واحدة، يقال: امْتَلَجَ اللَّبَنَ أي امتصه، وأملجه أَرْضَعَهُ. كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيما أُنْزِلَ من القرآن: عَشْرُ رَضَعَاتٍ معلوماتٍ يُحَرِّمْنَ ثم نُسِخْنَ بِخَمْسٍ معلوماتٍ، فَتُوُفِّيَ رسولُ الله ﷺ وَهُنَّ فيما

يُقرأُ من القرآن اهـ ولا نزاع عنـد أهل العلم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر وأن قراءة الآحاد تكون شاذةً ولا تجوز القـراءة بها في الصلاة، وقد أجمع المسلمون كذلك على أن قولَ عائشة رضي الله عنهـا : فتُوُفِّيَ رسول الله ﷺ وَهُنَّ فيما يقرأ من القرآن. أنه لا تجوز قراءة خمس رضعات معلومات على أنها قرآن، لأنها لم تخرج عن كونها قراءة آحـاد فهي منسوخة التلاوة قطعـاً، ولا نسخ بعد رسول الله ﷺ قال النووي رحمه الله في قـول عائشة رضي الله عنها : فتُـوفِّيَ رسول الله ﷺ وهُنَّ فيما يُقْرأ من القـرآن : معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنـزاله جداً حتى أنـه ﷺ تُوُفِّيَ وبعض النـاس يقرأ: خمس رضعـات ويجعلها قـرآنا مَتْلُوًّا لكونه لم يبلغـه النسخ لقرب عهده، فلما بلغهم النسخ رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يُتْلى اهـ وقولـه تبارك وتعالى : ﴿وأمهات نسائكم﴾ أي وحُـرمت عليكم والدات زوجـاتكم ولم يشترط الله تبارك وتعـالى في تحريم أم الـزوجة الـدخولَ بـالزوجـة، وقـد ذهب عامـة أهل العلم والفقهاء السبعـة والأئمة الأربعة إلى أن مجرد العقد على البنت يُحَرِّمُ أمهـا. وقوله تبارك وتعالى : ﴿وربائبكم الَّـٰتِي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكـونوا دخلتم بهن فلا جُناح عليكم﴾ أي وحُرِّمت عليكم بناتُ زوجاتكم إذا كنتم دخلتم بهن، قـال القـرطبي رحمه الله : أجمع العلماء على أن الـرجل إذا تـزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حَلَّ لـه نكاح ابنتها اهـ وذلك لأن العقد على الأم لا يحرم البنت وإنما تحْرُمُ إذا كـان دخل بأمها، والتقييد بقـوله عـز وجل : ﴿الـلاتي في حجوركم﴾ خـرج مخرج الغـالـب فـلا مفهوم لـه إذ الغالبُ هـو أن تكون الربيبة وهي بنـت الزوجة من غير الزوج في حَجْـر أمها ولذلك قـال عز وجل : ﴿فإن لم تكـونوا دخلتم بهن فـلا جناح عليكم﴾ ولم يقيد بكـونها في حَجْر الـزوج فلم يقل : ولم تكن في حجـوركم. وهذا ظـاهر بحمد الله، وقولـه عز وجل : ﴿وحلائل أبنائكم الـذين من أصلابكم﴾ أي

وحرمت عليكم بسبب المصاهرة أيضا زوجـات أبنائكم الذين من أصلابكم بخلاف الأبناء بالتبني فإن زوجة الابن بالتبني حلال إذا طلقها الابن المتبنَّى، وقد ألحقت السنة زوجة الابن من الرضاع بزوجة الابن من الصلب، وحلائل أبناء الأبنـاء كحلائل الأبناء في التحـريم، ويكفي في تحريم زوجة الابن مجردُ عقـد الابن عليها حيث لم يُشْتَرط الـدخول في النـص الكريم. وقـولُه تبـارك وتعـالى: ﴿وأن تجمعـوا بين الأختين إلا ما قـد سلف﴾ أي وحُـرِّمَ عليكم أن يكونَ تحت الـرجل منكم أختـان سواء كان على طـريق الزواج أو على طـريق مُلْكِ اليمين قال ابن كثير رحمه الله: وقد أجمع المسلمـون على أن معنى قوله: ﴿حُرِّمت عليكم أمهـاتكم وبناتكم وأخـواتكم﴾ إلى آخر الآيـة، أن النكاح وملك اليمين في هـؤلاء كلهن سـواءٌ، وكـذلك يجب أن يكـون نظراً وقيـاساً الجمعُ بين الأختين وأمهات النسـاء والربائب، وكذلك هو عنـد جمهورهم، وهم الحجةُ المحجوجُ بها مَنْ خَالَفَهَا وشذَّ عنها اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله كـان غفورا رحيما.﴾ تعـريف بجوده وكـرمـه حيث شرع لأمة محمـد ﷺ أحسن الشرائع ورفع عنهم الإِصْرَ والأغــلال ولم يُــحَمِّلهم فـوق طــاقتهم وخفف عليهم.

قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ، فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآيتين السابقتين المحرمات من النساء في النكاح على التأبيد وختم بأحد أنواع التحريم المؤقت وهو الجمع بين الأختين شرع هنا يبين بعض أنواع التحريم المؤقت الأخرى حيث يقول: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي وحرِّمت عليكم النساء ذواتُ الأزواج إلاَّ ما مَلَكْتُموهُنَّ بالسبي فإن السبي يقطع عصمة زوجها الكافر، وهي حلالٌ لمن وقعت في سهمه بعد استبراء رحمها، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم حُنَيْنٍ بعث جيشا إلى أوطاس فلقُوا عدُوًّا، فقاتلوهم، فظَهروا عليهم، وأصابوا لهم سَبايا، فكأنَّ ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ تحَرَّجُوا من غِشْيانهنَّ من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي فهُنَّ لكم حَلاَلٌ إذا انقضت عِدَّتُهنَّ. ومعنى قوله: إذا انقضت عدتهن أي تم استبراء أرحامِهنَّ بوضع الحمل أو بحيضة أو بمضيِّ شهر لمن لا تحيض. وفي هذا المعنى يقول الفرزدق:

وذاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا ... حَلاَلٌ لمن يَبْنِي بِهَا لم تُطَلَّقِ

وقد قرأ جميعُ القُرَّاء قوله عز وجل هنا: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بفتح الصاد، وقد استعمل العرب ثَلاَث كلمات على صورة اسم المفعول وهم يريدونها على معنى اسم الفاعل وهي أَحْصَنَ فهو مُحْصَنٌ وأَلْفَجَ بمعنى

أَفْلَسَ فهو مُلْفَجٌ وأَسْهَبَ أي أكثر الكلام فهو مُسْهَبٌ وقد يقولون فيها : مُحْصِنٌ، ومُسْهِبٌ ومُلْفِجٌ، وأصل الإحصان في اللغة المنع، وقد ورد في القرآن الكريم لأربعة معانٍ، أحدها الحرية كما في قوله تعالى: ﴿والذين يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ ثم لمْ يأتُوا بأربعة شُهَدَاءَ فاجْلِدوُهُمْ ثمانينَ جَلْدَةً﴾ أي والذين يقذفون الحرائر، بدليل أنه لو قَذَفَ غير حُرٍّ لم يُجْلَد ثمانين وكذلك قوله عز وجل: ﴿ومَنْ لم يَسْتَطِعْ منكم طوْلاً أن يَنكِحَ المُحْصَنَاتِ المؤمناتِ فمن ما ملكت أَيْمَانُكم من فتياتكم المؤمناتِ﴾ والثاني من معاني الإحصان هو العَفَافُ ومنه قوله تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ وقوله: ﴿مُحْصِنِين غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ وقوله: ﴿والتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي أَعَفَّتْهُ. والمعنى الثالثُ من معاني الإحصان الواردة في القرآن الكريم هو الإسلام ومنه قوله تعالى: ﴿فإذا أَحْصَنَّ فإن أَتَيْنَ بفاحشة﴾ على قراءة من قرأ بفتح الهمزة والصاد، أي أَسْلَمْنَ. والمعنى الرابع من معاني الإحصان الواردة في القرآن الكريم هو التَّزوُّج ومنه قوله تعالى: ﴿والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾ أي والمتزوجات من النساء إلا ما ملكتموهن بالسبي، وقوله عز وجل: ﴿كتَابَ الله عليكم﴾ أي كتب الله عز وجل تحريم ما حرَّم من النساء وتحليل ما أحل منهن كتابا عليكم، فقوله: ﴿كتابَ الله﴾ بالنصب على أنه مصدر من غير لفظ الفعل، وقوله عز وجل: ﴿وأُحِلَّ لكم ما وَرَاءَ ذلكم أن تبتغوا بأموالكم مُحْصِنِينَ غير مسافحين﴾ أي وأبيح لكم سِوَى ما حُرِّم عليكم من النساء المذكورات في الآيتين السابقتين وفي صدر هذه الآية إرادة أن تطلبوا النساءَ بأموالكم متزوجين غير زانين. ومعنى ﴿بأموالكم﴾ أي بما تُؤْتُونَ من الصداق في الزواج أو الثمن في التَّسَرِّي، وأصل السفاح في اللغة مأخوذٌ من السفح وهو الصَّبُّ، وإنما سُمِّيَ الزنا سفاحا لأن الزاني لا غرضَ له إلا صبُّ مائه دون هدف كريم. وقوله عز وجل: ﴿فما اسْتَمْتَعْتُمْ به مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ

أُجُورَهُنَّ فريضةً ، ولا جُناح عليكم فيما تراضَيْتُمْ به من بعد الفريضة ، إن الله كان عليماً حكيما﴾ أي فما تمكنتم من التلذذ بأي نوع من التلذذ والانتفاع من زوجاتكم اللاتي عقدتم نكاحهن فَوَفُّوا لهُن مُهورهُن فريضة لازمةً فرضَها الله عز وجل عليكم لَهُنَّ كاملةً غير منقوصةٍ مادام قد حصل لكم منهن تَلَذُّذٌ ولو بالخلوة ، مادامت الخلوة صحيحةً ، ولا حرج عليكم ولا إثم إذا تنازل أحدكم عن بعض حقه أو كامل حقه لدى الآخر بعد استقرار الفريضة حيث يجوز للمرأة أن تعطي زوجها ما طابت نفسها به من حقها عليه من الصداق ، كما يجوز للرجل أن يعطي زوجته أكثر من الفريضة والصداق المسمى بينهما عند العقد ، والله تبارك وتعالى عليم حكيم ، يجزي المحسن بإحسانه ولا يضيع عنده شيء من عمل خير يعمله الزوج أو الزوجة لله عز وجل ، وفي تشريعه حِكَمٌ ساميةٌ لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى ، وقد ادَّعى بعض الناس أن قوله عز وجل : ﴿فما اسْتَمْتَعْتُمْ به مِنْهُنَّ فَأَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ دليل على جواز نكاح المتعة لورود لفظ ﴿استمتعتم﴾ ولفظ ﴿أجورهن﴾ مع أن لفظ الاستمتاع أتم في الزوجة ، وكذلك قد سَمَّى الله تبارك وتعالى المهر أجراً في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل : ﴿فانكحوهن بإذن أهلهن وأَتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ وهي المهور قطعاً ، وكذلك قال عز وجل : ﴿لا جناح عليكم أن تنكحوهُنَّ إذا آتَيْتُمُوهُنَّ أجورهُنَّ﴾ وهي المهور قطعاً ، وقال تعالى : ﴿ياأيها النبي إنا أَحْلَلْنَا لك أزواجك الّتي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن . ولاشك أن المتعة قد أبيحت بالسُّنَّة ثم حرمت وكانت إباحتها ضرورة فكانت تقدَّرُ بقدرها إلى أن أعلن رسول الله ﷺ أنها حُرِّمَتْ إلى يوم القيامة والظاهر أنها أبيحت ثم حُرِّمت ثم أبيحت ثم حرمت . قال النووي : والصواب المختارُ أن التحريم والإباحة كانا مرتين ، وكانت حلالاً قبل خيبر ثم حرمت يوم خيبر، ثم أبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالهما ثم

حرِّمت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ثم قال النووي: قال القاضي: واتفق العلماءُ على أن هـذه المتعة كانت نكـاحاً إلى أجل، لا ميراث فيها، وفراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها اهـ. وقد روى البخاري ومسلم من حـديث علي رضي الله عنه قال: نَهَى رسول الله ﷺ عن المتعة عام خيبر. وفي لفظ للبخاري ومسلم عن علي رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ نهى عن متعة النسـاء وعن أكل الحُمُـرِ الأهلية يوم خيبر. كما روى مسلم من حديـث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: رخَّص رسولُ الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثة أيام ثم نَهَى عنها. وفي لفظ لمسلم من طريق الرَّبيع بن سَبْرَة عن أبيـه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إني كنت أذِنتُ لكم في الاستمتاع من النسـاء وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يـوم القيـامة فمن كـان عنـده منهن شيء فَلْيُخَلِّ سبيلهـا، ولا تأخـذوا إذا آتيتموهن شيئـاً. وفي لفظ لمسلم من حديث سبرة أنه كـان مع رسول الله ﷺ فقال: يـاأيها الناس إني قـد كنت أذنت لكم في الاستمتاع مـن النساء، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فَلْيُخَلِّ سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً، وفي لفظ لمسلم عن سبرة قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثـم لم نخرج منها حتى نهانا عنها اهـ. وقد كان فتح مكـة في أواخر شهر رمضان من السنة الثامنـة للهجرة وأوطاسُ كانت في شوال من السنة الثامنة للهجرة كذلك، وأوطاس وادٍ في ديار هوازن من أوديـة الطـائف قرب حنين، وقـد أخـرج الطبراني في الأوسط من طـريق إسحـاق بن راشـد عن الزهـري عن سـالم: أُتِيَ ابنُ عمـر فقيل لـه: إن ابن عباس يأمـر بنكاح المتعة فقـال: معاذ الله، ما أظن ابن عبـاس يفعل هذا، فقيل: بلى، قال: وهل كـان ابن عباس على عهـد رسول الله ﷺ إلا غـلاماً صغيراً. ثم قال ابن عمر: نهانـا عنها رسول الله ﷺ وما كنـا مسافحين اهـ.

ومن أبـرز أدلة تحريم المتعـة كذلك وجـوه ساقهـا الفخر الـرازي رحمه الله في تفسير هـذه الآيـة حيث قــال: الأول: أن الـوطء لا يحل إلا في الـزوجـة أو المملوكة لقوله تعـالى: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون. إلا على أزواجهم أو مـا ملكت أيمانهم﴾ وهـذه المرأة لا شك أنها ليست مملـوكـة، وليست أيضـاً زوجة، ويدل عليـه وجوه: أحدها: لو كـانت زوجةً لحصل التوارثُ بينهما، لقوله تعـالى: ﴿ولكم نصفُ ما ترك أزواجكم﴾ وبـالاتفاق لا توارث بينهما، وثـانيهـا: ولثبت النسب لقـوله عليـه الصـلاة والسـلام: الولـد للفـراش، وبالاتفاق لا يثبت، وثـالثها: وَلَوجَبَتِ العِدَّةُ عليها لقولـه تعالى: ﴿والذين يُتَوَفـوْنَ منكم ويذرون أزواجـا يتربَّصْنَ بأنفسهن أربعة أشهـر وعشرا﴾ اهـ.
وقد أعلن عمـر رضي الله عنه بمشهد من أصحـاب رسول الله ﷺ النهي عن المتعـة وكان عثمان بن عفـان وعلي بن أبي طـالب وغيرهما من أئمة أصحـاب رسول الله ﷺ موجودين، ووافقوا عمـر رضي الله عنه على إعلان تحريمها يوم وقع فيها عمرو بـن حريث رضي الله عنه لعدم علمه بتحـريمها، ولاشك أن علياً رضي الله عنـه لا يوافق عمـر رضي الله عنه إلا وهـو مطمئن أن ذلك هو حكم رسول الله ﷺ، وقد تقدمت الـرواياتُ الصحيحة الثابتة عن علي رضي الله عنه بأن رسول الله ﷺ حـرَّم المتعة بعد الترخيص فيها، هـذا ولا نزاع عند أهل العلم أن المتعـة لم تُبَحْ في الإسـلام عندمـا أبيحت إلا في الغـزو، ولم تُبَح للمقيمين أبداً، وأنها عنـدما أبيحت كـانت للضرورة، كما أشار إلى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه البخاري في صحيحه عنه من طريق أبي جمرة.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَاتِ، واللهُ أَعْلَمُ بإِيمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْروفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ، فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى المُحْصَنَاتِ من الْعَذَابِ، ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ، وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لكم، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾.

بعد أن بيَّن الله تبارك وتعالى المحرمات من النساء على التأبيد، وأنه حرَّم الجمع بين الأختين، وحرم نكاح المتزوجات إلا ذوات الأزواج اللائي مُلِكن بالسبي حيث يقطع السَّبْيُ عصمة زوجها الكافر، وشدَّد على الأزواج في وجوب المحافظة على حقوق الزوجات، والتزام حدود الله فيهن، والحرص على العفاف وصيانة الأعراض، بيَّن هنا أنه يجوز للحر المسلم أن يتزوج أمةً مسلمةً إذا كان عاجزاً عن أن يتزوج حرةً مسلمةً لقلة ذات يده وفقره، وأنه لابد من إذن سيد الأمَةِ في زواجها، وأنه يجب الوفاء للأمة بمهرها مع الحرص على اختيار الأمة العفيفة المعروفة بحُسْن السيرة والسلوك وفي أثناء السِّياق ندَّد بالتمييز العنصري وبيَّن أن المسلم أخو المسلمة بِغَضِّ النظر عن نسبها ولونها، حيث يقول عز وجل: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَات﴾ أي ومن لم يقْدر منكم أيها الأحرار المسلمون على مؤنة نكاح حرة مؤمنة عفيفة بسبب قلة ذات يده فليتزوج أمة مملوكة مسلمة، والطَّوْل هو الفَضْلُ والقدرة والسعة والغِنى كما في القاموس، وإنما اشترط الله عز وجل فيمن يتزوج أمةً أن يكون عاجزاً عن الزواج من الحرة المسلمة لحرص الشريعة الإسلامية على تجَنُّبِ استرقاق الحر المسلم، وذلك بسبب أن الحُرَّ المسلم إذا تزوج الأمة يصيرُ أبناؤه

منها عبيداً لسيدها ، إذ الأولاد يتبَعُون أمَّهم حرية ورقًّا ويتبعُونَ خير الأبوَين دِيناً ، فالإسلام يحرص على سدِّ كل طريق يؤدي إلى استرقاق الحُرِّ المسلم ويعملُ على تحرير الأرقاء ، ولما كان قوله تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُم طَوْلاً أن ينكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ فَمِن ما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ المُؤْمِنَات﴾ قد يفهَمُ منه مَنْ لا خبرةً له بأسرار وحِكَم التشريع الإسلامي أن ذلك تمييزٌ عنصري دفع ذلك الوَهْمَ وأبعد ذلك الخاطر حيث عقَّب بقوله : ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُم مِّنْ بَعْض﴾ أي ولا تشَكَّكُوا في إيمان أحد بسبب لونه أو عنصره فعليكم أن تكتفوا بما يظهر لكم من انقياد الشخص لتعاليم الإسلام ، وكِلُوا السرائر إلى الله وحده فإنه هو وحده علام الغيوب ، وَرُبَّ أمةٍ مؤمنة تَفْضُل الحرة المؤمنة في إيمانها ، وبعضكم من جنس بعض في النسب والدين ، فلا يترفع الحُرُّ عن نكاح الأمة مادام يخشى على نفسه الوقوع في العنت وارتكاب ما حرَّمَ الله عز وجل من الفاحشة وما أحسن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

النَّاسُ من جهة التمثيل أَكْفَاءُ أَبُوهُمُوا آدَمُ والأُمُّ حَوَّاءُ

ولذلك قال عز وجل في خواتيم المسك من سورة آل عمران : ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مّنكم من ذكر أو أنثى بعضُكُم مّن بعض﴾ وقال عز وجل في مطلع سورة النساء : ﴿ياأيها النَّاسُ اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبَثَّ منهما رجالاً كثيرا ونساء﴾ ولم تعرف الإنسانية في تاريخها الطويل ديناً أو نظاماً حارب التمييز العنصري كما حاربه دينُ الإسلام الذي بعث الله به النبي الهاشميَّ القرشيَّ الأميَّ محمداً ﷺ ، واعتبر التمييز باللون أو الجنس من عمل الجاهلية ولذلك نبه رسولُ الله ﷺ أبا ذر لما عَيَّرَ عَبْداً له بأمه حيث قال له : يابنَ السوداء : فقال له رسول الله ﷺ : إنك امرؤ فيك جاهلية ، فقد روى البخاري ومسلم

عن المَعْرُورِ بن سُوَيد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه مثلُها، فسألتُه عن ذلك، فذكر أنه سابَّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فَعَيَّرَهُ بأمه فقال النبي ﷺ: إنك امْرُؤٌ فيك جاهليةٌ، هم إخوانكم وخَوَلُكُمْ، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكل، وَيُلْبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فأَعينُوهُمْ. بل جعل الإسلام لمن كانت له أمةٌ فأدبها وأعتقها وتزوجها أنَّ له أجْرَيْن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة لهم أجران: رجلٌ من أهل الكتاب آمنَ بنبيه وآمنَ بمحمد والعبدُ المملوكُ إذا أدّى حقَّ الله وحقَّ مواليه، ورجلٌ كانت له أمةٌ فأدَّبَها فأحْسَنَ تأديبها، وعَلَّمَهَا فأحْسَنَ تعليمَهَا، ثم أَعْتَقَهَا فتزوجها، فله أجران. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْروفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَان﴾ بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى الشرط الأول من شروط جواز نكاح الأمة المؤمنة وهو العجز عن نكاح الحرة المسلمة، ذكر هنا بقية الشروط التي تبيح نكاح الأمة المؤمنة وهي أن يكون الزواج بإذن سيدها وأن يعطيها الزوج مهراً بالمعروف، وأن تكون الأمةُ معروفة بالعفاف وحسن السيرة والسلوك، ففي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ ﴾ بيانٌ على أن السيد هو وليُّ أمته، لا تُزَوَّجُ إلا بإذنه، وكذلك هو وَلِيُّ عبده فليس للعبد أن يتزوج بغير إذن سيده، وقد أجمع على ذلك علماءُ الإسلام، وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال: حديث حسنٌ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أيُّما عبدٍ تزوَّجَ بغير إذن سيده فهو عاهر، وقد أخرجه أيضاً ابن حبان والحاكم وصححاه. وإذا كان مالكُ الأمة امرأةً فإنه يزوج الأمة منْ يُزَوِّجُ سيدتها بإذنها وقد روى ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

ﷺ: لا تُـزَوِّجُ المرأةُ المرأة، ولا تُزَوِّجُ المرأةُ نَفْسَهَـا. قال الحافظ ابن حجـر في بلـوغ المرام: ورجـالـه ثقـات، وقـولـه تبـارك وتعـالى: ﴿وَآتُـوهُنَّ أُجُـورَهُنَّ بِـالْمَعْروف﴾ قـال ابن كثير رحمه الله: أي وادفعوا مُهُـورهُنَّ بالمعـروف أي عن طيب نفس منكم، ولا تَبْخَسُوا منه شيئـاً استهانةً بهن لكونهن إمـاءً مملوكات اهـ. وقـوله عز وجل: ﴿مُحْصَنَـاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِـذَاتِ أَخْدَان﴾ تأكيدٌ على وجوب الحرص على أن تكون الأمـةُ التي يرغب الحر في الزواج منها معروفة بـالعفاف وحسن السيرة والسلوك وقد لوحظ أن الله تبـارك وتعالى قال في شأن التـزوج من الحرائر المسلمات: ﴿مُحْصِنِينَ غير مسـافحين﴾ وقـال في شأن تـزوج الحر المسلم من الأمة المسلمـة: ﴿مُحْصَنَـاتٍ غَيْرَ مُسَافِحـاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْـدَان﴾ وهذا يشعـر بأن وقوع الـزنا مـن الحرة المسلمة أَمْـرٌ يكاد يكون نادراً، ولذلك قالت هند رضي الله عنها لما بايعت رسول الله ﷺ، وقال في البيعة: «ولا يزنين» قـالـت: أَوَ تَزْنِي الحرةُ؟ أما الإماء فكـان العفافُ فيهن قليلاً، لأنهن لا يحتجبن، وتخرج الأمةُ إلى كل موضع يـرسلها أهلها إليه وهي متبذلـة، وقد تعجـز عن الامتناع، وقد كـان بعض أهل الجاهلية يُقَـدِّمُ أمته لضيوفه على أنه نوع تكريم عنـدهم، حتى ولو كرهت الأمة ذلك كما قال عز وجل: ﴿ولا تُكْرِهوا فَتَيَاتِكُمْ على البِغَـاءِ إن أردْن تَحَصُّنًا لتبتغوا عَرَض الحياة الـدنيا﴾ وكـان آخرُ من فعَلَ ذلك عبـد الله بن أبي ابن سَلول رأس المنـافقين لعنه الله. وكـانت بعضُ الإماء تعلن ذلك وتتخـذ رايات تنْصِبُها عنـد دارها ولا تمنع أحـداً من نفسها، كما كـان بعض الإماء يتخـذن الأخدان فـلا تُبِيحُ نفسها إلا لصديق واحد سرًّا، ولا تجهر بذلك، ولذلك أفرد الله تبارك وتعالى كلَّ واحـد من هذين القسمين بـالـذكر، ونصَّ على تحريمهما معـاً، وأنَّ من كانت من الإماء على أحد هذيـن الوصفين لا يجوز للحر المسلم أن يتزوجها، حيث قال عز وجل هنا: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحاتٍ ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَان﴾

فالمراد بالمحصنات هنا العفائف وقد أكَّدَ ذلك بقوله عز وجل: ﴿غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ أي غير زانيات جهراً، ومعنى: ﴿ولا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَان﴾ أي أخلاءَ يزنون بهن سراً، والأخدان جمع خِدْنٍ، وهو الصاحب والصديقُ على الفاحشة، ويقال له أيضا: خَدِين، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذين القسمين أيضاً عندما أباح للمسلم أن يتزوج كتابية حيث يقول في سورة المائدة: ﴿والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا أُحْصِنَّ فإن أَتَيْنَ بفاحشة فعليهن نصفُ ما على المحصَنَاتِ من العذاب﴾. بعد أن بين الله تبارك وتعالى حقوق الأمة المسلمة إذا تزوجها المسلم الحر الذي لم يستطع نكاح المحصنات المؤمنات، بيَّن هنا ما يجب في حق الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا بعد إحصانها، وقد قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿أَحْصَنَّ﴾ بفتح الهمزة والصاد وقرأ الباقون ﴿أُحْصِنَّ﴾ بضم الهمزة وكسر الصاد، وفُسِّرَت ﴿أَحْصَنَّ﴾ بمعنى أسلمن، وفُسِّرت ﴿أُحْصِنَّ﴾ بمعنى: تزوجْنَ. وقد ذهب غير واحد من أئمة أهل العلم إلى أن التنصيص على جعل حد الأمة إذا أحصنت على النصف من حد الحرة، للدلالة على أن تنصيف الحد على غير المحصنة من باب أولى، وقد أورد البخاري من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن قال: إذا زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهذه الآية صريحةٌ في أن حد الأمة بعد الإحصان هو نصف عذاب الحرائر، والذي يتنصف من عذاب الحرائر هو الجلد لا الرجم فتكون هذه الآيةُ قد أثبتت حد الأمة الزانية بعد الإحصان، ويكون حديث الشيخين قد أثبت حد الأمة الزانية قبل الإحصان، وهو عين حد الأمة

المحصنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ، وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لكم، واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ أي إن نكاح الحر المسلم للأمة كما يُشْترط فيه ألا يكون الراغب في الزواج قادراً على التزوج من الحرة المؤمنة كذلك يشترط فيه أن يخشى على نفسه العنت أي الوقوع في الزنا، وأصل العنت هو الضرر الشديد الشاق، والمقصود به هنا الشبق الشديد والغلمة العظيمة التي قد تؤدي بالإنسان إذا لم يُنَفِّس لها إلى الأمراض الشديدة فربما حمله ذلك على الزنا فَيُعَرِّضُ نفسه للعذاب الشديد، ومعنى: ﴿وأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لكمٌ﴾ أي وصبركم على بقائكم عُزَّاباً مع صيانتكم أنفسكم عن الوقوع في الحرام خير لكم من نكاح الأمة، لأنه يُفْضِي إلى استرقاق أولادكم، والتذييل بقوله: ﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ لإشعار من اضطر إلى نكاح الأمة مع ما فيه من خشية استرقاق الولد بأنه أهل لمغفرة الله ورحمته مادام قصده إعفاف نفسه.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ويَتُوبَ عَلَيْكُمْ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم● وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ● يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ، وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً● ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تكُونَ تِجَارةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحيماً● وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانا وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً، وكانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً●﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة في خاتمة تشريع جواز أن ينكح الحر المسلم الأمة المسلمة أنه شَرع هذا لمن خَشِيَ العنت منكم مما يفيد أنه عز وجل يُحبُّ رَفْعَ العَنَتِ والحَرَج والمشقة عن المسلمين حيث بعث رسوله محمداً ﷺ بالحنيفية السمحة وبالدين اليُسْر كما قال عز وجل: ﴿هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَجَ﴾ وكما قال عز وجل: ﴿يريد اللهُ بكم اليُسْرَ ولا يريد بكم العسْرَ﴾ شرع هنا يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها بجملة تأكيدات لتكون ماثلةً دائماً أمام عقول المسلمين ليشكروا نعمة الله عليهم وليجتنبوا التنطع في الدين الذي أَهْلَكَ مَنْ كان قبلهم حيث شَدَّدُوا فَشُدِّدَ عليهم، وهذه الآيات الستُّ التي سيقت بين ما سبقها من الآيات التي تقرر حقوق النساء وما يليها مما يتعلق بالنساء أيضاً للفت الانتباه إلى معرفة نعم الله عل عباده، وشكره على جميع ما يسَّره لنا وسهَّله علينا إحساناً منه وجوداً وكرماً وفضلاً، والتحذير من مخالفة أمره وارتكاب معاصيه. والحذَر من دعاة الضلالة الذين يريدون صرفَ المسلمين عن دينهم، واجتنابِ أكل أموال الناس بالباطل، وقتلِ النفس، والبُعْدِ عن كبائر السيئات، ولاشك أن تربية النفس الإنسانية على هذا السلوك السَّويِّ مما يُمَكِّنُهَا من إدراك تيسير شرع الله، الداعي إلى تحريم الاعتداء على الأموال

والأنفس، وأنـه لا يحل لأحد أن ينتهك حـرمة النفس سـواء كانت لـذكر أو أنثى أو حُـرٍّ أو عبد، ولا أن ينتهك حـرمة المال الـذي قَرَنَ الله عـز وجل بين تحريمه وتحريم قتل النفس في آية واحدة، والإرادة في قـوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم﴾ وفي قوله: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُـوبَ عَلَيْكُم﴾ وفي قوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُم﴾ هي الإرادة الشرعيـة التي هي بمعنى المحبـة لا الإرادة الكـونية القَـدَرِيَّـةُ، والـلام في قوله عـز وجل: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ بمعنى أَنْ، لأنها جاءت بعد قـوله عز وجل: ﴿يريد اللهُ﴾ والعرب قـد استعملت في أساليبها الفصيحة التعـاقب بين لام كيْ وبين أن بعد أمـرتُ وأردتُ فتقول: أردتُ أن تفعل، وأردتُ لتفعل وأمرتُ أن تفعل وأمرت لتفعل بمعنى واحد كما قال عز وجل: ﴿يُرِيـدُونَ أن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْـوَاهِهِم﴾ وقال عز وجل: ﴿يُـرِيدُونَ لِيُطْفِئُـوا نُـورَ الله بأفـواههم﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿وأُمِـرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لـرب العالمين﴾ وقـال: ﴿وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لـرب العالمين﴾ وقـال عز وجل: ﴿قل إني أُمِرْتُ أَنْ أكون أولَ من أسلم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وأمرت أن أعدل بينكم، وكما قال عـز وجل: ﴿قل إني أُمِرْتُ أن أَعْبُدَ الله مُخْلِصا لَـهُ الدِّين. وأُمِرْتُ لأَنْ أَكُـونَ أَوَّلَ المسلمين﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ويَتوبَ عَلَيْكُمْ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم﴾ أي يُحِبُّ اللهُ عز وجل أن يُوضِّحَ لكم سَبِيلَ سعادتكم ومَنْهج رُشْدِكم بما شرعه لكم من الشريعـة السمحة المشتملة على خير ما يَنْفَعُكُمْ في دينكم ودنياكم، حيث حـرَّم عليكم ما حرَّم من المفاسـد وأَذِنَ لكم فيما يعُود عليكم بـالجليل من المصـالح والمنـافع والفوائد، كما أنـه عـز وجل يُحِبُّ أن يُعَرِّفَكُمْ طرائق من سبقكم من الأمم لتعرفوا فضل الله عز وجل عليكم حيث هـداكم إلى صراطه المستقيم الـذي بعث بـه الأنبياء والمرسلين، وكيف كـان عاقبـة الذين انحـرفوا عن دين أنبيـائهم ورسلهم، كما أنه عـز وجل يُحِبُّ أن

يتـوب عليكم إذْ رَسَمَ لكم المنهج الـذي يوصِلكم إلى مـرضـاة الله ، ويُسَهِّلُ عليكم الابتعـاد عن المعـاصي والمحـارم، والله عـز وجل ذو علم بما يُصْلِحُ عباده في معاشهم ومعادهم ، حكيم في شرعه وقدَرِهِ وأقواله وأفعاله ، ومعنى قوله عـز وجل : ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّـذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُـوا مَيْـلاً عَظِيماً﴾ أي والله عــز وجل يحب أن تستقيمـوا على شرعـه ، فيرضى عنكم ويتجاوز لكم عن هفواتكم ، ويُحِبُّ عُبَّادُ الهوى المنغمسون في الشهواتِ المحُرَّمـةِ ، المنحرفون عن منهج الهدايـة والرُّشْدِ أن تنحرفـوا انحرافاً كبيراً لتكونوا مثلهم كما قـال عز وجل : ﴿وَدُّوا لو تكفرون كما كَفَـرُوا فتكونون سـواءً﴾ وكما قال عـز وجل عن إبليس لعنـه الله : ﴿إن الشيطان لكم عَـدُوٌّ فاتخِذُوهُ عدُوًّا ، إنما يَـدْعُو حِزْبَهُ ليكـونوا من أصحاب السعير﴾ وقـوله تبارك وتعـالى : ﴿يُرِيـدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُم﴾ أي يحب الله تبارك وتعـالى التخفيف على أمة محمـد ﷺ ، ولذلك رفع عنهم الإصر والأغـلال التي كانت على مَنْ قبلهم ، وجعل عــز وجل التخفيف على المسلمين من القــواعـد الشرعيــة الأساسية التي تنبني عليها الأحكام الشرعية ، ولـذلك جعلَ الصلاةَ الرباعية للمســافـر ركعتين ، وأجـاز لمن كان على جَنَـاح السفـر أن يجمع بين الظهـر والعصر، وبين المغرب والعشاء ، وجعل التيمم بالصعيـد الطاهر لمن لا يقدر على استعمال الماء في الوضوء أو الغسل ، وأجاز للمـريض أن يصلي قاعداً أو على جَنْب ، وقـال عز وجـل : ﴿حافظـوا على الصلـوات والصلاة الـوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا﴾ وقال عز وجل : ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فَلْتَقُمْ طـائفةٌ منهم معك ولْيَـأْخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكـونوا من ورائكم ولْتَـأْتِ طائفـةٌ أخرى لم يُصَلُّـوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسلحتهم﴾ وأباح الغنـائم لأمة محمد ﷺ ولم يبحها لأحد قبلهم ، وخفف فـريضـة الصـلاة على المسلمين فجعلها خَمْسًـا بَـدَلَ خمسين

وقـال رسول الله ﷺ في حـديث الإسراء والمعراج : فلما جـاوزتُ نادَى مُنَـادٍ : أمْضَيْتُ فـريضتي ، وخَفَّفْتُ عن عبـادي كما جـاء في لفظ للبخـاري . ومن أقرب صور التخفيـف لهذه الآية في كتاب الله عز وجل أنه أبـاح للحر المسلم العاجز عن الـزواج من الحرة المسلمة أن يتزوج أمة عفيفـة مسلمة حيث قال قبل هذا المقام مباشرة في كتاب الله عز وجل : ﴿ومَنْ لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنـات المؤمنات فمن مـا ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنـات﴾ الآيـة . وقولـه عز وجل : ﴿وخُلِقَ الإنسـانُ ضَعِيفًا﴾ أي أنشأ الله عـز وجل الإنسـانَ على جِبِلَّـةٍ يَسْتَمِيلُهُ الهَوَى والشهـوة ، ويَسْتَشِيطُـهُ الخوفُ والحزنُ ، وتؤلمه الشوكـة إذا شاكته ، ولا يتمالك نَفْسَهَ أمام المُغْـرِيَاتِ إلا مَنْ عصمه الله عز وجل فاعتصم بحبل الله ، واستمسك بالعروة الوثقى ، وقد روى مسلم في صحيحـه من طـريق حماد بن سلمـة عن ثـابت عن أنس أن رسـول الله ﷺ قال : لما صَوَّرَ اللهُ آدمَ في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليسُ يُطيفُ به ، ينظر مَاهُوَ؟ فلما رآه أَجْوَفَ عَـرَفَ أنه خُلِقَ خَلْقًا لا يَتمالَكُ . قال النووي في شرح مسلم : الأجـوفُ صاحبُ الجَوْفِ وقيل : هـو الذي دَاخِلُـهُ خَالٍ ، ومعنى لا يَتَمَالَكُ : لا يملك نفسه ويَحْبِسُهَا عن الشهوات . وقيل : لا يملك دفع الـوَسْوَاسِ عنـه ، وقيل : لا يملك نفسه عنـد الغضب ، والمراد : جنس بني آدم اهـ . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله : حدثنـا عبد الصمد ثنا حماد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عـز وجل آدمَ تركه ما شاء الله أن يَدَعَـهُ ، فجعل إبليسُ يُطِيفُ بـه يَنْظُرُ إليـه ، فلما رآه أجوفَ عَـرَفَ أنه خَلْقٌ لا يَتَمالَكُ . وقوله تبـارك وتعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَـأْكلوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تكُـونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنكُم﴾ أي يامَعْشَرَ المُسْتَجِيبِينَ لله ولـرسولـه ﷺ لا تَسْتَحِلُّـوا أموال النـاس بـالباطـل وتأكلوهـا بغير حق ، وتَسْتولُـوا عليها بطرق غير مشروعـة كالـربا والقمار والغصب والرشـوة وسائر

المكاسب التي نهت عنها شريعة الإسلام، وقد وسَّع الله عز وجل عليكم حيث أباح لكم الحصول على الأموال بطريق التجارة وتَبادُلِ السِّلَع التي تحصل لكم وتتمُّ بين المتعاقدين عن تراض وطيب نفس منهما في إطار ما رسمته الشريعة الإسلامية لكم، فلو حصل التراضي بين المتعاقدين على صفقة محرمة كالربا ونحوه فإن هذا العقد باطل، و إضافة الأموال للمخاطبين بقوله عز وجل: ﴿ لا تأكلوا أموالكم﴾ لِيَعُمَّ التحريم أكل مال نفسه بالباطل كبذله في المعاصي، كما يعم التحريمُ أكل مال غيره بالباطل، وقد تقدم أكثر من مرة أن التنصيص على تحريم الأكل بغير حق لا يبيح أخذ أموال الناس بغير حق لغير الأكل، إذ أن تخصيص الأكل بالذكر لأنه هو المقصود الغالب من الاستيلاء على الأموال، وقوله عز وجل: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ أي ولا يقتل بعضكم بعضاً، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله جل ثناؤه: ﴿إن الله كان بكم رحيما﴾ فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيما بخلقه، ومن رحمته بكم كفُّ بعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظْرِ أكْل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضاه وطيب نفسه، لولا ذلك هلكتم وأهْلَكَ بعضُكُمْ بعضاً قتلاً وسَلْبًا وغَصْبًا اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانا وَظُلْمَا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا، وكانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ أي ومن يقع في جريمة من هاتين الجريمتين العظيمتين وهي أكلُ الأموال بالباطل أو قتلُ النفس مُنْتَهِكًا حرماتِ الله، متجاسراً على حدوده فسوف نورده نارا، يَصْلى بها فَيَحْتَرِقُ فيها، وكان إصْلاَءُ هذا المجرم النارَ و إحراقهُ سهلاً على الله يسيرا؛ لأنه لا يعجز عن شيء ولا يفوته شيء، لأنه إذا أراد أمراً إنما يقول له كن فيكون، وجميع خلقه في قبضته يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد لا رادَّ لقضائه

ولا معقب لحكمه . وقد تقدم أن نُصُوصَ الوعيد إن وردت في حق من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهي تحت مشيئـة الله عز وجل ، إن شاء عذَّب و إن شاء عَفَا لقوله تبـارك وتعالى : ﴿إن الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر مـادون ذلك لمن يشـاء﴾ في آيتين من كتـاب الله عـز وجل في هـذه السـورة المباركة .

قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيماً﴾

بعد أن حذَّر الله تبارك وتعالى من ارتكاب بعض الكبائر كأكل أموال اليتامى ظلماً، وانتهاك حدود الله وفرائضِهِ التي حدَّها وفَرَضَهَا في المواريث للرجال والنساء، وارتكابِ الفاحشة، وتعدي الزوج على الزوجة بأخذ مهرها أو بعضه ظلما عند طلاقها، وتَزَوُّج الابن بزوجة الأب، ثم أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس يعني بغير حق، وقدَّم في الآية السابقة الوعيدَ الشديدَ لمن فعل ذلك عدوانا وظلماً ترهيباً، وَعَدَ تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من اجتنب الكبائر بأن الله عز وجل يغفر له ما دونها من السيئات ويُدْخِلُه الجنة ترغيباً، على طريقة الأسلوب القرآني العظيم في الترغيب والترهيب، الذي يسلك بالنفس الإنسانية الرشيدة صراط الله المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلا كَرِيماً﴾ أي إن تبتعدوا عن كبائر الإثم والفواحش، وتَصُونُوا أنفسَكم عن الاقتراب منها، فلا ترتكبوا شيئاً منها، ولا تُضَيِّعوا شيئاً من فرائض الله التي فرضها عليكم، ونهاكم عن تضييعها، فلكم وَعْدٌ من الله عز وجل بتكفير ما دون الكبائر من المعاصي واللَّمَمِ، وإدْخالِكُمْ جناتِ النعيم. وقد ورد في القرآن العظيم ما يفيد أن الذنوب تنقسم إلى كبائرَ وصغائرَ كما في هذه الآية الكريمة، وكما قال عز وجل في سورة النجم: ﴿الذين يَجْتَنِبُونَ كبائرَ الإِثْمِ والفواحشَ إلا اللَّمَمَ﴾ وقد أشار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الصلواتُ الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مُكَفِّرَاتٌ ما بَيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائرُ، وبهذا يتضح أن

ترك الكبائر واجتنابها يُكَفِّرُ الصغـائرَ كما أن المحافظة على الصلوات الخمس والجمعـة وصيامِ رمضـان مكفِّـراتٌ للصغـائر كذلـك، وقد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن مسعـود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امـرأةٍ قُبْلَةً فأتى رسـولَ الله ﷺ، فَذَكَرَ ذلـك له، فأنْـزِلَتْ عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَي النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنـات يُـذْهِبْنَ السيئـاتِ، ذٰلـك ذكـرى للذاكـرين﴾ قال الـرجل: أَلِيَ هذه؟ قـال: لِمَنْ عَمِلَ بِهَا من أمتي. وفي لفظ لمسلم من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه أن رجـلاً أَتَى النبي ﷺ فذكر أنـه أصاب من امرأة إما قبلـةً، أو مَسًّا بيَدٍ، أو شيئاً، كأنـه يَسأَلُ عن كفـارتها قال: فأنـزل الله عـز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَي النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنات يُذْهِبْنَ السيئاتِ، ذٰلك ذكـرى للذاكرين﴾ قال: فقال الرجل: أَلِيَ هـذه يارسول الله؟ قـال: لمن عَمِلَ بها من أمتي. وفي لفظ لمسلم من حـديث عبد الله بن مسعـود رضي الله عنه قال: جـاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسـول الله إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة، وإني أصبتُ منها ما دُونَ أن أَمَسَّها، فَأَنَا هَذَا، فاقْضِ فيَّ مـا شئتَ، فقال له عمر: لقد سَتَرَكَ اللهُ لـو سترتَ نفسَك، قال: فلم يَـرُدَّ النبيُّ ﷺ شيئـاً، فقـام الرجل فـانطلق، فَأَتْبَعَـهُ النبيُّ ﷺ رجـلا دَعَاهُ، وتلا عليـه هذه الآيـة: ﴿وَأَقِمِ الصَّـلاَةَ طَرَفَي النهـار وَزُلَفًـا من الليل، إن الحسنـات يُـذْهِبْنَ السيئـاتِ، ذٰلـك ذكـرى للذاكـرين﴾ فقال رجـل من القوم: يـانبي الله، هذا لـه خاصَّةً؟ قـال: بل للناسِ كافةً. وفي لفظ لمسلم: فقال معاذٌ: يارسول الله، هذا لهذا خاصَّةً أو لنـا عامَّـةً؟ قال: بل لكم عـامَّةً. وبهذه النصـوص من كتاب الله عـز وجل وصحيح سنـة رسول الله ﷺ يتضح أن السيئـات تنقسم إلى كبائرَ وصغـائرَ، وقد فـرَّق غيْرُ واحدٍ من أئمـة أهل العلم بَيْنَ الكبيرة والصغيرة بأن الكبيرة ما توعد الله عـز وجل عليها بعذاب أو لعنة أو غضب أو تهديد بعقوبـة عاجلة

أو آجلـة ، وأن الصغيرة مـا سـواها ، وقـد أشـار رسـول الله ﷺ إلى أن بعضَ الكبائر أكبر من بعض ، ولاشك أن الشركَ بالله هـو أكبر الكبائر ، ويليه بقيةُ السبع الموبقات ، فقد روى البخاري ومسلم مـن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : اجتنبوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ ، قيل : يـارسول الله وما هُنَّ؟ قـال : الشركُ بـالله ، وقتلُ النفسِ التي حـرَّمَ الله إلا بالحق ، والسحـرُ ، وأكلُ الـربا ، وأكـلُ مال اليتيم ، والتَّـوَلِّي يـوم الزَّحْـفِ ، وقذفُ المحصنـاتِ الغافـلاتِ المؤمناتِ . وفي رواية للبخـاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنـه قال : ذكـر رسـول الله ﷺ الكبائر أو سُئِلَ عن الكبائر ، فقـال : الشرك بـالله ، وقَتْـلُ النفس ، وعُقُـوقُ الـوالـدين ، — وقـال — ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى ، قـال : الإشراك بالله وقولُ الزُّورِ — أو شهـادةُ الزُّور . كما أخرج البخـاري ومسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي بكـر عن أبيه رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكبر الكبائر؟ قلنا : بلى يارسول الله ، قال : الإشراك بـالله وعقوقُ الوالـدين — وكان متكئـاً فَجَلَسَ فقال — : ألا وشهادة الـزور ، ألا وقَوْلُ الزُّور ، فمازال يُكَـرِّرُهَا حتى قلنـا : ليته سَكَتَ . كما أخرج البخـاري ومسلم من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنـه قال : قلتُ يارسولَ الله أيُّ الذنبِ أَعْظَمُ؟ — وفي رواية — أَكْبَرُ؟ قال : أن تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ . قلت : ثم أيُّ؟ قال : أن تقتل وَلَدَكَ مخافة أن يَطْعَمَ معك . قلت : ثم أيُّ؟ قال : أن تُزانِيَ حَلِيلَةَ جارك . فـأنزل الله عز وجل تصديقها : ﴿والذين لا يَدْعُونَ مع الله إلَهًا آخرَ ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يـزنـون ومن يفعلْ ذٰلك يلق أثـاما﴾ كما روى البخـاري في صحيحـه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : الكبائر الإشراكُ بـالله وعقوقُ الـوالـدين وقتلُ النفس ، واليمينُ الغموسُ . كما روى البخـاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ :

من أكبرالكبائر أن يلعن الرجلُ والديه، قالوا: وكيف يلعن الرجلُ والديه؟ قال: يَسُبُّ الرجلُ أبا الرجل فَيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أمَّه فَيَسُبُّ أمَّه اهـ. ومن الكبائر اليأس من رَوْح الله، والقنوطُ من رحمة الله، والأمنُ من مكر الله، وسوءُ الظن بالله، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿إنه لا يَيْأَسُ من رَوْحِ الله إلا القومُ الكافرون﴾ وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ من رحمة ربه إلا الضالُّون﴾ وقوله عز وجل: ﴿أفَأَمِنُوا مكرَ الله فلا يأمن مكر الله إلا القومُ الخاسرون﴾ وقوله تعالى: ﴿ولَكن ظَنَنْتُمْ أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذالكم ظَنُّكُمْ الذي ظننتم بربكم أرْدَاكم فأصْبَحْتُم من الخاسرين﴾ ومن الكبائر الزنا وعمل قوم لوط وشربُ الخمر والمخدِّرات وأكلُ لحم الخنزير، والسرقة والغِيبَةُ والنميمة والحسد والغش، والاعتداءُ على الآمِّينَ البيتَ الحرام، وقتالُ المسلمين بغير حق، وأن يقول الإنسان لأخيه المسلم ياملعون أو ياكافر، أو ياعدُوَّ الله، وإيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: ﴿والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمناتِ بغير ما اكْتَسَبُوا فقد احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وإثما مُبِينا﴾ كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: سِبَابُ المسلم فُسُوقٌ، وقِتَالُهُ كُفْر. كما روى البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا يَرْمِي رجلُ رجلاً بالفسق أو الكفر إلا ارْتَدَّتْ عليه إن لم يكن صاحبُه كذلك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حلف على يمين بملة غير الإسلام كاذباً متعمداً فهو كما قال، ومن قتل نفسه بشيء عُذِّب به يوم القيامة، وليس على رَجُل نَذْرٌ فيما لا يملكه، ولَعْنُ المؤمن كَقَتْلِهِ. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ قَذَفَ مملوكه بالزنا يُقَامُ عليه الحدُّ يوم القيامة إلا

أن يكـون كما قـال . كما روى مسلم من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : اثنتان في الناس هُمَا بِهِم كُفْرٌ: الطعن في النسب والنياحة على الميت . كما روى مسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : مَنْ حَمَلَ علينا السلاحَ فليس منـا ، ومَنْ غشنا فليس منا . كما روى البخاري ومسلـم من حديث عبـدالله بن مسعود رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : لكل غـادرٍ لواءٌ يـوم القيامة ، يقـال : هذه غَـدْرَةُ فلان . كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثة أنا خَصْمُهُمْ يوم القيامة : رجل أَعْطَى بي ثم غَـدَرَ، ورجلٌ باع حُرًّا فأكَلَ ثَمَنَهُ ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يُعْطِهِ أجره . كما روى مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ثلاثةٌ لا يكلمهم اللهُ يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يـزكيهم ، ولهم عذابٌ أليم . قـال : فقرأهـا رسولُ الله ﷺ ثـلاثَ مِرَارٍ ، قـال أبـو ذر: خابـوا ، وخَسِرُوا ، مَنْ هُمْ يـارسول الله؟ قـال : المُسْبِلُ ، والمنَّانُ ، والمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بالْحلِفِ الكاذب . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قـال : لَعَنَ الله الواصلة والمستـوصلة ، وأنـه قال : لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَـارَ الأرض ، وأنه قـال : لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله ، وأنه ﷺ قـال عن المدينة : مَنْ أحدثَ فيها حَدَثـاً أو آوى مُحْدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . إلى غير ذلك من الآيـات والأحـاديث الصحيحـة المشيرة إلى أنـواع شتى من الكبـائر. وليس لقـائل أن يقول : إذا كـان اجتنـابُ الكبائر يكفـر الصغائر ألاَ يكونُ في ذلك إغـراءٌ بارتكاب الصغائر وأنها تصير كـالمباح؟ لأنَّا نقـول : إن استحـلال الصغيرة أو الإصرارَ عليها يجعلهـا كبيرةً من الكبـائر، وقوله تبارك وتعالى : ﴿وندخلكم مُـدْخَلاً كريما﴾ أي وندخلْكم الجنة إدخالاً كريماً طيبـاً حيث يحشر الله المتقين إلى الرحمن وفـدا تستقبلهم الملائكة مهنئين مُسَلمين يقولون لهم : سلام عليكم ادخلوا الجنـة بما كنتم تعملون . ويقولون

لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تُحْبَرُون، ويقولون لهم: ادخلوها بسلام آمنين. كما قال عز وجل: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا. ونسوق المجرمين إلى جهنم وِرْدًا﴾ وكما قال عز وجل في حشر أعدائه إلى النار: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبُكْما وصُمًّا مأواهم جهنم كلما خَبَتْ زدناهم سعيرا﴾ قال ابن جرير رحمه الله: وأما المُدْخَلُ الكريم فهو الطيب الحَسَنُ المُكَرَّمُ بنفي الآفات والعاهات عنه، وبارتفاع الهموم والأحزان ودخولِ الكدر في عيش مَنْ دخله، فلذلك سماه الله مُدْخلاً كريما اهـ.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مما اكْتَسَبْنَ، واسْأَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ، إنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾

بعد أن نَهَى اللهُ عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وحرَّمَ عليهم قتلَ أنفسهم، وتوعَّدَ من فعل ذلك عدوانا وظلماً بأنه سوف يصليه نارا، وبشر المؤمنين بأن اجتناب الكبائر يُكَفِّرُ اللهُ به الصغائر، حذَّرَ هنا من داءٍ وبيل كان سبباً لأول ذنب عُصِيَ اللهُ عز وجل به وهذا الداء الوبيلُ والمرض الفَتَّاك هو الحسد الذي حَمَلَ إبليس لعنه الله على التكبر والامتناع عن السجود لآدم، كما كان سبباً لأول قتل نفس وقع على الأرض حيث قتل أحدُ ابني آدم أخاه، إذ قرَّبا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر، فَقَتَلَ الذي لم يُتَقَبَّلْ قُربَانُهُ أخاه الذي تُقُبِّلَ قربانُه حَسَدًا له، وفي هذا التحذير هنا يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ﴾ أي ولا تتشَهّوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض، وارضوا بما قَسَمَ اللهُ عز وجل لكم من رزق، وأيقنوا أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها الذي قضاه الله عز وجل لها، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم في الرزق، وانظروا إلى من هو دونكم حتى تعرفوا نعمة الله عليكم، ولا تَزْدَرُوها فَتُصَابُوا بداء الحسد الذي يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطب. واعلم أن تَمَنِّي الإنسان ما منحه الله لغيره ينقسم إلى قسمين: قسمٍ مذموم وقسم ممدوح، فالمذموم هو أن يتمنى الإنسانُ زوالَ النعمة عن غيره وانتقالها إليه سواء كانت نعمة دنيوية أو دينية، وهذا هو الحسدُ الذي ذمه الله عز وجل في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿أم يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله﴾ وأشار إلى شره وضرره حيث

يقول: ﴿قل أعوذ بـرب الفلق. من شر ما خلق. ومن شر غاسقٍ إذا وَقَبَ. ومن شر النفاثات في العُقَد. ومن شر حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾ كما حذَّر منه رسولُ الله ﷺ فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال: لا تباغضـوا، ولا تحاسَدُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا تقاطَعُـوا، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يَهْجُـرَ أخاه فوق ثلاث. كما روى أبو داود من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إيـاكم والحسَدَ، فإنَّ الحَسَدَ يأكل الحسنات كما تأكُـلُ النار الحطبَ أو قال: العُشْبَ، وتمنى زوال النعمة عن الغير هو المقصود بالنهي هنـا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُـمْ على بَعْضٍ﴾ أما القسم الثـاني من تمني الإنسان مـا منحه الله لغيره فهو الغِبْطَةُ وهو ممدوح وقد يطلق عليه اسم الحسد تجوزاً وتوسعاً، وهو أن يتمنى مثل النعمـة التي أنعم الله بها على الغير دون زوالها عن صاحبهـا، ويكون هـذا من باب التنافس في أعمال الخير والبر، وقد أرشـد رسولُ الله ﷺ إلى أنـه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحـداً على نعمـة أنعم الله عز وجل عليـه بها ويتمنى مثلها لنفسه دون زوالها عن صاحبها إلا في خصلتين اثنتين، الأولى: أن يرى إنسـاناً قـد منحه الله مالا وسلطـه على إنفاقـه في الحق فهو يتمنى أن يكون مثله، والثـانية أن يرى إنسانـا قد منحه الله علماً فهو يقـوم به آناء الليل والنهار عَمَلاً وتعليماً، فهو يتمنى أن يكونَ مثلَه، فقد روى البخاري ومسلم من حـديث ابن مسعـود رضي الله عنـه عن النبي ﷺ قـال: لا حَسَـدَ إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فَسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحق، ورجلٌ آتاه الله حِكْمَةً فهو يقضي بها ويعلمها. والمراد بقولـه ﷺ: لا حسد أي لا غبطة، كما روى البخاري ومسلم مـن حديث عبد الله بن عمـر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن فهـو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه مـالا فهو ينفقه آناء الليل وآنـاء النهار، كما روى الترمذي

وقال: حديث حسن صحيح عن أبي كبشة عمرو بن سعد الأنماري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ثلاثةٌ أُقْسِمُ عليهن، وأُحَدِّثُكُمْ حديثا فاحفظوه: ما نقص مالُ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلِمَ عبدٌ مَظْلَمةً صَبَرَ عليها إلا زاده اللهُ عزاً، ولا فَتَحَ عَبْدٌ بابَ مسألَةٍ إلا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ، أو كلمةً نحوها، وأُحَدِّثُكُمْ حديثًا فاحفظوه، قال: إنما الدنيا لأربعة نَفَرٍ: عبدٌ رزقه اللهُ مالا وعلما فهو يتقي فيه ربَّه، ويصل فيه رَحِمَهُ، ويَعْلَمُ لله فيه حقًّا، فهذا بأفضلِ المنازل، وعبدٌ رزقه اللهُ علما ولم يرزقْهُ مالاً، فهو صادقُ النية يقول: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فلان فهو بِنِيَّتِهِ، فأجرهما سواءٌ، وعبدٌ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يَخْبِطُ في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول: لو أنَّ لي مَالاً لَعَمِلْتُ فيه بعمل فلان، فهو بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سواءٌ، وقد قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية، أو بدنية، أو خارجية، أما السعادات النفسية فَنَوْعَانِ: أحدهما ما يتعلق بالقوة النظرية، وهو الذكاءُ التامُّ والحَدْسُ الكاملُ والمعارفُ الزائدةُ على معارف الغير بالكمية والكيفية، وثانيهما: ما يتعلق بالقوة العملية، وهي العِفَّةُ التي هي وَسَطٌ بين الخمود والفجور، والشجاعة التي هي وسط بين التهور والجُبْن. واستعمالُ الحكمة العملية الذي هو تَوَسُّطٌ بين البَلَهِ والجَرْبَزَةِ، ومجموع هذه الأحوال هو العدالةُ، وأما السعادات البدنيةُ: فالصحةُ والجمالُ والعمرُ الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة، وأما السعادات الخارجية: فهي كثرة الأولاد الصلحاءِ، وكثرةُ العشائر، وكثرةُ الأصدقاءِ والأعوانِ، والرياسةُ التامةُ، ونفاذُ القولِ، وكونُه محبوباً للخلق حَسَنَ الذِّكْرِ فيهم، مُطَاعَ الأمر فيهم، فهذا هو الإشارة إلى مجامع السعادات، وبعضُهَا فِطريَّةٌ لا سبيل للكسب فيه، وبعضُها كَسْبِيَّةٌ،

وهذا الـذي يكون كَسْباً متى تأمَّل العـاقل فيه يَجِدْهُ أيضـاً مَحْضَ عطاءِ الله ، فإنـه لا ترجيحَ للـدواعي وإزالـة العـوائق وتحْصيل المُوجباتِ ، وإلا فيكـونُ سببُ السَّعْيِ والجِد مشتركـاً فيـه ، ويكـون الفـوْزُ بـالسعـادة والـوصـولُ إلى المطلـوب غيرَ مشتركٍ فيــه ، فهـذا هـو أقسـام السعــادات التي يفضل اللهُ بعضهُم على بعض فيهـا ، ثم قـال الفخر الـرازي رحمه الله : إن الإنسـان إذا شاهد أنواع الفضائلِ حاصلةً لإنسان ، ووجد نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثـرها ، فحينئـذٍ يتأَلَّمُ قلبُـهُ ويَتَشَوَّشُ خـاطـرُهُ ، ثم يعرض ههنـا حالتـان : إحداهما : أن يتمنى زوالَ تلك السعاداتِ عن ذلك الإنسان ، والأخرى : أن لا يتمنى ذلك ، بل يتمنى حصولَ مثلها له ، أمـا الأول فهو الحسدُ المذمومُ ؛ لأن المقصودَ الأولَ لِمُدَبِّرِ العالَـمِ وخَـالِقِه الإحسانُ إلى عَبِيده ، والجُودُ إليهم ، وإفـاضةُ أنـواع الكرم عليهم ، فمتى تَمَنَّى زوالَ ذلك فكأنـه اعترَضَ على الله تعالى فيما هو المقصودُ بـالقصدِ الأوّلِ من خَلْقِ العالَمِ وإيجادِ المكلَّفين ، وأيضاً ربما اعتقـد في نفســه أنه أحقُّ بتلك النِّعَـم من ذلك الإنسان ، فيكـونُ هـذا اعتراضاً على الله وقَـدْحًا في حكمتـه ، وكلُّ ذلك مما يُلْقيـه في الكفر وظلمات البِدْعَةِ ، ويُزِيلُ عن قلبه نُـورَ الإيمان ، وكما أنَّ الحسَدَ سببٌ للفساد في الدين فكـذلك هو السببُ للفســاد في الدنيـا ، فإنه يَقْطَعُ المودَّةَ والمحبـةَ والموالاة ، ويَقْلِبُ كلَّ ذلك إلى أضـدادها ، فلهـذا السَّبَبِ نَهَى الله عبـادَهُ عنه فقـال : ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ﴾ اهـ وقوله تعالى : ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّـا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءِ نَصِيبٌ مما اكْتَسَبْن﴾ أي للرجـال حظ ونصيبٌ وقسط من ثواب الله أو من عقابـه على ما اكتسبوه وعملوه من أعمال الخير أو الشر وللنساء حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقـابه على ما اكتَسَبْنَهُ وعَمِلْنَـهُ من أعمال الخير أو الشر، كما قــال عـز وجل في خــواتيم الســورة السابقـة : ﴿فاستجاب لهم ربُّهم أني لا أُضِيعُ عَمَلَ عـامِلٍ منكم من ذكر أو

أنثى بَعْضُكُمْ من بعض﴾ فعلى الرجال والنساء أن يَسْعَوْا إلى اكتساب الأعمال الصالحة، وليجتنبوا ارتكابَ ما حرَّم الله، ولْيَحْذَرُوا الحسدَ فإنه يَضُرُّهم ولا ينفعهم، ولذلك قيل عن الحسد: ما أعدلَه بدأ بصاحبه فقتلَه، وكما قال الشاعر:

اصبر على كيد الحَسُو … د فإنَّ صَبْرَكَ قاتلُهْ
فالنارُ تأكل نفسها … إن لم تَجِدْ ما تأكُلُهْ

وقد أرشد رسولُ الله ﷺ المسلمين إلى الطريق السَّويِّ الذي يحميهم من أن يتحاسدوا وهو أن ينظروا إلى مَنْ دونهم في الرزق فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: انظروا إلى مَنْ هو أسفلُ منكم، ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فهو أجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم. وفي رواية للبخاري: إذا نظر أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المال والخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أسْفَلُ منه، كما أرشد الله عز وجل الرجالَ والنساء إذا رأَوْا فَضْلَ الله ونعمه على بعض عباده ألا يتمنوا زوالها عنه، وعليهم أن يَسألُوا الله من فضله حيث يقول عز وجل هنا: ﴿واسْأَلُوا الله مِنْ فَضْلِه﴾ إرشاد من الله تبارك وتعالى لعباده ألا تتعلق نفوسهم بما في أيدي الخلق، وأن يتوجَّهوا إلى الخالق الرازق الجواد الكريم ليعطيهم من فضله، ويمنحهم من خزائنه التي لا تنفد، فَلْيَسْألوهُ عز وجل ولْيَضْرَعُوا إليه ولْيَطْلُبُوا منه ولْيُلِحُّوا عليه في جميع ما يُهَيِّئُ لهم الحياة الطيبة، ويقولوا: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فهو سبحانه يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ ويزيدُهم من فضله، وقد روى الترمذي من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: ﴿وقال ربكم ادعوني أَسْتَجِبْ لكم، إن الذين يستكبرون عَنْ عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ ثم قال الترمذي: هذا

حديث حسن صحيح اهـ كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبي ﷺ : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً ، وقنا عذاب النار كما روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول : اللهم إني أسألك الهُدى والتقى والعفافَ والغنى ، كما روى مسلم من حديث طارق بن أُشَيْم رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعُو بهؤلاء الكلمات : اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني ، وقوله : «إن الله كان بكل شيء عليما» ترغيب وترهيب .

قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، إنَّ الله كانَ عَلَى كُلِّ شيْءٍ شَهِيدا. الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ، والَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبِيلاً، إنَّ الله كان عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

بعد أن نهى الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات أن يَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ الله به بعضهم على بعض، تحذيراً لهم من داء الحسد الوبيل، وأنه من عمل عملاً من ذكر أو أنثى فله جزاؤه عند الله عز وجل، وحضَّهم على التماس الفضلِ وطَلَبه من الله عز وجل العليم بكل شيء، بيَّن هنا أنه شرع لكل ذي حق حقَّه من تركة الوالدين والأقربين ومن ملكت أيديهم فلا يحل لأحد أن يَتعدّى على ما شرع الله عز وجل الشهيد على كل شيء، وأشار إلى قوامة الرجال على النساء بما فضل الله عز وجل به الرجال على النساء في تكوينهم وبسبب ما أنفقوا من أموالهم، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ قال البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من صحيحه: باب قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ، والَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ، إنَّ الله كانَ عَلَى كُلِّ شيْءٍ شَهِيداً.﴾ مَوالِيَ: أولياء ورثةً، عاقدت: هو مولى اليمين، وهو الحليفُ، والمولى أيضا: ابن العم، والمولى: المنعمُ المُعتِقُ، والمولى: المليكُ، والمولى: مولى في الدِّين. حدثني الصَّلتُ بن محمد حدثنا أبو أسامة عن إدريس عن طلحة بن مُصرِّفٍ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي

الله عنهما: ﴿ولكلٍّ جعلنا مَوَالِيَ﴾ قال: ورثة ﴿والذين عَاقَدَتْ أيمانُكُمْ﴾ كان المهاجرون لمَّا قَدِمُوا المدينة يرث المهاجر الأنصاريَّ، دون ذوي رحمه للأُخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم. فلما نَزلت: ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ نُسخت، ثم قال: ﴿والذين عَاقَدَتْ أيمانُكُمْ﴾ من النصر والرِّفَادَةِ والنصيحة، وقد ذَهبَ الميراث، ويوصي له، سمع أبو أسامة إدريس، وسمع إدريس طلحة. وقال البخاري في كتاب الفرائض: باب ذوي الأرحام حدثني إسحاق بن إبراهيم قال: قلتُ لأبي أسامة: حدَّثكُمْ إدريس حدثنا طلحة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿ولكل جعلنا موالى﴾ ﴿والذين عَاقَدَتْ أيمانكم﴾ قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرثُ الأنصاريُّ المهاجريَّ دون ذوي رحمه للأُخوَّةِ التي آخى النبي ﷺ بينهم، فلما نزلت: ﴿جعلنا مَوَالِيَ﴾ قال: نسختْها: ﴿والذين عَاقَدَتْ أيمانكم﴾ اهـ. واستعمال كلمة «موالى» بمعنى الورثة والعصَبة شائع عند العرب، ومنه قولُ الفضل بن العباس:

مَهْلاً بَنِي عَمِّنَا مَهْلاً مَوَالِينَا ... لاَ تَنْبِشُوا بيننا ما كان مدفونا

ومن استعمال الموالى بمعنى العصبة قولُ زكريا عليه السلام: ﴿وإني خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لَدُنْكَ وليا﴾ وقد تقرَّرَ نسخُ الميراثِ بالحلف، وبالتَبَنِّي وبالمؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار كما قال عز وجل: ﴿وأُوْلواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى ببعض في كتاب الله﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأُوْلواْ الأرحام بعضُهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، كان ذٰلك في الكتاب مسطورا﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بَقِيَ فهو لأَوْلى رَجُلٍ ذكر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ

عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ إشعار بسبب زيادة إرث الرجال على النساء في غير الإخوة لأم وتفضيل الرجال على النساء حيث كانت النبوةُ مختصة بالرجال وكذلك الإمامة العُظْمى ومناصب القضاءِ والإمامةُ الصغرى في الصلاة، والجهادُ والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق وكذلك تَحَمُّلُ الدية التي على العاقلة، والولايةُ في النكاح، والطلاق والرجعة، وتعدُّدُ الزوجات، وانتسابُ الأبناءِ، وهذا هو السبب الأول من أسباب قوامة الرجال على النساء الذي ذكره عز وجل بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أما السببُ الثاني من أسباب قوامة الرجال على النساء فهو ما ذكره الله عز وجل بقوله: ﴿وَبِمَا أَنْفَقوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي وبما ساقُوا إليهنَّ من صداق، وأنفقوا عليهن من نفقة. وقوامون جمع قوَّام وهو القائم بالمصالح والتدبير والتأديب والحفظ والصيانة والحماية والرعاية، فقد جعل الله عز وجل الزوج أميراً على بيت الزوجية، والطبعُ والشرعُ يقتضيان أن يكون لكل رعيَّة راعٍ يسُوسُ أمرها ويُدبر شأنها، حتى حضَّ رسولُ الله ﷺ الرفقةَ المسافرين أن يُؤَمِّرُوا عليهم واحدا منهم، فقد روى أبو داود بإسناد حسن من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: إذا خرج ثلاثةٌ في سفر فَلْيُؤَمِّرُوا أحدَهم. وليست قوامةُ الرجل على المرأة قوامة استبداد و إهانةٍ وحَجْرٍ وتسلُّط، فقد حض رسول الله ﷺ مَنْ وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً أن يرفق بهم وألا يَشُقَّ عليهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئول عن رعيته: الإمامُ راعٍ ومسئولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئولٌ عن رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسئولةٌ عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيِّده ومسئولٌ عن رعيته، وكُلُّكُمْ راعٍ ومسئول عن رعيته. كما روى مسلم

من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : اللهم مَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أمتي شيئًا فَشَقَّ عليهم فـاشْقُقْ عليه ، ومَنْ وَلِيَ من أمر أمتي شيئا فَرَفَقَ بهم فارْفُقْ به . وقد كان رسول الله ﷺ يوصي الرجال بزوجاتهم خيراً فقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال : من كا ن يؤمن بـالله واليوم الآخر فلا يـؤذي جاره ، واستوصـوا بالنساء خيراً فإنهن خُلِقْنَ مـن ضِلَع ، وإن أعوج شيء في الضلَعِ أعلاه ، فإن ذهبت تقيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وإن تركته لم يَزَلْ أعوجَ ، فاستوصوا بالنساء خيرا ، فالرجل هو المسئول الأول في البيت وله القوامة فيه ، وعليه تَبعاتُ هذه القـوامة ، التي جعلهـا الله عز وجل للـرجال على النسـاء حيث يقول تبـارك وتعالى : ﴿ولهن مثلُ الـذي عليهن بالمعـروف ، وللرجـال عليهن درجةٌ ، والله عزيز حكيم﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَـالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ، واللَّـاتِي تَخَافُـونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُـوهُنَّ وَاهْجُـرُوهُنَّ في الْمَضَـاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سبيلاً ، إنَّ الله كان عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ هذا بيان من الله عز وجل للأزواج يُوضِّح لهم فيه أحسنَ سُبل القوامة على النساء حيث قسم النسـاء إلى قسمين : نسـاء صـالحات ، ونسـاءٍ غير صـالحات ، فـوصف الصـالحات منهن بأنهن قـانتاتٌ حـافظـاتٌ للغيب بما حَفِظَ الله ، ووصف غير الصالحات بـالناشزات ، وأشار إلى أن نشـوزَ النساء على أنواع ، وأنه ينبغي للزوج أن يعالج كلَّ نوع من أنـواع النشوز بالعلاج الملائم له ، فلا يشتد في مـوضع اللِّين ، ولا يلين في موضع الشـدة ، ومعنى قولـه عز وجل : ﴿فَـالصَّـالِحَاتُ قَـانِتَـاتٌ حَـافِظَـاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِـظَ الله﴾ أي فـالنسـاء الصـالحات هن المطيعـاتُ لأزواجهن ، الخائفـاتُ من الله عـز وجل ، الصـائنـاتُ لأعـراضهن وحقـوق أزواجهن في الغيب ، كما يصنَّ أعـراضهن وحقوق أزواجهنَّ عنـد وجودهم معهن ، والمرأة إذا كـانت بهذه المثابـة كانت

خيراً من كل كنوز الدنيا، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها المرأةُ الصالحةُ. وقال أبو داودَ في سننه: حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا يحيى بن يعلي المحاربي ثنا أبي ثنا غيلان عن جعفر بن إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال: كَبُر ذلك على المسلمين فقال عمرُ رضي الله عنه: أنا أُفَرِّجُ عنكم، فانطلق، فقال: يانبي الله، إنه كَبُرَ على أصحابك هذه الآيةُ، فقال رسول الله ﷺ: إن اللهَ لم يفرض الزكاة إلا لِيُطَيِّبَ ما بَقِيَ من أموالكم، وإنما فَرَضَ المواريث لتكون لمن بَعْدَكُمْ، فكبَّر عمرُ، ثم قال له: أَلَا أُخْبِرُكَ بخير ما يَكْنِزُ المرءُ؟ المرأةُ الصالحةُ، إذا نظرَ إليها سَرَّتْهُ، وإذا أَمَرَهَا أطاعته، وإذا غَابَ عنها حَفِظَتْهُ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿والَّـٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ﴾ أي ومن خشيتم من زوجاتكم أن تُسيئَ صحبتكم وتكدِّر صفاء حياتكم الزوجية بسبب ما يبدرُ منها من بوادر الجنوح إلى النشوز حيث بدأت ترفع عليكم ولا تسارع إلى طاعتكم، وتحاولُ تنغيص معيشتكم فهذه آمارات نشوزها — يقال: نشزت المرأة إذا استعصت على زوجها وأبغضته، وحينئذ فاسلكوا أيْسر السُبل لتقويم اعوجاجها، وابدأوا بوعظها وتخويفها من الله عز وجل، وتعريفها بحق الزوج على زوجته، وذكِّرُوها بما أعدَّ الله عز وجل للصالحات، وما توعَّد به الناشزات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأت، فبات غضبان عليها، لَعَنَتْهَا الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية لهما: وإذا باتت المرأة هاجرةً فِراشَ زوجها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح. وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في

السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنهـا . فإذا أصرت على النشوز بعد الوعظ ولم تتعظ فعند ذلك يهجرها في المضجع . فإن أصرت على النشوز ولم يُفدْ فيها الهَجْرُ فقد أبيح له أن يضربها ضرباً خفيفا لعلـه يُفيدُها فترجع عن نشوزها ، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ضرب الزوجة لا يكون إلا للضرورة وأن الأولى تركه فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن إياس بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا تضربـوا إماءَ الله ، فجاء عمر رضي الله عنـه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ذئرْنَ النساءُ على أزواجهن ، فَـرَخَّصَ في ضربهن فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشكُونَ أزواجهنَّ فقـال رسول الله ﷺ : ولقد أطاف بآل بيت محمد نساءٌ كثيرٌ يشكونَ أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم . ومعنى : ذَئِرْنَ أي اجترأن ، ولاشك أن من أعظم طرق التربية الحديثة أن تُعلِّقَ عصاك حيث يـراها ولدك ، وليـس ذلك حَضًّا على الضرب ، وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿فَـإِنْ أَطَعْنَكُمْ فـلا تَبْغُـوا عَلَيْهِنَّ سبِيـلاً ، إنَّ الله كـان عَلِيًّـا كَبِيرًا﴾ أي فإن انقدن لكم وتركن النشـوز فخافوا الله فيهن ، وتناسوا ما يكـون قد بَدر منهن من إساءة لكم ، واعلمـوا أن الله فوقكم وهـو رقيب عليكم ، وهو منتقم ممن ظلم زوجته وبغَى عليها ، وهو يحب العافين عن الناس .

قال تعـالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما فـابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِـهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا إنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا. وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِـهِ شَيْئًا وَبِـالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَانًـا وَبِذِي الْقُـرْبَىَ وَالْيَتَامَـى والمساكين والجارِ ذي الْقُرْبَى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحِب بِالجَنْبِ وابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، إنْ الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُختَالاً فَخُورًا﴾

بعـد أن بيَّن الله عز وجل مـا ينبغي للـزوج أن يُعـالج ما يخافُـه من نشـوز زوجته عندما تبـدو بوادر جنوحها واستعصائها عليـه، وأنه ينبغي له أن يبدأ بوعظها، فإن لم تستجب للوعظ عالجها بـالهجران، فإن لم يؤثر فيها الهجرانُ ولم ترجع عن غيِّها، عالجها بالضرب غير المُبرِّح لعله يفيدها، فإن استقامت وَجَبَ عليه خوْفُ الله فيها، وعدم تذكيرها بما سلفَ منها، وهذا كله إذا كان الزوج راغباً في الزوجة حريصـاً على الإحسان إليها، أما إذا كان كلٌّ واحد من الزوجين يشتكي من سوء معاملة الزوج الآخر له وأنهما في شقاق مُفْسدٍ لذاتِ البين، ولم يتضح مصدرُ هذا الشقاق، فقد أرشـد الله عز وجل هنا منْ يهمه أمرهما من الحكام أو ذوي الحل والعقد من المسلمين، أو أهل الخير العاملين على إصلاح ذات البيْن بيْن الناس أن يبعثـوا حكمًا من أهله وحكماً من أهلها لـدراسـة أحـوالهما، ومحاولـة معرفـة سرِّ نـزاعهما وشقـاقهما، وبـذل الجهـد للإصـلاح بينهما، حيث يقول عـز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما فـابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَـا إنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُـوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ قال ابن جريـر رحمه الله في تفسيره: قال أبـو جعفر: يعني بقـوله جـل ثناؤه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِما﴾ وإن علمتم أيها النـاس ﴿شِقَاقَ بَيْنهما﴾ وذلك مشـاقة كل واحد منهما صاحبـه، وهو إتيانهُ ما يشقُّ عليـه من الأمور، فأما من المرأة فالنشوز وتركُها أداء حقِّ الله عليها الذي ألزمها اللهُ لزوجها، وأما من الزوج،

فَتَرْكُهُ إمسـاكها بـالمعروف أو تسريحهـا بإحسان، والشِّقـاقُ مصدرٌ مـن قولِ القائل: شاقَّ فـلانٌ فلانا، إذا أَتى كلُّ واحدٍ منهما إلى صاحبـه ما يَشُقُّ عليه من الأمور، فهو يُشَاقهُ مشاقةً وشقاقاً، وذلك قد يكون عداوةً اهـ. وقوله عز وجل: ﴿ شِقَاقَ بَيْنِهما﴾ من إضافـة المصدر إلى ظرفه كقـوله عز وجل: ﴿بل مكرُ الليل والنهار﴾ وكقولك: يُعجبني صومُ يوم عرفة. وإضافة المصادر إلى الظروف جـائزةٌ لحصولها فيها والأصل: وإن خفتم شقـاقاً بينهما. وقولـه عز وجل: ﴿فابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَا﴾ أي فاختاروا رجلاً صالحاً عدلاً ثقة ذا خبرة بالحكمِ، ودقائق الأمور يرتضيه الزوج، ورجلاً صالحاً عدلاً ثقة ذا خبرة بالحكم ودقـائق الأمور ترتضيه الزوجة وأرسلوهما لـدراسة مشاكل الزوجين الحاصل بينهما الشقـاق ومحاولة رأب الصـدع وإصلاح ذات بيْنهما، بتخـويفهما من الله عز وجل وبيـان حقـوق الزوج على زوجتـه والزوجـة على زوجهـا، فإن تمكنـا من الإصـلاح بينهما وإزالـة أسبـاب نـزاعهما فهـذا هـو المطلـوب، وإن تبين لهما أن الأمـر بين الـزوجين معضل، وأنـه لا سبيل للإصلاح بينهما وأن كلَّ واحد من هذين الزوجين لا يستطيع أن يقوم بما يجب عليه من حق لـلآخر وأنهما لن يقيما حدود الله التي فرضهـا للزوج على زوجته وللزوجـة على زوجها واتضح للحكمين أن التفـريق بينهما هو السبيـل الأقوم فـرّقا بينهما، والتعبير بقـوله عـز وجل: ﴿حَكَمًا﴾ لإفادة نفـوذ رأيه ووجـوب العمل بقوله عنـد اتفاقه مع الحَكَم الآخر، قال أبـو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكَمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقـول الآخر، وأجمعوا على أن قولهما نـافذ في الجمع وإن لم يـوكلهما الزوجـان اهـ. وقـد روى الدارقطني بسنـد صحيح ثابتٍ من طـريق محمـد بن سيرين عن عَبيـدة في هذه الآيـة: ﴿وَإنْ خِفْتُمْ شِقَـاقَ بَيْنِهما فابْعَثُوا حَكَمًا مِـنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا من أَهْلِهَـا﴾ قال: جاء رجـل وامرأةٌ إلى علي رضي الله عنه مع كـل واحد منهما فِئَامٌ مـن الناس،

فَأَمَرَهُم فَبَعَثُوا حَكَمًا من أهله وحَكَمًا مـن أهلها وقال للحَكَمَيْن : هل تَدْرِيَانِ ما عليكما؟ عليكما إن رأيتُما أَنْ تُفَرِّقَا فَـرَّقْتُما، فقالت المرأة : رضيتُ بكتاب الله بما عَلَيَّ فيه ولِي، وقـال الزوجُ : أما الفُـرْقَةُ فلا، فقـال عليٌّ : كَذَبتَ، واللهِ لا تبرح حتى تُقِرَّ بمثل الـذي أَقرَّتْ به. والتقييد بكـون أحد الحكمين من أهل الزوج والحكم الثاني من أهل الزوجـة لأن أقاربهُما أعرفُ بحالهما من الأجانب وأشَدُّ طلبـاً لإصلاح ذاتِ بَيْنهما، فإن لم يـوجد من أهلهما من يصلح لـذلك جاز بعثُ حَكَمْين من غير أهلهما، وفائدة بعث الحكمين أن يخلو كل واحد منهما بالطَّـرَف الذي يمثلـه، ويستكشفُ حقيقة حـاله، ليعـرف منه سبب المشـاقة، ويستنبط منـه ما يبنى عليـه حكمهُ من بقـاء النكاح أو التفـريق، وقوله عـز وجل : ﴿إِنْ يُرِيدَآ إِصْلاَحًا يُـوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾ هذا إرشادٌ للحكمين بأن يَحْرِصَـا على إصلاح ذات البين، وتحذيـرٌ لهما من أن يكون قصـد الحكَم الانتصار للطرف الذي يمثلـه، بل على كل واحد من الحكمين أن تكون نيته صحيحـةً، وأن يكون قلبـه نـاصحاً خـالصـاً لوجـه الله سـاعياً في الخير مـا استطـاع، دون انحيـاز إلاَّ إلى الحق، وإذا علم الله عــز وجل منهما صِـدْقَ نيَّتهما، وأنهما يريدان الإصلاح ما استطاعـا إليه من سبيل، فإنه تبارك وتعالى يؤيدهما، ويُسَـدِّدُهما، ويوفقهما إلى الرأي السديد، والحكم الرشيـد، وقوله عـز وجل : ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ هـو وعد ووعيـد، وترغيب وتـرهيب لكلٍّ من الحَكَمين والـزوجين، بأن يحْرِصـوا على مـا يُرْضِي الله، ويجتنبـوا مـا يغضبه عز وجل، لأنه لا تخفى عليه خـافية، وقوله عز وجل : ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِـهِ شَيْئًا﴾ إلى آخـر الآية، استئنـافٌ لبيان حق الله عـز وجل على عباده وحقـوق الوالدين والأقـارب واليتامى والمسـاكين والجيران والأصحاب وأبنـاء السبيل ومـا جعله الله عـز وجل تحت يـد الإنسان مـن حيوانـات أو خَدَم، بعد بيـان الأحكام المتعلقة بحقوق الزوجين، وقد صَـدَّرَ هذه الحقوق

ببيـان حق الله عـز وجل على عبـاده ؛ لأن حق الله تبـارك وتعـالى هـو أَعْظَمُ الحقوق وآكَدُهَا ، وأَهمُّهَـا ، إذ جميع الأعمال الصالحةِ لا تُقبلُ إلا ممن أَدَّى هذا الحقَّ لله عز وجل ، ومعنى قوله عز وجل : ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي ابذلـوا أقصى الحُبّ وغـاية الـذُّلّ والخشوع والقنـوتِ والإخبات والخوف والرهبة والرغبة والطاعة لله وحـده ، ولا تجعلوا لله أندادا ، ولا تَبْذلوا شيئاً من العبادة لغيره فإنـه لا يقبل من العمل إلا ما كان خـالصاً لوجهـه الكريم على منهج رسوله العظيم ﷺ ، أما الحقُ الثاني من هـذه الحقوق فهو حقُّ الوالدين بِرِّهما ولينِ الجانب لهما والإحســان إليهما وفي هـذا الحق يقــول عــز وجل : ﴿وبالوالدين إحسانا﴾ أي وأَحْسِنوا بالوالدين إحسانا يقال : أحسنتُ بفلان وأحسنتُ إلى فلان كما قال كثيرِّ عزة :

أَسِيئي بنا أو أَحْسِني لا ملومةً لَدَيْنَا ولا مَقْلِيَّةً إن تقلت

وقد قَرَنَ الله عز وجل حقَّ الوالدين بحقه تبارك وتعالى في مواضع من كتابه الكـريم تنبيهاً على وجـوب بِـرِّهما وتعظيم حقهما حيث قـال عز وجل هنـا : ﴿واعبدوا الله ولا تُشْرِكـوا به شيئا وبالـوالدين إحسانا﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وإذْ أَخَذْنا ميثاقَ بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبـالوالدين إحسانا﴾ وكما قال عـز وجل : ﴿وقضى ربك أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إيـاهُ وبالوالـدين إحسانـا ، إما يَبْلُغَنَّ عِنْـدَكَ الكبَرَ أحَدُهُما أو كِـلاَهُما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهـرهما وقل لهما قولا كـريما . واخْفِضْ لهما جَنَاحَ الـذُّلِّ من الرحمة وقُـلْ ربِّ ارْحَمْهُمَا كما ربَّيَاني صغيرا﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أن اشْكُرْ لي وَلِـوَالِدَيْكَ إليَّ المصير﴾ وأما الحقُّ الثالث فهو حقُّ الأقـارِبِ والأرحام وجعله عز وجل بعد مرتبـة حق الوالدين حيث قال عز وجل : ﴿وبذي القُرْبَـى﴾ لأن القرابة إنما تكون في الغالب من جهة أحد الأبوين وبالتبعية لهما ، وأما الحقُّ الرابع والخامسُ فهو حَقُّ اليتامى والمسـاكين حيث يقـول عـز وجل : ﴿واليتامـى والمساكين﴾ أي واستـوصـوا

باليتامى والمساكين وأَحْسِنوا إليهــم وتعطفوا عليهم، وأما الحقُّ السادسِ فهو حقُّ الجار ذي القربى حيث يقول عز وجل: ﴿والجارِ ذي القربى﴾ أي الجار الجامعِ بين الجوار في الـدار والقرابة في النسب، وأمـا الحقُّ السابعُ فهـو حقُّ الجار الذي لا يَرْبطُكَ به نَسَبٌ حيث يقول عز وجل: ﴿والجارِ الجُنُب﴾ أي والجار البعيد الـذي لا قرابـة بينك وبينه، وقـد أكَّد رسـولُ الله ﷺ على حق الجار تأكيداً شديداً فقد روى البخـاري ومسلم من حديث عائشة وابن عمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: مـازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُوَرِّثُهُ. كما روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قـال: والله لا يؤمنُ، واللهِ لا يـؤمن، واللهِ لا يؤمنُ، قيل: مَنْ يارسـولَ الله؟ قال: الذي لا يَأْمَنُ جـارُهُ بوائقه. والمراد بالبـوائق الغوائلُ والشرور. وفي روايـة لمسلم: لا يدخل الجنـةَ مَنْ لا يأمَنُ جـارُه بوائقَـهُ. وفي رواية للبخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال: من كان يـؤمنُ بـالله واليوم الآخـر فـلا يؤذ جـارَهُ» الحديث. كما روى مسلم من حـديث أبي شُريح الخُزَاعيِّ رضي الله عنـه أن النبي ﷺ قـال: من كان يؤمـن بالله واليوم الآخر فَلْيحسِنْ إلى جاره. الحديـث. وأرشد رسول الله ﷺ أن الجار الأقرب باباً أحقُّ بالإكرام فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قـالت: قلتُ: يارسـول الله إن لي جارين، فـإلى أيِّهما أُهدِي؟ قال: إلى أقربهما منكِ باباً. أما الحقُّ الثامنُ فهو حقُّ الصاحب بالجَنْبِ والمراد بالصاحب بالجنب هو من الْتَـأَمَتْ بينك وبينه صحبةٌ وصار بجنبك في سفر أو حضر أو رافقك في تجارة أو طلب علـم أو أي عمل من الأعمال قـال ابن جريـر: حدثني المثنى قال حدثنـا سُويدُ بن نصر قال أخبرنـا ابن المبارك عن حيوة قـال حدثني شرحبيل بن شريك عن عبـد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قــال: إن خير الأصحــاب عنـد الله تبــارك وتعـالى خَيْرُهُم

لصاحبـه، وخَيْرَ الجيرانِ خَيْرُهُم لجاره اهـ. وقد أخـرجه الترمـذي من طريق ابن المبـارك وهذا الحديث صحيح الإسنـاد. أمـا الحقُّ التاسع فهـو حقُّ ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن المال، ولو كان غنياً في بلده والسبيل الطريق وسمي المسافر ابن سبيل لملازمته الطـريق. أما الحق العاشر من هذه الحقوق التي تضمنتها هـذه الآية الكريمةُ فهـو ما خوَّلَكَ الله عـز وجل وجعله تحت تصرفك وسُلْطتك من حيوان أو إنسان، وقد روى مسلم من حديث عبد الله ابن عمـرو رضي الله عنهما أن رسـول الله ﷺ قـال: كفى بـالمرءِ إثماً أن يحبس عمن يملك قُـوتَهُم. كما روى أحمد والنسـائي وابن ماجـه من حـديث أنس رضي الله عنـه أن رسـول الله ﷺ جعل يُـوصي أمتـه في مـرض الموت يقـول: الصـلاةَ الصـلاة ومـا ملكت أَيْمَانُكُمْ، فجعل يُـردِّدُهَـا حتى مـا يفيض بها لسـانه. قـال في الـزوائد: إسنـاده صحيح على شرط الشيخين. وقـوله عـز وجل: ﴿إن الله لا يحب من كـان مختـالا فخـورا﴾ أي إن الله يبغض المتكبر المُعْجَبَ بنفسه المفتخـر المتطاول على خلقه المتبـاهي بمنصبه وحَسَبِـه ونسبه على من دونه من عباد الله، وقد روى مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: إن الله تعـالى أَوْحَى إليَّ أن تَواضعُـوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد ولا يفخر أحدٌ على أحد.

قال تعالى: ﴿الَّـذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ويَكْتُمُـونَ ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَعْتَدْنَـا لِلكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا. والَّـذِينَ يُنْفِقُون أَمْوَالَهُم رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُون بِـاللهِ وَلاَ بِالْيَوم الآخِرِ، وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَـهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا. وَمَـاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾

بعد أن أرشـد الله تبارك وتعـالى في الآية السـابقة إلى قـواعد البرِّ، وأصـول مكـارم الأخـلاق، ومحاسن الصفـات، وأُسُس التكـافل الاجتماعي، ونَـدَّدَ بِـذَوي الكبر والعُجبِ والخُيـلاء المتعالين على خلـق الله، الذين لا يقـومـون بحق الله عـز وجل أو بحقوق خلقـه عليهم، الـذي يأنفون من أقـاربهم إذا كانوا فقراء، ومن جيرانهم إذا كانوا ضعفاء، أتبع ذلك هنا بالتنديد بالبُخلاء المنَّاعين للخير الحريصين على الشح حتى بالكلمة النـافعة، كما ندَّد بالمرائين الكافرين بالله واليوم الآخر حيث يقـول عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِـالْبُخْلِ ويَكْتُمُونَ مـا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِـه﴾ قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعـالى ذامًّا الذين يبخلون بأمـوالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله بـه من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنب والصاحـب بالجنب وابن السبيل وما ملكـت أيمانهم من الأرقاء، ولا يدفعـون حقَّ الله فيها، ويأمـرون الناس بالبخل أيضـا، وقد قـال رسول الله ﷺ: وأيُّ داءٍ أَدْوَأُ من البخل؟ وقـال: إيـاكم والشـحَّ فإنـه أهلك مَنْ كـان قبلكم، أمرهم بالقطيعـة فَقَطَعُوا، وأَمَرَهم بالفجـور فَفَجروا. اهـ، والبُخل داء يصيب الإنسـانَ يمنعه من البـذل والجود والكرم والعطـاء، ويحمله على الشح وشـدة الحرص على عـدم الإنفـاق ممـا يملك، وأسـوأُ البخل الشحُّ بالكلمة الطيبة وعدم نفع الناس ولـو بإرشادهم إلى الطريق السَّويِّ. ولذلك

أشـار الله عز وجل إلى أنـه لا يفلح إلا مَنْ سلم من الشُّحِّ، حيث يقول عـز وجل في وصف الأنصار رضي الله عنهم الباذلين مـا في أيديهم، المصونين من الشح: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ، ومَنْ يُوقَ شحَّ نفسِهِ فأولَئك هم المفلحـون﴾ وقال عـز وجل في نصيحـة عباده: ﴿فـاتقوا الله مـا استطعتم واسمعـوا وأطيعـوا وأنفقـوا خيرا لأنفسكم، ومَنْ يُـوقَ شُحَّ نَفْسِـهِ فأولَئك هم المفلحـون﴾ كما أشار رسـول الله ﷺ إلى أن الشح يَحْمِلُ صَاحِبَـهُ على ارتكـاب كل شر واجتنـاب كل خير فقـد روى مسلم في صحيحـه من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قـال: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يـوم القيـامـة، واتقـو الشُّحَّ فإن الشُّحَّ أهلك من كـان قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ على أن سَفَكُـوا دمـاءَهُمْ، واسْتَحَلُّـوا محارِمَهُمْ. كما روى البخاري في صحيحه من حديث جـابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: لو قد جاء مَالُ البحرين لقد أعطيتكَ هكذا وهكذا ثلاثاً، فلم يَقْدَمْ مَالُ البَحْرَيْنِ حتى قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، فلما قَدِمَ على أبي بكرٍ أَمَرَ مناديًا، فنادَى: مَنْ كان له عنـد النبي ﷺ دين أو عِدَةٌ فَلْيَأْتِنِي، قال جابر: فجئتُ أبا بكـرِ فَأَخْبَرْتُـهُ أنَّ النبي ﷺ قال: لـو جاء مالُ البحـرين أَعْطَيْتُكَ هكذا وهكذا ثـلاثا، قال: فأعطاني، قـال جابر: فَلَقِيتُ أبا بكـر بعد ذلك فَسَـأَلْتُـهُ فلم يُعْطِنِي، ثم أَتَيْتُـهُ فلم يُعْطِنِي، ثم أتيتـه الثـالثـة فلم يُعطني، فقلت لـه: قـد أتيتـك فلم تعطني، ثم أتيتكَ فلم تعطنـي، ثم أتيتك فلم تعطني، فإمَّـا أنْ تُعْطِيَني وإما أن تَبْخَلَ عَنيِّ، فقـال: أَقُلْتَ: تَبْخَلُ عني؟ وأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ من البُخْلِ؟ قـالها ثلاثـا، مـا مَنَعْتُكَ من مَـرَّةٍ إلا وأنا أُرِيـدُ أَنْ أُعْطِيَكَ اهـ. ومـع أن البُخلَ هو أدوأ الأدواء وعلة العلل، فـإن الله عز وجل أشار هنا إلى أن بعض الناس لا يكتفي من الشر بكونه بخيلاً، بل يدعو غيره إلى البخل ويحض عليـه، وأن بَعْضهم يَـزْداد شرُّهُ وبخلـهُ فـلا يقتصرُ على

البخل بالمال بل يبخلُ بـالكلمة الطيبة، ويكتم ما يعـرفه من الخير أو العلم النـافع عن عبـاد الله حتى لا يستفيـدوا منـه، وقد جمع الله هـذه الأوصـاف الثلاثـة المذمومـة البالغة أقصى درجـات الحقد على الإنسـانية وبُغضِ الخير لها، المنـاقضة لما اقتضتـه الآية السـابقة من وجـوب الإحسان والبـذل والجود والكـرم والوفـاءِ لكلِ ذي حقٍّ بحقـه حيث يقـول عز وجـل هنا: ﴿الَّـذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَـأْمُرُونَ النَّـاسَ بِالْبُخْلِ ويَكْتُمُونَ مـا آتَاهُـمُ اللهُ مِنْ فَضْلِـه﴾ وهذه الخصال الكريهة الممقوتـة هي أخصُّ صفات اليهود قبحهم الله، وإن كانت قد توجد في غيرهم، وهذا المقامُ في هـذه السورة شبيهٌ بما ذكره الله عز وجل في سورة الحديد حيث يقول عز وجل: ﴿واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ويأمرون الناس بالبخل، وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هو الْغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ وقوله عز وجل: ﴿وأعتدنـا للكافرين عذابا مُهِينًا﴾ قال ابـن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿وأعتدنا﴾ وجعلنا للجاحدين نعمة الله التي أنْعَمَ بها عليهم من المعرفة بنبوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد عِلْمِهِمْ به، الكاتمينَ نَعته وصِفَتَهُ مَنْ أَمَرَهُم الله ببَيَانِه له من الناس ﴿عذابا مُهِينًا﴾ يعني العقاب المُذِلَّ مَنْ عُـذِّب بِخُلُودِهِ فيه، عَتَـادًا له في آخرته، إذا قَـدِمَ على ربه وَجَدَهُ، بما سَلَفَ منه من جُحُودِهِ فرضَ اللهِ الذي فَـرَضَهُ عليه اهـ. وقوله عز وجل: ﴿والَّـذِينَ يُنْفِقُون أَمْـوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّـاسِ وَلاَ يُؤْمِنُـون بِـاللهِ وَلاَ بِالْيَـومِ الْآخِرِ﴾ هـذا هو القسم الثـالث من المنحرفين عن منهـج الرشد وهم الـذين ينفقـون أموالهم رئاء النـاس ولا يؤمنـون بالله ولا بـاليوم الآخـر، إذ أنه تبـارك وتعالى لما ذكر أهل البرِّ والإحسـان السالكين منهج الرشد ذكر ثـلاثة أصناف من أضـدادهم، فالصنف الأول هـو كل مختـال فخور، والصنف الثـاني هم البخـلاء الذين يأمـرون الناس بـالبخل ويكتمون مـا آتاهم الله من فضلـه، والصنف الثالث هم من ينفقون أموالهم لا لـوجه الله عز وجل ولكن ينفقونها

رئاءَ النـاس ولا يؤمنـون بـالله ولا باليـوم الآخـر. وقد أخبر رسـول الله ﷺ أن الذين ينفقون أموالهمَ رئاءَ الناس طلبـاً للسمعة والجاه لا رغبةً فيها عند الله عز وجل ولا ابتغاء وجهـه يكونـون في أول من تُسْجَرُ بهم نـارُ جهنم يوم القيـامة فقـد روى مسلم في صحيحـه من حـديث أبي هـريـرة رضي الله عنـه قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: إن أوّل النـاسِ يُقْضَى يوم القيـامة عليـه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأتِيَ به، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها. قال: قاتَلْتُ فيك حتى اسْتُشهِدْتُ، قـال كَذَبْتَ، ولكنَّكَ قـاتلتَ لأنْ يقالَ جـرِيءٌ فقد قيلَ، ثم أُمِـرَ به فَسُحِبَ على وجهـه حتى أُلْقِيَ في النـار، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العلمَ وعَلَّمَهُ، وقرأَ القرآنَ، فَأُتِيَ به، فَعَرَّفَـهُ نِعَمَهُ، فَعرَفَهَا، قال: فما عَمِلْتَ فيها، قال: تعلَّمتُ العلمَ، وعلَّمتُه، وقرأتُ فيـكَ القرآن، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ تعلَّمتَ العلمَ ليُقَالَ عالمٌ وقرأت القرآن لِيُقالَ هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهـه حتى أُلْقِيَ في النار، ورجـلٌ وَسَّعَ الله عليه، وأعطـاه من أصناف المال كُلِّـه، فأُتِيَ بـه، فَعَرَّفَـهُ نعَمَهُ فَعـرَفَها، قـال: فما عَمِلْتَ فيها، قـال: مـا تـركتُ من سبيل تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فيهـا إلا أَنفقتُ فيهـا لَكَ، قـال: كَذَبْتَ، ولكنكَ فَعَلْتَ ليقالَ: هو جَـوَادٌ، فقد قيلَ، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه ثم أُلْقِيَ في النار. وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ بيـان للسبب الذي نشأت عنه هذه الخصالُ المذمومـة التي ذكرها الله عـز وجل بقولـه: ﴿إن الله لا يُحِبُّ من كـان مختالا فخـورا. الذين يبخلـون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهـم الله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذابـا مهينا. والذين ينفقـون أموالهم رئاءَ الناس ولا يـؤمنون بالله ولا بـاليوم الآخر﴾ وأنهم صـاروا إلى هذه الأوصاف الخبيثة بسبب مصـاحبتهم للشيطان والانقياد له والاقتران به ومُخالطته وملازمته، وقد قضى الله عز وجل وكتب أن مَنْ صار وليًّـا للشيطان وقرينـاً له فإنـه لا يهتدي إلى الخير، ولا يسلك سبيل

الرشـاد، وأن الشيطان يضلـه ويهديه إلى عـذاب السعير كما قال عـز وجل: ﴿ومن يَعْشُ عن ذكـر الـرحمن نُقَيِّـضْ لـه شيطـانـا فهـو لـه قـرينٌ. وإنهم لَيَصُدُّونَهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جـاءنا قال: ياليت بيني وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرين﴾ وكما قـال عز وجل: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتَّبعُ كلَّ شيطان مـريد. كُتِبَ عليه أنـه مَنْ تَوَلَّاه فأنه يُضِلُّه ويَهْدِيه إلى عذاب السعير﴾ ومعنى: ﴿وَمَنْ يكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي ومن يكن الشيطان صـاحبه وخليله فبئس الصاحبُ وبئس الخليل الشيطـان، ولاشك أن مصاحبـة الشرِّير لا تأتي بخير، وأن الإنسـان على دين خليلـه، وقـد حَـذَّرَ رسـولُ الله ﷺ من جلسـاء السـوء فقـد روى البخاري ومسلم من حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السُّـوءِ كحامل المسك ونافخ الكير، فحـاملُ المسك إمَّـا أن يُحْذِيَكَ، وإما أن تبتـاعَ منـه، وإما أن تَجِدَ منـه ريحاً طيبـةً، ونافـخُ الكير إما أن يُحْرِق ثيـابَك وإمـا أن تَجِدَ منـه رِيحاً مُنْتِنَةً. ومـا أحسَنَ قول عديٍّ بن زيد:

عن المرءِ لا تَسْأَلْ وأَبْصِرْ قَرينَهُ ... فإنَّ القَرينَ بالمُقَارِنِ مُقْتَدِ

وقوله تبارك وتعـالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ، وَكـان اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي وأيُّ ضرر يُصيبهم لـو تـركـوا طـاعـة الشيطان واستجابـوا للرحمن وصَدَّقُوا بـالله الواحد الأحد الفـرد الصمد الذي نصب لعباده أدلة ألوهيته وربوبيته في كل شيء في السموات والأرض كما قال الشاعر:

فياعجبا كيف يُعْصَى الإلـه ... أم كيف يجحده الجاحـد

وفي كـل شـيء له آيــةٌ ... تَـدُلُّ على أنه الواحــد

ومـاذا يضرهم لو آمنـوا بأنهم مبعـوثون بعـد الموت ومجْزِيُّون بأعمالهم وقـد

قامت البراهين على أن الذي خلقهم أول مرة من العدم المحض لن يعجز عن إعادتهم بعد الموت ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وماذا يضرهم لو بذلوا شيئاً يسيراً مما خولهم الله عز وجل من المال في الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانهم علماً بأن كل ما يُبْذَلُ في أبواب الخير يخلفه الله عز وجل العليم بنوايا خلقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُهُ وهو خير الرازقين﴾ ولا خلاف عند عقلاء البشر أن الإحسان إلى الخلق خيرٌ من الإساءة إليهم، وأن نفع الناس ليس كإلحاق الأذى بهم، ولا ينازع في ذلك إلا الشيطان وقرناؤه، والله الهادي إلى سواء السبيل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا.﴾

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له وبالإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجَنْب وابن السبيل وما تحت يد الإنسان من حيوان أو إنسان ثم أعقب ذلك بذم المختال الفخور والبخلاء ومن يأمر الناس بالبخل، ومن يكتم ما أتاه الله من فضله، والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وبيَّن أن هؤلاء المذمومين هم قرناءُ الشياطين ثم حضَّ على الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزق الله عز وجل ووبَّخ من لم يؤمن ولم ينفق في طاعة الله أعلن عز وجل هنا أنه تبارك وتعالى هو الحكم العدلُ ذو الإحسان والجود والفضل حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وهذا بيانٌ لكمال عدله، وقوله عز وجل: ﴿وإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ويُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا.﴾ وهذا بيان لواسع جوده وفضله. فمن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها، ومن جاء بالحسنة فله عشرُ أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فهو عز وجل لا يبخس مثقال ذرة من أعمال المؤمنين، ولا يحمِّلُ مُسيئاً أكثر من إساءته كما قال عز وجل: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفسٌ شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين﴾ وكما قال عز وجل عن العبد الصالح لقمان أنه قال: ﴿يابُنَيَّ إنها إن تَكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض

يأتِ بها الله ، إن الله لطيف خبير﴾ وكما قال عز وجل : ﴿يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتا لِيُرَوْا أعمالَهم . فمن يَعْمَلْ مثقـالَ ذَرَّةٍ خيرا يَرَه . ومَنْ يعمل مثقالَ ذرة شرا يَرَهُ . ﴾ والمقصود من نفي الظلم عن ذاته المقدسة هو إثباتُ كمال عدله ، ومعنى ﴿مثقــالَ ذرة﴾ أي وزن ذرة وتطلق على أصغــر النمل كما تطلق على الجزء الذي لا يقبل الانقســام ، كما تطلق على الواحـدة من الهَبَاءِ الظـاهرِ في ضوء الشمس النافذ من ثُقبٍ في حجـرة مظلمة . وقال في القاموس المحيط : الذَّرُّ صغـار النمل ومائةٌ منها زِنَـةُ حبة شعير، الواحدة ذرة اهــ . وقد ضرب الله عز وجل مثلاً بـالذرة وبحبة الخردل لأنهما أصغر وأَدَقُّ مـا يُوزَنُ فلا شيء أصغرُ من الذرة أو حبة الخردل ، وأصل : ﴿تَكُ﴾ تكُنْ قال الزجاج : الأصل في تك تكون فسقطت الضمـة للجزم ، والواو لسكونها وسكـون النون ، وأما سقوط النـون فلكثرة الاستعمال تشبيهـاً بحروف اللين لأنها سـاكنة فَحُـذِفَتْ استخفافا اهـ . وقـوله : استخفافا أي طلبا للتخفيف . وقد تَضَمَّـنَ قوله عز وجل : ﴿وإن تك حسنةً يضـاعفها﴾ أنَّ مـا يفعله الإنسان من شر لـو كان وزن ذرة فإنه لا يجازيـه إلا به ، وأن ما يفعلـه الإنسان من خير ولـو كان وزن ذرة فإن الله عز وجل يضـاعفه له من فضلـه وجوده وإحسانـه وأنه لا يضيعُ عند الله شيءٌ مهما كان . وقوله عز وجل : ﴿ويؤت من لدنه أجرا عظيما﴾ أي ويعط من عنده الأجـر العظيم وهو الجنـة ، وقد روى البخـاري في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن عطـاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطـويل ، أن الله تعالى يقول للشافعين : اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرة من إيمان فأخرجوه ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفوا . قال أبو سعيـد : فإن لم تُصَـدِّقُوني فـاقـرءوا : ﴿إنَّ اللهَ لا يَظْـلِمُ مثقـالَ ذرة وإنْ تَكُ حَسَنَةً يضـاعِفْهَا﴾ وقـد أخرج مسلم هـذا الحديث أيضاً من طريـق زيد بن أَسْلَمَ عن عطـاء بن يسار عن أبي سعيـد الخُدريِّ : وفيه : ثم يقـول : ارْجِعُوا

فمن وجدتم في قلبه مثقالَ ذرة من خير فأخرجُوه، فيُخرجون خلقاً كثيرا ثم يقولون: ربنا لم نَذَرْ فيها خيرا، وكان أبو سعيد الخدريُّ يقول: إن لم تُصَدِّقُوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم: ﴿إنَّ الله لا يظلم مثقالَ ذرة وإن تكُ حَسَنَةً يضاعِفْهَا ويؤْتِ من لدنه أجرا عظيما﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ بعد أن ذكر عز وجل أنه لا يظلم الناس يوم مجازاتهم بأعمالهم، وأشار إلى أن من جاء بالسيئة ولو كانت مثقال ذرة لا يُجزى إلا بمثلها، ومن جاء بالحسنة ولو كانت مثقال ذرة ضاعف الله عز وجل مثُوبتهُ عليها، وأنه عز وجل يعطي الجنة التي عرضُها السموات والأرض والتي ذكر رسول الله ﷺ أن مقدار قوس فيها خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَقَابُ قَوْسٍ في الجنة خيرٌ مما تَطْلُعُ عليه الشمسُ أو تغرب، ذكر عز وجل هنا مَشْهَداً من مشاهد القيامة حيث يشهدُ كلُّ رسول على أمته، ويشهد محمد ﷺ للأنبياء بالتبليغ وعلى الأمم المكذِّبَةِ بالتكذيب، وفي هذا ترهيب للمكذبين وترغيب للمستجيبين لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام. وكما قال عز وجل: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وَسَطًا لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ وقد روى البخاري من حديث أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: يُدْعَى نوحٌ يومَ القيامة، فيقول: لبَّيْك وسَعْدَيْكَ ياربِّ. فيقولُ: هل بَلَّغْتَ؟ فيقولُ: نَعَمْ، فيقالُ لأمته: هل بَلَّغكُمْ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقولُ: مَنْ يَشْهَدُ لك؟ فيقولُ: محمدٌ وأُمَّتُهُ، فَيَشْهَدُونَ أنه قد بَلَّغَ، ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا، فذلك قوله جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسَطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيدا﴾ والوَسَطُ: العدل اهـ. وكما قال عز وجل: ﴿ويوم نَبْعَثُ في كل أمة

شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وأشرقت الأرضُ بنُورِ ربِّها وَوُضِعَ الكتابُ وَجِيءَ بالنبيين والشهداء﴾ وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبيُّ ﷺ: اقْرأْ عَلَيَّ، قلتُ: أَقْرأُ عليك وعليك أُنْزِلَ؟ قال: فإني أُحِبُّ أنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غيري، فقرأتُ عليه سورةَ النساءِ حتى بَلَغْتُ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ قال: أَمْسِكْ، فإذا عَيْنَاهُ تَذْرِفانِ. وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: اقرأْ عَلَيَّ القرآن، قال: فقلت: يارسول الله أقرأُ عليك وعليك أُنْزِلَ؟ قال: إني أشتهي أن أسمعه من غيري، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ رفعتُ رأسي أو غَمَزَنِي رجلٌ إلى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رأسي فرأيتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ. وفي لفظ للبخاري من حديث عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اقرأ عليَّ، قال: قُلْتُ: أقرأ عليكَ وعليك أُنْزِلَ؟ قال: إني أشتهي أن أَسْمَعَهُ من غيري، قال: فقرأتُ النساءَ حتى إذا بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا.﴾ قال لي: كُفَّ أو أَمْسِكْ؛ فرأيت عينيه تَذْرِفَانِ. اهـ وبكاءُ رسول الله ﷺ عند سماع هذه الآية يُشْعِر بما تضمنته هذه الآية الكريمة من هول المطلع، وشدة الأمر، وعظيم نعمة الله عز وجل على رسوله وحبيبه محمد ﷺ حيث ينصبهُ الله عز وجل شهيداً في الموقف العظيم، ويرفعه على جميع النبيين والمرسلين، وهذه درجةٌ من الدرجات العالية التي اختص الله بها نبيه محمدا ﷺ، المشار إليها بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات﴾ والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية للتوبيخ والتحذير من هول ما يلقاه يوم القيامة كلُّ مختال فخور، يبخل بماله ويأمر

الناس بـالبخل ويكتم ما آتـاه الله من فضله، والـذين ينفقون أمـوالهم رئاءَ الناس ولا يـؤمنون بـالله ولا باليـوم الآخر قـرناءُ الشيـاطين: أي فكيف حالُ هؤلاء يوم القيامة الذي يجعل الولدان شيبا، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وقوله عـز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَـوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَـوَّى بِهِم الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَـدِيثًا.﴾ بيـانٌ لما يصيب الكافـرين المكذبين لله ورسوله ﷺ من الهول والفزع الأكبر، وتفسير للحال المسئول عنها بقولـه: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمـة بشهيد وجئنا بك على هـٰؤلاء شهيدا﴾ كأنه قيل: فكيـف حال هؤلاء يـوم القيامة؟ فكـان الجواب: يكونـون بحال مُحزنةٍ مُفجعـةٍ يودُّون ويتمنـون لو تسـوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حـديثا وليس العطف في قوله عـز وجل: ﴿الذين كفروا وعَصَوُا الرسـول﴾ للمغايرة بل هـو مـن عطف الخاص على العـام لمزيـة في الخاص إذ أن المقصـود من معصيتهم الـرسول هنـا هو تكذيبهـم له، وجحودهـم رسالتـه، وكتمانهم ما عرفوه من صفاته التي وصفت لأمم الأنبياء السابقين حتى صاروا يعرفونه كما يعرفـون أبناءهم، فلما جاءهم مـا عرفوا كفـروا به فلعنة الله على الكـافرين، وفائدة ذكر معصية الرسول بعد قوله: كفروا لشدة تفجيعهم بأنَّ هذا الرسول العظيم ﷺ سيشهـد عليهم يوم الحسرة والنـدامة والفزع الأكبر بـأنهم عَصَوه وكذَّبُوه، فأفاد عطفُ الخاص على العام هنا التنـديد والتحذيرَ لعلهم يتوبون ويذَّكَّـرون ويرجعون عن غيهم وضـلالهم قبل فوات الفـرصة عليهم، ومعنى قوله عز وجل: ﴿لـو تُسَوَّى بهم الأرضُ﴾ أي يصيرون ترابا كما تصير البهائم على حد قوله عز وجل: ﴿يوم ينظر المرءُ ما قدمت يداه ويقولُ الكافرُ ياليتني كنتُ ترابا﴾ فهم لشدة ما يصيبهم من الخوف والخزى والهلع يتمنون أن تنشق الأرض بهم وتبتلعهم، وقولـه عز وجل: ﴿ولا يكتمون الله حـديثا﴾ أي إنهم يوم القيـامة يعترفون بجـرائمهم ولا يكتمون من الله شيئاً ويقـرُّون بأن الله عز

وجل لم يظلمهم مثقال ذرة، وبخاصةٍ بعد أن يحلفوا بالله أنهم ما كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم وتتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يعملون وأنهم كانوا مشركين، كما قال عز وجل: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجُلُهم بما كانوا يكسبون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ويوم يُحشر أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزَعُون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كلَّ شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرْجَعُون. وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولٰكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذٰلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا.﴾

بعد أن وصَّى الله عز وجل بمجامع الخير وأصول البر والإحسان في قوله عز وجل: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا﴾ إلى قوله ﴿وما ملكت أَيْمَانُكُمْ﴾ ثم حذَّر من قبائح الصفات ومجامع السوءِ في قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يحب من كان مختالا فخورا﴾ إلى قوله: ﴿ومَنْ يكن الشيطان له قرينا فَسَاءَ قرينا﴾ ثم حض على الإيمان بالله واليوم الآخر وبيَّن أنه عز وجل سيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة وأنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما، وحذَّر المكذبين لرسول الله ﷺ من موقف الحسرة والندامة حين ينصِبُ الله محمدا ﷺ شاهدا عليهم يوم القيامة، وأنهم يتمنَّون يومئذ أن تُسَوَّى بهم الأرض، شرع هنا يُوصي بالصلاة وصِيَانتها، لأنها رأس العبادات بعد توحيد الله عز وجل وأهم أمور الإسلام، وأول ما يحاسب به العبدُ يوم القيامة. وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ هذا هو الطورُ الثالث من أطوار تحريم الخمر حيث كان الطور الأول هو التنديد بشربها حيث يقول عز وجل في سورة النحل وهي مكية: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَرًا ورزقًا حَسَنًا﴾ وكان الطور الثاني من أطوار تحريم الخمر هو قوله عز وجل: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قُلْ فيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ومَنَافِعُ للناس وَإِثمهما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أما الطور الرابع والأخير فهو قوله عز وجل: ﴿يا

أيها الـذين آمنـوا إنما الخمـر والميسر والأنصـابُ والأزلام رجسٌ من عمل الشيطـان فـاجتنبـوه لعلكم تفلحون . إنما يـريـد الشيطـان أن يُـوقِعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ويَصُـدَّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾ ومعنى قولـه عز وجل : ﴿يَا أيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْـرَبُوا الصَّلاَةَ وأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ أي يامعشر من استجاب لله ولرسوله محمد ﷺ لا تشربوا الخمر في أوقات الصلاة ومواضعها أي المساجد لتتمكنوا من أداء الصلاة وأنتم في حـال صحوٍ تام وتمييزٍ لكل ما تتلفَّظـون به وعلم بما تقولونه وما تتلونه من كتاب الله ، ولاشك أن هذا خطوةٌ ذات أثرٍ بالغ في المنع من شرب الخمـر وتدريبٌ للمدمنين على تـركها ، لأن من تمكن مـن السيطرة على هواه فترك الخمر في أوقـات الصلاة استطاع بهذا التدرُّج أن يصـون نفسه منها في جميع الأوقات ، ولذلك عندما نزل قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿إنما الخمـر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطـان فاجتنبـوه لعلكم تفلحـون . إنما يريـد الشيطـان أن يُوقِـع بينكم العداوة والبغضـاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصـلاة فهل أنتم منتهون﴾ قالوا : انتهينـا ، انتهينا يـارب . وهذا الطـريق الذي سلكـه القرآن العظيم في حمايـة الناس مـن شرور الخمر هو الأسلـوب الأمثل في تـربية النفس الإنسـانية على سلوك السبيل السـويِّ وحمايتها من سائر الأوضـار، ومعنى قولـه عز وجل : ﴿وَلاَ جُنبًا إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ أي ولا تقربوا الصلاة ومواضعها وهي المساجد حالة كونكم جُنُبـاً إلا مجتازين فيها حتى تغتسلوا من الجنابة ، والجُنُب المحتلم أو المقارف أهله ، ويطلق على الـواحد والمثنى والجماعة وعلى الـذكر والأنثى ، وقـد روى أبو داود بسنـد صححه ابن خـزيمة من حـديث عـائشة رضي الله عنهـا قالت : جـاء رسـول الله ﷺ وَوُجُوهُ بيـوتِ أصحابـه شارعةٌ في المسجـد فقال : وَجِّهُوا هذه البيـوتَ عن المسجد . ثم دخل رسول

الله ﷺ ولم يصنع القومُ شيئا رَجَاءَ أن يَنْزِلَ فيهم رخصةٌ، فخرج إليهم فقال: وَجِّهُوا هذه البيوت عن المسجد فإني لا أُحِلُّ المسجدَ لحائض ولا جنب.
وهذا الحديث من رواية أَفْلَت بن خليفة عن جسرة عن عائشة، وأفلتُ وَثَّقَهُ ابن حبان وقال أبو حاتم: هو شيخ، وقال أحمد بن حنبل: لا بأس به، وروى عنه سفيانُ الثوري وعبد الواحد بنُ زياد، وقال في الكاشف: صدوق، وقال في البدر المنير: بل هو مشهورٌ ثقةٌ، وقال العجلي في جَسْرَةَ: تابعية ثقة، وذكرها ابن حبان في الثقات. وقال الحافظ ابن حجر: وأما قولُ ابن الرفعة في أواخر شروط الصلاة: إنَّ أفلتَ متروك فمردودٌ لأنه لم يقله أحد من أئمة الحديث. وأما ما رواه سعيدُ بنُ منصور في سننه قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار قال رأيت رجالاً من أصحاب النبي ﷺ يجلسون في المسجد وهم مُجْنِبُونَ إذا توضأوا وضُوءَ الصلاة، وكذلك ما رواه حنبل بن إسحاق صاحبُ أحمدَ قال: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال: كان أصحابُ رسول الله ﷺ يتحدثون في المسجد وهم على غير وضوء، وكان الرجل يكون جنبا فيتوضأ ثم يدخل المسجدَ فيتحدث. ففي كلا الإسنادين هشام بن سعد وهو وإن كان من رجال مسلم، إلا أن البخاري أو مسلماً قد يخرج للرجل حديثا في موضع ولا يخرج حديثه في موضع آخر لعلة، ولعل من علته ثبوت حديث منع الحائض والجنب من المساجد وكراهية التحدث بغير ذكر الله وقراءة القرآن في المسجد وقول رسول الله ﷺ للحائض« غير ألا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي» في حديث عائشة المخرج في الصحيحين. وقد قال أبو حاتم في هشام بن سعد: إنه لا يحتج به، وضعَّفَه ابن معين وأحمد والنسائي، وقد ثبت بهذا أن الجنب ممنوع من المكث في المسجد، أما المجتاز في المسجد إما للخروج منه أو الدخول فيه مثل أن يكون قد نام في المسجد

فأجنب فيجب عليه الخروج منه، أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيمر فيه للضرورة من غير إقامة فهذا كله جائز وقد روى سعيد بن منصور في سننه من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان أحدُنا يمر في المسجد جُنُبًا مجتازا. وتأويل قوله عز وجل: ﴿إلا عابري سبيل﴾ بالمجتازين في المسجد للخروج منه أو للدخول لأخذ الماء منه أو لكون طريقه عليه ضرورة أَوْلَى من تأويل ذلك بالمسافرين لوجهين: الأول: أن المسافر الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم مع قوله ﴿إلا عابري سبيل﴾ فيحتاج إلى إضمار شيئين: عدم الماء، وذكر التيمم، وأما على تأويله بالمجتاز فلا يُحْتَاجُ إلى إضمار شيء، والوجه الثاني: أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد ذلك فلا يحمل هذا على حكم مُعَادٍ في نفس الآية، ويدل على ذلك أيضاً أن جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله عز وجل: ﴿حتى تغتسلوا﴾ وهو يَدُلُّ على أن حكم الجنابة باقٍ على الجنب إلى غاية هي الاغتسال. وقوله عز وجل: ﴿وإن كنتم مَرْضَى أو على سفر أو جاء أحدٌ منكم من الغائط أو لامستم النساءَ فلم تجدوا ماءً فتيمَّمُوا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ هذا بيانٌ للأسباب الداعية للتيمم وهي المرض أو السفرُ أو المجيءُ من الغائط أو ملامسةُ النساء. وأصلُ التيمم في اللغة القصدُ وفي الشرع هو القصد إلى الصعيد لمسح الوجه واليدين بنية استباحة الصلاة ونحوها، وهو من خصائص هذه الأمة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحد قبلي نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مسيرةَ شهر وجعلت لي الأرضُ مسجدا وطهورا فأيُّما رجلٍ أدركته الصلاة فَلْيُصَلِّ. الحديث، وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة: وجعلت تُرْبَتُهَا لنا طَهُوراً إذا لم نجد الماء. وقد أذن الله عز وجل بالتيمم في آيتين من كتابه الكريم وهما هذه الآيةُ وآية

المائدة: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكُمْ إلى الكعبين، وإن كنتم جنبا فاطَّهَّرُوا، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ والظاهر أن آية النساء هذه متقدمة في النزول على آية المائدة إذ أن آية النساء قرنت بقوله عز وجل: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ وهو الطور الثالث من أطوار تحريم الخمر، أما آية المائدة فقد نزلت بعد تحريم الخمر؛ لأن صدر سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ومن المعلوم أن الطور الرابع والأخير من أطوار تحريم الخمر جاء في سوءة المائدة فآية النساء حَرِيَّةٌ بأن تُسَمَّى آية التيمم، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناسُ معه، وليسُوا على ماء، فأتى الناسُ إلى أبي بكر الصدِّيق فقالوا: ألَا ترى ما صَنعَتْ عائشةُ، أقامتْ برسول الله ﷺ والناسِ، ولَيْسُوا على ماء وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ وَاضِعٌ رأسَهُ على فَخِذي قَدْ نَامَ، فقال: حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناسَ، وليسوا على ماء وليس معهم ماءٌ، فقالت عائشةُ: فَعَاتَبَنِي أبو بكر وقال ما شاء اللهُ أن يقول، وَجَعَلَ يَطْعُنُنِي بيده في خَاصِرَتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكانُ رسول الله ﷺ على فَخِذي، فقام رسولُ الله ﷺ حين أصبح على غير ماء، فأنزَلَ اللهُ آيةَ التيمُّم، فقال أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْر: مَا هِيَ بأول بركتكم ياآل أبي بكر، قالت: فَبَعَثْنَا البعير الذي كنتُ عليه فأصَبْنَا العِقْدَ تحته اهـ. وقد أباحت هذه الآية الكريمة للمرضى والمسافرين ومَنْ جاء من الغائط ومَنْ لَامَسَ النساء إذا لم يجدوا ماء أن يتيمَّمُوا، وعدم وجدان

الماء قد يكـون بِعَدَمِـه جملة أو عدمِ بعضـه أو أن يخاف بطلبه فـوات رفقته أو ضياع راحلته أو يخاف لصوصا أو سَبُعًا أو عطشا على نفسه أو غيره إذا توضأ بها معه من الماء، أو احتاجه لطبيخ يَطْبُخُهُ أو لا يقدر على استعمال الماء أو لا يجد من يناوله، أو أن يكـون الماء في بئر لكنه لا يقدر على الوصـول إليه لعدم وجـود آلة لنـزعـه، أو كان مـريضًـا يضره الماءُ أو يـؤخرُ بُـرْأَهُ، والمَرْضَى جمع مريـض، والمرض خروج البدن عـن حد الاعتـدال بسبب علة أو جـراحة أو غيرها. وقوله: ﴿أو على سفر﴾ يعني مسافـرين وقوله: ﴿أو جاء أحد منكم من الغـائط﴾ أي أو قضى أحدكـم حاجتـه التي تنقض الـوضوء من سـائر الأحداث التي تـوجب الطهارة الصغرى وأصل الغـائط المكان المنخفض ثم صار يستعمل بمعنى الكنيف وبيت الخَلاَء والمقصـود الحدث الأصغر، وإن كان العرف خص الغائط بالخارج من الدبر وصار يستعمل في مقابلة البول.

وقـوله عـز وجل: ﴿أو لامستم النساء﴾ هـو كنـاية عن الجماع، وليس هـذا تكـريرا لقـولـه عز وجل في نفس الآيـة: ﴿ولا جنبـا إلا عابـري سبيل حتى تغتسلوا﴾ إذ أن أحد البيـانين لوجوب اغتسال الجنب عنـد وجود الماء والثاني بيـان لجواز تيممه عنـد فقد الماء أو عـدم القدرة على استعمالـه فلا تكـرار في الآية. قال البخاري في صحيحـه: بابٌ إذا خاف الجُنُبُ على نفسه المرَضَ أو الموتَ أو خاف العطـشَ تَيَمَّمَ، ويُذْكَرُ أن عمـرو بن العاص أجْنَـبَ في ليلة باردة فَتيمم وتلا: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كـان بكم رحيما﴾ فَذُكِرَ للنبي ﷺ فلم يُعَنِّفْـهُ اهـ. وقـولـه عز وجـل: ﴿فتيمموا صعيـدا طيبـا فامسحـوا بـوجوهكم وأيـديكم﴾ أي فاقصـدوا ترابـا طاهـرا فاضربـوا عليه وامسحـوا بوجوهكم وأيديكم منه وقد أوضحت السنة كيفية التيمم وبَيَّنَتْ مجمله، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال: بعثني النبي ﷺ في حاجة فأجنبـت فلم أجد الماءَ فَتمرَّغْتُ في الصعيد

تَمَرَّغَ الدابـة ، ثم أتيتُ النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقـال : إنما كان يكفيك أن تقولَ بيديك هكذا ، ثم ضَرَب بيـديه الأرضَ ضربةً واحدةً ، ثم مَسَح الشمالَ على اليمين وظاهر كَفَّيْهِ ووجهَـه . وفي رواية للبخاري : وضرب بكفيه الأرضَ ونفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيـه . وقوله عز وجل : ﴿إنَّ الله كـان عَفُوًّا غفورًا﴾ هو بيانٌ لحبه عز وجل للتيسير على عباده فيما يشرعه لهم من الأحكام وما يتفضل به عليهم من الرُّخَصِ ، وما يعامل به المؤمنين من العفو المغفرة .

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ. وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا. مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْنًا في الدِّينِ، ولو أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً.﴾

بعد أن بيَّن الله عز وجل فضله على عباده المؤمنين بما يَسَّرَه لهم من التشريع المَبْنيِّ على التيسير، وأباح لهم التيمم بالتراب الطاهر للعاجز عن استعمال الماء، تحقيقا لما بشَّر الله به الأنبياء حيث وصف لهم رسوله محمدا ﷺ بأنه النبيُّ الأميُّ الذي يحل لأمته الطيبات ويُحرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وبعد أن أشار قريبا إلى بعض أخلاق اليهود المذمومة بأنهم يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله شرع هنا يعدِّد بعض قبائح اليهود ويندِّدُ بسلوكهم المشين ليزداد المسلمون استمساكاً بدينهم الذي منَّ الله به عليهم وفضَّلَهُمْ به على سائر الأمم، ويَحْذرُوا من «مخططات» اليهود ومكرهم السيىء حيث يبذلون كل جُهد لإطفاء نور الإسلام، والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون، وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب يَشترُونَ الضَّلاَلَةَ ويريدون أن تَضِلُّوا السبيلَ. والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا.﴾ قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآيتين: يُخبِرُ تعالى عن اليهود — عليهم لعائنُ اللهِ المتابعةُ إلى يوم القيامة — أنهم يشترون الضلالة بالهُدَى ويُعرِضُونَ

عما أنزل الله على رسوله، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء ا لأولين في صفة محمد ﷺ لِيَشْتَرُوا به ثمنا قليلا من حُطَامِ الدنيا، ﴿ويُرِيدُونَ أن تَضِلُّوا السبيل﴾ أي يَوَدُّونَ لو تكفرون بما أُنْزِلَ عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع ﴿واللهُ أَعْلَمُ بأعدائكم﴾ أي هو أعلم بهم، ويُحذِّرُكُمْ منهم، ﴿وكَفَى بالله وَلِيًّا وكَفَى بالله نصيرا﴾ أي وكفى بالله وَلِيًّا لِمَنْ لجأ إليه، ونَصِيرًا لمن استنصره اهـ. والخطاب في قوله عز وجل: ﴿ألم تر﴾ لكل مَنْ تتأتى منه الرؤيةُ من المؤمنين، وتوجيهُهُ إليه ﷺ هنا مع توجيهه في قوله تعالى: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ إلى جماعة المؤمنين للإيذان بكمال شُهْرَةِ شناعة حالهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث يَتَعَجَّبُ منها كلُّ مَنْ يراها، ومعنى: ﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾ أي أُعْطُوا حَظًّا من المعرفة بكتب الأنبياء التي وَصَفَتْ رسولَ الله ﷺ فعرفُوا منه نَعْتَهُ ﷺ وحَقِّيَّةَ دين الإسلام، فبدَّلُوا نعمة الله كفرا، وقوله عز وجل: ﴿يَشْتَرُون الضلالة ويريدون أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ.﴾ هذا تحذير للمؤمنين أن يَسْتنصحوا أحدا من اليهود وأعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم أو يسمعوا شيئا من طعنهم في الدين لأنهم جمعوا في نفوسهم أَخَسَّ الصفات المُنَفِّرة عن قربانهم إِذْ هُمْ ضالُّون في أنفسهم راغبون في إضلال غيرهم، والتعبير بقوله: ﴿يشترون الضلالةَ﴾ للدلالة على شدة حرصهم على سلوك الطريق المُعْوَجَّة، وأنهم يختارون الضلالة بَدَلَ الهُدَى، والكفر بَدَلَ الإيمان، والتكذيب بالحق بَدَلَ التصديق به، وفي قوله عز وجل: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ تأكيدٌ لتحذير المسلمين من الوقوع في شِبَاكِ اليهود وفِخَاخِهم التي ينصبونها لإيقاع المسلمين في الحَيْرَةِ والضلال، ولفتُ الانتباه إلى ما انطوت عليه نفوس هؤلاء اليهود من الغش والعداوة والحسد، قال ابنُ جرير رحمه الله: وأما قوله ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ فإنه يقول: فبالله أيها المؤمنون فَثِقُوا وعليه فتوكَّلُوا، وإليه فَارْغَبُوا

دون غيره يَكْفِكُمْ مُهِمَّكُمْ، ويَنْصُرْكُمْ على أعـدائكـم، ﴿وكفى بـالله وليًّـا﴾ يقول: وكَفَاكُمْ وحَسْبُكُمْ بالله ربكم وَلِيًّا يَليكُمْ ويَلِي أموركم، بالحياطة لكم والحراسة من أن يَسْتَفِزكُمْ أعداؤكم عن دينكم أو يَصُدُّوكم عن اتِّباع نبيكم، ﴿وكفى بالله نصيرا﴾ يقول: وحَسْبُكُمْ بالله نـاصرا لكم على أعدائكم وأعداء دينكم، وعلى مَنَ بَغَاكم الغَوَائِلَ، وبَغَى دينكم الْعِوَجَ اهـ. وقوله عز وجل: ﴿من الـذين هَـادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عـنْ مَوَاضِعِـهِ وَيَقُـولُـونَ سَمِعْنَا وعَصَيْنَـا واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ ورَاعِنَا ليًّـا بأَلْسِنَتِهِمْ وطَعْنًا في الـدِّينِ﴾ بعد أن وصف الله عز وجل اليهودَ في الآيتين السابقتين بأنهم يحرصون على الضلالة ويشترونها، وأنهم يحبـون إضلال المسلمين ذكـر عـز وجل هنـا صُوراً أخـرى من قبـائح أفعالهم وأقوالهم بأنهم يحرفون الْكُتُبَ التي بأيديهم المنسـوبة للأنبياء المشتملة على صفة محمـد رسول الله ﷺ وبعض الأحكـام التي لا يحبونها كَـرَجْمِ الزاني وقطع يد السارق فاستبدلوها بتحميم الـوجه والتَّجْبِيهِ وترك إقامة الحد مطلقا على الشريف و إقامته على الضعيف، كما أنهم كانوا يفسرون ما في التوراة التي بأيديهم وكتب العهـد القديم بما يوافق شهواتِهِم وأهـواءَهـم و إن خالف المراد منها افتراءً على الله ورسله، كما أنهم كانوا إذا خـاطبوا رسول الله ﷺ استعملوا الكلام المحتمل للخير والشر وهم يريـدون الشر ويُوهِمُون أنهم يريدون الخير ويلْوون ألسنتهم بالكلام، فكانـوا إذا سَلَّمُوا على رسول الله ﷺ قالوا: السامُّ عليكم يوهمون أنهم يـريدون: السلام عليكم والـواقع أنهم يَقْصِدُون: الموت عليكم لأن المراد بالسام الموت، كما كانوا يقولون للنبي ﷺ: راعِنَا وهي كلمة سَبٍّ بلغتهم وهم يوهمون أنهم يريـدون بها: انْظُرْنَا وراعنا سمعك، واستمع لنـا. كما كانـوا يقـولون للنبي ﷺ: اسمـع غير مُسْمَعٍ، يريـدون: اسْمَعْ لا سَمِعْتَ، وهم يظهرون ويُـوهِمُون أنهم يريدون: اسمعْ لا سمعت مكـروها. وفي ذلك يقـول الله عـز وجل: ﴿من الـذين هـادوا يحرفـون الكَلِمَ عن

مَوَاضِعِهِ﴾ أي من الذين صاروا يهودا قَوْمٌ أو فريق أو مَنْ يحرفون الكلم الذي يقرأونـه في كتبهم أو يخاطبون به رسـول الله ﷺ عن مواضعه ومقـاصده التي وُضِعَ لها، والعرب تقـول: مِنَّا يقول كذا ومنَّـا لا يقوله أي منا من يقـول كذا ومنا من لا يقـوله، أو منا فـريق يقول كذا ومنا فـريق لا يقوله. كما قـال عز وجل: ﴿وَمَا مِنَّا إلا له مقام معلوم﴾ أي ومـا منا إلا من له مقام معلوم، وكما قال ذو الرُّمَّة:

بَكَيْـتُ عَلَى مَيٍّ بِهَا إذ عَـرَفْتُهَـا ... وَهِجْت الْهَوَى حتى بَكَى الْقَوْمُ مِنَ أَجْلِي
فَظَلُّـوا وَمِنْهُم دَمْعُـهُ غـالِبٌ لـه ... وآخَـرُ يَثْنِي دَمْعَـةَ العَيْنِ بِـالهمْل
وَهَلْ هَمَلاَنُ الْعَيْنِ رَاجِـعُ مَا مَضَى ... مِنَ الْـوَجْـدِ أَوْ مُـدْنِيكِ يـامَيُّ من أَهْلِي

فقول ذي الرُّمة: ومنهم دَمعُه أي ومنهم مَنْ دَمعُه. وكما قال النابغة:

كـأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْـشٍ ... يُقَعْقَعُ خـلْفَ رِجْلَيْـهِ بِشَـنٍّ

يعني كأنك جملٌ من جمال بني أقيش. وكما قال تميم بن مُقبل:

وما الدَّهْـرُ إلا تَارَتَـانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُـوتُ وأُخْـرى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

يعني بقوله: فمنهما أمـوتُ أي فمنهما تارةٌ أموتُ فيها. وقـد جرت العرب في أساليبها البلاغية على حذف بعض الكلام إذا كان المحذوف معلوما حتى ولو كان ركنا من أركان الجملة كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفيته:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول: زيدٌ، بعد: مَنْ عِنْدَكُمَا

والتحريفُ هـو التغيير والتبديل والكَلِمُ جمع كلمة، ومواضعُـه أي أماكنه أو مقاصده وقـد جَمَعَ أحبار السوء من اليهود بين تغيير نفـس الحروف أحيانا وتبديلها بما يشتهون وبين تأويلها بالتأويـلات الفاسدة وصرف معانيها إلى ما يوافق أهـواءهم، وقوله عـز وجل: ﴿ليًّا بألسنتهم وطَعْنًا في الدين﴾ أي إن هؤلاء اليهود لعنهم الله كانوا يحرفـون الكلِمَ من بعد مواضعه ويلوون ألسنتهم

بالكلام المحتمل للخير والشر على طريقة تُوهِم المسلمين بأنهم يريدون الخير ويَعْرِفُ أتباعهم من اليهود أنها سَبٌّ لـلإسلام والمسلمين فيمتنع رَعَاعُ اليهود عن الدخول في الإسلام إذ يقولون: هؤلاء أحْبَارنَا يَسُبُّونَ نبيهم ولا يعرف أنهم يَسُبونَـهُ، ولو كان نبيا لعـرف ذلك، مع أنهم لما قالوا لرسـول الله ﷺ: السامُ عليكم قـال: وعليكـم فقـد روى البخـاري ومسلم واللفـظ للبخـاري من حديث عـائشة رضي الله عنهـا قالت: دخل رهطٌ من اليهـود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّـامُ عليكم. قالت عائشة: فَفَهِمْتُهَـا فقلتُ: وعليكم السَّامُ واللعنةُ، قـالت: فقال رسولُ الله ﷺ: مَهْـلاً ياعائشـةُ إن اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأمرِ كلِّه، فقلت: يـارسول الله: أَوَ لم تَسْمَعْ ما قالـوا؟ قال رسول الله ﷺ: قـد قلتُ: وعليكم. وقـد نَبَّه الله عـز وجل المسلمين إلى التَّفَطُّن لـدسـائس اليهود هـذه فحذَّرَ من استعمال هـذه الكلمات حتى يُغْلِق البـاب على اليهود قبحهم الله فقال للمسلمين: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا، وللكافرين عذابٌ أليم﴾ وقال هنـا مندِّدًا باليهود وموَبِّخًا لهم على سوء أدبهم ومُحَذِّرًا لهم مـن لَيِّ ألسنتهم وغمزهم في الـدين: ﴿ولو أنهم قـالوا سَمِعْنَا وأطعنـا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقـومَ ولَكِنْ لعنهم اللهُ بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا. ياأيها الذين أُوتُوا الكتاب آمِنُوا بما نَزَّلْنَا مُصَدِّقا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًـا فَنَرُدَّهَا على أَدْبَارِهَا أو نَلْعَنَهُـم كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ، وكان أمرُ اللهِ مَفْعُولاً.﴾ ومعنى قـوله عز وجل: ﴿ولَكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ أي ولكـنَّ الله تبارك وتعالى أَخْزَى هؤلاء اليهودَ الذيـن يَلْوُون ألسنتهم في مخاطبـة الرسول ﷺ ويغمـزون في الدين فأقصـاهم وأبعدهم عن الـرُّشْدِ والْهُدَى لجحودهم نبوة محمد ﷺ التـي كانوا يبشرون بها قبل مجيئه ﷺ فلا يؤمنُ منهم إلا عَدَدٌ قليل، وقد آمن عبد الله بن سلام رضي الله عنه في جماعـة قليلة منهم، ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿يا أيها الـذين أوتوا

الكتاب آمنوا بما نَزَّلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نَطْمِسَ وجوها فَنَرُدَّهَا على أدبارها أو نلعنهم كما لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْت، وكان أمر الله مفعولا. ﴾ أي يامعشر من انْتَسَبَ إلى الكتب السماوية المُنَزَّلَةِ على الأنبياء سَارِعُوا إلى الإيمان بالكتاب المُنَزَّلِ على محمد ﷺ المُقَرِّرِ لما أنزل الله عز وجل على الأنبياء من قبل أن نَطْمِسَ وُجوها فَنَسْلُبَ منها السمعَ والبصرَ ونُزِيلَ منها معالم الاهتداء ونَرُدَّها القَهْقَرَى وتَصِيرَ كما وصف الله عز وجل المدبرين عن الهُدى حيث يقول: ﴿أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه أهدى أَمَّنْ يمشي سَوِيًّا على صراط مستقيم. ﴾ وأصل الطمس هو ذَهَابُ معالم الاهتداء يقال: طريق طامِسُ الأعلام إذا كانت معالم الاهتداء فيه مندرسةً ضائعة كما قال كعب بنُ زهير في قصيدته بانت سعاد:

مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الذِّفْرَى إذا عَرقَتْ عُرْضَتُهَا طَامِسُ الأعلام مَجْهُولُ

قال في القاموس: الطمُوسُ الدروس والإمْحاءُ يَطْمُسُ ويَطْمِسُ وطَمَسْتُهُ طَمْسًا مَحَوْتُهُ والشيءَ استأصلتُ أَثَرَهُ، ومنه ﴿وإذا النجوم طُمِسَتْ﴾ ﴿واطْمِسْ على أموالهم﴾ أَهْلِكْها اهـ ومعنى: ﴿أو نَلْعَنَهُم كما لَعَنَّا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا﴾ أي أو نَطْرُدَهُم من رحمتنا كما طردنا الذين اعتدوا في السبت والله يفعل ما يريد لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه وكما قال عز وجل: ﴿قل هل أُنبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذٰلك مثوبة عند الله، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوتَ، أولٰئك شر مَّكانا وأضل عن سواء السبيل﴾.

قال تعـالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ مَـا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا . أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ، بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَـاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً . انْظُـرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا .﴾

قـال أبو السعـود العمادى في تفسير قولـه عز وجل : ﴿إن الله لا يغفـر أن يُشرَك به﴾ : كلامٌ مستأنَفٌ مَسُوقٌ لتقرير ما قَبْلَه من الوعيد، وتأكيد وجوب الامتثال بـالأمر بالإيمان ببيـانِ استحالة المغفـرة بدونـه فإنهم كانوا يفعلـون ما يفعلون من التحـريف، ويطمعون في المغفرة، كما في قولـه تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ وَرِثُـوا الكتـابَ يأخـذون عَـرَضَ هـذا الْأَدْنَى (أي على التحريف) ويقـولون سَيُغْفَرُ لَنَـا﴾ والمراد بالشرك مُطْلَقُ الكفـر المنتظم لكفر اليهود انتظـاما أَوَّلِيًّـا، فإنَّ الشرع قد نَـصَّ على إشراك أهل الكتابِ قـاطبةً، وقَضَى بِخُلُـودِ أصناف الكَفَـرَةِ في النار اهـ. وقـوله عـز وجل : ﴿إنَّ الله لا يغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذُٰلِكَ لمن يَشَـاءُ﴾ دليل قطعي الدلالة لصحة مـذهب أهل السنـة والجماعـة في أن جميع المعاصي تحت مشيئـة الله إن شـاء عذَّب عليها وإن شـاءَ غفر لصاحبها حتى لـو مات ولم يَتُبْ منها إلا الشرك بالله سواء كان شركا أصغر أو كان شركا أكبر فإنَّ مَنْ مات على الشرك لا يغفر الله له أبـدا ولابد من تعذيبـه بنار جهنم إلا أن الشرك الأكبر يُخَلَّدُ صـاحِبُه في النار بخلاف الشرك الأصغر فإن صاحبَهُ لا يُخَلَّدُ في النار. وقد روى البخاري ومسلم من طريق أبي الأسـود الدِّيلِيِّ أن أبا ذر حَدَّثَـهُ، قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ وعليه ثوبٌ أبيضُ وهـو نائم، ثم أتيتُه وقد استيقظ . فقال : مـامِنْ عَبْدٍ قال لاإله إلا الله ثم مـات على ذلك إلا دَخَلَ الجنة، قلتُ : وإن زَنَى وإن سَرَقَ؟ قال : وإن زَنَى وإن سرَقَ، قلتُ : وإن زَنَـى وإن سَرَق؟ قال : وإن زَنَى وإن

سَرَق، قلتُ: وإن زنى وإن سَرَق؟ قال: وإن زَنَى وإن سَرَقَ على رَغْمِ أنف أبي ذر، وكان أبو ذر إذا حَدَّثَ بهذا قال: وإن رَغِمَ أَنْفُ أبي ذر اهـ. فمن حقق التوحيد وارتكب كبيرة من الكبائر فإن تاب منها تاب الله عليه وإن أُخِذَ بها في الدنيا كان كفارة له، وإن مات ولم يتب منها فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق أبي إدريس عائذِ الله بن عبد الله الخولاني أن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وكان شَهِدَ بدرا، وهو أحد النقباء ليلة العقبة أن رسول الله ﷺ قال وحولَه عِصَابَةٌ من أصحابه: بايعُوني على ألا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تَزْنُوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تَعْصُوا في معروف، فَمَنْ وَفَّى منكم فأجرُهُ على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فَعُوقِبَ في الدنيا فهو كفارةٌ له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك. وقوله في الحديث: ومن أصاب من ذلك شيئا يعني غير الشرك بدليل هذه الآية الكريمة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَنْ يُشركْ بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ أي ومَنْ يجعل لله عز وجل نِدًّا فقد اختلق جُرْمًا كبيرا بل قد ارتكب أكبر الجرائم وأعظم الذنوب على الإطلاق، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ النبي ﷺ: أَيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: أن تَجْعَلَ لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ، قلتُ: إنَّ ذلك لَعَظِيمٌ، قلتُ: ثم أيّ؟ قال: ثم أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ تخاف أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قلتُ: ثم أيُّ؟ قال: ثم أَنْ تُزَانِي بحليلة جَارِكَ. وقد جعل الله عز وجل مَنْ أشركَ مُفْتَرِيًا لأنه قال زُورًا وإفكًا كبيرا بجحوده وحدانية الله تعالى، وإقراره بأن لله شريكا أو صاحبةً أو وَلَدًا، ومَنْ ادَّعى ذلك كان مُفْتَرِيًا، كما أن كل كاذب في دعوى يَدَّعِيهَا فهو مُفْتَرٍ في كذبه مختلقٌ له. وقد حذرت الشريعة

الإسلامية من الشرك ووسائله أشد التحذير سواء كان شركاً أصغر أو شركاً أكبر، والفرق بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر؛ أن الشرك الأصغر لا يُخْرِجُ من الملة ، ولا تَبِينُ به الزوجة ، ولا يُخَلَّدُ صاحبُه في النار لو مات من غير توبة منه ، ومن الشرك الأصغر الحلفُ بغير الله كالحلف بالنبي أو الوليّ أو البلد أو الولد أو غير ذلك مما سوى الله تعالى فقد روى الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من حلف بغير الله فقد أشرك . قال الترمذي : هذا حديث حسن اهـ. ولذلك كان الحَلِفُ بغير الله أكبرَ من قتل النفس ومن الزنا وشرب الخمر والسرقة ؛ لأن الشرك بنوعيه لا يغفره الله عز وجل إلا بتوبة منه بخلاف سائر المعاصي التي دون الشرك كما قال عز وجل هنا : ﴿إن الله لا يغفر أن يُشركَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء﴾ أَمَّا قَسَمُ الله عز وجل بمصنوعاته ومخلوقاته للدلالة والتنبيه على عظيم قدرته وجليل نعمته وعظمته فليس من هذا القبيل ؛ لأن الله تعالى له أن يقسم بما شاء ، ولا يدخُل في شيء من القياس مع خلقه تبارك وتعالى ، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في رَكْب وعمرُ يحلف بأبيه فناداهم رسولُ الله ﷺ : إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصْمُتَ . وفي لفظ لمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم . ومن الشرك الأصغر قول الإنسان : ما شاء الله وشئت يافلان . أو لولا الله وأنت لكان كذا ، وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ومن يُشْرِكْ بالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وقال في الآية السادسة عشرة بعد المائة من هذه السورة الكريمة : ﴿إنَّ الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضَلَّ ضلالا بعيدا﴾ لأن الآية الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم عِلْمٌ بصحة نبوته ، وأن

شريعته نـاسخةٌ لجميع الشرائع، ومع ذلـك فقد كَابَـرُوا في ذلك وافْتَرَوْا على الله، أمـا الآية الثـانية فهي في شأن قـوم مشركين ليس لهم كتابٌ ولا عنـدهم علم فناسَبَ وصفهم بـالضلال، وقولُـهُ عز وجل: ﴿ألمْ تَرَ إلى الذين يُـزَكُّونَ أنفسَهُم، بلِ اللهُ يُزكِّي مَنْ يشاءُ﴾ بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض جرائم أهل الكتاب وأنهم مع جـرائمهم يطمعون في المغفرة وبَيَّنَ عز وجل استحـالة المغفرة مع الشرك أشـار هنا إلى غرورهم بتزكيتهم أنْفُسَهُمْ حيث يـزعمون أنهم لن تَمَسَّهُمُ النَّـارُ إلا أيـاما معـدودات لأنهم أبنـاءُ الله وأحِبَّاؤُهُ، وقـالـوا: لن يدخل الجنة إلا مَنْ كـان هُودًا أو نصارى، وتَعَلَّقُوا بالأماني الكـاذبة وفي هذا تنـديـدٌ بمَنْ يَمْـدَحُ نفسـه ويزكيهـا وأن مَنْ زَكَّـاهُ اللهُ واستعملـه في طـاعتـه فاستجاب لله ولرسوله ﷺ وإذا عمل عملاً صالحا لا يَغْتَرُّ به فهذا هو الزاكي المُزَكَّى، كما قال عز وجل: ﴿إنَّ الذين هم من خشية ربهم مُشفقون. والذين هم بآيات ربهم يؤمنون. والذين هم بـربهم لا يشركون. والذين يُؤْتُونَ ما آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أنهم إلى ربهم راجعون. أولَئك يسـارعون في الخيرات وهم لها سابقـون.﴾ ولذلك حرَّمَ الله عز وجل على المسلمين أن يُـزَكُّوا أنفسهم حيث قال عز وجل: ﴿ولله ما في السموات ومـا في الأرض ليجزىَ الذين أَسَاءُوا بما عَمِلوا ويَجْزِىَ الذين أحسنوا بالحُسْنَى. الذين يجتنبون كبائر الإثم والفَوَاحِشَ إلا اللَّمَم، إن ربك وَاسِعُ المغفرة، هـو أعلم بكم إذْ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أَجِنَّةٌ في بُطُـونِ أمهاتكم فلا تزكـوا أَنْفُسَكُمْ هو أعلم بمن اتقى.﴾ وكما نَهَى الإسلامُ الإنسانَ عن تزكية نفسـه فقد نهاه ألا يُزَكِّيَ على الله أحدًا، وذلك كلُّه لمنع الغـرور والاغترار، فقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنـه قال: سَمِعَ النبي ﷺ رجـلا يُثْنِي على رجل ويُطْـرِيهِ في المدح فقال: أَهْلَكْتُمْ أو قَطَعْتُـمْ ظَهْرَ الرجل. كما روى البخـاري ومسلم من حـديث أبي بكرة رضي الله عنـه أن رجلا ذكر عنـد النبي ﷺ فَأَثْنَـى عليه

رجلٌ خيرا، فقال النبي ﷺ: وَيْحَكَ، قَطَعْت عُنُقَ صاحِبِكَ» يقوله مرارا «إن كا ن أحدُكم مَادِحًا لا مَحَالَـةَ فليقل: أَحْسِبُ كـذا وكذا إن كـان يَرَى أنـه كذلك وَحَسِيبُهُ اللهُ ولا يُزَكِّى على الله أحدٌ» كما روى مسلم من حديث المقداد رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: إذا رأيتم المداحين فَـاحْثُوا في وجـوههم الترابَ. كما روى مسلم من طريق محمد بن عمرو بن عطاء قال سَمَّيْتُ ابنتي بَرَّةَ فقالت لي زينب بنْتُ أبي سَلَمَـة: إن رسول الله ﷺ نَهى عن هذا الاسم، وسُمِّيتُ بَـرَة، فقـال رسولُ الله ﷺ: لا تُـزَكُّـوا أنفسَكُمْ، الله أعلم بأهل البِرِّ منكم، فقـالـوا: بم نُسَمِّيهَا؟ قـال: سَمُّـوهَـا زينب. وقولـه تعـالى: ﴿وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيـلاً﴾ أي ولا يَبْخَسُ الله تبارك وتعـالى مِن عمل الصـالحين مقدار فتيل كما لا يُحَمِّل العـاصين إلا ما عملـوه ولا يظلمهم مثقال فتيل أو مقـدار فتيل كما قـال عـز وجل: ﴿إن الله لا يظلـم مثقـال ذرة و إن تك حسنـة يضاعفْهـا ويؤت من لدنـه أجرا عظيما﴾ والفتيلُ: هو الخيط الـدقيق الرقيق الذي يكون في شَق النواة، ولا يكاد يزن شيئا لحقارته وتفاهته، وقد جعل الله تبارك وتعـالى في نواة التمرة ثلاثـة أشياء يَضْرِبُ العربُ بكل واحـد منها المثَلَ للشيء التـافـه الحقير، وهي الفتيلُ والنَّقِيرُ والقِطْمِيرُ، وقـد ضربها القـرآن كذلك مثلا للشيء التـافه الحقير فقال عز وجل هنـا: ﴿ولا يُظْلَمُونَ فتيلاً﴾ وهو شبيه بقوله عـز وجل: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ فهو عز وجل منزه عن ظلم عباده ولو بمقدار فتيل أو ذرة، والقِطْمِير هو القشرة الرقيقة التي في ظهـر النواة وقـد ضرب الله عز وجل بها مثـلا على أن ما عُبـدَ من دون الله لا يملكون شيئا مهما كان تافها ولو كان قِطْمِيرًا حيث يقول عز وجل: ﴿والذين تدعون من د ونه ما يملكون من قطمير.﴾ وهـو شبيه بقوله عز وجل: ﴿قل ادْعُـوا الـذينَ زعمتم من دون الله لا يملكون مثقـال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض﴾ وقـال عـز وجل في بيان شح اليهـود وأنهم لـو كـان لهم نصيبٌ من

المُلْك ما أَعْطَوْا أحدا نقيرا: ﴿أم لهم نصيب من المُلْك فإذًا لا يُؤْتُونَ الناسَ نقيرا.﴾ والنقير هو النُكْتَةُ التي في ظَهْر النواة كالنُّقْرَةِ والنُّقْطَةِ، وهي لا تساوي شيئا، وقوله عز وجل: ﴿انْظُرْ كيف يفترون على الله الكَذِبَ وكفى به إثما مبينا.﴾ هذا تعجيبٌ للنبي ﷺ من قبح سلوك اليهود وجرأتهم في الافتراء على الله عز وجل حيث يزكون أنفسهم وهم أشَدُّ خلق الله نجاسةً وأبعدُ بني آدم عن الطهارة، ويزعمون أنهم أبناءُ اللهِ وأحباؤه وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، ولو لم يكن لهم جريمة سوى الافتراءِ واختلاقِ الكذبِ على الله عز وجل لكفاهم بذلك إثما وجُرْما فما بالك وهم غارقون في بحار الجرائم والآثام التي لا تقف عند حد، ولا يُحْصِيهَا العَدُّ. ولاشك أن الكذب على الله تبارك وتعالى ليس كالكذب على غيره فهو أقبحُ الكذب وأعظمه إثما وجُرْمًا كما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته، إنه لا يفلح الظالمون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته﴾ وكما قال عز وجل: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذَّب بآياته، إنه لا يفلح المجرمون﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذبا، أولَئك يُعْرَضُون على ربهم ويقول الأشهادُ هٰؤلاء الذين كَذَبُوا على ربهم، ألا لعنةُ الله على الظالمين.﴾ كما أن الكذب على رسول الله ﷺ ليس كالكذب على غيره من البشر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: مَن تَعمد عليَّ كذبا فليتبوأ مقعده من النار. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ كَذِبًا عليَّ ليس كَكَذِبٍ على أحد، فمن كذب عليَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا. أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا. أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا. فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ، وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾

هذا بيانٌ لنوعٍ آخَرَ من جرائم اليهود وفضائحهم المناقضةِ لكل كتابٍ سماوي، حيث آمنوا بالجبت والطاغوت وفضلوا عَبَدَةَ الأوثان على عُبَّادِ الرحمن، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أُوتُوا نصيبا من الكتاب﴾ تأكيدٌ لتعجيب النبي ﷺ وكلٍّ من يتأتى له أن يتعجب من قبائح أفعال هؤلاء اليهود الذين لا تنتهي قبائحهم ومخازيهم حيث كرر الله عز وجل ذلك في هذه المقامات المتتابعة التي ساقها ههنا في سورة النساء، إذ بدأ الحديث عنهم بقوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تَضِلُّوا السبيل﴾ ثم قال هنا: ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنُونَ بالجِبْتِ والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا.﴾ مع أن الله عز وجل قد وصَّى جميع الأنبياء أن يُوصوا أممهم بالكفر بالطاغوت حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ وبَيَّن أن دعوى الإيمان دون الكفر بالطاغوت لا تفيد مُدَّعيها حيث يقول عز وجل: ﴿فمن يَكْفُرْ بالطاغوتِ ويُؤمنْ بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انْفِصَامَ لها﴾ والجبتُ يطلق على الصنم والسحر والكهانة والطِّيرةُ والعيافة والطَّرْق قال الجوهري في الصحاح: الجِبْتُ كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي

الحديث: الطِّيَرَةُ والعيافة والطَّرْق من الجِبْتِ اهـ. وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: الجِبتُ بالكسر الصَّنَمُ والكاهنُ والساحرُ، والسحرُ والذي لا خير فيه وكلُّ ما عُبِدَ من دون الله تعالى اهـ والحديث الذي أشار إليه الجوهري قد أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد جيد حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حيَّان بن العلاء ثنا قَطَنُ بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العيافة والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ من الجِبْتِ. قال في القاموس: وعِفْتُ الطَّيْرَ أَعِيفُهَا عِيَافَةً زجرتها وهو أن تَعْتَبِرَ بأسمائها ومَسَاقِطِها وأنوائها فَتَتَسَعَّدَ أو تَتَشَاءَمَ والعائفُ المتكهِّنُ بالطير أو غيرها اهـ. والطَّرْقُ هو ضَرْبُ الكاهن بالحَصَى، والطِّيَرَةُ هي التشاؤم وكان أهل الجاهلية إذا أراد الواحد منهم سَفَرًا أو عقد نكاح أو غيره أرسل طائرا أو نظر في جوِّ السماء إلى طائر فإن وجده اتجه إلى جهة يمينه استبشر وتفاءَلَ وتيمَّن به، ومضى في طريقه واعتقد نجاح خُطته. وإن اتجه الطير إلى جهة الشمال تشاءم وتطيَّر ورجع عن قصده، واعتقد أنه لن تنجح خطتُه إذا مضى فيها، وكانوا يسمون الطير إذا تيامن بالسانح، ويسمُّون الطير إذا اتجه إلى جهة شماله بالبارح، فهو يتيمَّنُون بالسانح ويتشاءمون بالبارح، وقد أنكر بعض عقلاء أهل الجاهلية هذه العقيدة المنكرة، وأعلن أنها لا تضر ولا تنفع وفي ذلك يقول:

ولقد غَدَوْتُ وكنتُ لا أَغْدُو عَلَى واقٍ وحاتمْ
فإذا الأشائمُ كالأيامِنِ وَالأَيامِنُ كالأشَائمْ

وقال آخر:

الزَّجْرُ والطَّيْرُ والكُهَّانُ كُلُّهُمُوا مُضَلِّلُونَ ودونَ الغَيْبِ أَقْفَالُ

وقال آخر:

لَعَمْرُكَ ماتَدْري الطَّوَارِقُ بالحصى ولا زَاجِرَاتُ الطَّيرِ مَااللهُ صَانِعُ

وقال آخر

وَمَا عَاجِلاَتُ الطير تُدْنِي من الفتي　　نجاحـا ولا عن رَيْثِهِنَّ قُصُورُ

وقال آخر:

تَخَبَّرَ طَيْرَةً فيهَا زِيَادٌ　　لِتُخْبِرَهُ وَمَا فيهـا خَبِيرُ

تَعَلَّمْ أَنَّـه لا طَيْرَ إلاَّ　　علـى مُتَطَيِّرٍ وهـو الثُّبُورُ

بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ　　أَحَايِينًا وبَاطِلُهُ كَثِيرٌ

وقد أبطل الإسلام هذه العقيدة القبيحة فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا طِيَرَةَ ولا هَامَةَ ولا صَفَر. كما عدَّ الإسلام التطيُّر شركاً فقد روى أبو داود والترمذيُّ وصححه هو وابن حبان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه رفعه: الطِّيَرَةُ شِرْكٌ. والطاغوتُ مُشتَق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، قال ابن القيم رحمه الله: الطاغوت ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إلى غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة الله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته اهـ. ولاشك أن الطواغيت كثيرة لا تكاد تحصى، وعلى رأسها الشيطان، ومن دعا الناس إلى عبادة غير الله، ومن رضي أن يُعْبَدَ من دون الله، ومن رضي أن يحتكم إلى غير ما أنزل الله، ومن نُصب ليحكم بغير شريعة الله. ومع أن الله عز وجل حرَّم الجبت والطاغوت في سائر الشرائع السماوية فإن اليهود قبحهم الله كانوا أشد الناس انقيادا للجبت والطاغوت كما قال عز وجل: ﴿واتَّبَعُوا ما تتلواْ الشياطينُ على مُلْك سليمان وما كفر سليمانُ ولَٰكنَّ الشياطينَ كفروا يعلمون الناسَ السحر﴾

وكما قال: ﴿قل هل أُنبِّئُكُم بِشَرٍّ من ذُلك مَثُوبَةً عند الله، مَنْ لَعَنَه اللهُ وغَضِبَ عليه وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ وعَبَدَ الطاغُوت، أولَئك شرٌّ مكانًا وأَضَلُّ عَنْ سواءِ السبيل﴾ وقوله عز وجل: ﴿ويقولون للذين كفروا هؤلاء أَهْدى من الذينَ آمَنُوا سبيلا﴾ أي ويقول هؤلاء اليهود الذين أوتوا نصيبا من الكتاب للمشركين من قريش وغيرهم عبدة الأصنام والأوثان: إن دينكم خير من دين محمد وصحبه وسبيلكم أهدى من سبيلهم مع أن الكتب التي بأيديهم المنسوبة للأنبياء تحرم الشرك وتبين أنه أكبر الكبائر وهذا من أوضح الأدلة على انغماس هؤلاء اليهود في الضلالة، وأنهم أعدى أعداء الأنبياء والمرسلين. ولذلك أَتْبَعَ الله عز وجل فضيحتهم هذه بقوله: ﴿أولَئك الذين لَعَنَهُمُ اللهُ ومَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَه نَصِيرًا.﴾ أي أولئك المزكون أنفسهم غرورا وافتراء، المؤمنون بالجبت والطاغوت المفضلون دين عُبَّادِ الأوثان على دين عُبَّادِ الرحمن قد لعنهم الله وطردهم من رحمته، وأخزاهم وأبعدهم عن رضوانه وجنته، وخذلهم فلم يستعملهم في طاعته وأعدَّ لهم عذابا أليما، لن يمنعهم منه مانعٌ ولن يدفعه عنهم دافع، قال الفخر الرازي رحمه الله: واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد؛ لأن الذي ذكروه من تفضيل عبدة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري مجرى المكابرة، فمن يعبد غير الله كيف يكون أفضل حالا ممن لا يرضى بمعبودٍ غير الله؟ ومن كان دينُهُ الإقبالَ بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة كيف يكون أقل حالاً ممن كان بالضد في كل هذه الأحوال؟ والله أعلم اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ من المُلْكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاس نَقِيرًا.﴾ هو بيان لتأكيد اتصاف اليهود بالبخل بعد بيان اتصافهم بالجهل والمعاندة والمكابرة، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري أي بل أَلَهُم حظ وقسط من الملك والتَّصرُّف في

خزائن الله، فلو كان لهم تصرُّفٌ في خـزائن الله لبخلوا على الناس بأتفه شيء وأحقره ولم يعطـوا أحدا مقدار النقـرة أو وزن النقرة التي في ظهر النـواة بخلاً وشحًّا. وقوله عز وجل: ﴿أم يَحْسُـدُونَ الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ هو بيانٌ لتأكيد اتصافهم بـالحسد وتمنِّي زوال النعمة عن الناس، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام التوبيخيِّ وهي تفيد الانتقال من وصفهم بالبخل إلى وصفهم بالحسـد، والاستفهام لتوبيخهم على هذا الخُلق الذميم الدال على خسـة نفوسهم ولؤم طباعهم، فهم لا يبـذلون لأحدٍ خيرا مهما كـان تافهـا حقيرا حتى ولو كـان نقيرا، ويتمنون زوال النعمـة عن الغير ويـريدون ألا يُعْطِيَ الله عـز وجل أحدا خيرا، فـالبخل والحسد يشتركـان في الحرص على منع الخير عن الناس وكراهية إنزال رحمة من الله على عباده، وقد قدَّم الله عز وجل وصفهم بـالجهل على وصفهم بالبخل والحسد؛ لأن الجهل هو سبب البخل والحسد، والسَّبب مقـدَّمٌ على المسبَّب، وتقديم البخل على الحسد ليكون الانتقال من وصفهم بقبيحة إلى وصفهم بأقبح منها لأن البخل منعٌ لما في أيـديهم والحسد رغبتهم في منع مـا عند الله وهو شرُّ الـرَّذائل وأقبح الخصال، وإذا كان المراد بالناس في هـذه الآية هو محمد ﷺ فيكون من قبيل العام الذي أريد بـه الخصوص ويكون شبيها بقوله تعـالى في سورة آل عمران ﴿الذين قـال لهم الناس إن الناسَ قد جمعـوا لكم فاخشوهم فـزادهم إيمانا﴾ وكذلك إذا أريـد به محمد ﷺ والمؤمنون. قـال ابن جرير رحمه الله: قـال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله عاتَبَ اليهودَ الذين وَصَفَ صفتهم في هـذه الآيـات، فقـال لهم في قِيلِهِمْ للمشركين مِـنْ عبـدة الأوثـان: إنهم أهدى من محمـد وأصحـابه سبيـلا، على علم منهم بأنهم في قِيلِهِمْ ما قـالوا من ذلك كَذَبَةٌ: أتحسـدون محمدا وأصحابه على مـا آتاهم الله من فضله، وإنما قلنا: ذلك أولى بالصـواب لأن ما قبل قوله: ﴿أم يحسدون

الناس على مـا آتاهم الله مـن فضله﴾ مَضَى بذم القـائلين من اليهود للـذين كفروا : ﴿هٰؤلاء أهدى من الذين آمَنُوا سبيلا . ﴾ فإلحاقُ قوله : ﴿أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله﴾ بذمهم على ذلك ، وتقريظ الذين آمنوا ، الـذين قيل فيهم ما قيل أشبـه وأولى اهـ. وقـوله عـز وجل : ﴿فقد آتينـا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحكمة وآتيناهم مُلكًا عظيما . فمنهم مَنْ آمَنَ به ومنهم مَنْ صَدَّ عنه ، وكفى بجهنم سعيرا . ﴾ أي فقد جعلنـا في آل إبراهيم وأسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم عليهم السـلام النبوة وأنزلنا عليهم كُتب الله عـز وجل كصحف إبـراهيم وتـوراة مـوسى وزبـور داود وإنجيل عيسى وسائر مـا أنزل على أنبيائه ـــ الذين بعثهم من ذريـة إبراهيم ـــ من كتاب ، ومنحهم الحكمة والفقـه في الدين والسنن والشرائع التي أوحـى الله عز وجل بها إلى هـؤلاء الأنبياء عليهم السـلام مما لم يُنـزله في الكتب ، ومنحهم كـذلك ملكا عظيما كما تفضل على عبده داود وعبده سليمان عليهما السلام بما ذكره في كتـابه الكـريم حيث يقـول : ﴿وداودَ وسليمانَ إذ يحكمان في الحرث إذْ نفشت فيه غَنَمُ القَوْم وكُنَّـا لحكمهم شاهدين . ففهمناهـا سليمان ، وكُلاًّ آتينا حكما وعلما ، وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطيرَ، وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لَبـوسٍ لكم لِتُحْصِنكُمْ مـن بأسكم فهل أنتم شـاكـرون . ولسليمان الـريحَ عاصفةً تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ، وكُنَّا بِكُلِّ شيء عالمين . ومن الشياطين مَنْ يَغُـوصُونَ له ويعملـون عملا دون ذٰلك وكنـا لهم حافظين . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿ولقد آتينا داود منـا فضلا ياجبَالُ أوِّبي معه والطيرَ وأَلَنَّا له الحديد . أَنِ اعْمَلْ سابغـات وقَدِّرْ في السَّرْدِ واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير. ولسليمان الريحَ غُدُوُّهَا شهرٌ ورَوَاحُهَا شَهْرٌ وأسلنا له عَيْنَ القِطْرِ ومِن الجنِّ مَنَ يَعْمَلُ بين يديه بإذن ربـه ومن يَزِغْ منهم عن أمرنا نُـذِقْهُ من عذاب السعير. يعملـون له مـا يشاء من محاريبَ وتماثيلَ وجِفَـانٍ كالجَوَابِ وقـدور

راسيـاتٍ ، اعملوا آلَ داود شكـرا ، وقليلٌ من عِبَادِيَ الشكـور. ﴾ ومع ذلك فإن بني إسرائيل منهم مَنْ آمن بما منحه الله عز وجل لهؤلاء الأنبياء ومنهم من كفر به وعدَّه نوعا من السحر، وأسندوه إلى الشياطين ، وكفى بنار جهنم التي تحرقهم حيث يكونـون حطباً لها ووقوداً وفي هـذا مواساةٌ لرسـول الله ﷺ كأنه قيل : إذا كان هذا مـوقفهم من أنبياء بني إسرائيل فكيف بك ولست من بني إسرائيل ! ! .

قـال تعالى : ﴿إِنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا بِـآيَاتِنَـا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَـارا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَـاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ، إِنَّ اللهَ كَـانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . والَّـذِينَ آمَنُوا وعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا . إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَـاتِ إلى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُـوا بِالْعَدْلِ ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا . ﴾

بعد أن أشار الله تبـارك وتعالى إلى أن بني إسرائيل منهم من آمن بما آتاه الله عـز وجل آل إبراهيم من الكتـاب والحكمة والملك العظيم ، ومنهم من كفـر به ، وعدَّه نـوعاً من السحر، وتوعد الكـافرين منهم بجهنم التي تسعر بهم ، ذكـر هنا مـا توعـد به كل كـافـر من بني إسرائيل ومن غيرهم ، على طريقـة الأسلوب البـلاغي المعروف في علم البديع بأسلـوب اللفِّ والنشر المشوش ، حيث قال في الآية السابقة : ﴿فمنهم مَنْ آمَـنَ به ومنهم مَنْ صدَّ عَنْهُ﴾ فقدم ذكر من آمن على ذكر من كفر ثم ذكـر هنا أمرين يعود الأول منهما على الثاني من المذكورين سابقـاً ، ويعود الثاني على الأول ، وقدم الوعيد هنـا على الوعد لارتباط الوعيـد لعموم الكافرين بـالوعيد بكفار بني إسرائيل الـذي ذُيِّلت به الآيـة السـابقـة ، ولتقـديم الترهيب على الترغيب ، لأن النفس إذا تـأثـرت بـالترهيب فـاستجـابت لله رب العـالمين صـارت أهـلاً لما أعـده الله لعبـاده الصـالحين ممـا لا عين رأت ولا أذن سمعت من النعيم المقيـم في جنـات النعيم . وقولـه عز وجل : ﴿إِنَّ الـذينَ كفروا بآيـاتنا سـوف نُصْلِيهِمْ نارًا كلما نَضِجَتْ جُلُودُهم بَـدَّلْنَاهم جُلـودًا غَيْرَها ليذوقـوا العذابَ﴾ قال ابن جـرير رحمه الله في تفسير هذه الآيـة : قال أبـو جعفر: هـذا وعيدٌ من الله جـل ثناؤه للـذين أقـامـوا على تكـذيبهـم بما أنـزل الله على محمـد من يهود بني إسرائيل

وغيرهم من سائر الكفار وبرسوله، يقول الله لهم: إن الذين جحدوا ما أنزلتُ على رسولي محمد ﷺ من آياتي — يعني: من آيات تنزيله ووحي كتابه، وهي دلالاته وحججه على صدق محمد ﷺ — فلم يُصدِّقوا به من يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر أهل الكفر به — ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نارًا﴾ يقول: سوف نُنضجهم في نار يُصلون فيها أي يُشوون فيها — ﴿كلما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ﴾ يقول: كلما انشوت بها جلودهم فاحترقت — ﴿بَدَّلْنَاهم جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ يعني غير الجلود التي قد نضجت فانشوت اهـ.

ولا يقول قائلٌ: إن الجلود العاصية إذا احترقت، وجعل الله جلوداً غيرها وعذَّبها كان هذا تعذيبا لجلد لم يعص الله؟ لأنا نقول: إن المقصود من تبديل الجلود هو تبديل الصفة لا تبديل الذات بأن تعاد إلى حالها الأول غير محترقة، فإذا جدَّد الله الجلد، وصار ذلك الجلد الجديد سبباً لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيبا إلا للعاصي، وذلك نظير قول العرب للصائغ إذا استصاغته خاتما من خاتم مصوغ بتحويله عن صياغته التي هو عليها إلى صياغة أخرى: «صغ لي من هذا الخاتم خاتما غيره» فيكسره ويصوغ له منه خاتما غيره، والخاتم المصوغ بالصياغة الثانية هو الأول، ولكنه لما أُعيد بعد كسره خاتماً قيل: هو غيره، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُغَلِّظُ جِلْدَ الكافر يوم القيامة حتى يصيرَ غِلَظُ جلده مسيرة ثلاثة أيام، ويجعلُ ما بين مَنْكِبَى الكافر في النار بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، ويجعلُ ضرسَ الكافر أو نَابَهُ مثلَ جبل أحد، ليكون أَبْلَغَ في إيلامه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ضِرْسُ الكافرِ أو نَابُ الكافرِ مِثْلُ أحُد، وغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ، وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة يرفعه قال: ما بَيْنَ مَنْكِبَي الكافر في النار مسيرةُ ثلاثة أيام للراكب المُسْرِعِ. كما أخبر الله عز وجل أن جلود الكفار تشهد عليهم يوم

القيامة حيث يقول تبارك وتعالى ﴿ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ ومعنى: ﴿ليذوقوا العذاب﴾ أي ليقاسوا شدته وليحسوا بتجدد ألمه وكربه، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق للإشعار بمرارة العذاب مع إيلامه وإيجاعه وشدة تأثيره وذلك لأن القوة الذائقة هي أشد الحواس تأثراً، ولاسيما أنهم كانوا يكذبون بعذاب الآخرة ويجحدونه كما قال عز وجل: ﴿وأما الذين فسَقُوا فمأواهم النارُ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعِيدُوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ونقول للذين ظلموا ذُوقُوا عذابَ النار التي كنتم بها تكذبون.﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الله كان عزيزا حكيما.﴾ أي إن الله عز وجل لم يزل ولا يزال قادرا على الانتقام من الظالمين الكافرين الجاحدين، لا يقدر على الامتناع منه أحد، ولايهرب منه هارب، ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، وهو جلت قدرته حكيم في تدبيره وقضائه، وهذه الجملة التذييلية تعليل لما قبلها من الإصلاء والتبديل، وكان مقتضى السياق أن يقال: إنه كان عزيزا حكيما. لكن مقتضى الحال يقتضي وضع لفظ الجلالة موضع الضمير بطريق الالتفات لتربية المهابة منه جل وعلا. وقوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبدًا لهم فيها أزواجٌ مُطَهَّرَةٌ ونُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا.﴾ أي والذين أقروا بالله ورسوله وصدقوا بما أنزل الله عز وجل على محمد ﷺ وأدُّوا ما أمرهم الله عز وجل به من فرائضه، واجتنبوا ما حرَّم الله عز وجل عليهم من معاصيه، وماتوا على التوحيد سوف يدخلهم الله عز وجل يوم القيامة حدائق الخُلد التي وعد المتقين الصالحين من عباده، تجري من

تحت تلك الجنات أنهار من ماءٍ غير آسنٍ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، حالة كونهم باقين فيها أبدا بغير نهاية ولا انقطاع لا يريمون عنها ولا يتحولون منها، ولهم في تلك الجنات أزواج بريئاتٌ من الأدناس والأرجاس والريب والحيض والنفاس والغائط والبول والحبل والبصاق وسائر الأقذار، نقيات خالصات مخلصات قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جانٌ، وسوف يسكن الله عز وجل أهل الجنة في ظل ظليل لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، بل هم في ظل ممدود دائم بارد كريم لا سموم معه ولا يحموم، ولا يلحقهم حر ولا قر، كما قال عز وجل: ﴿مَثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون تجري من تحتها الأنهارُ أُكُلُهَا دائمٌ وَظِلُّهَا.﴾ وكما قال تعالى: ﴿وأصحابُ اليَمِينِ ما أصحابُ اليمين. في سِدْرٍ مخضودٍ. وطَلْحٍ منضودٍ. وَظِلٍّ مَمْدُودٍ.﴾ وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرةً يَسِيرُ الراكبُ الجوادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مائةَ عامٍ ما يَقْطَعُهَا. وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة لَشَجَرَةً يسير الراكبُ في ظلها مائة سنة لا يقطعها. وفي لفظ للبخاري ومسلم من حديث سهل ابن سعد عن رسول الله ﷺ قال: إنَّ في الجنة لَشَجَرَةً يسير الراكبُ في ظلها مائة عام لا يَقْطَعُهَا. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتُمْ بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نِعِمَّا يعظكُمْ به، إن الله كان سميعا بصيرا.﴾ مناسبته لما قبله أنه عز وجل بعد أن كشف بعض جرائم اليهود وبخاصة ما كتموه من صفات رسول الله ﷺ التي كانوا يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم وضَيَّعُوا أمانة الله وعهدَه وميثاقه الذي أخذه عليهم بتأييد النبي الكريم ﷺ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهبوا في الضلال

إلى أبعدَ مـن ذلك حيث جعلوا دين المشركين الـذين يعبدون الأصنـام أهدى من دين النبي ﷺ الحامي لجناب التـوحيد من كل شوائب الشرك وتـوعدهم هم وسائر الكفـار بالعذاب الأبـدي السرمدي في نـار جهنم، ووعد المؤمنين بـالنعيم الأبـدي السرمـدي في جنـات ذات ظل ظليل، ولهم فيهـا أزواجٌ مطهرة، وَجَّـهَ الخطابَ هنا إلى جميع المكلفين حيث أمرهم بأداء الأمـانات إلى أهلهـا، ولاشك أنه لـو حـافظ كلٌّ مكلف على الأمـانـة التي في عنقه سـواء كانت دينية أو دنيـوية وسواء أكانت للأبرار أو للفجـار وأدَّاها كما تحملها ولم يخن فيها ما تـورط اليهود فيما تورطوا فيـه، ولسلمت المجتمعات من كثير من الشرور والآثام، وفي تصـدير هـذه الآية الكريمـة المعدودة من أمهـات آيات الأحكـام المتضمنة لجميع الشرع والـدين بكلمة التحقيق والتـوكيد وإظهـار الاسم الجليل بَدل الضمير، والتعبير بقوله عز وجل: ﴿يأمركم﴾ في كل ذلك تفخيم وتوكيـد على وجوب رعـاية الأمانـة والتحذير الشـديد من خيـانتها، وتنقسم الأمـانـات إلى ثـلاثـة أقسـام، الأول: رعايـة الأمـانـة في عبـادة الله بإخلاص توحيـده والمحافظة على شريعته، وصيـانتها من التضييع، وأدائها على الوجه المشروع، الثاني: رعاية الأمانة مع نفسه بصيانة ما أنعم الله عليه به من الأعضـاء فيحفظ لسانـه من الكـذب والغيبة والنميمـة والبهتان وسـائر آفات اللسـان، ويحفظ عينه عـن النظر إلى مـاحرَّم الله، ويحفظ يـده ورجله وسائر أعضـائه عن أن يرتكب بها معصية مـن معاصي الله، الثالث: رعـاية الأمانة مع سائر عباد الله من المؤمنين والكافـرين وما تحت يده من الحيوانات والبهـائم وسائر مـا ولاه الله عز وجل عليـه وقـد عظم الله تبارك وتعـالى شأن الأمانة في مواضع من كتابه الكـريم حيث يقول هنا ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمـانات إلى أهلهـا﴾ وقال: ﴿إنـا عـرضنا الأمـانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يَحْمِلْنَهَـا وأشفقن منها وحملهـا الإنسان﴾ وقـال عز وجل:

﴿والـذين هم لأمـاناتهم وعهـدهم رَاعُـونَ . ﴾ في سـورة المؤمنون وفي سـورة المعارج وقـال عز وجل : ﴿يـا أيها الذين آمنوا لا تخونـوا الله والرسـول وتخونوا أماناتِكم وأنتم تعلمون . ﴾ كما أشار رسـول الله ﷺ إلى عِظَم شأن الأمانة فقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي هريرة رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : آيةُ المنافق ثلاث : إذا حدَّثَ كذب و إذا وعد أخلف و إذا اؤْتُمِنَ خان .

وجاء في الصحيحين من حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ أن الأمانة نزلت في جَذْر قلوب الـرجال . . الحديث ، كما أخرج مسلم من حديـث حذيفة وأبي هريرة عن رسول الله ﷺ في حديث الشفـاعة : فيأتون محمدا ﷺ فيقومُ فيؤذن له ، وتُرْسَلُ الأمـانةُ والرحمُ فيقومـان جَنْبَتَي الصراط يمينا وشمالا . الحديث .

وقـوله تعـالى : ﴿و إذا حكمتم بين الناس أن تحكمـوا بالعـدل﴾ أي و إن الله يأمركم إذا قضيتم بين النـاس أن تقضُوا بالقسطـاس المستقيم وأن يكون أكْبرُ هَمِّكُم إيصالَ الحق إلى مستحقه مهما كان ، كما قـال عز وجل : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ وكما قال : ﴿و إذا قلتم فاعـدلوا ولو كان ذا قربى﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿فـاحكم بين النـاس بـالحق ولا تتَّبع الْهَوَى﴾ ولا شك أن العدل هو أساس عز الأمم والدول والشعوب وسبب بقائها وازدهارها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . ﴾ هو ثناءٌ من الله عز وجل على ما يشرعه لعباده من أصول السلوك والمعاملات والقضاء وأنَّ نعم الموعظة ما يعظ الله عز وجل بها خلقه وهو السميع البصير.

قال تعـالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلا . ﴾

بعـد أن أمر الله عـز وجل جميع المكلفين سـواء كـانوا رعـاةً أو رعيَّـةً بأداء الأمانـات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بـالعدل ، أمـر عز وجل هنا الـرعية بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وطاعة منْ ولاه الله عز وجل أمرهم منهم ، وهذه الآية الكـريمة مع الآية السـابقة تنتظم بها السيـاسة الشرعية الـرشيدة ، التي تُسعد البـلاد والعباد ، ويتمتع الناس في ظلهـا بالأمن والاستقـرار ، وقد ألَّف شيخ الإسلام ابن تيميـة رحمه الله رسالتـه المعروفة بـاسم «السياسـة الشرعية» وجعل مبنـاهـا على هاتين الآيتين الكـريمتين حيث قـال في صـدرها : هـذه رسالةٌ مُخْتَصَرَةٌ ، فيها جوامعُ من السيـاسة الإلهية والآيات النبوية ، لا يستغني عنها الراعي والرعية ، اقتضاها مَنْ أَوْجَبَ اللهُ نُصْحَهُ مِن وُلاَةِ الأمور ، كما قال النبي ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه في صحيح مسلم وغَيْرِهِ : «إن الله يَرْضَى لكم ثلاثا : أن تعبدوه ولا تشركوا بـه شيئا ، وأن تَعْتَصِمُوا بحبل الله جميعا ولا تَفَرَّقُـوا ، وأن تناصِحُوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أَمْرَكـم ، وهذه الرسالـةُ مبنيةٌ على آيتين في كتاب الله ، وهي قـوله تعـالى : ﴿إن الله يأمركم أن تُـؤَدُّوا الأمانـات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكمـوا بالعـدل ، إن الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به ، إن الله كان سميعا بصيرا . يا أيها الذين آمنـوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فَرُدُّوهُ إلى الله والرسـول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذٰلك خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَـأْوِيلا . ﴾ اهـ . وقـد نزلت هذه الآية الكـريمة في عبـد الله بن حُـذَافـة بن قيس بن عَـدِيٍّ السَّهْمِيِّ إذ بعثـه رسـول الله ﷺ في سريـة ، فقد روى البخـاري ومسلم في صحيحيهما من حـديث عبـد الله بن

عباس رضي الله عنهما ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية. كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ سرِيَّةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجْمَعُوا لي حطبا، فَجَمَعُوا له، ثم قال: أَوْقِدُوا نارا، فَأَوْقَدُوا ثم قال: ألم يَأْمُرْكُمْ رسول الله ﷺ أن تسمَعُوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بَلَى، قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضُهم إلى بعض، فقالوا: إنما فَرَرْنَا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك وسَكَنَ غَضَبُهُ، وطُفِئَت النارُ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف. ومعنى: ﴿أطيعوا الله﴾ أي انقادوا لتعاليم كتابه، ومعنى: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ أي واتبعوا سنته ﷺ، ومعنى: ﴿وأولي الأمر منكم﴾ أي وأطيعوا أمراءكم وعلماءكم الذين يستنبطون الأحكام الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن أصول الدين وقواعده، وقد حضَّ رسول الله ﷺ على طاعة ولي الأمر وحذر أشد التحذير من معصيته مادام لم يأمر بمعصية الله عز وجل، واعتبر رسول الله ﷺ طاعة الأمير من طاعة رسول الله ﷺ، ومَعْصِيته من معصية رسول الله ﷺ فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عَصَى اللهَ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عَصَى أميري فقد عصاني. وفي لفظ للبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عَصَى الله، ومن يُطع الأميرَ فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصاني. وفي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع

اللهَ، ومن يَعْصِني فقـد عَصَى اللهَ، ومن يطع الأميرَ فقـد أطـاعني، ومَنْ يَعْصِ الأميرَ فقد عصـاني. وبهذا يتأكد وجـوبُ طاعة الأمير مـادام لم يأمرك بمعصية الله فإن أمـرك بمعصية فـلا طاعـة لمخلوق في معصيـة الخالق تبارك وتعالى. ولذلك روى البخاري ومسلم مـن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أَحَبَّ وكَرِه إلا أن يُؤْمَرَ بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصيـة فلا سَمْعَ ولا طاعةَ. كما روى البخاري ومسلم من طريق جُنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عُبَادة بن الصامت وهو مـريض، قلنـا: أصلحك الله، حَدِّثْ بحـديث ينفعك الله بـه سمعتَـه من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فقال فيما أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرنا ويُسرنا، وأَثَرة علينا وألا نُنَازِعَ الأمـرَ أهلـهُ، إلا أن تَرَوْا كُفْـرًا بَـوَاحًـا عندكـم من الله فيه بُـرْهَـانٌ، كما روى البخاري من حـديث أنس رضي الله عنه قـال: قال رسـول الله ﷺ: اسْمَعُوا وأطيعـوا و إن اسْتُعْمِلَ عليكم عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كـأنَّ رأسَه زَبِيبَـةٌ. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنـه قال: قال رسول الله ﷺ: عليك السَّمْعُ والطـاعةُ في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشَطكَ ومَكْـرَهِكَ، وأَثَـرَةٍ عليك، كما روى مسلم من حـديث أبي ذر رضي الله عنـه قـال: إن خليلي أوصـاني أن أَسْمَعَ وأُطِيعَ و إن كان عبداً مُجَدَّعَ الأطراف. وفي لفظ: و إن كان عبدا حبشيا مُجَدَّعَ الأطراف كما روى مسلـم في صحيحه من حديـث أم الحُصَيْن رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يَخْطُبُ في حجـة الوداع وهو يقـول: ولو اسْتُعْمِلَ عليكم عبدٌ يَقُـودُكُمْ بكتاب الله فـاسمعوا لـه وأطيعوا. وقـد أوجب الإسلام طاعة وليِّ الأمـر حتى لو ضرب ظهرك وأخذ مـالك بغير حق، وأن من خرج على وليِّ الأمـر فمات على ذلك فميتتـه ميتـة جاهليـة، فقـد روى البخـاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من رأى

من أميره شيئا يكرهه فَلْيَصْبِرْ عليه، فإنه مَن فارق الجماعةَ شبراً فمات إلا مات مِيتَةً جاهليةً، وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: مَنْ كَرِهَ من أميره شيئا فَلْيَصْبِرْ، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات مِيتَةً جاهِلِيةً، كما روى البخاري ومسلم من طريق أبي إدريس الخَوْلانيِّ قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن يُدْرِكَنِي، فقلت: يارسول الله إنا كُنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نَعَمْ، قلتُ: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دَخَنٌ، قلت: وما دَخَنُهُ؟ قال: قومٌ يَهْدُون بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وتُنكرُ، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نَعَمْ، دُعَاةٌ على أبواب جَهَنَّمَ مَنْ أجابهم إليها قَذَفُوهُ فيها، قلتُ: يارسول الله صِفْهُمْ لنا، قال: هم من جِلْدَتِنَا، ويتكلمون بألسنتنا، قلت: فما تأمُرُني إن أدركني ذلك؟ قال: تَلْزَم جماعة المسلمين وإمَامَهُم، قلتُ: فإن لم يكن لهم جماعةٌ ولا إمامٌ؟ قال: فاعْتَزِلْ تلك الفِرَقَ كلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يُدْرِكَكَ الموتُ وأنت على ذلك. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلاَّم قال: قال حذيفة بنُ اليمان: قلتُ: يارسول الله إنَّا كنا بِشَرٍّ فجاء الله بخير فنحن فيه، فهل من وَرَاءِ هذا الخير شرٌّ؟ قال: نعم، قلتُ: هل وراء ذلك الشر خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال نعم، قلت: كيف؟ قال: يكونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، ولا يَسْتَنُّونَ بسنتي، وسيقوم فيهم رجالٌ، قُلُوبُهم قُلُوبُ الشياطين في جُثْمَانِ إِنْسٍ، قال: قلتُ: كيف أَصْنَعُ يارسولَ الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمعُ وتُطيعُ للأمير، وإن ضُرِبَ ظهْرُكَ وأُخِذَ مَالُك فاسْمَعْ وأَطِعْ. وقولُه تبارك وتعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ بعد أن بين الله تبارك وتعالى الأساس

الأول للنظام في الإسلام، وأنه مَبنيٌّ على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من المسلمين المنقادين لأمـر الله وأمر رسوله ﷺ الدائرين في فَلكِ الإسلام، ذكر هنا قاعدة كلية تضبط نظام المسلمين وتحميهم من التنافر والتشتت والتفـرق وتنـدرج تحتهـا جميع الجزئيـات من الحوادث التي تحدث للمسلمين والتي قد تثير بينهم نزاعاً واختلافـاً تختلف بسببه قلوبهم وتختل به وحدتهم، وتتفـرق به كلمتهم وأمـرهم، حيث بين عز وجل أنـه يتحتم على المسلمين إذا اختلفوا في مسألة من المسائل ألا يقولوا فيها قولا أو يحكموا فيها بحكم من تلقـاء أنفسهم أو اتبـاعاً لشهـواتهم بل عليهم أن يـرجعـوا في كل مسألـة أو فتـوى أو حكم إلى كتـاب الله عـز وجل إن كـان حكم المسألـة منصـوصـاً فيه، فإن لم يكـن حكم المسألة منصـوصـا فيـه وجب عليهم أن يـرجعوا إلى سنـة رسـول الله ﷺ إن كـان الحكم منصوصـا فيهـا فإن لم يجدوا الحكم منصوصا في كتاب الله أو في سنـة رسول الله ﷺ ردوه إلى القواعد التي دل عليها كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو إلى ما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ أو إلى أهل الحل والعقد من المسلمين القادرين على استنباط الأحكام من أصول الإسلام وقواعده العامة، كما قال عز وجل: ﴿ولو رَدُّوهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لَعَلِمَه الذين يستنبطـونه منهم﴾ وعليهم أن يضرعوا إلى الله عند الاختلاف ويسألوه أن يهديهم إلى الحق، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقـد روى مسلم من طريـق أبي سلمة بن عبـد الـرحمن بن عوف قـال: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قـالت: كـان إذا قـام من الليل افتتح صـلاتـه: اللهم ربَّ جَبْرَائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ فاطرَ السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدِني لما اخْتُلِفَ فيه من الحق بإذْنِكَ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. وقد وصف الله عـز وجل الذين يرجعون

عند الاختـلاف إلى كتاب الله و إلى سنة رسول الله ﷺ بأنهم هم المؤمنـون بالله واليوم الآخـر وأنهم سيحمدون العاقبـة حيث يقول : ﴿إن كنتم تؤمنـون بالله واليوم الآخر، ذُلك خير وأحسن تأويلا﴾ أي إن التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو أفضل منهج تنهجه الإنسانية وهو أحسن عاقبة ومآلاً.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِل مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلى الرسُولِ رَأَيْتَ المنافقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا. فَكَيْفَ إِذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثم جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بالله إِنْ أَرَدْنَا إلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا. أُولَئِكَ الذين يَعْلَم اللهُ مَا فى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فى أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَليغًا.﴾

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى العباد إلى قواعد السياسة الشرعية الرشيدة التي تُسعد البلاد والعباد ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار، حيث يكون مرجعهم في جميع قضاياهم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ مع طاعة ولي الأمر الذي يقودهم بكتاب الله ويسلُك بهم هدى النبي ﷺ، وأنهم إن تنازعوا في شيء ردُّوه إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وقد ذكر عز وجل أن هذا المنهج هو خير المناهج على الإطلاق وأنه أحسن الأنظمة في الحال والمآل، شرع هنا في التنديد والتوبيخ والتعجيب ممن يرغب عن هذا المنهج القويم والصراط المستقيم، ويتمرد ويعدل عن شرع الله الحكيم العليم الخبير، ويرغب في التحاكم إلى غير الكتاب والسنة، ويرضى بالانقياد للطاغوت والشيطان، ولو كان هذا المنحرف إلى الطاغوت مبارزاً بالعداوة لله ورسوله مُظهراً للكفر والتكذيب لهان الأمر، لأنه يصير كما قيل في المثل «شِنْشِنَةَ معروفة من أخزم» لكن العجب العجاب أن يصدر هذا ممن يدعي الإيمان بالله وما نُزل على محمد ﷺ من القرآن وما نزل على الأنبياء السابقين. وهذا من أبرز أدلة جهلهم وتناقضاتهم، وأظهر أمارات نفاقهم وتذبذبهم. وظاهر قوله عز وجل: ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أُنْزِلَ إليك وما

أُنْزِلَ من قبلك يريـدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أُمـروا أن يَكْفُروا به﴾ يعم جميع من عدل عن الحكم أو التحـاكم بالكتاب والسنة إلى مـا سواهما، سواءٌ كـان عربياً أو أعجمياً، وسـواءٌ كان ما يحكم بـه أو يتحاكم إليه قانـوناً وضعياً، أو شخصـاً معيناً أو غير معين، فإن الحكم والتحاكم بـالكتاب أو السنة هو الحق وماذا بعد الحق إلا الباطل والضلال، وهو المراد بالطاغوت، فمن حكم أو احتكم إلى غير شرع الله فهو كافر بالله مـؤمن بالطاغوت، وقد أمـر الله عز وجل جميع المكلفين أن يـؤمنوا بـالله ويكفروا بـالطاغـوت وبعث بذلك جميع رسله وسـائر أنبيائه، كما قال تبارك وتعـالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسـولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغـوت﴾ ولاشك أن من لم يرض بحكم الله يكون منقـاداً للشيطان، ولذلك ذيل الله عـز وجل هذه الآية بقولـه تبارك وتعالى: ﴿ويـريدُ الشيطان أن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلا بعيـدا﴾ أي ويحرص الشيطان عـدُوُّ الناس على إلقـائهم في المهالك، وإبعـادهم عن صراط الله المستقيم، وحرمانهم من أسباب هداهم، وصـدِّهم عما يسعدهم في العاجلة والآجلة، ومعنى: يزعمون أي يدَّعُون زُوراً وكذباً، وأكثر ما يستعمل في القول الذي لا تتحقق صحتـه، والتعبير بقولـه: ﴿يريـدون أن يتحاكمـوا إلى الطاغـوتِ﴾ إشعارٌ بأن مجرد الرغبـة في التحاكم إلى الطاغوت كفـر فما بالك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعـلا؟ فذلك لا شك أقبح وأبشعُ وأعظم جُـرماً وأشـدُّ كفرا، وقـوله عـز وجل: ﴿وإذا قيل لهم تعالَـوْا إلى ما أنـزل الله وإلى الرسـول رأيت المنافقين يَصُـدُّونَ عنك صُدُودًا﴾ زيادةٌ في بشاعتهم ببيـان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى شرع الله بعـد بيان إعراضهم عن ذلك بـرغبتهم في التحاكم إلى الطاغوت وكان مقتضى السياق أن يقال: رأيتهم يصدون عنك صدودا، لكن مقتضى الحال اقتضـى وضع الاسم الظـاهـر حيث قـال: ﴿رأيت المنافقين﴾ بدل الضمير لتسجيل صفة النفـاق عليهم، وأنهم كذبةٌ في دعوى

الإيمان بما أُنزِل إلى الرسول وما أنزل من قبله ﷺ، وقد بين الله تبارك وتعالى أنه لا ينحرف عن التحاكم إلى شرع الله إلا الظالمون الذين في قلوبهم مرض، أو المرتابون، أو الذين يسيئون الظنَّ بالله ورسوله ويخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله حيث يقول عز وجل في سورة النور: ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذٰلك، وماأولَئك بالمؤمنين. وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذَا فريقٌ منهم مُعْرِضُونَ* وإن يكن لهم الحقُّ يأتُوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مَرَضٌ أم ارتابوا أم يخافون أن يَحِيفَ الله عليهم ورسولُه، بل أولَئك هم الظالمون. إنما كان قولَ المؤمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولَئك هم المفلحون. ومن يُطِعِ اللهَ ورسولَه ويَخْشَ اللهَ ويَتَّقْهِ فأولَئك هم الفائزون﴾ وبهذا يتقرر أشد التقرير أن من يُعْرض عن الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يُعْرِضُ بسبب عيب في هذا النظام المحكم المتقن الدقيق الوافي الشافي الكافي الصالح لكل زمان ومكان وجيل وقَبِيل، وإنما يُعْرِضُ بسبب علة في نفسه، ومرضٍ في قلبه، وسوء ظن بالله ورسله، ولذلك وصفهم الله عز وجل بأنهم الكافرون الظالمون الفاسقون حيث يقول عز وجل: ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الكافرون﴾ ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الظالمون﴾ ﴿ومَنْ لم يحكم بما أنزل الله فأولَئك هم الفاسقون﴾ كما وصفهم بأنهم يُحِبُّون حكم الجاهلية العمياء وأهواءَها، ويفضلونها على شرعة ومنهاج أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين حيث يقول عز وجل: ﴿أفحكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ. ومَنْ أحْسَنُ من الله حُكْماً لِقَوْم يوقنون﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتابه الكريم إلى أن الإعراض عن منهاج الله وشرعته يَجْلِبُ للمعرضين مصائب وبلايا ونكبات في العاجلة كما يؤدي بهم إلى عذاب الجحيم في الآجلة حيث يقول هنا: ﴿فكيف إذا أصابتهم مُصِيبةٌ بما قدمت

أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿وأنِ احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يَفْتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تَولَّوا فاعلم أَنَّما يُرِيدُ اللهُ أن يُصيبَهُمْ ببعض ذنوبهم وإنَّ كثيراً من الناس لفاسقون﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ أي فكيف يكون حال هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ويُعرضون عن شرعة الله ومنهاجه كيف يكون حال هؤلاء المجرمين إذا أنزل الله بهم بعض العقوبات العاجلة، بسبب إعراضهم عن شرعة الله ومنهاجه، وأحل بهم الذِّلَّة والهوان وجعل للمسلمين العزة والسلطان ثم جاءوك بعد أن أيقنوا أنهم لا طاقة لهم بمعارضة شريعتك، وإظهار العداوة لك، واضطرارهم لمصانعتك، وأخذوا يحلفون بالله كذباً وزوراً أنهم ما يرغبون عن شريعتك تكذيباً لك وأنهم إنما تحاكموا إلى ما تحاكموا إليه إحساناً منهم ومداراةً ومصانعة وتجميعاً للقلوب، وهؤلاء المنافقون الذين يحلفون بهذه الأيمان الكاذبة يحكمون على أنفسهم بأنهم لم تَرْدَعْهُم النِّقَمُ التي حلت بهم، وأنهم مستمرون على نفاقهم وخبث طويتهم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافقين أنهم لا يَرْدَعُهُمْ عن النفاق العِبَرُ والنِّقَمُ، وأنهم إن تأتهم عقوبةٌ من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم يُنيبُوا ولم يتوبوا، ولكنهم يحلفون بالله كذباً وجُرْأَةً على الله: ما أردنا باحتكامنا إليه إلاَّ الإِحْسَانَ من بعضنا إلى بعض، والصواب فيما احتكمنا فيه إليه اهـ. ولاشك أن عموم المعاصي تجلب على مرتكبيها المصائب والنكبات كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويَعْفُواْ عن كثير﴾ وقد تكون المعصية خاصةً وتصيبُ أوضارُها العامةَ كما قال عز وجل: ﴿واتقوا فتنة لا تُصيبَنَّ

الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ لكن تهديد الله عز وجل للذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت بما تَهَدَّدهم به من إصابتهم بالمصائب والنكبات إشعار للناس بخطورة التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله وبيان لغائلة هذه الجريمة ووخامة عاقبتها . وقوله تبارك وتعالى : ﴿أولَئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعِظْهُمْ وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا . ﴾ قد تضمنت هذه الآية الكريمة جملة اسمية وثلاث جمل فعلية وقد اشتملت الجملة الأسمية وهي قوله عز وجل : ﴿أولَئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ على لون من الوعيد الشديد لأولئك المنافقين أي هؤلاء الأباعد المجرمون لا يخفى على الله عز وجل شيء مما اشتملت عليه قلوبهم من الكفر والكذب والنفاق وسوء الأخلاق والزيغ والضلال وفنون الشر والفساد ولن يفلتوا من عذاب الله إن استمروا على ما هم عليه ولم يُغيِّروا ما في قلوبهم ، أما الجمل الفعلية الثلاث وهي قوله عز وجل : ﴿فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ فقد رسمت لرسول الله ﷺ أحسن المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين ، فالجملة الأولى وهي قوله عز وجل : ﴿فأعرض عنهم﴾ تطلب من رسول الله ﷺ ألا يعبأ بانحرافهم ونفاقهم وألا ينزعج لما يشاهده من سوء سلوكهم وألا يحزنَ لما يسمعه منهم وما يراه من إقبالهم على الطاغوت وإعراضهم عن شرعة الله كما قال عز وجل : ﴿وأعرض عن المشركين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فاصدع بما تُؤْمَرُ وأعرض عن المشركين . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فأعرض عن مَنْ تولى عن ذكرنا ولم يُرِدْ إلا الحياة الدنيا﴾ أما الجملة الفعلية الثانية فهي قوله عز وجل : ﴿وعِظْهُمْ﴾ أي وذكِّرْهُم بما يليِّن قلوبهم على طريق الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وأنذرهم وخوفهم بأس الله وعقوبته ، ورغبهم فيما أعد الله عز وجل للتائبين

من ذنوبهم الراجعين عن غيهم وضلالهم، أما الجملة الثالثة من الجمل الفعلية التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة فهي قوله عز وجل: ﴿وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا﴾ أي وليكن حديثك معهم ووعظك لهم بالكلام المؤثِّر الذي يخالط نفوسهم ويستولى على مشاعرهم، ويأخذ بألبابهم، والخطاب وإن كان موجهاً لإمام البلغاء وسيد الفصحاء، من أوتي جوامعَ الكلم محمدٍ ﷺ فهو إرشاد لجميع الواعظين، أن يختاروا أبلغ الكلام وأفصحه وأن يبتعدوا عن المستهجن الركيك. والبلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، أو هي حُسن العبارة مع صحة المعنى، من غير إطناب ممل ولا إيجاز مُخل ولذلك قيل: خير الكلام ما قل ودلَّ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا. فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

بعد أن ندَّد الله عز وجل بمن يدَّعي الإيمان بكتب الله المنزلة على الأنبياء ثم يرغب في التحاكم إلى الطاغوت، وأنذر هؤلاء بمصائب تصيبهم وبلايا تلحق بهم وبكل من يتحاكم إلى الطاغوت إلى يوم القيامة، وتوعدهم بأنه عز وجل لا تخفى عليه ما انطوت عليه قلوبهم من الشر والفساد، وأرشد حبيبه ورسوله وسيد خلقه محمدا ﷺ إلى أفضل المناهج التي يسلكها في التعامل مع هؤلاء المنافقين، أعلن هنا أنه ما أرسل أحداً من رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم إلا لتحتكم أممهم إلى مناهجهم، وأنه يتحتم على كل من يدعي الإيمان أن يلتزم بطاعة الرسول الذي يكون حظه من الأنبياء، ثم أشار تبارك وتعالى إلى أنه يفتح باب التوبة أمام من ظلم نفسه بأي نوع من الظلم وبخاصة من أراد التحاكم إلى الطاغوت، بعد أن منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم وأنزل عليه أعظم نظام عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل دقة وعدلاً وشمولاً ووفاءً بجميع ما يحتاجه الناس في كل عصر ومصر وجيل وقبيل. وحضَّ عز وجل هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بأن يجيئوا إلى رسول الله ﷺ ويُعلنوا توبتهم من الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت، ويطلبوا من الله عز وجل أن يغفر لهم جريمتهم وأن يتوب عليهم، ولو فعلوا ذلك لاستغفر لهم رسول الله ﷺ ولوجدوا الله تواباً رحيما يقبل توبة التائبين وهو أَرحم الراحمين. وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وماأرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ الآية. وإذن الله تبارك وتعالى ينقسم إلى إذن كوني وإذنٍ

ديني شرعي فالإذن الكوني بمعنى قضائه وقدره ومشيئته وقدرته، ومنه قوله عز وجل: ﴿وما هم بضارِّينَ به من أحد إلا بإذن الله﴾ أي بمشيئته وقدرته وقضائه وقدره. وأما الإذن الديني الشرعي فهو بمعنى ما أذن الله عز وجل به وأباحه وشرعه وأمر به وذلك كقوله عز وجل: ﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾ أي مالم يشرعه عز وجل، وكقوله عز وجل: ﴿ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه﴾ أي بأمره عز وجل، وكذلك قوله تبارك وتعالى هنا: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ أي وما بعثنا في أمة من نذير إلا وجبت طاعته على أمته بأمر الله تبارك وتعالى. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لَوَجَدُوا الله توابا رحيما.﴾ ترغيبٌ وإرشادٌ وحض لمن ظلم نفسه حيث رَغِبَ في التحاكم إلى الطاغوت أن يتوب من هذه الجريمة وأن يجيء معتذرا عما بَدَرَ منه ويستغفر الله عز وجل من هذه المعصية الموبقة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واستغفر لهم الرسولُ﴾ إذنٌ من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالاستغفار لمن جاءه معتذراً من خطيئته، ولاشك أن من حصل منه هذا المجيء والاعتذار صادقا واستغفر له رسول الله ﷺ كان حريا بتوبة الله عز وجل عليه وعفوه تبارك وتعالى عنه، وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك﴾ الآية، إشعار لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بتقصيرهم في حق رسول لله ﷺ حيث لم يرضوا بالتحاكم إليه، وصدوا عنه صدودا، بأن من جملة توبتهم أن يجيئو إلى رسول الله ﷺ معتذرين عما بدر منهم في حقه ﷺ، وفي ذلك كسر لشهوات جموحهم، وإعزاز لرسول الله ﷺ، وقد فهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ أن هذا المجيء إلى رسول الله ﷺ خاص بحال حياته صلوات الله وسلامه عليه، وأنه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى لا يجيء أحد إلى قبره ليطلب منه الاستغفار له، ولذلك لم يؤثر بسند

صحيح عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك، وأما الحكاية المكذوبة المنسوبة إلى العتبي الأخباري المتوفى ٢٢٨ هـ فهي روايةٌ عن أعرابي مجهول، بنيت على منام، ومثلها لو كان حديثا أو أثرا عن صحابي لم يجز الاحتجاج به وبناء الأحكام عليه ولاسيما في الأبواب المؤدية إلى الشرك بالله عز وجل، على أن الله تبارك وتعالى قد أخبر عن المنافقين الذين كانوا يجيئون إلى رسول الله ﷺ معتذرين عن تخلفهم عن الغزو معه ويطلبون من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم بأنهم لن ينفعهم استغفار رسول الله ﷺ لهم حيث يقول: ﴿اسْتَغْفِرْ لهم أولا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم﴾ على أن العتبي وهو محمد بن عبيد الله بن عمرو الأموي من ذرية عتبة بن أبي سفيان بن حرب كان أحد شعراء البصرة ولم يكن معدوداً في أهل الحديث وإنما كان من رجال الأدب. وقد وصف ابن عبد الهادي في كتابه الصارم المُنكي هذه الحكاية بأنها مختلقة مكذوبة حيث قال: ليست هذه الحكاية مما تقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، ولفظها مختلف أيضاً، وقال أيضاً: هذه الحكاية خبر منكر موضوع وأثر مختلق مصنوع، لا يصلح الاعتماد عليه، ولا يحسن المصير إليه، وإسنادها ظلمات بعضها فوق بعض، وليست بصحيحة ولا ثابتة إلى العتبي، وقد رُويت عن غيره بإسناد مظلم اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا مما قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تسليما.﴾ هذا قسم من الله عز وجل بأجَلِّ مُقْسَم به وهو نفسه المقدسة بوصف وعنوان ربوبيته لأفضل خلقه محمد ﷺ على أنه لا يثبت لأحد مهما كان إيمان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكامه في جميع ما يحتكم فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشرح صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجًا من أي حكم من أحكامها، بل يكون تَلَقِّيه له بالقبول والرضى

وانشراح الصدر، وأن يُسلم بذلك تسليما وينقاد انقياداً، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجار فلاحاً وسعادةً وعدلاً وإنصافاً وحقًّا، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: «فلا» فليس الأمر كما يزعمون: أنهم يؤمنون بما أُنزل إليك، وهم يتحاكمون إلى الطاغوت ويصدون عنك إذا دعوا إليك يامحمد — واستأنف القسم جل ذكره فقال: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يامحمد — ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بي وبك وبما أُنزل إليك — ﴿حتى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينهم﴾ يقول: حتى يجعلوك حَكَمًا بينهم فيما اخْتَلَطَ بينهم من أمورهم، فالتبس عليهم حكمه يقال: شَجَرَ يَشجُرُ شُجُورًا وشَجْرًا، وتشاجر القومُ إذا اختلفوا في الكلام والأمر مُشَاجَرَةً وشِجَارًا، ﴿ثم لا يَجِدُوا في أنفسهم حَرَجًا مما قَضَيْتَ﴾ يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما قضيت، وإنما معناه: ثم لا تحرج أنفسهم مما قضيت — أي لا تأثم بإنكارها ما قضيت، وشكِّها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حقٌّ لا يجوز لهم خلافه اهـ. وقد ثبت في الصحاح أن هذه الآية نزلت في خصومة كانت بين الزبير بن العوام ورجلٍ من الأنصار في شرْجٍ من شراج الحرة، والشَّرْجُ مَسيلُ الماء من الحرة إلى السهل، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية تشمل قصة الزبير مع الأنصاري كما تشمل كل ما شجر بين المسلمين من خصومة في أي شيء إلى يوم القيامة، وقد ساقها الله عز وجل على سبيل التعميم حيث قال: ﴿فيما شجر بينهم﴾ ومامن أدوات العموم، وقد روى البخاري في الشِّرْبِ ومسلم في الفضائل من طريق الليث عن ابن شهاب عن عروة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه حدثَّه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل فقال الأنصاري: سَرِّح الماءَ يَمُر، فَأَبَى عليه، فاختصما عند النبي ﷺ،

فقال رسول الله ﷺ للزُّبير: اسْقِ يـازبيرُ ثم أرسل الماء إلى جـارك ، فغَضِبَ الأنصاريُّ فقال : أَنْ كـان ابن عمتك ؛ فتَلَونَ وجـهُ رسول الله ﷺ ثم قـال : اسق يـازبيرُ ثـم احْبِسِ الماء حتى يَـرْجِعَ إلى الجدر، فقـال الـزبير: والله إني لأَحْسِبُ هذه الآية نَزَلَتْ في ذلك : ﴿فلا وَربِّك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجـر بينهم﴾ وقد أخـرجـه البخاري في بـاب شِربِ الأعلى إلى الكعبين من طريق ابن جريج قال : حدثني ابن شهـاب عن عروة بن الزبير أنه حدثه أن رجلاً من الأنصـار خاصم الـزبيرَ في شِرَاجِ من الحرة يسقى بها النخلَ، فقال رسـولُ الله ﷺ : اسْقِ يازبير، فأمـره بالمعـروف، ثم أَرْسِلْ إلى جارك ، فقـال الأنصاريُّ : أَنْ كان ابنَ عمتك؟ فتَلَونَ وجهُ رسول الله ﷺ ثم قال : اسقِ ثم احْبِسْ حتى يرجعَ الماءُ إلى الجَدْر، واستـوعي له حقَّهُ، فقـال الزبير: والله إنَّ هذه الآية أُنْـزِلت في ذلك : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتـى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ ، قال لي ابن شهاب : فقدرَّت الأنصارُ والناسُ قولَ النبي ﷺ : اسق ثم احبس حتـى يـرجعَ إلى الجَدْر، وكـان ذلـك إلى الكعبين. الجَدْرُ هـو الأصل. كما أخرجه البخاري في الصلح في باب إذا أشار الإمامُ بالصلح فأبىَ حَكَمَ عليه بالحكم الْبَيِّنِ من طريق شعيب عن الزهري قال : أخبرني عروةُ بن الزبير أنَّ الـزبير كان يحدث أنـه خاصم رجلاً من الأنصـارقد شهـد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شراج من الحرة كانا يَسْقيـان به كِلاَهُما ، فقال رسول الله ﷺ للـزبير: اسق يـازبير ثم أَرسِلْ إلى جـارك ، فَغَضِبَ الأنصـاريُّ، فقـال : يارسولَ الله أَنْ كان ابنَ عمتك؟ فتَلَوَّنَ وجـهُ رسول الله ﷺ ثم قال : اسق ثم احْبِسْ حتى يبلغ الجَدْرَ، فاستوعى رسول الله ﷺ حينئـذ حقه للزبير، وكان رسـول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الـزبير بـرأي سعة لـه وللأنصـاري، فلما أحفظ الأنصاريُّ رسول الله ﷺ استوعى للـزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة : قال الزبير: والله ما أَحْسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك : ﴿فلا وربك

لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ الآية. وأخرجه البخاري في التفسير من طريق مَعْمَر عن الزهري عن عروة قال: خاصم الزبيرُ رجلا من الأنصار في شَرِيج من الحرة فقال النبي ﷺ: اسق يازبير ثم أرسل الماءَ إلى جارك، فقال الأنصاريُّ يارسول الله أَن كان ابنَ عمتك فتلون وجهه ثم قال: اسق يازبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْر ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى النبيُّ ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، كان أشار عليهما بأمر لهما فيه سعةٌ، الحديث وقد صرح البخاري في التاريخ الكبير ومسلم في كتاب التمييز بسماع عروة من أبيه. وقد أشرت آنفا إلى أن نزول هذه الآية في خصومة الزبير والأنصاري رضي الله عنهما لا يمنع من أن حكمها عام، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ ما فَعَلُوه إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا. وَإِذًا لأَتَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مستقيما. وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مع الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وحَسُنَ أولَئِكَ رَفِيقا. ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ، وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا.﴾

بعد أن أقسم عز وجل بذاته المقدسة مُعنونًا بربوبيته لسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ أنه لن يؤمن أحدٌ من المكلفين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ حتى يكون حكمه أو احتكامه محصوراً في شريعة محمد ﷺ وأن ينشرح صدره لجميع التعاليم والأحكام التي جاء بها رسول الله ﷺ، وأن ينقاد لذلك انقياداً ويسلم تسليما، أشار هنا إلى فضله على أمة محمد ﷺ حيث لم يجعل فيما شرعه لهم إصرًا ولا أغلالا، بل أراد بهم اليُسر ولم يرد بهم العسر، مع أن شأن العبد أن يكون في طاعة ربه، وأن يُسارع إلى امتثال أمره، حتى لو أمره بقتل نفسه أو الخروج من داره، لأن في طاعة العبد لربه فاطر السموات والأرض سعادة لا يحيط بها وصف الواصفين من عز الدنيا ونعيم الآخرة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَّا فَعَلُوه إلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا.﴾ أي ولو أنَّا فرضنا عليهم وأمرناهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم وأرضهم ما استجاب لذلك وسارع إلى امتثال أمر الله عز وجل إلا القليل من الناس ممن قد شرح الله صدورهم للإسلام وانقادوا لأمر الله فرخصت عليهم أنفسهم وأوطانهم في سبيل مرضاة ربهم، أما من استهواه الشيطان من الناس وهم كثير فإنه يصعب عليهم الامتثال لأمر الله ولاسيما إذا

كان الأمر شاقاً كقتل النفس أو الهجرة من الوطن، مع أن هؤلاء لو سارعوا إلى امتثال أمر الله مهما كان، وفعلوا ما يوعظون به من متابعة محمد رسول الله ﷺ وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهراً وباطناً لكان ذلك خيرا لهم في عاجلتهم وآجلتهم ودنياهم وأخراهم حيث يكتسبون الأجر العظيم والثواب الجزيل من الله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وحيث يؤدي رضاهم بشريعة محمد ﷺ إلى أمنهم واستقرارهم في ديارهم وأرضهم وما يُسبب ذلك لهم من رغد العيش والحياة الطيبة كما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتَّقَوْا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنْزِلَ إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتَّقَوْا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وكما قال عز وجل: ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً ولَنجْزِينَّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استخلف الذين مِنْ قبلهم ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتضى لهم ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بعد خوفهم أَمْنًا﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا على الطريقة لأَسْقَيْنَاهُم مَاءً غَدَقًا.﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم﴾ الآية إشعار بفضل الله على أمة محمد ﷺ حيث لم يأمرهم بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم بل كلُّ أوامر الله عز وجل لأمة محمد ﷺ جاءت بالتيسير ولم تأت بالتعسير، وَرَفَعَ عز وجل عن هذه الأمة الإصرَ والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فكيف يليق بعاقل أن يعدل عن التحاكم إلى هذه الشريعة العظيمة المشتملة على خير الدنيا والآخرة ويرغب في التحاكم إلى الطاغوت؟ وقوله عز وجل: ﴿وَإِذًا لأَ تَيْنَاهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا

مُسْتَقِيمًا . ﴾ هـذا بيانٌ لمزيـد فضل من الله عـز وجل لمن فعل مـا يوعظ بـه ، فانقاد واستجاب لأمر الله ونهيه ، وأقر بـوعده ووعيده والتزم بأحكام الشريعة الإسـلامية وكَفَـرَ بـالطـاغوت ، وأيقن أن منهج الله هـو خير المنـاهج ، وأن تشريعه الـذي بعث به خاتم أنبيـائه وأفضل رسله هـو أفضل تشريع وأكمله وأتمه وأصدقه ، فبعـد أن أخبرهـم بأن الانقياد لأمر الله وأمر رسـوله ﷺ سبب لخيرهم في دينهم ودنيـاهـم وأشد تثبيتـاً لهم على الحق وتحقيقاً لإيمانهم ، وقـوةً لعـزائمهم و إراداتهم ، وثباتـاً لقلوبهم عنـد مقارعـة جيوش البـاطل ، وورود الشبهـات والشهـوات المضلـة ، ودسـائس الشيطـان المرديـة ، مما يضيء للسـالكين إلى الله عز وجل سبيل سلـوكهم ، ويضع لهم منارات على طـريق مسيرتهم ، وقـد أشـار الله تبـارك وتعـالى إلى ذلك حيث يقـول : ﴿الله نـور السمٰوات والأرض ، مَثَلُ نـوره كمشكاة فيهـا مصبـاحٌ المصبـاحُ في زجاجـة الزُّجَاجَةُ كأنها كوكبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ من شجـرة مباركة زيتونة لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتُها يضيء ولو لم تَمْسَسْهُ نـارٌ، نور على نور، يَهْدِى الله لنوره مَنْ يشاء ، ويضربُ اللهُ الأمثـالَ للنـاس ، والله بكل شيء عليم . ﴾ فطـاعةُ الله وطـاعـة رسوله ﷺ هي سببُ ثبـاتِ القلبِ وقوةِ إرادته ونفاذ بصيرتـه . بعد ذلك كله أخبرهم تبارك وتعالى بقوله عز وجل : ﴿وإذًا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهدينـاهم صراطـا مستقيما . ﴾ فَبيَّن عز وجل بـذلك أنـه زادهم من فضلـه ثـوابين آخـرين على الانقياد لأمـر الله وأمـر رسـوله ﷺ وهما حصـول الأجـر العظيم لهم في الآخـرة ، وهـدايتُهُم الصراط المستقيم حيث يجعل الله لهم على الصراط يوم القيـامة نوراً ويُيسر لهم الورود والعبـور من فوق الجسر المضروب على ظهـر جهنم بعـد انتهـائهم مـن الموقف العظيم ، ويمـرون عليـه بقـدر نورهم ، فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلـة بيمينه ، ومنهم من يعطي دون ذلك

حتى يكون آخـر من يعطي نوره على إبهام قدمه يضيء مـرة ويطفأ مرة حيث يعطى كل إنسان نوره على قدر عمله، والصراط كحد السيف، دحض مَزَلَّةٌ وقد روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من طـريق عطاء بن يسـار عن أبي سعيـد الخدري في سؤالهم رسـول الله ﷺ: هل نـرى ربَّنَـا يـوم القيامـة. الحديث، وفيه: ثم يـؤتى بالجسْر، فَيُجْعَلُ بين ظَهْرَيْ جهنم، قلنا يـارسول الله، وما الجسْرُ؟ قال: مَـدْحَضَةٌ مَزَلَّة، عليه خطـا طيفٌ وكَلاليبُ وحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَـةٌ لها شَوْكَـةٌ عُقَيْفَاءُ تكـون بنجد يقـال لها: السَّعْدَانُ، المؤمنُ عليهـا كالطَّرْفِ، وكَـالْبَرْق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والـرِّكاب، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، ونـاجٍ مخدوشٌ، ومَكْـدُوسٌ في نـار جهنم، حتى يَمُـرَّ آخِـرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا. الحديث. وفي لفظ لمسلم: قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدقُّ من الشَّعـرة وأَحَدُّ من السيف. وقـوله تبـارك وتعـالى: ﴿ومن يطع الله والرسـول فأولـئـك مع الـــذين أنعم الله عليهم مـن النبيين والصـديقين والشهـــداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقـا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما.﴾ هذا بيانٌ لمزيـد فضل الله تبارك وتعالى على من أطاع الله وأطاع رسـوله محمدا ﷺ حيث بَشَّرهم عز وجل هنـا ببشارة عظمى وفـرحة كبرى وهي أن يجعلهم في جنـات النعيم مع النبيين والصـديقين والشهداء والصـالحين، وقـد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مـامن نبي يَمْـرَضُ إلا خُيِّر بين الدنيـا والآخرة، وكـان في شكواه الذي قُبِض فيه أخذته بُحَّةٌ شديدةٌ فَسَمِعْتُهُ يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهـداء والصـالحين، فعلمتُ أنـه خُيِّر. وهـؤلاء الأصنـاف الأربعة هم أهل السعادة الكاملة التي يجب على كل من يحب الخير لنفسـه أن يضرع إلى الله أن يحشره في زمـرتهم، ولذلك كـان بعض أصحـاب محمدٍ رسول الله ﷺ يلحُّ على رسول الله ﷺ في أن يسـأل الله له أن يجعله رفيقاً

له في الجنـة فقد روى مسلم في صحيحه من طـريق أبي سلمة قـال : حدثني ربيعة بن كعب الأسلمي قـال : كنتُ أَبِيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بِـوَضُوئه وحاجته ، فقال لي : سَلْ ، فقلت : أسـألك مُرَافَقَتَكَ في الجنة ، قال : أَو غَيْر ذلك قلتُ : هُـوَ ذاكَ ، قال : فَأَعِنِّـي على نفسك بكثرة السجود ، وقـال ابن كثير في تفسير هذه الآية : قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الرحيم بن محمد ابن مسلم حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد حدثنـا عبد الله بن عمران حدثنا فُضَيْل بن عياض عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله ، إنك لأحبُّ إليَّ من نفسي ، وأحبُّ إليَّ من أهلي ، وأحَبُّ إليَّ من ولـدي ، وإني لأكـونُ في البيت فـأَذْكُـرُكَ فما أَصْبِرُ حتى آتِيَكَ فأنظـرَ إليك ، وإذا ذكـرتُ موتي ومَـوْتَكَ عـرفتُ أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مـع النبيين ، وإن دخلتُ الجنة خَشِيتُ ألا أَرَاكَ ، فلم يَـرُدَّ عليه النبي ﷺ حتى نَزَلَتْ عليه : ﴿ومن يطع الله والرسول فأولَئكَ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهـداء والصـالحين ، وحَسُنَ أولَئك رفيقا .﴾ وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقـدسيُّ في كتابه في صفة الجنة من طـريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بـن مسلم الخلال عن عبد الله بن عمـران العـابدي بـه ، ثم قـال : لا أرى بإسنـاده بأسا ، والله أعلـم اهـ. وقـد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق ثابت عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعـة فقال : متى الساعةُ؟ قـال : وماذا أَعْدَدْتَ لها؟ قـال : لا شيءَ إلا أني أحبُّ الله ورسـولـه ﷺ ، فقـال : أنت مع من أحْبَبْتَ ، قـال أنس : فما فَرِحْنـا بشيءٍ فَـرَحَنَا بقـول النبي ﷺ : أنت مع من أحببت ، قـال أنسٌ : فأنا أحِبُّ النبي ﷺ وأبـا بكر وعمـرَ ، وأرجو أن أكـون معهم بِحُبِّي إياهم ، وإن لم أعمـل بمثل أعمالهم . كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث عبـد الله بن مسعود رضي الله عنـه قال : جـاء

رجل إلى رسـول الله ﷺ فقـال: كيف تقول في رجل أَحَبَّ قـومـاً، ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: المرء مع من أحَبَّ. كما روى البخاري من حديث أبي مـوسى قال: قيل للنبي ﷺ: الـرجُلُ يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قـال: المرء مع من أحبَّ. كما روى البخـاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ، متى الساعـةُ؟ قال: ماأعددتَ لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاةٍ ولا صوم ولا صدقة ولكني أحِبُّ الله ورسولـه، قال: أنت مع من أحببتَ. ومعنى: ﴿وحَسُـنَ أولَئك رفيقا﴾ أي ونعمت الصحبة والـرفقة مرافقة النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين في الجنة بالاستمتـاع فيها برؤيتهم وزيارتهم وإن كان مقـرهـم في الدرجات العلى بالنسبة إلى غيرهم. وقولـه تبارك وتعالى: ﴿ذٰلك الفضل من الله، وكفى بالله عليما﴾ أي إن هـذا الأجـر الجزيل والثـواب الجميل هـو من محض فضل الله وجوده على هؤلاء وهو عليم بنوايا عباده وأعمالهم، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حـديث عـائشـة رضي الله عنهـا عن النبي ﷺ قـال: سـددوا وقاربـوا وأبشروا فإنه لا يُـدْخلُ أحـدا الجنة عملُـه، قالـوا: ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أو انْفِرُوا جَمِيعًا. وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا. وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا. فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدنيا بالآخرة، وَمَنْ يُقَاتِلْ فى سبيل الله فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا.﴾

بعد أن مهد الله تبارك وتعالى ببيان أن شأن المؤمن أن يسارع إلى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ مهما كان الأمر الشرعي الموجه إليه حتى ولو كان هذا الأمر يطلب منه أن يقتل نفسه أو يخرج من داره وأرضه، وذكر الأجر الجزيل والثواب الجميل الذي يثيب الله تبارك وتعالى به من أطاع الله وأطاع رسوله ﷺ في المنشط والمكره والعُسْر واليسر، أمر المؤمنين هنا بأن يأخذوا حذرهم ويتأهبوا لعدوهم المجاهر المبارز بالعداوة، ولعدوهم المنافق الذي يدَّعي الإيمان، ويبطن الكفر والعداوة لله ولرسوله وللمؤمنين حيث يقول عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمَنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا.﴾ أي ياأيها المستجيبون لله ولرسوله ﷺ احْتَرِزُوا من عدوكم وتأهبوا له وكونوا على استعداد لملاقاته، متيقظين لتحركاته، وانهضوا لقتال عدوكم واخرجوا لحربه إما ثباتٍ أي جماعات متفرقة سرِيَّةً بعد سرية وفرقة بعد فرقة وإما جميعاً أي مجتمعين كوكبة واحدة وجيشاً كثيفاً على الوجه الذي يستنفركم إمام المسلمين به كما قال عز وجل: ﴿انفروا خفافا وثقالا﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا. وقال البخاري في صحيحه: باب وجوب النفير، وما يجب من الجهاد والنية،

وقولِـهِ: ﴿انْفِرُوا خفـافا وثقِـالا وجاهدوا بأمـوالكم وأنفسكم في سبيل الله، ذٰلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. لو كان عَرَضًا قريبا وسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبَعُوكَ ولٰكنْ بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّةُ، وسيحلفون بالله﴾ الآية، وقولِهِ: ﴿يا أيها الذين آمنـوا مـالكم إذا قيل لكم انفـروا في سبيل الله اثَّـاقَلْتُمْ إلى الأرض، أَرضِيتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة.﴾ إلى قـوله: ﴿على كل شيء قدير﴾ ويُذْكَرُ عن ابن عباس: ﴿انْفِرُوا ثباتٍ﴾ سرايا متفرقين، يقـال أحدُ الثباتِ ثُبَةٌ اهـ والمقصود هـو حض المسلمين على المبادرة إلى طـاعة الإمـام والخروج لقتال العـدو على الوجـه الذي يرى فيه الإمـام مصلحة للمسلمين حتى ولو أمر الـواحد منهم بـالخروج وحـده وجب عليـه المبـادرة إلى طـاعتـه كما قـال قـريط بن أنيف العنبري:

قَومٌ إذا الشرُّ أبدى ناجِذَيْه لهـم ... طـارُوا إليه زَرافاتٍ وَوُحْدَانَا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

وقولـه عز وجل: ﴿وإنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَـإِنْ أصابتكم مُصِيبَةٌ قـال قد أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إذْ لَمْ أَكُنْ معهم شَهِيـدًا. ولَئِنْ أَصَـابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُـولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا.﴾ بعد أن أمر الله عـز وجل المؤمنين في الآية السـابقة بأن يأخـذوا حذرهم حـذَّرهم هنا ونبههم إلى وجود أشخـاص بينهم يتربصون الـدوائر بالمسلمين ويـنـدسون في جماعة المسلمين وهم منـافقون يظهرون الإسـلام ويبطنون الكفـر وسوء الظن بالله ورسوله ﷺ التماساً للحصول على بعض المغانم العاجلة فقال عز وجل: ﴿وإنَّ منكم لَمَن لَيُبَطِّئَنَّ﴾ أي وإن من الموجـودين في جماعتكم أيها المسلمون لمن ليتأخـرن عن الجهـاد وليتثـاقلن عن الخروج للقتـال، وليحضن غيره ممن ينقاد له ويستجيب لرأيه على التباطؤ والتثاقل والتأخر والتخلف عن الخروج معكم لملاقـاة عـدوكم كما فعل عـدو الله عبـد الله بـن أُبَي ابن سلـول رأس

المنـافقين يوم أحـد، ثم بين الله عـز وجل أن هؤلاء المنـافقين يتـذبذبـون بين الشماتة بكم إن أصابتكم مصيبـة وكانت الدولة في المعركة لعـدوكم، وتباهوا بأن الله قد أنعم عليهم حيث لم يشهدوا المعركـة، وجهلوا أن من شهد المعركة من المؤمنين إن عاش عاش حميـداً وإن مات مات شهيداً أما هـؤلاء المنافقون فمن عاش منهم عاش خائفاً مذعوراً يحسبون كل صيحة عليهم، ومن مات منهم على نفاقه فإنه يكون في الـدرك الأسفل من النار ولن تجد له نصيرا، أما في حالـة انتصاركم في المعركـة وصيرورة الدولة لكم على أعـدائكم فإن هؤلاء المنـافقين يعضُّـون عليكم الأنـامل من الغيظ، ويلعقـون المرَّ من النـدم، ويتحسرون على فـوات فـرصـة مشـاركتهـم لكم في الغنـائم، ويعتبرون أن الحصـول على الغنيمة هـو الفـوز الأكبر والحظ العظيم، وفي ذلك يقول عـز وجل: ﴿فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليَّ إذْ لم أكن معهم شهيدا. ولئن أصـابكم فضلٌ من الله ليَقُـولَنَّ كأن لم تكن بينكم وبينـه مـودةٌ يـاليتني كنتُ معهم فأَفُوزَ فوزًا عظيمًا.﴾ ومعنى: ﴿إذ لم أكن معهم شهيدا.﴾ أي إذ لم أحضر المعركـة وأشهدها مع المؤمنين، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿كأن لم تكن بينكم وبينـه مودة﴾ جملة اعتراضيـة بين القول ومقـوله لئـلا يفهم من مطلع كـلامه أن تمنيـه لمعية المؤمنين لنصرتهم ومظـاهرتهم على عـدوهم، وإنما تمنى معية المؤمنين لشـدة حرصـه على حطام الدنيـا والحصول على المال الـذي هو أكبر همه وغاية قصده ومنتهى أمنيته. والمراد بالمودة هنـا ما يتزلف به المنافقون للمؤمنين في وقت السلم، ومـا يقولـونه لهم من معسول الكـلام ويحلفون لهم بالله إنهم منهم، وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿فَلْيُقَاتِـلْ في سَبِيلِ اللهِ الذين يَشْرُون الحياة الدنيا بالآخرة.﴾ بعد أن نَدَّد عز وجل بالمنافقين الذين ليس لهم همٌّ إلا حطـام الحياة الـدنيا، وأن هـذا هو السبب الـذي يحملهم على التخلف عن رسول الله ﷺ، حضَّ المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله على الجهاد في سبيل الله

وقتـال أعداء الله لإعـلاء كلمة الله ، وبيَّن أن الـذين يشرون الحيـاة الدنيـا أي يبيعـونها لله عـز وجل ويشترون الجنـة من ملك الـدنيـا والآخـرة هم الـذين يحرصـون على القتـال في سبيل الله كما قــال عـز وجل : ﴿إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمــوالهم بأن لهم الجنـةَ ، يقــاتلـون في سبيلِ الله فَيَقْتُلُــونَ ويُقْتَلُونَ وعـدًا عليه حقـا في التوراة والإنجيلِ والقـرآن ، ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، فَـاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَـايَعْتُمْ بِـهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَـوْزُ العظيم .﴾ وفي التعبير بقـوله : ﴿يشرون الحيـاة الدنيـا بالآخـرة﴾ إشعارٌ بأن المؤمن الحق قـد تعلقت هِمَّتُهُ بنصرة دين الله سواء كـانت الدولة في المعركة لـه أو كانت عليه ، ولذلك كـان أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم لا يَتَبَاهَـوْنَ بالنصر ولا يَذِلُّون عند الهزيمة ، كما قال كعب بن زهير في قصيدته «بانت سعاد» :

| | |
|---|---|
| إن الرســولَ لَنُورٌ يســـتضاءُ به | مُهَنَّدٌ من ســيوف الله مســلولُ |
| في عصبة من قــريش قال قائلـهم | ببطــن مكـــة لما أَسْلَمُوا زُولـُوا |
| زالوا فما زال أنكـــاسٌ ولا كُشُفٌ | عند اللقـــاء ولا مِيلٌ معـــازيل |
| شُمُّ العرانــين أبطـــالٌ لَبُوسُهُمـــو | من نســج داود في الهيجا سرابيل |
| بيضٌ ســوابغُ قد شُكَّتْ لها حِلَـقٌ | كـأنها حِلَـقُ الْقَفْعَـاءِ مَجْـدُولُ |
| ليسوا مفـاريح إن نالت رماحهمو | قومـــا وليسـوا مجازيعًا إذا نيـلوا |

وكما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

| | |
|---|---|
| نَسْمُو إذا الحـربُ نَالَتْنَا مَخَالِبُــهَا | إذا الزعانفُ من أظفارها خَشَعُوا |
| لا يَفْخَرُونَ إذا نالُـوا عَــدُوَّ هُمُــو | وإن أُصِيبُوا فلا خُـورٌ ولا هــلع |

وقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ومَـنْ يُقَاتِلْ في سبيل الله فَيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فَسَـوفَ نؤتيه أجـرًاعظيما﴾ أي ومن يجاهد أعداء الله لإعلاء كلمـة الله فإن له عند الله أجراً عظيما سواء انتصر على أعدائه ، وفاز بـالغنيمة مع هذا الأجر العظيم أو

جرح أو قتل في سبيل الله فقد روى البخاري ومسلم من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تكفَّل الله لمن جاهد في سبيله، لا يُخْرِجُه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلماته، بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع مانال من أجر أو غنيمة. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي زُرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: تَضَمَّنَ الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليَّ ضامنٌ أن أُدْخِلَهُ الجنةَ أو أَرْجِعَهُ إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غَنِيمة، والذي نفسُ محمدٍ بيده ما مِنْ كَلْم يُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِمَ، لَونُه لَونُ دَمٍ، ورِيحُهُ مِسْكٌ، والذي نفس محمدٍ بيده لولا أن يَشُقَّ على المسلمين ما قعدتُ خِلاَفَ سَرِيَّة تغزو في سبيل الله أبداً، ولكنْ لا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ ولا يجدون سَعَةً، ويَشُقُّ عليهم أن يَتَخَلَّفُوا عني والذي نفْس محمدٍ بيده لَوَدِدْتُ أني أَغْزُو في سبيل الله فَأُقْتَلُ، ثم أغْزُو فَأُقْتَلُ، ثم أَغْزُو فَأُقْتَلُ. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة مائة دَرَجَةٍ أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بينَ الدرجتين كما بين السماء والأرض. كما روى البخاري من حديث عبد الرحمن بن جُبَيْرٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما اغْبَرَّت قَدَمَا عبدٍ في سبيل الله فتَمَسَّهُ النار.

قال تعالى: ﴿وَمَالَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الله وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرجال والنساء وَالْوِلْدَانِ الذين يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا واجْعَل لنا من لَدُنْكَ وَلِيًّا واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيرا. الذين آمنوا يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله والذين كفروا يُقَاتِلُون فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أولياء الشيطانِ إن كَيْدَ الشيطانِ كَانَ ضَعِيفًا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيله وأشار إلى أن طُلَّاب الجنة الزاهدين في الدنيا هم الذين من دأبهم وديدنهم الحرصُ على المسارعة لقتال أعداء الله، وذكر ما أعده لمن خرج مجاهداً في سبيل الله من جزيل الأجر وعظيم الثواب، وجَّه الخطاب بطريق التعجيب والتأنيب والإنكار والتوبيخ لمن لم يسارع إلى الانخراط في سلك جند الله، بأسلوب يتضمن الحضَّ الشديدَ والتوكيد البالغ على وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله واستنقاذ المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والصبيان الذين حُبسوا بمكة ولم يتمكنوا من الهجرة والخروج منها إما لصد المشركين لهم وتضييقهم عليهم وإما لضعفهم عن الهجرة، وكأنه عز وجل يقول: أي عذر لكم في ترك القتال؟ وكيف لا تسارعون إلى تخليص ضعفة المسلمين من أذى المشركين؟ وهل يرضي مسلمٌ صادقُ الإيمان أن ينام قرير العين وإخوانه من رجال ونساء وأطفال يتعرضون للأذى والقهر من أعداء الله بمكة شرفها الله؟ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدَانِ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هٰذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.﴾ أي لا عذر لكم في ترك مقاتلة المشركين لإعلاء كلمة الله ولترفعوا الضيم عن المسلمين المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان الذين يسومهم مشركو مكة

سوء العذاب، ويفتنونهم عن الديـن، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بـذلك جل ثناؤه: ﴿ومالكم﴾ أيها المؤمنون ﴿لا تقاتلـون في سبيل الله﴾ وفي ﴿المسْتَضْعَفِين﴾ يقول: عن المستضعفين منكم ﴿من الـرجال والنسـاء والوِلْـدانِ﴾، فأما مِن ﴿الـرجال﴾ فإنهم كـانوا قـد أسلمـوا بمكـة، فغلبتهم عشـائرهم على أنفسهم بـالقهـر لهم، وآذوهم، ونـالـوهم بـالعـذاب والمكـاره في أبـدانهم ليفتنـوهم عن دينهم، فَحضَّ الله المؤمنين على استنقـاذهم من أيدي من قـد غلبهم على أنفسهم من الكفـار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفهم الكفار فاستذلوهم ابتغاء فتنتهم وصدهم عن دينهم؟ ﴿من الرجـال والنساء والولدان﴾ جمع ولدٍ، وهم الصبيـانُ ﴿الذين يقولـون ربنا أخـرجنا من هـٰذه القريـةِ الظالمِ أَهْلُهَـا﴾ يعني بذلـك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون في دعائهم ربهم بأن ينجيهم من فتنـة من قد استضعفهم من المشركين: يـاربنا أخـرجنا من هـذه القريـة الظالم أهلها، والعرب تسمي كل مدينـة «قرية» اهـ. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بهذه القرية هنا مكةُ شرفها الله، والموصوف بالظلم في الحقيقة هنا هم أهل مكة المشركون لا مكة قـدَّسها الله، لأنهم ارتكبوا أفحش الظلم وأعظمه وهو الشرك بـالله الذي وصفه الله عز وجل بأنـه ظلم عظيم حيث قال: ﴿إن الشرك لَظُلْمٌ عظيم.﴾، كما أنهم ارتكبـوا ظلما بشعـا كـذلك حيث يـؤذون ويظلمون الرجال والنساء والصبيان الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وذكر الـوِلْدان بعد الـرجال والنساء لتهييج المؤمنين وحثهم الشـديد على المسـارعة لتخليصهـم من أيدي الكفـرة الفجـرة وللتقبيح والتشنيع على المشركين الـذين بلغ أذاهم وظلمهم الأطفـال غير المكلفين إرغـامـاً لآبـائهم وأمهاتهم، وجـر لفظ «الظالم» تبعا للقـرية على القـاعدة المعروفـة عند علماء

قواعد اللغـة العربية بالنعت السَّببي وقـد أخبر ابن عباس رضي الله عنهما أنه هـو وأمه كـانا من المستضعفين المقصـودين في هذه الآيـة الكريمـة فقد قـال البخـاري في صحيحه: بـاب قـولـه: ﴿وما لكم لا تقـاتلـون في سبيل الله والمستضعفين من الرجـال والنساء﴾ الآيـة حدثني عبـد الله بن محمد حـدثنا سفيـان عن عُبيـد الله قـال: سمعتُ ابن عبـاس قـال: كنتُ أنـا وأمي من المستضعفين. حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن ابن أبي مُليكـة أن ابـن عبـاس تَـلاَ: ﴿إلا المستضعفين مـن الـرجـال والنسـاء والولـدان﴾ قال: كنت أنـا وأمي ممن عَـذَرَ الله اهـ وقد سمَّـى رسول الله ﷺ جملة مـن المستضعفين بمكة حيث كان يـدعو على قـريش ويقنت لتخليص المستضعفين من أيدي المشركين فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا النبيُّ ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله لمن حَمِدَهُ، ثم قال قبل أن يَسْجُدَ: اللهم نَجِّ عياشَ بن أبي ربيعـة، اللهم نَجِّ سَلَمَة بن هشـام، اللهم نَجِّ الوليـدَ بنَ الوليـد، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْـدُدْ وَطْـأَتَكَ على مَضَرَ، اللهم اجعلهـا سنينَ كَسِنِي يُوسُفَ. وفي رواية لمسلم من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف أنهما سمعا أبا هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ يقول حين يفْـرُغُ من صلاة الفجـر من القـراءة ويُكَبِّرُ ويرفع رأسـه: سمع الله لمن حَمِدَهُ، ربنا ولك الحمدُ ثم يقول هو قائم: اللهم أَنْجِ الوليد بن الوليد وسلمة ابن هشـام وعيَّـاشَ بن أبي ربيعـة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْـدُدْ وطأتك على مضرَ واجعلها عليهم سنين كَسِنِـي يوسف، الحديث. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي سلمة أن أبا هريرة حدَّثهم أن النبي ﷺ قنت بعد الركعة في صلاةٍ شهرا إذا قال: سمع الله لمن حَمِدَهُ يقول في قنـوته: اللهم أَنج الوليدَ ابنَ الـوليـد، اللهم نَجِّ سلمة بـن هشام، اللهم نَجِّ عيـاش بن أبي ربيعـة،

اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلهـا عليهم سنين كَسِنِـي يـوسف. الحديث. وفي روايـة للبخـاري من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي سلمة بن عبد الرحمن قالا: وقـال أبو هـريرة رضي الله عنـه: وكان رسـول الله ﷺ حين يرفـع رأسه يقـول: سمع الله لمن حمده، ربنـا ولك الحمـد، يـدعـو لِـرِجَـالٍ فَيُسَمِّيِهِمْ بأسمائهم فيقولُ: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدُدْ وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وأهـل المشرق يومئذ من مضر مخالفـون له، وفي لفظ للبخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعـة الآخرة يقـول: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعـة، اللهم أنج سلمة ابن هشـام، اللهم أنج الـوليـد بن الـوليـد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشـدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلهـا سنين كَسِني يوسف. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد عن أبي هريرة قال: لما رفع النبي ﷺ رأسـه من الركعـة قال: اللهم أنج الـوليـد بن الوليد وسلمة بن هشـام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدُدْ وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسـف، وفي لفظ للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كـان إذا قال: سمع الله لمن حمده في الركعة الآخرة من صلاة العشـاء قنت: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج الوليـد بن الوليـد، اللهم أنج سلمة بن هشـام، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهـم اجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف. وفي قـوله عز وجل: ﴿الـذين يقولون ربنا أخـرجنا من هٰذه القـرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا.﴾ إشعارٌ ببيان تبرم المستضعفين من المقام بين ظهراني المشركين، وحرصهم على الخروج

من مكـة مـادام أهلها ظـالمين، وتضرُّعهم إلى الله عـز وجل أن ييسِّر لهم ولاة صـالحين يصونـون لهم حرمتهم وكـرامتهم، ويتمكنـون في ظلهم من إقامـة شعائر دينهم، ولاشك أن هذه الصفـات التي وصف الله عز وجل بها هؤلاء المستضعفين تفيد أنهم معذورون في ترك الهجرة وأنهم ليسوا ظالمين في مقامهم بمكة تحت ولايـة المشركين، لأنهم لا يجدون حيلة ولا يهتـدون سبيلا كما قـال عز وجل: ﴿إن الذين تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِي أنْفُسِهِم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قـالـوا ألم تكن أرض الله واسعــةً فَتُهَـاجـروا فيهـا، فأولَئِكَ مأواهم جهنم وسـاءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجـال والنساء والوِلـدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيـلا. فأولَئك عسى اللهُ أن يَعْفُوَ عنهم، وكان اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ وقولُه تبـارك وتعالى: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقـاتلون في سبيل الطاغوت، فَقَاتِلُـوا أولياء الشيطانِ إن كيـد الشيطان كـان ضعيفـا﴾ هذا تهييـجٌ آخر للمـؤمنين وحضٌّ لهم على القتال في سبيل الله ببيان أنهم يقـاتلون في طاعة الله ورضـوانه، وأن أعداءهم يقاتلـون في طاعـة الشيطان، وإن الله مـؤيدٌ حـزبه ونـاصرهم وإن الشيطان ليعجز أن يقاوم كيـد الله وتدبيره، فهو يهرب لمجرد سماعـه ذكر الله ويخنس، ومن أمثلة هربـه من أوليائه ما حدث يوم بدر إذ أخـذ يمنِّي أولياءه ويعدهم فلما تراء الجمعـان خذل أولياءه وفرَّ عنهم، كما قـال عز وجل ﴿وإذ زيَّن لهم الشيطـان أعمالهم وقـال لا غالب لكم اليـوم من النـاس وإني جـارٌ لكم فلما تراءت الفئتان نكَصَ على عقبيه وقـال إني بريءٌ منكم إني أرى ما لا تَرَوْن إني أخاف الله، والله شديـد العقاب﴾ وفي قوله تعالى: ﴿الذي آمنـوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطـاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان﴾ دليل على أن كل من قـاتل في غير سبيل الله فهو مقـاتل في سبيل الطاغـوت وأن كل من قاتل في سبيل الطـاغوت فهو مقاتلٌ تحت لـواء الشيطان المقهور

المدحور عياذاً بالله منه .

قال تعـالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الذين قِيلَ لَهُمْ كُفُّـوا أَيْدِيَكُمْ وأَقِيمُوا الصـلاة وآتوا الـزكاة فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القتـالُ إذا فَرِيقٌ منهم يَخْشَـوْنَ الناسَ كَخَشْيَـةِ الله أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ علينا القتالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قريبٍ ، قُلْ مَتَـاع الـدنيـا قَلِيلٌ والآخـرةُ خَيْرٌ لمن اتَّقَى ولا تُظْلَمُـونَ فَتِيـلا . أَيْنَمَا تَكُـونُـوا يُدْرِككم الموتُ ولو كُنْتُمْ في بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ، وإن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يقُولُوا هٰذه من عِنْـدِ الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقـولُوا هـٰذه من عِنْدِكَ ، قُلْ كُلٌّ من عِنْـدِ اللهِ فما لهٰؤلاء القوم لا يَكَـادُونَ يَفْقَهُونَ حَـدِيثا . مَـا أَصَابَكَ من حَسَنَـةٍ فَمِنَ اللهِ وما أَصَـابـكَ مِنْ سَيِّئَـةٍ فَمِنْ نفْسِكَ ، وأرسلنـاك للنـاس رسـولا ، وكفـى بـالله شهيدا .﴾

بعـد أن حـرَّض الله تبارك وتعـالى المؤمنين على القتـال في سبيل الله وهـوَّن عليهم لقـاء أولياء الشيطـان أشار هنا إلى مـا كان يتمنـاه المؤمنون مـن فرض القتال قبل أن يُفرض عليهم ، ويطلبون من رسول الله ﷺ وهم بمكة أن يأذن لهم بالميل على أعـدائهم بالسيوف ، وأن رسول الله ﷺ كـان ينهاهم عن ذلك ويقـول : لم نؤمـر بقتال ، وأقيمـوا الصلاة وآتـوا الزكـاة ، وكان ذلك لحكمـة سديـدة رشيدة حيث لم يكن القتـال إذ ذاك مناسبـاً لأسباب كثيرة منهـا قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم . ومنهـا أنهم كانوا في البلد الحرام الذي حرَّم الله القتـال فيه منـذ خلق السموات والأرض ، فلما هـاجر رسـول الله ﷺ إلى المدينة وصار للمسلمين دولـة وأنصار ومنعة أذن الله عز وجـل لهم بالقتال ، فلما فرضـه الله تبارك وتعـالى انزعج لـذلك المنافقـون الذين في قلـوبهم مرض وكرهـوا ذلك كراهة شـديدة ، كما قال عـز وجل : ﴿ويقول الذين آمنـوا لولا نُزِّلَتْ سورةٌ فإذا أُنْزِلت سورةٌ محكمـةٌ وذُكِرَ فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مَـرَضٌ ينظـرون إليك نَظَـرَ المَغْشِيِّ عليه من الموت فـأولى لهم . طاعـةٌ وقـولٌ

معروف﴾ وقد قال ابن إسحاق حدثني معبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه أن أباه كعب بن مالكٍ حدثه في قصة بيعة العقبة الثانية قال: فلما بايعنا رسول الله صرخ الشيطانُ من رأس العقبة بأنفذِ صوتٍ سمعتُه قط: ياأهل الجباجب — والجباجبُ: المنازل هل لكم في مُذمَّم والصُّباة معه؟ قد اجتمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله ﷺ: هذا أزب العقبة، هذا ابنُ أَزْيَبَ، أتسمع ياعدو الله، أما والله لأفرغَنَّ لَكَ، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: ارْفَضُّوا إلى رحالكم، فقال له العباس بن عُبَادَةَ بن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئتَ لنَمِيلَنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا. فقال رسولُ الله ﷺ: لم نُؤْمَرْ بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم، ولاشك أن قوله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فلما كُتِبَ عليهمُ القتال إذا فريق منهم يَخْشونَ الناسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشية﴾ ظاهرٌ في أن هذا الفريق كان من المنافقين لأن المؤمنين الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ لا ينطبق عليهم هذا الوصف بحال أبدا، وقد جاء النص في آية سورة محمد على أن الذين في قلوبهم مرض هم الذين خافوا عندما فرض القتال خوفاً شديداً، وخير ما يُفَسِّرُ القرآنَ هو القرآن ثم سنة رسول الله ﷺ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أَيْدِيَكم وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة فلما كُتِبَ عليهم القتال إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناس كخشية الله أو أشدَّ خَشْيةً﴾ الآية، قد جاء هذا النص الكريم على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاستخدام وهو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما ثم يذكر ضميره أو إشارةٌ له أو لفظه بمعناه الآخر فقد ذكر عز وجل هنا أولاً الراغبين في الجهاد وقد مُنعوا منه حينا من الدهر ثم ذكر الذين كادت قلوبهم تنخلع جزعاً لما فُرض القتال، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً

خفيفا فمرت به فلما أثقلت دَعَوَا الله ربَّهما لئن آتيتنا صالحا لنكونَنَّ من الشاكرين. فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى اللهُ عما يشركون. أيُشركون ما لا يخلق شيئا وهم يُخْلَقُون.﴾ إذ المراد بقوله: ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ هو آدم، وأن المراد بزوجها في قوله: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ هي حواء، أما قوله عز وجل: ﴿فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به﴾ إلى آخر الآيات فهو انتقال واستطراد بعد ذكر آدم وزوجته إلى ذكر الجنس والذرية. وهو شبيه كذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين. ثم جعلناه نطفة في قرار مكين.﴾ فالمخلوق من الطين آدم والمخلوق من النطفة بنوه وذريته. وهو كذلك شبيه بقوله تبارك وتعالى: ﴿ولقد زَيَّنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ وجعلناها رجوما للشياطين.﴾ فالمعلوم أن رجوم الشياطين ليست هي أعيان مصابيح السماء ولكنه استطراد من شخصها إلى جنسها. وهذا الأسلوب من المحسنات البلاغية البديعية المعنوية. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يخشون الناسَ كخشية الله أو أشدَّ خشيةً﴾ إشعار بأن هذا الخُلق لا يصدر من مؤمن بالله عز وجل فإنَّ خشية الناس كخشية الله أو أشد نظير من اتخذ من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، وإذا كان من أحبَّ غير الله كحبه لله صار وثنيا فلا شك أن من كان يخشى غير الله كخشيته لله أو أشد يعتبر أعمق في الوثنية ممن أحب غير الله كحبه لله. وليس قوله عز وجل: ﴿وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال﴾ دليلا على أنهم مؤمنون لقولهم: ﴿ربنا﴾ لأن الكفار والمنافقين يقرون بالله ولكنهم يشركون به كما قال عز وجل: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل أفلاتذكرون. قل من رب السمٰوٰتِ السبعِ وربُّ العرش العظيم. سيقولون لله، قل أفلا تتقون. قل مَنْ بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يجير ولا يجارُ عليه إن كنتم تعلمون. سيقولون لله، قل فأنى

تُسْحَرُون. ﴾ ولها نظائر كثيرة في كتاب الله الكريم. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب، قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خير لمن اتقى ولا تُظْلَمُونَ فتيلا. ﴾أي وقال هؤلاء المنزعجون المذعورون بسبب فرض الجهاد: ياربنا لمَ فَرَضْتَ علينا القتال هلا أخرت إيجابه علينا لنتمتع بالحياة ونموت على فرشنا؟ فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم: متاعُ الدنيا قليل، فلن تخلدوا فيها، فلو انقدتم لأمر الله، واستجبتم لما يشرعه لكم، ورضيتم به صرتم من جملة المتقين الذين أعد الله لهم المتاع الدائم الأبدي السرمدي الجزيل مما لا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولا يقاس نعيم الدنيا الزائل القليل بمتاع الآخرة الدائم الكثير، والآخرة خير لمن اتقى ولا يظلم أحدٌ من عمله الصالح مثقال أو مقدار فتيل، كما لا يُحمَّل أحدٌ غير ما عمل من السيئات مقدار أو مثقال فتيل، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أينما تكونوا يُدْرِككُمُ الموتُ ولو كنتم في بروج مُشَيَّدَةٍ﴾ أي إن الموت الذي تفرون منه، وتكرهون فرضية القتال خوف نزوله بكم، وأصبحتم من أجله تخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية هو مُدْرِكُكُم لا محالة على الصفة التي قضاها في الأزل أحكم الحاكمين وربُّ العالمين سواءٌ كنتم في بيوتكم أو في المعارك والحروب، أو في جو السماء، أو على متن الماء فلا تظنوا أن خوفكم من الموت يُبعده عنكم فلو كنتم في قصور منيعة وحصون حصينة وقلاع متقنة وبروج عالية شاهقة محكمة لا تنالها الرماح، ولا تقدر على تدميرها آلات الحرب فإن الله عز وجل يتوفاكم على الصفة التي قضاها عليكم من موت أو قتل، كما قال عز وجل: ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم﴾، ولله در الشاعر إذ يقول:

ومن كانت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها

وكم من الأبطال خاضوا غمار المعارك الطاحنة كسعد بن أبي وقاص وخالد ابن الوليد الذي يؤثر عنه أنه قال عند موته: لقد شهدت كذا وكذا موقعا وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية، وها أنا ذا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء. وقد جاء في البخاري عن قيس بن أبي حازم عن خالد بن الوليد قال: لقد اندق في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما صبرت معي إلا صحيفة يمانية اهـ. فالحرص على الجهاد لا يُقرِّب أجلا بعيدا، والخوف والهرب من القتال لا يُبْعد أجلا قريبا كما قال عز وجل: ﴿قل لن يَنْفَعَكُم الفِرارُ إن فَرَرْتُم من الموت أو القتل وإذًا لا تُمَتَّعُونَ إلا قليلا.﴾ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإن تُصِبْهم حسنةٌ يقولوا هٰذه من عند الله وإن تُصِبْهُمْ سيئةٌ يقولوا هٰذه من عندك﴾ أي وإن يُصِبْ هؤلاء الرعاديد رخاءٌ وسلامةٌ وصحةٌ في أبدانهم قالوا: هذه من عند الله وإن يُصِبْهُمْ جدبٌ وقحط ونقصٌ في الثمار والزُّرُوعِ أو غير ذلك مما لا يفرحون به قالوا: هذه المصيبة جاءتنا بسبب انقيادنا لك واتباع دينك، ولا شك أن هذا لا يصدر من مؤمن يؤمن بالله ورسله. وليس قولُهُم: هذه من عند الله دليلاً على إيمانهم بالله إذ لو آمنوا بالله ما طعَنُوا على رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ وما أساءوا الظن به وما تشاءموا من بعثته ﷺ التي كانت أيمن بعثة عرفتها الإنسانية في تاريخها الطويل المديد، ولكنهم نهجوا منهج من سبقهم من الكفار الذين تشاءموا من رسلهم عليهم السلام كما قال عز وجل: ﴿وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه﴾ وكما ذكر عز وجل عن قوم صالح: ﴿قالوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وبمن معك﴾ وقوله عز وجل: ﴿قل كُلٌّ من عند الله فما لهٰؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين: كلٌّ ما أصاب الإنسان من خير أو غيره فهو بقضاء الله وقدره، فما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، لكن هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أدب الحديث والتأدُّبَ في نسبة الأشياء

إلى الله عز وجل، ثم عَرَّفهُم فقه الحديث وأدب الخطاب فقال: ﴿ما أصابك من حسنة فَمِنَ الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ أي ينبغي لمن عرف الأدب مع الله عز وجل أن يقول عندما يصيبه خير: هذا من عند الله وجوده وفضله، وأن يقول عندما يصيبه شر: هذا بسبب تقصيري في حق الله عز وجل وبسبب سيئاتي وذنوبي، كما قال عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وقوله عز وجل: ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾ هو مواساة لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من أذى الكافرين والمنافقين وإعلامٌ للناس أن محمداً رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وقد أدى الرسالة على أكمل وجه، وكفى بالله شهيداً.

قال تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عليهم حَفِيظًا . وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وكَفَى بالله وَكِيلاً . أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقرْآن ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا . وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْر مِنَ الْأَمْنِ أو الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ منهم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عليكم ورحمتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إلاَّ قَلِيلا﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض دسائس المنافقين وفَضَحَهم في سلوكهم المعوج وأخلاقهم القبيحة التي يعاملون بها أكرم خلق الله محمداً ﷺ حيث كانوا إذا أصابتهم سيئة قالوا : هذه من عندك أي بسببك مع أن سفارته ﷺ كانت أيمن سفارة للإنسانية كلها بل كانت خيراً حتى للحيوانات العجماوات التي كرَّر الوصاة بها والإحسان إليها في سكرات الموت ﷺ حيث كان يقول : الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم . وقد كان هؤلاء المنافقون قد وقعوا تحت التأثير اليهودي الخبيث في التفريق بين الله ورسوله حيث قالوا نؤمن بالله ونكفر بمحمد وعيسى عليهما السلام وأراد المنافقون تقليد اليهود في ذلك حيث أظهروا أن الحسنة التي تصيبهم تكون من الله وأن السيئة التي تصيبهم تكون من الرسول ﷺ ، بيَّن عز وجل هنا أن طاعة الرسول ﷺ طاعة لله عز وجل ، فمن ادَّعى الإيمان بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فهو كاذبٌ في دعوى الإيمان بالله حيث قال عز وجل هنا : ﴿مَن يطع الرسولَ فقد أطاع الله﴾ وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من ادَّعى الإيمان بالله وكفر بالرسول ﷺ فهو كافر حقاً وأن الله عز وجل قد أعدَّ له عذاباً مهيناً حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يُفَرِّقُوا

بين الله ورُسُلِهِ ويقولون نؤمن ببعض ونكفُرُ ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً. أولئك هم الكافرون حقًّا، وأعتدنا للكافرين عذاباً مُهِيناً. والذين آمنوا بالله ورسله ولم يُفَرِّقُوا بين أحد منهم أولَئك سوف يُؤْتيهم أجورهم، وكان الله غفوراً رحيما.﴾ وقوله عز وجل: ﴿ومَنْ تَوَلَّى فما أَرْسَلْنَاكَ عليهم حفيظا.﴾ هذه مواساة لرسول الله ﷺ ووعيدٌ وتهديدٌ لهؤلاء المنافقين ومن سلكوا طريقهم من اليهود وسائر من أعرض عن دين محمد ﷺ ببيان أن رسول الله ﷺ قد بلَّغ البلاغ المبين وليس عليه إلا البلاغ، وليس بمصيطر على قلوب الناس فيهدي من أراد، بل قلوبُ العباد بيد فاطر السموات والأرض وهو الحفيظ على أعمال جميع عباده والمهيمن على سائر خلقه، كما قال عز وجل: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ وكما قال تبارك وتعالى: ﴿لَسْتَ عليهم بمصيطر. إلا مَنْ تولى وكفر. فيعذبه الله العذاب الأكبر.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿وما أنت عليهم بجَبَّارٍ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد.﴾ ولذلك ذيل الله تبارك وتعالى الآية السابقة بقوله عز وجل: ﴿وأرسلناك للناس رسولا، وكفى بالله شهيدا.﴾ ثم قال: ﴿مَنْ يطع الرسولَ فقد أطاع اللهَ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا.﴾ وقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عَصَمُوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، ثم قرأ ﴿إنما أنت مُذكِّر. لستَ عليهم بمُسَيْطِرٍ.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ويقولون طاعةٌ فإذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذي تقولُ والله يكتبُ ما يُبَيِّتُونَ﴾ بَيَانٌ لقاصمة من قواصم ظهور المنافقين حيث كانوا إذا صاروا بحضرة رسول الله ﷺ أظهروا أنهم مطيعون ثابتون على الطاعة، فإذا خرجوا من عند رسول الله ﷺ استغرق فريق من هؤلاء المنافقين ليلهم في التدبير والكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين

والعمل على الطعن في دين الإسلام، ولا يعلمون أن الله عز وجل لهم بالمرصاد يُحصي عليهم ما بيّتوه لرسول الله ﷺ وللإسلام وللمسلمين، وأنه عز وجل مُحْبِطٌ كيدهم، وجاعلٌ تدميرهم في تدبيرهم، وفي قوله عز وجل: ﴿ويقولون طاعة﴾ برفع ﴿طاعة﴾ إشعارٌ بمحاولتهم إفهام المسلمين أنهم ثابتون على الطاعة مستقرون عليها، لأن العرب إذا أرادت الدلالة على مجرد الفعل نصبت، وإذا أرادت الثبات والاستقرار والدوام رفعت وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا المعنى في قصة تسليم الملائكة على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿إذ دَخَلُوا عليه فقالوا سلاما قال سلامٌ﴾ حيث كان ردُّه عليه السلام لتحيتهم بأحسن منها لأنهم لما نصبوا سلاما أثبتوا مجرد التحية والسلام، فردَّ عليهم بسلام دائم ثابت مستقر فقال: سلامٌ ومعنى ﴿برزوا من عندك﴾ أي خرجوا من عندك ومعنى ﴿بَيَّت طائفةٌ منهم غير الذي تقول﴾ العرب يقولون للأمر الذي يُطيلون فيه التفكير، ويستغرقون ليلهم في تأمله: هذا أمر مبيَّت، وقد جرت العادة أنهم لا يبيتُون من أمرهم إلا ما كانوا يكرهون أن يطلع غيرهم عليه، كما قال عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ من الناس ولا يَسْتَخْفُونَ من الله وهو معهم إذ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِن القول وكان الله بما يعملون محيطا.﴾ قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: وكل عمل عُمل ليلاً فقد بُيِّت، ومن ذلك: بَيَّتَ العدوَّ وهو الوقوعُ بهم ليلا، ومنه قولُ عبيدة بن همام:

أَتَوْنِي فلم أرض ما بَيَّتُوا ... وكانوا أَتَوْنِي بشَيْءٍ نُكُرْ
لأُنْكِحَ أَيِّمَهُمْ مُنْذِرًا ... وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرْ

يعَني بقوله: (فلم أرض ما بَيَّتُوا) ليلا، أي ما أَبْرَمُوهُ ليلا وعَزَمُوا عليه، ومنه قولُ النمر بن تولب الْعُكْلِيِّ

هَبَّتْ لِتَعْذُلَنِي من الليل اسْمَعِ ... سَفَهًا تُبَيِّتُكِ الملاَمَةُ فَاهْجَعِي اهـ

ومعنى قـولـه عـز وجل: ﴿فأعـرض عنهم وتـوكل على الله، وكفى بـالله وكيلا.﴾ أي فـلا يحزنك مكرهم وسوء فعلهم، ولا مـا يدبرونه ضـدك وضد الإسـلام والمسلمين، ولتكن ثقتك بـالله واعتمادك عليه في إحباط كيـدهم، وإبطال مكـرهم فالله عز وجل بـالمرصاد لهم، وهـو عز وجل يكفيك شرهم ويردُّ كيدهـم إلى نحورهم وقوله عـز وجل: ﴿أفلا يتدبرون القـرآن، ولو كان من عند غير الله لَـوَجَدُوا فيـه اختلافًا كثيرا.﴾ هـذا توجيـه من الله عز وجل لجميع المكلفين وبخاصة المنافقين واليهود والمشركين إلى أن يتدبروا هذا القرآن العظيم وأن يُعملـوا فيه فكرهم وأن ينظـروا فيما اشتمل عليه من الأخبـار عن الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة، وما احتواه من الأحكام والحِكَم والعلوم الكونية والإنسانيـة والدينية والدنيوية، وفي أسلوبه وفصـاحته وبلاغته التي فاقت كل ما وصفه البلغاء وتحدث به الفصحاء، مع سلامته عن أي تناقض أو اضطراب أو اختلاف، مع أنه كتـاب كبير، فلو كان من عند غير الله مهما كان هذا الغير لوُجِد فيه تناقض واختلاف واضطراب كثير، وقال عز وجل: ﴿أفلا يتدبـرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ وقـد تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بسـورة من مثله، ومع ذلك لم ينقل عن أحـد من أساطين الفصـاحة والبلاغـة والبيان من كفـار قريش أو غيرهم أنـه وجد في هـذا القرآن العظيم اختلافاً قليلاً أو كثيراً بل قـال بعض رؤساء المشركين: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق. ولم يدَّع أحد من أعداء الإسلام أنه أخبر عنـه بخبر غير صحيح، فهؤلاء الفريق مـن المنافقين الذين قـالوا: طاعةٌ، فلما برزوا من عند رسـول الله ﷺ بيّتوا غير الذي يقول رسول الله ﷺ، فأخبر الله عـز وجل رسـوله ﷺ بخبرهم، فما ادَّعى واحـدٌ منهم أن مـا أخبر القرآن بـه في شأنه يختلف عما وقع منهـم مع أنه إخبارٌ بـالغيب. وفي التعبير بالكثير في قـوله: ﴿لَوَجَـدُوا فيه اختلافـا كثيرا﴾ للفت الانتباه إلى أنه لطـوله

وعلومـه لو كـان من عند غير الله لـوجدوا فيـه اختلافاً كثيراً فكيـف وهو مع ذلك لم يوجـد فيه أدنى اختلاف، فنفـيُ الكثرة ليس لإثبات القلـة، بل هو على حـد قـولـه عـز وجل: ﴿ما للظـالمين مـن حميم ولا شفيع يطـاع﴾ إذ المقصود: لا طاعة ولا شفاعة للكافرين يوم القيامة وكما قال امرؤ القيس:

على لا حـب لا يُهْتـدَى بمنـاره إذا سَـافَهُ العَوْدُ النبـاطيُّ جَرْجَرا

إذ المقصـود: لا منـار ولا اهتـداء، فكـذلك قـولـه تبـارك وتعـالى هنـا: ﴿لَوَجَدُوا فيـه اختلافا كثيرا﴾ يعني أنهم لم يجدوا فيه اختـلافاً كثيراً ولا قليلا، وقولـه تبارك وتعـالى: ﴿وإذا جاءهم أمـر من الأمن أو الخوف أذاعوا بـه ولو ردُّوه إلى الرسـول وإلى أولي الأمر منهم لعلمـه الذيـن يستنبطونه منهـم﴾ هذا مثـال لـرعـونـة المنـافقين وأشبـاههم من المرجفين الـذين يبـادرون إلى نشر الإشاعات وإذاعة الأخبار دون تحقق وتثبت أو دون رَوِيَّةٍ مما قد يُلْحق الأذى بالأبـرياء، ويسبب بلبلـة الأفكار واضطراب الآمنين، وأن الإنسـان السَّويَّ هو الذي إذا جاءه خبر مثيرٌ لا يتحـدث به حتى يرجع إلى ذوي العلم الذين يستطيعون استنباط الأمور من مصـادرها الصحيحة قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ولنـذكر ههنا حديث عمـر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجـاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ فقـال: لا. فقلت: الله أكبر. وذكر الحديث بطولـه. وعند مسلم: فقلتُ: أطلقتهُنَّ؟ قال: لا، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يُطَلِّقْ رسـول الله ﷺ نساءَهُ. ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا جـاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطـونه منهم﴾ فكنتُ أنـا استنبطت ذلك الأمر اهــ وفي قولـه عز وجل: ﴿وإذا جـاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعـوا به﴾ أسلوب بـلاغي

بديعي يعـرف عند علماء البـديع باسم الجناس الـلاحق وهو مـا اختلف فيه اللفظان في حرفين متبـاعدين مخرجاً كأمر وأمن. وفيـه كذلك من المحسنات البـديعية الأسلـوب المعـروف عند البـلاغيين بـاسم الطباق وهـو الجمع بين لفظين متضـادين في المعنى حيث قال ﴿من الأمن أو الخوف﴾ وقـوله تبـارك وتعالى: ﴿ولـولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطـان إلا قليلا.﴾ أي ولولا جـود الله عليكم وفضله بما حذركم من عـدوكم وعرفكم بـه من أصول سعادتكم وأمنكم لانقدتم للشيطان إلا من عصمه الله منكم وهم قليل.

قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فى سبيل اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ، وَحَرِّضِ المؤمنين عَسَى الله أَنْ يَكُفَّ بأْسَ الَّذِينَ كفروا، واللهُ أَشَدُّ بأسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلا. مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَة سَيِّئَةً يكُنْ له كِفْلٌ مِنْهَا، وكانَ اللهُ على كل شىء مُقِيتًا.﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيل الله وأثنى على الذين يسارعون إليه، وندَّد بالذين لا يحرصون عليه، ووبخهم أشدَّ التوبيخ، وفضح ما يُسِرُّونه من سوء المعتقد، وما يبيِّتونه من قبيح التدبير، وأوضح أن طاعة رسول الله ﷺ طاعةٌ لله عز وجل الذي أرسله، وأرشد رسوله ﷺ إلى الإعراض عنهم والاعتماد على الله وحده، وحضَّ على تدبُّر القرآن العظيم، والتثبت عند مجيء أمرٍ من الأمن أو الخوف أمر رسوله ﷺ هنا بقتال أعداء الله وألا يعبأ بتخلف المتخلفين، وأن يحرِّض المؤمنين على القتال حيث يقول: ﴿فَقَاتِلْ في سبيل الله لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَك﴾ والفاء في قوله عز وجل: ﴿فقاتل﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا كان هؤلاء المنافقون يفعلون ما يفعلون من التثبيط والتبييت والإرجاف فتقدم أنت للقتال، فإنك غير مسئول عن تخاذلهم، والله ناصرك ومؤيدك، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وحَرِّضِ المؤمنين﴾ أي وحُضَّ المؤمنين وحثهم على مقارعة أعداء الله وقتالهم، ورغِّبهم في ذلك، وبيِّن لهم ما أعد الله عز وجل للمجاهدين في سبيله من جليل الأجر وعظيم المثوبة، وقد سارع رسول الله ﷺ إلى امتثال أمر ربه، وكان يحرض المؤمنين على القتال ويحضهم عليه، ويرغِّبهم فيه، ويشجعهم مما كان يحمل الواحد منهم على رمي ما بيده من تمرات حِرصًا على منازلة أعداء الله، والمسارعة إلى جهاد المشركين رغبةً في الفوز بالشهادة في سبيل الله، وكان يقول لهم ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، ويقول: إذا لقيتموهم

فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ويقول: لقاب قوسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب، ويقول: لَغَدْوَةٌ أو رَوْحَةٌ في سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال عمير بن الحمام: بخٍ بخٍ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك: بخٍ بخٍ؟ قال: لا والله يارسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها. قال: فأخرج تمرات من قَرَنه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياةٌ طويلة، قال: فرمى بها كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قُتل. كما روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: رباطُ يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها. كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لَغَدْوَةٌ في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها. كما روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. وقد أمر الله رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال في غير موضع من كتابه الكريم حيث قال عز وجل هنا: ﴿وحَرِّضِ المؤمنين﴾ وكما قال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿ياأيها النبيُّ حَرِّضِ المؤمنين على القتال﴾ ولاشك أن النفس الإنسانية تتأثر بالتحريض والتذكير، ولاسيما إذا كان التحريض من خبير فصيح بليغ، فإنها تنبعث فيها الهِمَّةُ على مناجزة الأعداء، والدفاع عن حوزة الإسلام وأهله، ومقاومة الأعداء ومصابرتهم، ولذلك يقول عز وجل: ﴿وذَكِّر فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين.﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَسَى الله أن يَكُفَّ بَأْسَ الذين كفروا﴾ إطماع من الله تبارك وتعالى

للمؤمنين وَوعدٌ منه عز وجل بنصرهم وتأييدهم وإلقاء الرعب والفزع في قلوب أعدائهم، كما قال عز وجل: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وعدوكم وآخرين من دونهم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿والله أشد بأسًا وأشدُّ تَنْكِيلا﴾ أي والله وحده قادر على الانتصار من الكافرين وتدميرهم وإيقاع أشد العقوبات بهم كما قال عز وجل: ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن لِيَبْلُوَ بعضكم ببعض﴾ لأنه عز وجل إذا أراد أن يأخذ أعداءه أخذهم أخذ عزيز مقتدر، فهو تبارك وتعالى ذو البطش الشديد، الفعال لما يريد، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿والله أشدُّ بأسا وأشدُّ تنكيلا﴾ يقول: والله أشد نكايةً في عدوه من أهل الكفر به منهم فيك يامحمد وفي أصحابك، فلا تَنكُلنَّ عن قتالهم، فإني راصدهم بالبأس والنكاية والتنكيل والعقوبة لأوهن كيدهم وأضعف بأسهم، وأعلي الحق عليهم، والتنكيل مصدر من قول القائل: نكَّلت بفلان فأنا أنكِّل به تنكيلا إذا أوجعته عقوبة اهـ. وقوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسَنَةً يكُنْ له نَصِيبٌ منها ومَنْ يَشْفَعْ شفاعةً سيئةً يكن له كِفْلٌ منها﴾ بعد أن أمر الله عز وجل رسوله وحبيبه محمداً ﷺ بالقتال في سبيل الله وتحريض المؤمنين على القتال ذكر هنا أن من يسارع إلى الانضمام لجند الله وتكثير حزب الله ويحرض المؤمنين على قتال أعداء الله يجعل الله تبارك وتعالى له أجراً عظيماً وحظاً كريماً من ثواب الله تعالى الذي أعده للمجاهدين في سبيله، دون أن ينقص من أجورهم شيئا، لأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله، ومن ناصر أعداء الله على أولياء الله فلهُ من الأوزار والآثام مثل آثامهم وأوزارهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء، ومادةُ شفع تدور في اللغة على معنى الازدواج، والزيادة، والإعانة، فالشفعُ: الزوج، وهو ضد الوتر وتقول: شَفَعَ ناظري إذا صار يرى الخَطَّ خطين والشخصَ

شخصين، قال في القاموس المحيط: وعينٌ شافعةٌ تنظر نظرين، وشُفِعَتْ لي الأشباح بالضم أي أَرَى الشخص شخصين لضَعْف بصري وانتشاره، ثم قال: وإنه ليشفع عليَّ بالعداوة أي يُعين عليَّ ويضارُّني. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعةً حَسَنَةً﴾ أي مَن يزد عملاً إلى عمل، ثم قال: وكأميرٍ صاحب الشفاعة وصاحب الشُّفعة بالضم وهي أن تشفع فيما تطلب فتضمه إلى ما عندك فتشفعه أي تزيده، وعند الفقهاء حقُّ تملك الشِّقص على شريكه المتجدِّد ملكه قهراً بعوض اهـ. وإذا كان قوله عز وجل: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شفاعة حسنة يكن له نَصِيبٌ منها ومَنْ يشفع شفاعةً سيئة يكن له كفل منها﴾ قد سيق للحض على المسارعة لتأييد دين الإسلام والانضمام لجند الله والتحذير من الانضمام إلى جند الشيطان وتأييد أعداء الله فإن عموم لفظه يشمل هذا الذي سيق من أجله ويشمل كذلك من يشفع لإنسان في باب من أبواب الخير ويدخل عمله هذا في باب الشفاعة الحسنة كما يشمل من يعين ظالماً على ظلمه ويتعاون على الإثم والعدوان أو يشفع لشخص ليتولى عملاً لا يكون كفؤاً له، ويدخل هذا في باب الشفاعة السيئة؛ وقد حض رسول الله ﷺ على الشفاعة للناس في أبواب الخير وحذر تحذيراً شديداً من الشفاعة السيئة فقد روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائلُ أو طُلبت إليه حاجةٌ قال: اشفعوا تُؤْجَرُوا ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجة أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا فَلْتُؤْجَرُوا، ولْيَقْضِ الله على لسان نبيه ما أَحَبَّ. وقال البخاري: باب الشفاعة في وضع الدَّين حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر عن جابر رضي الله عنه قال: أُصيب عبد الله وترك عيالاً وديْناً فطلبت إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضا من دينه

فأبوا، فأتيت النبي ﷺ فاستشفعت بـه عليهم، فأبوا فقال: صَنِّف تمرَكَ كلَّ شيء منه على حدتـه، عِذْقَ ابن زيد على حـدة، واللِّينَ على حدةٍ، والعجوة على حدة، ثم أحضرهـم حتى آتيك، ففعلتُ، ثم جاء ﷺ، فقعـد عليه، وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمـر كما هو كأنه لم يُمسَّ، الحديث. كما روى البخـاري من حديث ابن عبـاس أن زوج بريـرة كان عبـدًا يُقال لـه مُغيث كأني أنظر إليـه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيـل على لحيته، فقال النبي ﷺ لعبَّاس: يـاعباسُ ألا تَعجب من حبِّ مغيث بـريرة، ومن بُغض بريرة مغيثًـا؟ فقال النبي ﷺ لو راجعته؟ قالت: يارسـول الله تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع. قالت: لا حاجة لي فيه. ومن أمثلـة الشفاعة السيئة الشفاعة في الحدود إذا رفعت إلى السلطان وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حـديث عـائشة رضي الله عنهـا أن قـريشا أهمَّتهم المرأة المخـزوميـة التي سرقت، فقـالوا: من يُكلِّم رسـول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامـة حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلَّم رسولَ الله ﷺ، فقـال: أتشفع في حدٍّ من حدود الله. الحديث وقـال أبو داود في سننـه: حـدثنا أحمد بـن عمرو بن السرح ثنـا ابن وهب، عن عمـر بن مـالك عن عُبيـد الله بن أبي جعفـر عن خـالـد بن أبي عمران عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: مَنْ شَفَعَ لأخيه بشفاعة فَأَهْدَى لـه هديةً عليها فقبلهـا فقد أتى باباً عظيماً من أبـواب الربا. والكفل والنصيب بمعنى واحـد، ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وكـان الله على كل شيء مُقِيتًـا.﴾ أي وكان الله عـز وجل ولا يـزال مقتدرا حفيظـاً شهيداً حسيبـاً لا يفوته شيء من أعمال عباده خيراً كـانت أو شراً، فاجتنبوا الشر وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

قال تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا، إن اللهَ كَانَ على كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا* اللهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ، لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللهِ حَدِيثًا﴾

بعد أن رغبَّ الله عز وجل في الجهاد وقتال أعداء الله وأمر رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال، وأشار إلى أن الناس ليسوا سواءً فمنهم من يسارع إلى داعي الخير وينضمُّ إليه، ومنهم من يسارع إلى داعي الشر وينضم إليه، نبَّه هنا إلى أن دين الإسلام هو دين السلام، وأنه لا يجوز لأحد أن يفهم من الحض على الجهاد أن الإسلام دينٌ دَمَوِيٌّ، فهو عندما يأمر بالقتال إنما يأمر به لمصلحة الإنسانية، ولذلك نبه المسلم إلى أنه حتى لو كان في أرض المعركة ولقيه رجل من الجانب الذي فيه الكفار وسلَّم عليه وجب على المسلم أن يرد عليه السلام والتحية بأحسن منها أو بمثلها وألا يلحق به أيَّ أذى مادام قد سلم عليه، وحذَّر المسلم من سوء الظن بمن يسلم عليه ويحييه حيث يقول عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبيَّنُوا، إن الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ قال البخاري في صحيحه: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾ قال: قال ابن عباس: كان رَجلٌ في غُنيمةٍ له فَلَحِقَهُ المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنيمَته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: ﴿عَرَضَ الحياة الدنيا﴾ تلك الغُنيمة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ منها أَوْ رُدُّوهَا﴾ أي وإذا حيَّاكم أحدٌ بتحية الإسلام فأجيبوه على تحيته بأحسن منها أو بمثلها. وأصل التحية الدعاء بالحياة وطُولِها ثم

استعملت في كل دعـاء، وكانت العـرب إذا لقي بعضهم بعضاً في الجاهليـة يقول: حيّـاك الله ثم استعملها الشرع في السلام وهـي تحية الإسلام قـال عز وجل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يـوم يلقـونهُ سَـلاَمٌ﴾ وقـال عز وجل: ﴿فـإذا دخلتم بيوتـا فَسَلِّمُوا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً﴾ ولاشك أن تحية الإسلام خيرالتحيات التـي يحبها الله عز وجل كما أشـار إلى ذلك تبارك وتعـالى حيث يقول: ﴿و إذا جاءوك حَيَّوْك بما لم يُحَيِّكَ به الله و يقولون في أنفسهم لولا يُعَذِّبُنَا الله بما نقول، حَسْبُهُـمْ جَهنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فبئس المصير.﴾ وكما أن تحيـة الإسلام محبـوبـةٌ إلى الله عز وجل فهي كـذلك لها مـزيـة على غيرها إذ السـلام دعـاءٌ بالسلامة من الآفـات الدينية والدنيوية، وهي مستلـزمة لطول الحياة، وليس في الدعاء بطول الحياة تلك السلامة، ولأن السلام من أسماء الله الحسنى فهو أعظم خيراً وبـركـة من جميع تحيات أهـل الجاهلية التي كـانـوا يحيي بعضهم بعضاً بها كقولهم حياك الله، أو أنعم صبـاحاً أو أنعِم مساء، أو أنعَم الله بك عيناً، أو أبيت اللَّعـن، فإن تحية الإسلام أجمع وأعـم وأفضل مـن ذلك كله، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه التحية كانت من أول ما دار من حوار بين آدم عليه السلام والملائكة وأنها تحية الملائكة والنبيين والمرسلين وسائر المؤمنين إلى يوم القيامة فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله أدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قـال: اذهب فَسَلِّمْ على أولئك النفر، وهم نفرٌ من الملائكـة جلوسٌ، فـاستمع ما يُحَيُّـونَكَ، فإنها تحيَّتُكَ وتحية ذريتك، فـذهـب، فقال: السـلام عليكم، فقالوا: السلام عليـك ورحمة الله، قال: فَزادوه: ورحمة الله. قال: فكل من يـدخل الجنة على صـورة آدم وطـوله ستـون ذراعاً، فلم يـزل الخلق ينقص بعده حتى الآن، وقد ذكر الله تبـارك وتعالى سلامه على عباده المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابـه الكريم حيث قال: ﴿قيل يانـوح اهبط بسلام منا

وبـركات عليك وعلى أمـم ممن معك﴾ وكما قال عـز وجل: ﴿قل الحمـد لله وسلام على عبـاده الذين اصطفـى﴾ وقال في أهل الجنـة: ﴿لهم فيها فـاكهةٌ ولهم ما يدَّعـون. سلام قولا من ربٍّ رحيم.﴾ وقال عـز وجل: ﴿سلام على نوح في العالمين.﴾ وقـال عز وجل: ﴿سلام على إبراهيم﴾ وقـال عز وجل: ﴿سـلام على موسى وهـارون.﴾ وقال عـز وجل: ﴿سلام على إليـاسين.﴾ وقـال عـز وجل: ﴿سبحـان ربك ربِّ العـزة عما يصفـون. وسـلام على المرسلين. والحمد لله رب العـالمين.﴾ وقد أمـر الله عز وجل نبيـه محمداً ﷺ بالسـلام على المؤمنين حيث قـال: ﴿وإذا جاءك الذيـن يؤمنون بـآياتنـا فقل سلامٌ عليكم.﴾ وقال عز وجل: ﴿تحيتهم يوم يَلْقَـوْنه سلامٌ﴾ وقال ﴿الذين تتوفاهم الملائكـة طيبين يقولون سلام عليكم﴾ وقـال عز وجل: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل بـاب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.﴾ وقـال عز وجل: ﴿وسيق الـذين اتَّقَـوْا ربَّهم إلى الجنة زمـرا حتى إذا جاءوهـا وفُتِحَتْ أبوابها وقـال لهم خزنتها: سلام عليكم طبتـم فادخلوها خـالدين﴾ وقال عز وجل في حق يحيى عليه السلام: ﴿وسلام عليه يوم وُلِدَ ويوم يموت ويوم يُبْعَثُ حَيًّـا.﴾ وقال في حق عيسى عليـه السلام: ﴿والسـلام عَلَيَّ يوم ولدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حَيًّـا.﴾ وتخصيص هذه الأوقات الثلاثة وهي يوم الـولادة ويوم الموت ويـوم البعث لأنها أشدُّ الأوقات حـاجة إلى السـلامة والكرامـة. وقد رغَّب الإسـلام في السلام تـرغيباً شـديداً فقـد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: تُطعم الطعام وتقرأ السلام على مَنْ عرفتْ ومن لم تعرف. كما روى مسلـم في صحيحه من حـديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَ لا أدلكم على شيء إذا فَعلْتُمـوه تحاببتم؟ أفْشُـوا السـلام بينكم. كما روى

الترمذي وقال حديث صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصِلوا الأرحام وصلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام. كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسنٌ عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، ثم جلس، فقال: عشرٌ، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه، فجلس، فقال: عشرون، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ، فجلس، فقال: ثلاثون. وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى آداب السلام وكيفيته بقوله وفعله ﷺ فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تُفْهم عنه وإذا أتى على قومٍ فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً. كما روى أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي جُرَيٍّ الهُجَيْمِيِّ رضي الله عنهُ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلتُ: عليك السلامُ يارسول الله، فقال: لا تقل: عليك السلام فإنَّ عليك السلام تحية الموتى. كما روى أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يحل للرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام. وقد كان رسول الله ﷺ يسلم على الصبيان فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه مَرَّ على صبيان فَسلم عليهم وقال: كان رسول الله ﷺ يفعله، كما أنه لو سلم الإنسان على إنسان ثم فارقه ولو قليلاً ثم رجع إليه فإنه يستحب له أن يسلم عليه مهما تكرر ذلك فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة المسيء صلاته

أنـه جـاء فصلى ركعتين ثم جـاء إلى رسـول الله ﷺ فسلَّم عليـه، فـردَّ عليـه السـلام، فقال: ارجع فصلِّ فإنك لم تصـل فرجع فَصلَّى ثم جـاء فسلَّم على النبي ﷺ حتى فعـل ذلك ثـلاث مـرات. كما ينبغي الحرص على أن يسلم الرجل على زوجتـه وأهله إذا دخل عليهم فقد روى الترمذي وقـال: حديث حسن صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قـال لي رسول الله ﷺ: يابنيَّ إذا دخلت على أهلـك فسلِّم تكن بـركـة عليك وعلى أهـل بيتك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريـرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يُسلِّم الراكب على الماشي والماشي على القاعد، والقليل على الكثير. وفي رواية للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يُسلِّم الصغير على الكبير، والمارُّ على القاعـد والقليل على الكثير، ونبَّـه الإسلام إلى الردِّ على اليهـود والنصارى إذا سلَّموا على المسلم فقـد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمـر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إذا سلم عليكم أهل الكتـاب فقـولـوا: وعليكـم. كما يجوز للمسلم إذا مـرَّ على مجلس فيـه أخـلاط من المسلمين والمشركين أن يسلم عليهم فقد روى البخـاري ومسلم من حديث أسـامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مـرَّ بمجلس فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين عبـدة الأوثان واليهـود فسلَّم عليهم. ومعنى قولـه عز وجل: ﴿فَحَيُّـوا بأحسَنَ منها أو رُدُّوهـا﴾ أي فليكن ردُّكم على من سلم عليكم بأحسن من سـلامه أو بمثلـه على الأقل فإذا قال المسَلِّم مثـلاً: السـلام عليكم فيكـون الـرد وعليكم السـلام ورحمة الله. فإذا قـال المسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله فيكون الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال المسَلِّم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فيكون الجواب: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، وأهلاً وسهلاً ومرحباً أو نحو ذلك فيكون قد حياه بأحسن من تحيته، فإذا اقتصر على مثل تحية المسَلم جاز ذلك. قال ابن كثير

رحمه الله : عن الحسن البصري : السلام تطوع والـردُّ فريضة وهذا الـذي قاله هـو قول العلماء قـاطبة اهـ . وقولـه عز وجل : ﴿إن الله كـان على كل شيء حسيبـا . الله لا إلَـه إلا هو لَيَجْمَعَنَّكُـمْ إلى يوم القيـامـة لا ريب فيـه ، ومن أصـدق من الله حـديثـا . ﴾ أي إن الله عـز وجـل محاسبكم على أعمالكم ومجازيكم بها فلا تتهاونوا في تطبيق شريعـة الإسلام التي شرعها الله عز وجل لسعـادتكـم في الـدارين ، وسيجمعكم الملك الحق المبين الـذي لا يستحق العبادة أحد سواه ، في عرصات القيامة ، ولا أحد أصدق من الله قولاً .

قال تعالى : ﴿فَمَا لَكُمْ فِي المنافقين فِئَتَيْنِ وَاللهُ أَرْكَسَهُـمْ بِمَا كَسَبُوا، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِد لَهُ سَبِيلا . وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقْتُلُـوهُمْ حَيْثُ وَجَدتمُوهُمْ ولا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرا . إلا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنِ اعْتَـزَلُـوكُمْ فَلَمْ يُقَـاتِلُـوكُمْ وَأَلْقَـوْا إِلَيْكُمُ السَّلَـمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لكم عَلَيْهِمْ سَبِيلا . ﴾

بعد أن أمـر الله عز وجل المسلمين بأن يحيُّوا من حيَّـاهم بأحسن من تحيته أو بمثلها، ويقتضي هذا الأمر أن من ألقى إليهم السلام لا يحرصون على قتله حتى ولو كان في الجانب الذي به الكفار المحاربون، وذكرهم بأن مصير جميع الخلائق إليه وحـده حيث يجمعهم في عرصـات القيامـة ويجزي كل عامل بما عمل، أشار هنـا إلى ما كـان من المؤمنين في شأن المنافقين الـذين رجعوا من الطريق يوم أحد وانخذلوا عن رسول الله ﷺ وعلى رأسهم عبد الله بن أبيٍّ ابن سلـول حيث انقسم المسلمـون في شأنهم بعد غـزوة أحـد إلى فـرقتين : فرقـة تقـول : نقتُلهم وفرقـة تقول : لا نقتلهـم مادامـوا يظهرون أنهم مسلمـون ولم يُعلنوا الكفر صراحـة، فذكر عز وجـل هنا للمسلمين صوراً تبيِّن للمسلمين بعض أحكـام الـدماء، وتحذِّرهـم من قتل المنـافقين الذين لم يعلنـوا الكفـر صراحة، وتنبههم إلى الحذر من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ، وبدأ ذلك بقولـه عز وجل : ﴿فما لكـم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كَسَبُـوا﴾ فقد روى البخاري في صحيحه في باب غزوة أحد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنـه قال : لما خَـرَج النبي ﷺ إلى غزوة أحـد رجع نـاسٌ ممن خرج معـه،

وكان أصحـاب النبي ﷺ فـرقتين: فرقة تقـول: نقاتلهـم، وفرقـةً تقول: لا نقـاتلهم، فنـزلت: ﴿فما لكـم في المنـافقين فئتين واللهُ أركسهم بما كسبـوا﴾ وقـال: إنها طيبة تنفـي الذنـوب كما تنفي النـار خَبَث الفضـة. وأخرجـه في التفسير من صحيحـه من حديث زيـد بن ثابت رضي الله عنـه ﴿فما لكم في المنـافقين فئتين﴾ رجع ناسٌ من أصحـاب النبي ﷺ من أحـد وكان النـاس فيهم فرقتين: فـريقٌ يقول: اقتُلهم، وفـريقٌ يقول: لا فنـزلت: ﴿فمالكم في المنافقين فئتين﴾ وقـال: إنها طيبة تنفي الخبث كما تنفي النـار خبث الفضة.
وقد فرَّق مسلم هـذا الحديث وجعله حديثين فروى في بـاب ذكر المنافقين في أواخر صحيحه من حديث زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فَرَجَعَ نـاسٌ ممن كان معـه، فكان أصحـاب النبي ﷺ فيهم فرقتين قـال بعضهم: نقتلهم، وقـال بعضهم: لا، فنـزلت: ﴿فما لكم في المنـافقين فئتين﴾ وروى في كتاب الحج من صحيحـه من حديث زيد بن ثـابت عن النبي ﷺ قال: إنها طيبـة يعني المدينة وإنها تنفي الخبث كما تنفى النـار خبث الفضة. قـال الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح رواية البخاري التي أخرجها في غزوة أحد: قوله: «رجع ناس ممن خرج معه» يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في المغازي، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيـه رأي النبي ﷺ على الإقـامـة بالمدينـة، فلما أشـار غيره بـالخروج، وأجـابهم النبي ﷺ فخـرج، قـال عبـد الله بن أبيٍّ لأصحـابـه: أطـاعهم وعصـاني، عَـلام نقتُل أنفسنـا، فرجع بثُلث النـاس، قـال ابن إسحـاق في روايته: فاتبعهـم عبد الله بن عمرو بن حرام وهـو والد جابر، وكـان خزرجياً كعبـد الله بن أبَيٍّ، فناشـدهم أن يرجعـوا، فأبوا، فقـال: أبْعَدَكُمُ اللهُ اهـ.
ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿فما لكم في المنافقين فئتين﴾ أي أيُّ شيء لكم في الاختـلاف في أمرهم؟ ولماذا تختلفـون فيهم ورسول الله ﷺ بينكم؟ وفي هـذا

رسمٌ للسياسة الإسلامية نحو المنافقين وغيرهم، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله، وأن يحذروا التنازع والاختلاف، فإنه لا يؤدي إلى خير، وقد عُلم أن رسول الله ﷺ كان لا يحب قتل المنافقين إذا بدرت منهم بوادر سوء، حتى لايتحدث الناس الذين لا يعلمون حقيقة نفاقهم ويقولوا: محمد يقتل أصحابه. ومعنى ﴿والله أركسهم بما كَسَبُوا﴾ أي والله عز وجل نكَّسهم وردَّهم في كفرهم ومنعهم من القتال معكم حرمانًا لهم بسبب الكفر والمعاصي، مع أنهم لو حضروا المعركة ما زادوا المسلمين إلا خبالا، فكره الله عز وجل أن يشهدوا معكم المعركة فخذلهم عن شهودها، ولم يوفقهم لحضورها. وقوله عز وجل: ﴿أتريدون أَنْ تَهْدُوا من أَضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ له سبيلا.﴾ أي أتحسبون أن حرصكم الشديد على هداية قلوبهم ينفعهم وقد أراد الله عز وجل إضلالهم، ومن أراد الله عز وجل إضلاله وخذلانه وعدم توفيقه فلن يستطيع أحد مهما كان إدخال الهداية في قلبه المنكوس المركوس، وقوله عز وجل: ﴿ودُّوا لو تكفُرُون كما كفروا فتكونون سواءً فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجرُوا في سبيل الله﴾ هذا بيان لما استقر في قلوب جميع أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام والمسلمين من حرصهم الشديد على ردة المسلمين عن الإسلام ورجوعهم إلى الكفر بعد أن أنقذهم الله منه، وفيه لفت انتباه الناس إلى الفرق بين قلوب المؤمنين التي تبالغ في الحرص على هداية الناس وقلوب أعدائهم التي تبالغ في الحرص على إضلالهم وردَّتهم حتى يكونوا في الضلالة سواء. وقد ذكر الله عز وجل هذا الخُلق الذميم في اليهود والمشركين والمنافقين حيث قال عز وجل: ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حَسَدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ وقال عز وجل: ﴿ما يَوَدُّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّل عليكم من خير من ربكم﴾ وقال هنا: «ودُّوا لو

تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ وقوله عز وجل: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تَوَلَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا.﴾ يشمل تحريم موالاة جميع أصناف الكفار سواءٌ كانوا منافقين أو يهودا أو نصارى أو مشركين، وجعل تبارك وتعالى هذا التحريم مُغيًّا بغاية وهي هجرتهم في سبيل الله فإن هاجروا في سبيل الله صاروا أولياء للمسلمين بغض النظر عما كانوا عليه قبل الهجرة. والهجرة تُطلق على ثلاثة أوجه: هجرةٌ وانتقالٌ من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وكانت متحتمةً من مكة إلى المدينة قبل الفتح، وقد غَلب على أصحاب هذه الهجرة اسم المهاجرين، وهجرة من النفاق وهي داخلةٌ في هذا المقام دخولاً أولياً لأن السياق فيها، والمراد بها: أن يترك الشخص نفاقه ويخرج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله صابراً محتسباً لا لغرض من أغراض الدنيا، وهجرةٌ عن جميع المعاصي وفي هذا يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، وأخرى تحصل بالانتقال من أعمال الكفار إلى أعمال المسلمين قال ﷺ: المهاجر من هجر ما نَهى الله عنه. وقال المحققون: الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مأموراته وفعل منهياته، ولما كان كلُّ هذه الأمور معتبراً لا جَرم ذكر الله تعالى لفظاً عاماً يتناول الكلَّ فقال: ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ فإنه تعالى لم يقل: حتى يهاجروا عن الكفر بل قال: ﴿حتى يهاجروا في سبيل الله﴾ وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ومهاجرة شعار الكفر، ثم لم يقتصر تعالى على ذكر الهجرة بل قيَّده بكونه في سبيل الله، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار

الإسلام لغرض من أغراض الدنيا، إنما المعتبر وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى اهـ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإن تولَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًّا ولا نصيرا.﴾ أي فإن أعرضوا عن الانقياد لدين الله وأظهروا الكفر فأْسِروا من تمكنتم من أخذه منهم وأسره، واقتلوا منهم من قدرتم على قتله أينما أصبتموهم من أرض الله ولا تتخذوا منهم خليلاً يُواليكم على أموركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم فإنهم هم العدوُّ لا يألونكم خبالا، وَدُّوا عنتكم ومشقتكم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إلا الذين يصِلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ﴾ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إلا الذين يصلُون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ فإن تولَّى هؤلاء المنافقون الذين اختلفتم فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأَبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم، سِوى مَن وصل منهم إلي قوم بينكم وبينهم مُوادعة وعهدٌ وميثاقٌ فدخلوا فيهم، وصاروا منهم ورضوا بحكمهم، فإن لمن وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حقن دمائهم بدخوله فيهم: أَلا تُسبى نساؤهم وذراريهم ولا تُغنم أموالهم اهـ. وقوله عز وجل: ﴿أو جاءُوكم حَصِرَتْ صُدُورُهم أن يقاتلوكم أو يُقَاتِلُوا قَوْمَهُم، ولو شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عليكم فَلَقَاتَلُوكُمْ، فَإِنِ اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وَأَلْقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سَبِيلاً.﴾ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ﴿أو جاءوكم حَصِرَت صُدُورُهم﴾ الآية: هؤلاء قومٌ آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف وهم حَصِرة صدورهم أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم، ﴿ولو شاء الله لَسَلَّطَهُمْ عليكم فلقاتلوكم﴾ أي من لُطفه بكم أن كفهم عنكم ﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم

وأَلْقَوْا إليكم السَّلَمَ﴾ أي المسالمة ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم مادامت حالهم كذلك، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره اهـ.

قال تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُم كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا، فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُم، وأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا. وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً، ومن قتل مؤمنا خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إلا أَنْ يَصَّدَّقوا، فَإِنْ كان من قومٍ عَدُوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فَتَحرِيرُ رقبةٍ مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهله وتحريرُ رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيامُ شهرين متتابعين تَوْبَةً من الله، وكان الله عليماً حكيما. ومَنْ يَقْتُلْ مؤمنا مُتَعَمِّدًا فَجزاؤُهُ جَهَنم خَالِدًا فيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وأَعَدَّ له عَذَابًا عَظِيماً.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية السابقة حكم من وصل من الكفار إلى قوم بينهم وبين المؤمنين موادعةٌ وعهدٌ وميثاقٌ ودخلوا معهم في عهدهم وميثاقهم وصاروا منهم ورضوا بحكمهم وأن الله عز وجل لم يجعل للمؤمنين عليهم سبيلا، بيَّن هنا حكم طائفة أخرى من الكفار الذين جعل الله عز وجل للمؤمنين عليهم سبيلاً وسلطاناً مبينا، فقال تبارك وتعالى: ﴿ستجدون آخرين يريدون أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها﴾ أي ستجدون فريقاً آخر من الكفار بهم شَبَهٌ من بعض الوجوه بالفريق المذكور في الآية السابقة من جهة حرصهم على أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم إلا أنهم يغايرونهم في أنهم أخبث نيةً وأشدُّ ارتكاساً في الكفر، وأعمق في العداوة لكم، ولو تمكنوا من القضاء عليكم ما تأخروا عن ذلك، فهم إذا كانوا بينكم أظهروا لكم أنهم معكم وإذا صاروا بين أعدائكم أظهروا الحرص على استئصالكم، بخلاف الفريق المذكور في الآية السابقة فإنهم ما كانت تنشرح

صدورهم لقتالكم بل كـانوا يضيقون إذا اضطرُّوا للوقوف ضـدكم، وقد ذكر الله تبارك وتعالى ثلاثة شروط إن توفـرت في هذا الفريق الشرِّير كفَّ المسلمون عن قتالهم، و إن لم تتوفر فيهم هذه الشروط الثـلاثة قاتلهم المسلمون، وهذه الشروط الثلاثة هي المدلـول عليها بقوله عز وجل: ﴿فإن لم يعتـزلوكم ويُلقوا إليكم السَّلَمَ ويَكُفُّوا أَيْـدِيَهُمْ﴾ فإذا أخلوا بهذه الشروط الثلاثـة فإن الله تبارك وتعـالى جعـل للمسلمين عليهم حجـة وسلطـانـا وسبيـلا حيـث يقـول: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهـم، وأولٓئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا.﴾ أي فإن لم يكف هؤلاء الشريرون عن التعـرض لكم بوجه من الوجوه التي تُلحق الأذى بكم ولم يعقدوا معكم هدنةً وصلحاً، ولم يكفوا أيديهم عن قتالكم ويداوموا على مسـالمتكم فقاتلوهـم وأسروا من تمكنتم من أسره منهم، واقتلوا من قـدرتم على قتله ممن لم يستأسر لكم منهم، وأبشروا بنصر الله لكم فإنه عـز وجل مسلطكم عليهم. وقوله عز وجل: ﴿ومـا كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خَطَأً﴾ أي ما يليق بمؤمن متُّصفٍ بوصف الإيمان ولا يحل له أبدا أن يتعمد قتل مؤمن؛ لأن الله عز وجل حرم دم المؤمن في جميع الشرائع السماوية ولا يحل دمه إلا بإحـدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الـزاني والارتداد عن دين الإسلام كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم يشهـد أن لا إلـه إلا الله وأني رسـول الله إلا بإحـدى ثـلاث: الثيب الـزاني، والنفس بـالنفس، والتارك لـدينـه المفارقُ للجماعـة. لكن يمكن أن يقع أن يقتل المؤمن مؤمناً خطأً، إذ قد يقـع بسببٍ يتعذر الاحتراز منه أو بسبب فوق الطاقـة البشرية، ، والخطأ في القتل يحدث لأسباب كثيرة يجمعها عـدم قصد القتل فقد يقصد المسلم رمي مشرك أو طائر فيصيب مسلماً، أو يرى شخصاً عليه شعار الكفـار في أرض المعركة فيرميه ويكـون هذا القتيل قد أسلم لكن

الذي رماه يحسبه كافرا، أو يضرب شخصاً مسلماً بما لا يقتل غالبا كأن يضربه بيده أو بعصا خفيفة أو نحوها مما لا يُعهد في مثله أن يقتل، أو يكون نائماً فينقلب على شخص فيقتله وهو لا يشعر بذلك وكما حدث للمسلمين في معركة أحد عندما قتلوا اليمان والد حذيفة رضي الله عنهما وهم لا يشعرون من شدة حزنهم وحذيفة رضي الله عنه يقول: أبي، أبي، فلما قتلوه قال حذيفة: يغفر الله لكم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بَعَثَنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرقة من جُهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم قال: ولحقت أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال لي: ياأسامة أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يارسول الله إنما كان متعوذاً، قال: أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟ فما زال يكررها عليَّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث المقداد بن عمرو الكنديِّ أنه قال: يارسول الله إن لقيت كافراً فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها ثم لاذمنِّي بشجرة وقال: أسلمتُ لله، أأقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله، قال: يارسول الله فإنه طرح إحدى يديَّ، ثم قال ذلك بعد ما قطعها أأقتله؟ قال: لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال. وقد بين الله تبارك وتعالى حكم من قتل مؤمناً خطأً فقال عز وجل: ﴿ومَنْ قَتَلَ مؤمنا خطأً فتحريرُ رقبة مؤمنةٍ وديةٌ مسلمة إلى أهله إلا أن يَصَّدَّقوا، فإن كان من قوم عَدُوٍّ لكم وهو مؤمنٌ فتحريرُ رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله، وكان الله عليماً حكيماً.﴾ أي فمن قتل مؤمناً

خطأ وأهل القتيل مسلمون يجب على القاتل إعتاق نفس مسلمة وتحريرها من الرق حقًّا لله عـز وجل كما تجب لورثة القتيل ديةٌ مـؤدَّاةٌ لهم يقتسمونها كسائر المواريث ولا نـزاع عنـد أهل العلـم في أن الـديـة في قتل الخطأ إنما تجب على العاقلـة ، والعاقلة هم عصبـة القاتل ولـورثة القتيل أن يتنازلـوا عنها فتسقط الـدية حينئـذ ، أمـا الكفارة فـلا تسقط بحـال . وهذا هـو القسم الأول من الأقسام الثلاثـة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية ، أمـا القسم الثاني فهو أن يقتل المسلم مؤمناً خطأ لكن أولياءه كفـار محاربون للمسلمين فإنه لا دية لهم ، ولكن يتحتم على القـاتل تحرير رقبـة مؤمنـة لا غير. أما القسم الثـالث فهو أن يكون المقتول مؤمنا وأهله كفار لكنهم أهل ذمة وهدنة وعهد فلهم دية قتيلهم لكنها ليست ميراثـا لأن الكافر لا يـرث المسلم ، ويتحتم على القاتل إعتاق إنسـان مسلم وتحريره من الرق ، فإذا لم يجد القاتل الـذي وجبت عليه الكفارة إنساناً مملوكاً لعـدم وجوده أو عدم قدرة القاتل على شرائه فإنه يتحتم عليه صيـام شهرين متتابعين يسرد صومهما إلى آخـرهما لا يتخلل ذلك إفطار في النهار المحـدد من طلوع الفجر الصادق إلى غـروب الشمس فإن أفطر من غير عذر مرض أو حيض أو نفاس ابتدأ صيام الشهرين من أولهما . وقوله عز وجل : ﴿تـوبةً من الله وكـان الله عليما حكيما . ﴾ تنبيـه إلى أن من قتل مؤمنـا خطأ فرض الله عز وجل عليه ما فرض في هذه الآية لما حصل منه من التقصير فيكون هذا الإعتـاق أو صيام شهرين متتابعين كفـارةً لما حصل منه وإن كان الله تبارك وتعـالى تجاوز لمن لم يتعمد الخطأ كما تجاوز عن النسيان لكنـه فرض عليـه الكفارة ليحترز المسلم ويبـالغ في الاحتياط حتى لا يقع في هـذا الخطأ الذي يـؤدي إلى إزهاق الأرواح المصـونة المحترمـة . وفي قولـه تبارك وتعـالى : ﴿فتحـرير رقبة مؤمنة﴾ إعلام بحـرص الإسلام على تحرير الرق وفك الرقاب ، وفي قوله تبـارك وتعالى : ﴿إلا أن يصَّدَّقوا﴾ إشعـار بأن تنازل أهل القتيل عن

الدية أو بعضها يعتبر صدقة في موازين حسناتهم عند الله يوم القيامة كما أن في هذه الآية العظيمة بياناً بوجوب حفظ العهود والمواثيق ومراعاة حقوقها، والتفريقُ بين الكفار المسالمين وغير المسالمين وقد اشترط الإسلام في رقبة الكفارة أن تكون مؤمنة لحرص الإسلام على عزة المسلمين وحريتهم، ويكفي في إثبات إيمان الرقبة أن تكون مقرةً بالله وبرسوله محمد ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قال: وكانت لي جارية تَرعى غنماً لي قِبَلَ أحُدٍ والجَوَّانية فاطَّلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجلٌ من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ، فعظَّم ذلك عليَّ، قلتُ: يارسول الله أفَلا أعتقها؟ قال: ائتني بها، فأتيته بها، فقال لها: أيْنَ اللهُ؟ قالت: في السماء، قال: منْ أنا؟ قالت: أنت رسولُ الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة. وقد أجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل. وبعد أن بين الله تبارك وتعالى حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال: ﴿ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فيها وغَضِبَ الله عليه وَلَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عذابا عظيما.﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومَنْ يقتل مؤمناً عامدًا قتله مُريداً إتلاف نفسه ﴿فجزاؤه جهنم﴾ يقول: فثوابه من قتله إياه ﴿جهنم﴾ يعني: عذاب جهنم ﴿خالدا فيها﴾ يعني: باقياً فيها، والهاء والألف في قوله ﴿فيها﴾ من ذكر ﴿جهنم﴾، ﴿وغضب الله عليه﴾ يقول: وغَضِبَ الله عليه بقتله إياه متعمداً، ﴿ولعنه﴾ يقول: وأبعده من رحمته وأخزاه، ﴿وأَعَدَّ له عذابا عظيما﴾ وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى ذكره. ثم نقل ابن جرير رحمه الله إجماع أهل التأويل على أنه إذا ضرب رجلٌ رجلاً بحدّ حديدٍ يجرح بحدِّه أو يبضع ويقطع فلم يُقلعْ عنه ضرباً به حتى أتلف نفسه وهو في حال

ضربه إياه بـه قاصدٌ ضربه : أنـه عامد قتله اهــ, ولاشك أن شريعة الإسلام عظَّمت أمـر قتل المسلم وذكـرت أنـه من أكبر الكبـائر وقـد روى البخـاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعـود أن رسول الله ﷺ قال : أولُ ما يُقْضَى بين النـاس يوم القيـامة في الـدماء ، وكـان مقتضى ظـاهر قـوله عـز وجل : ﴿فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾ أنَّ من قتل مؤمنا متعمداً فلا توبة له ، لكن الله تبـارك وتعالى ذكـر قبول تـوبته في سـورة الفرقـان حيث يقول : ﴿والـذين لا يدعون مع الله إلَهًا آخر ولا يقتلون النفـس التي حرَّم اللهُ إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما . يُضاعفْ له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهَانا . إلا من تاب وآمن وعمل عَمَـلاً صالحا فأولَئك يبدل الله سيئـاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً . ﴾ .

قال تعالى: ﴿ياأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ في سَبِيلِ الله فتبيَّنُوا ولا تقولوا لمن أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدنيا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كثيرةٌ، كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنَ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فتبيَّنُوا، إنَّ اللهَ كَانَ بما تَعْمَلُونَ خَبِيرًا. لاَ يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولي الضَّرَرِ والمُجَاهِدونَ في سبيل الله بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم عَلَى القَاعِدِينَ دَرَجَةً، وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى، وفَضَّلَ اللهُ المجاهِدينَ على القَاعِدِينَ أجْرًا عظيماً. دَرَجَاتٍ منه ومغفرةً وَرَحْمَةً، وكان الله غفورًا رَحِيماً.﴾

بعد أن ذكر عز وجل جملة من أحكام الدماء وحذَّر أشدَّ التحذير من سفك دماء المسلمين، وبين أن المؤمن ما كان ليقتل مؤمناً إلا بطريق الخطأ، وتوعد من قتل مؤمناً متعمداً بعذاب جهنم وغضب الله ولَعْنته، لفت انتباه المسلمين هنا مرةً أخرى إلى وجوب التثبت حتى لا يريقوا دم امرئ مسلم بغير حق حيث يقول عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمَنُوا إذا ضربتم في سبيل الله فتَبينوا ولا تقولوا لمن أَلْقَى إليكم السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنا﴾ ومعنى: إذا ضربتم في سبيل الله أي غزوتم وسرتم في الأرض إلى الجهاد في سبيل الله، ومعنى: ﴿فتبيَّنُوا﴾ أي فَتَثَبَّتُوا، كما قرأ به حمزة والكسائيُّ، ومعنى قوله عز وجل: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنا﴾ أي ولا تقولوا لمن حَيَّاكم بتحية الإسلام: إنك لست من أهل الإسلام، إنما تسليمك حيلةٌ وتعوذٌ من القتل فتقدُموا عليه بالسيف لتقتلوه وتأخذوا ماله، ولكن عليكم أن تكفُّوا عنه وتقبلوا ما ظهر منه، فأنتم لم تشقُّوا عن قلبه، وقد تقدَّم في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا حُيِّيتُمْ بتحية فَحَيُّوا بأحْسَنَ منها أَوْ رُدُّوهَا﴾ سببُ نزول قوله عز وجل: ﴿ولا

تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لستَ مؤمنا تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا﴾ وهو ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجل في غُنَيْمَةٍ له فلحقه المسلمون، فقال السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَتَهُ فأنزل الله عز وجل ذلك. كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأً﴾ الآية قصة أسامة بن زيد رضي الله عنهما في سرية الحرَقَة من جهينة عندما لحق رجلاً منهم فقال الرجل: لا إله إلا الله، وظن أسامة رضي الله عنه أن الرجل إنما قالها متعوذاً فقتله، وما كان من رسول الله ﷺ عندما بلغه ذلك، وكذلك حديث المقداد بن عمرو الكنديِّ رضي الله عنه. وفي لفظ لمسلم من طريق أبي بكر ابن أبي شيبة من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سَرِيَّةٍ فَصَبَّحْنَا الحُرَقَاتِ من جهينة، فأدركتُ رجلاً فقال: لا إله إلا الله فَطَعَنْتُهُ، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتُهُ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ أَقَالَ لا إلَه إلا اللهُ وقَتَلْتَهُ؟ قال: قلتُ: يارسول الله إنما قالها خوفاً من السلاح، قال: أَفَلاَ شَقَقْتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ فما زال يُكرِّرها على حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿تبتغون عَرَضَ الحياة الدنيا فَعِندَ الله مغانم كثيرة﴾ هو تنفير من الإقدام على قتل من ألقى السلام بالإشارة إلى أن العجلة وعَدَمَ التأني في مثل هذه الأمور إنما تحصل ممن همُّه وقصدُه حُطام الدنيا الفاني وعرضها الزائل، والمؤمنون من شأنهم أنهم إنما يَرْجون ثواب الله وما أعده لعباده الصالحين، وما وعدهم من الحياة الطيبة ورغد العيش، وإذا كان ذلك كذلك فعند الله عز وجل ثواب الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعِنْدَ الله ثوابُ الدنيا والآخرة، وكان الله سميعا بصيرا.﴾ وقال عز وجل في سورة الشورى: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْ له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها

ومالـه في الآخرة من نصيب﴾ صَانَ الله عـز وجل جميع أصحاب رسـوله ﷺ وخيرة خلق الله عز وجل بعد الأنبياء عـن أن يكونوا ممن لا هَمَّ لهم إلا حُطَامُ الحيـاة الـدنيـا . وفي هـذا السيـاق الكـريم إشعـارٌ بأن الأحكـام إنما تنـاط بالظواهر، وعند الله عز وجل وحده العلم بالبواطن والسرائر. والتعبير بقوله : ﴿عـرض الحياة الـدنيا﴾ لتأكيـد التنفير من أن تتعلق همة الغـازي بالعَـرَض الذي لا بقاء لـه ولا دوام، وسُمِّيَ متاع الحياة الدنيا عرضـاً لأنه عارض زائل فإنـه لا بقاء لـه ولا دوام . فالـدنيا كلُّهـا عرض زائل، والأمـوال فيها عـاريةٌ مُسْتَرَدَّةٌ ولذلك نبَّـه الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث سَمَّى الغنيمةَ عَـرَضاً أي سريعة الفنـاء قريبـة الانقضاء وقولـه تبارك وتعالى : ﴿كـذلك كنتم من قبلُ فَمَنَّ الله عَلَيكُمْ فتَبَيَّنُـوا﴾ أي إنكم كنتم في أول مجيء الإسـلام وأنتـم بمكـة تُخْفُونَ إيمانكم عن قومكم كما أخفى هـذا الذي ألقى إليكم السلام إيمانه عن قومه، ثم مَنَّ الله عز وجل عليكم بـإعزازكم حتى أظهرتم دينكم، فتثبتوا ولا تَعْجَلُوا بقتل من أردتم قتله ممن التبس عليكم أمرُ إسلامه فلعل الله أن يكون قـد مَنَّ عليه مـن الإسلام بمثل الـذي قـد مَنَّ به عليكـم وهداه لمثل الـذي هداكم له مـن الإيمان وقد جاء في لفظ للبخاري في حديـث المقداد بن عمرو الكنـدي حليف بني زهرة الـذي سقتـه من رواية البخـاري ومسلم في تفسير قولـه عز وجل : ﴿ومـا كان لمؤمن أن يقتل مـؤمنا إلا خطأ﴾ قـال البخاري : وقـال حبيب بن أبي عمـرة عن سعيد عـن ابن عباس قـال : قـال النبي ﷺ للمقـداد : إذا كان رجلٌ مـؤمنٌ يُخْفِي إيمانـه مع قـوم كُفَّـارٍ، فأظهر إيمانـه، فقتلته، فكـذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكـة من قبل . وقولـه عز وجل : ﴿إن الله كان بماتعملـون خبيرا . ﴾ هو تهديـد ووعيد وتحذيـر من الإقدام على قتل من قـال : لا إلـه إلا الله، أو ألقى السـلام إلى المسلمين، وأنـه لابـد من التثبت والتبيُّن والتأني في الحكم على مَنْ أظهـر شعـائر الإسـلام إذ في التـأَنِّي

السلامة وفي العجلة الندامة، وكثيراً ما تورث العجلة همًّا وإبطاءً وتخلُّفاً كما في المثل: رُبَّ عَجَلَةٍ وَهَبَتْ رَيْثًا، ولا تستحب العجلة إلا في المسارعة إلى الخيرات كما في قوله عز وجل: ﴿وما أعجلك عن قومك ياموسى. قال هُمْ أُولاءِ على أَثَري وعجلتُ إليك ربِّ لِتَرْضى.﴾ وقوله عز وجل: ﴿لا يَسْتَوي الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غَيْرُ أولي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُون في سبيل الله بأموالهم وأنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يتعادل المتخلِّفون عن القتال في سبيل الله من أهل الإيمان والتصديق بالله وبرسوله المُؤْثِرُونَ للدَّعَةِ والراحةِ والقعودِ في منازلهم على مقاساة صعوبة الأسفار ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله وقتالهم امتثالاً لأمر الله إلا أهل العذر منهم كالأعمى والأعرج والمريض الذين عذرهم الله عز وجل وأباح لهم التخلف والقعود عن الجهاد للضرر الذي أصابهم مما لا يتمكنون معه من الخروج والمشاركة في المعارك، لا يستوي هؤلاء القاعدون غيرُ ذوي العذر ولا يتعادلون بالمجاهدين في سبيل الله لإعلاء راية الإسلام ونشر شريعته، المستفرغين جُهدهم وطاقتهم في قتال أعداء الله وأعداء رسله، الباذلين أنفسهم وأموالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، قال البخاري في صحيحه: بابٌ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال حدثني سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت حتى جلستُ إلى جنبه فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أملى عليه «لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله» فجاءه ابن أمِّ مكتوم وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يارسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذُهُ على فخِذي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حتى خِفْتُ أَنْ تُرَضَّ فَخِذي، ثم سُرِّيَ عنه، فأنزل الله: ﴿غَيْرُ

أُولِي الضَّرَرِ﴾ حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنين﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فكتبها، فجاء ابنُ أمِّ مكتوم فَشَكَا ضَرَارَتَهُ، فأنزل اللهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ حدثنا محمدُ بن يوسف عن إسرائيل عن أبي إسحاقَ عن البراء قال: لما نزلتْ: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنين﴾ قال النبيُّ ﷺ: ادعُوا فلانا، فجاءه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ أو الكَتِفُ، فقال: اكْتُبْ: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنينَ والمجاهدون في سبيل الله﴾ وخَلْفَ النبي ﷺ ابنُ أمِّ مكتومٍ، فقال: يارسول الله أنا ضَرِيرٌ، فنزلت مَكانها: ﴿لا يَسْتَوِي القاعدون من المؤمنين غيرُ أولي الضَّرَرِ والمجاهدون في سبيل الله﴾ حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشامٌ أنَّ ابنَ جُرَيْجٍ أخبرهم ح وحدثني إسحاقُ أخبرنا عبد الرزَّاق أخبرنا ابن جريج أخبرني عبد الكريم أن مِقْسماً مولى عبد الله بن الحارث أخبره أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما أخبره: لا يستوي القاعدون من المؤمنين عن بدر والخارجون إلى بَدْرٍ. اهـ وقوله عز وجل ﴿فَضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً﴾ أي جعل الله عز وجل للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم مَزِيَّةً ومنزلةً ومرتبةً وطبقةً فوق القاعدين غير أولي الضرر، أما أولو الضرر فظاهر السياق يدل على أنهم في درجة المجاهدين بحسب نياتهم ويشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن بالمدينة أقواماً ما سِرْتُم من مَسِيرٍ، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يارسول الله؟ قال: نَعَمْ، حَبَسَهُم العُذْرُ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وكُلاً وَعَدَ الله الحسنى﴾ أي ولكل واحد من القاعدين والمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم من المؤمنين وعدٌ من الله بالحسنى أي بالجنة. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

عظيما. درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً، وكان الله غفورا رحيما. ﴾ أي ومنح الله عز وجل من جوده وفضله المجاهدين وخصهم به على القاعدين ثواباً جزيلاً، أعلى به درجاتهم في جنات النعيم وشملهم بمغفرة ورحمة منه وكان الله ولا يزال متصفاً بالمغفرة والرحمة، ومجيء كان في مثل هذا، ونحو قوله: ﴿وكان الله عليما حكيما. ﴾ للتنبيه على أنه عز وجل متصف بهذه الصفات أزلاً ولا يزال متصفاً بها فهي من صفات ذاته. وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفوعاً: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض. كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: ياأبا سعيد من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها عليّ يارسول الله ففعل، ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ، قَالُوا أَلَمْ تكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيها، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُم جهَنَّم وَسَاءَتْ مَصِيرًا. إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَة وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً. فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ، وكان الله عَفُوًّا غَفُورًا. وَمَنْ يُهَاجِرْ في سَبِيلِ الله يَجِدْ فى الأَرْضِ مُرَاغَمًا كثيرًا وَسَعَةً، وَمَنْ يَخْرُج مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا.﴾

بعد أن رغَّب الله تبارك وتعالى في قتال الكفار الذين يحبسون المؤمنين بمكة ويُضَيِّقُونَ عليهم ويسومونهم سوء العذاب حيث قال: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والوِلْدَان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيرا.﴾ وحضَّ عز وجل على الهجرة والجهاد بيَّن هنا أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين رغَّب المسلمين وحضَّهم على استنقاذهم وتخليصهم من أيدي المشركين هم الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، أما من تكاسل عن الهجرة مع قدرته عليها ورضي بالعيش مع المشركين فإنه غير معذور في التخلف عن الهجرة لأن المسلمين وقتئذ في أمسِّ الحاجة إلى مَنْ يُكثر سوادهم من المسلمين، ولأن في المقام مع المشركين لغير عذر تكثيراً لسواد المشركين وتقوية لهم على المسلمين مع ما يُعرض هؤلاء المتخلفين عن الهجرة للتأثر بفتنة المشركين وموالاتهم، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة متحتمة على كل من قدر عليها حتى فتح الله عز وجل لرسوله ﷺ مكة وصارت دار إسلام فأعلن رسول الله ﷺ نسخ وجوب الهجرة من

مكة إلى المدينـة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخـاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيـة و إذا استنفـرتم فانفـروا. وقـد بين الله عـز وجل هنا أن دعـوى الـذين تكـاسلوا عن الهجـرة مع تمكنهم منهـا لو جـزمـوا عليها وزعمـوا أنهم كانـوا مستضعفين في الأرض هي دعوى كاذبة، وأن عُـذْرَهُمْ غيرُ مقبول حيث قال عز وجل هنا: ﴿إنَّ الذين توفاهم الملائكة ظَالِمِي أنْفُسِهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قـالوا ألم تكن أرضُ الله واسعـةً فتهاجـروا فيها، فأولَئك مأواهم جهنمُ وسـاءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجـال والنساء والوِلْـدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيـلا. فأولَئك عسى الله أن يَعْفُو عنهم، وكان الله عفُوًّا غفورًا﴾ قال البخـاري في صحيحه: باب ﴿إن الذين تَـوَفاهُـم الملائكة ظـالمي أنفسهم قـالـوا فيم كنتم قـالوا كنـا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها﴾ الآية. حدثنا عبد الله ابن يزيـد المُقرئ حـدثنا حَيْـوَة وغيره قالا: حـدثنا محمـد بن عبد الـرحمن أبو الأسود قال: قُطِعَ على أهل المدينة بعثٌ، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانـوا مع المشركين يُكثرون سَوَادَ المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السَّهْمُ فيُـرمَي به، فيصيب أحـدهم فيقتله، أو يُضرب فيقتل. فأنزل الله: ﴿إن الـذين تَوَفاهُـم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ الآيـة. باب ﴿إلا المستضعفين من الـرجال والنسـاء والوِلْـدان لا يستطيعون حيلـةً ولا يهتدون سبيلا﴾ حدثنـا أبو النعمان حدثنا حماد عن أيـوب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا المستضعفين قـال: كانت أمي ممن عـذر الله. باب قوله: ﴿فأولَئك عسى الله أن يَعْفُو عنهم، وكان الله عفُـوًّا غفورًا﴾ حدثنا أبو نعيم حدثنا شيبان عن يحيى عن أبي سلمـة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سَمِعَ الله لمن حمده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم نَجّ عياش بن أبي ربيعة، اللهم نجِّ سلمة بن هشام، اللهم نجِّ الوليد بن الوليد، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضر، اللهم اجعلها سنين كسني يوسف اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿إن الذين تَوَفاهُم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض﴾ أي إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم حالة كونهم ظالمي أنفسهم حيث رضوا بالقعود مع المشركين، وبتكثيرهم سواد الكفار، وبموالاتهم، وتركوا الهجرة التي فرضها الله عز وجل على كل من قدر عليها وقتئذ، وهم يعلمون أن الذين يتركون الهجرة وهم قادرون عليها تنقطع الولاية بينهم وبين المسلمين كما قال عز وجل: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا.﴾ فأكسبوا أنفسهم بذلك غضب الله وسخطه، وحمَّلوها ما لا تطيق من عذاب الله، وإن الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم، يوبخونهم عند الموت وهم ينزعون أرواحهم من أبدانهم ويغلظون لهم القول، ويقولون لهم: لِمَ رضيتُمْ بالقعود مع المشركين، وكثَّرتُم سوادهم، وصِرْتُم في الصف المعادي لرسول الله ﷺ؟ ولم يكن لهؤلاء جوابٌ على سؤال الملائكة إلا أن يدَّعُوا كذبا وزورا أنهم كانوا تحت وطأة الكفار، وكان المشركون يستضعفونهم، ويمنعونهم من الهجرة، وقوله عز وجل: ﴿قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتُهَاجِرُوا فيها﴾ أي أجابتهم الملائكة برفض قبول دعواهم وقالوا لهم: ألم تكن أرض الله وبلاده فسيحة فتنتقلوا إليها، وتقيموا دينكم وشريعتكم، وتؤيدوا المسلمين، وتُكثِّروا سَوادهم، وأنتم لا تعجزون عن ذلك إذ يمكنكم أن تجدوا حيلة في الفرار من أرض الكفر والقهر والتسلط على المسلمين كما فعل المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة فوجدوا فيها المأوى والأمن، أو الذين هاجروا إلى المدينة فوجدوا فيها العزَّة والأمن

والاستقرار ونشر دين الله و إقامـة شرعه، وتأييد رسولـه ﷺ، ومن الثابت أن الله عز وجل قـد وكَّل ملائكة لقبض أرواح المؤمنين، ومـلائكةً لقبض أرواح الكـافرين كما قـال عز وجل: ﴿قل يتـوفاكم ملَك الموت الـذي وكل بكم﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة بَاسِطُوٓاْ أيديهم أَخْـرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وقد روى البخاري ومسلم من حـديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبيَّ الله ﷺ قـال: كان فيمن كـان قبلكم رجلٌ قتل تسعـةً وتسعين نفسـاً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فـدُلَّ على راهب، فأتـاه فقـال: إنه قتل تسعـةً وتسعين نفساً فهل لـه من توبـة؟ فقال: لا. فقتلـه، فكَمَّلَ به مائةً، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رجل عالمٍ فقال: إنه قتل مائة نفسٍ فهل لـه من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينـه وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإنَّ بها أناسـاً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا تـرجع إلى أرضك فإنها أرضُ سـوءٍ، فـانطلـق حتى إذا نصَّف الطـريق أتـاه الموت، فاختصمت فيـه ملائكة الـرحمة وملائكـةالعذاب، فقالت مـلائكة الرحمة: جاء تائبـاً مُقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت مـلائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتـاهـم ملكٌ في صـورة آدميٍّ، فجعلـوه بينهم أي حكماً، فقال: قيسُـوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهـو له، فقاسوا فـوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضتـه مـلائكـة الـرحمة، وقـولـه عـز وجل: ﴿فأولَئك مأواهـم جَهَنَّمُ وسـاءت مصيرا.﴾ أي فهـؤلاء الـذين لم يهاجـروا وظلموا أنفسهم، واستمـروا على ذلك إلى الموت حتى توفتهم الملائكـة ظالمي أنفسهم مصيرُهم في الآخـرة جهنمُ وهي مسكنهم وسـاءت جهنم لأهلهـا الذين صـاروا إليها مصيرًا ومسكنًا ومأوًى ثم بيَّن عـز وجل المستضعفين حقًّا وصدقاً وأنهم هم المعذورون المقبولُ عذرهم حيث حبسهم المشركون وقهروهم على البقاء في قبضتهم فقال عز وجل: ﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولـدان لا يستطيعون حيلـةً ولا يهتدون سبيلا. فـأولَئك عسى الله أن يَعْفُو

عنهم، وكان الله عفُوًّا غفورًا. ﴾ أي وقد استثنى الله عز وجل من هذا الوعيد الشديد مَنْ حبسه العذر حقيقة من عجزة الرجال الضعاف والنساء والصبيان الذين لا يقدرون على الهجرة ولا حيلة لهم في الخروج من بين ظهراني المشركين لضعف أجسامهم وعدم بصرهم بالطريق، وعجزهم عن الانفلات من قبضة المشركين فهؤلاء لعل الله عز وجل يعفو عنهم للعذر الذي هم فيه ماداموا مؤمنين بالله وبرسوله ﷺ لأنهم لم يتركوا الهجرة اختياراً ولا إيثاراً منهم لدار الكفر على دار الإسلام. والتعبير بقوله عز وجل: ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم﴾ للتنبيه على تأييس من ترك الهجرة اختياراً وإيثاراً لدار الكفر على دار الإسلام. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغَمًا كثيرا وسعةً﴾ ترغيب في الهجرة في سبيل الله، وإعلامٌ لمن كَرِه الهجرة من وطنه الكافر أهله بالله خوفاً على نفسه من مشقة الهجرة أو أن تصيبه فاقة وفقرٌ إن خرج من ماله وبلده بأن الله عز وجل يعده بالغنى ورغد العيش والحياة الكريمة فمن ترك شيئا لله عوَّضه الله عز وجل خيراً منه، ويسَّر له تبارك وتعالى دنياه ودينه، وأوجد له من السعة والنعم الجليلة والمراتب العظيمة في دار هجرته ما يُرغم به أنوف أعدائه.

وقوله عز وجل: ﴿ومن يخرجْ من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفورا رحيما. ﴾ هذا وعدٌ كريم من الله عز وجل لمن خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله محمد ﷺ ثم أصابته مصيبة الموت قبل أن يصل إلى دار هجرته بأن الله تبارك وتعالى يمنحه أجر المهاجرين كاملاً غير منقوص فضلاً منه وجوداً وكرماً وإحساناً، وأن الله عز وجل يُبَشِّره بمغفرة منه ورحمة، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا، إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا. وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُم مَعَك وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وليَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وأَسْلِحَتَهُمْ، وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لو تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أو كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ، إِنَّ اللهَ أَعَدَّ للكافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا.﴾

بعد أن ذكر الله عز وجل فضله على المهاجرين بإتمام نعمته عليهم وإعطائهم ثواب الهجرة غير منقوص بمجرد مفارقتهم بيوتهم مهاجرين إلى الله ورسوله ذكر عز وجل هنا فضله على جميع المؤمنين بما يسره لهم من التشريع حيث رخص لهم في قصر الصلاة الرباعية في السفر، وفيه إيماءةٌ إلى الحض على الهجرة إلى الله ورسوله والجهاد في سبيل الله حيث يقول عز وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ﴾ أي وإذا سرتم في الأرض وصرتم على سفر فليس عليكم حرج ولا إثم ولا وزر أن تخففوا من صلاتكم التي فرضها الله عز وجل عليكم، وقد بين رسول الله ﷺ ما يقصر من الصلاة ومقدار قصره حيث أوضح ﷺ أنه لا قصر إلا في الصلاة الرباعية. وهي الظهر والعصر والعشاء أما الصبح والمغرب فلا قصر فيهما، وأن قصر الرباعية يكون بجعلها ركعتين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر وفي رواية للبخاري: ثم هاجر ففرضت أربعًا وأقرت صلاة السفر على

الأول، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، كما روى أحمد بسند صحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أول ما افترض على رسول الله ﷺ الصلاة ركعتان ركعتان إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً ثم أتم الظهروالعصر والعشاء الآخرة أربعاً في الحضر وأقر الصلاة على فرضها الأول في السفر. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ أي إن خشيتم أن ينالكم الكفار بمكروه، وهذا الشرط لبيان الواقع عند نزول هذه الآية وهو ما كان يتعرض له المسلمون من أذى من المشركين إذ كان غالب أسفار المسلمين مخوفة، حيث كان المشركون حرباً للإسلام وأهله، والقاعدة عند الأصوليين أن الشرط إذا كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا فإن قصر الصلاة لا يشترط فيه خوف فتنة الذين كفروا ولذلك روى مسلم في صحيحه من طريق يعلى بن أمية قال: قلت لعمر بن الخطاب ﴿ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته. وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبأنا أبو إسحاق سمعت حارثة بن وهب قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، آمن ما كان، بمنى ركعتين. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إنَّ الكافرين كانوا لكم عَدُوًّا مُبِينًا.﴾ تذكير بنعمة الله عز وجل على المؤمنين بما يسره لهم من التشريع وتحذيرٌ من أهل الكفر ببيان أن قلوبهم مملوءةٌ بالعداوة للمسلمين. وقوله عز وجل: ﴿وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فَلْتقم طائفةٌ منهم مَعَكَ ولْيَأْخُذُوا أسلحتهم﴾ الآية، بعد أن بيَّن الله عز وجل فضله على المسلمين بالترخيص لهم في قصر الصلاة الرباعية في

السفـر شرع في بيان نعمـة أخرى وهي مـا تفضل عز وجل بـه على المسلمين فسهَّل عليهم كيفية الصلاة في حالة الخوف تيسيراً على المسلمين وحرصاً على سلامتهم، ولذلك كان من المقـررات عند علماء أصول الفقه أن المشقة تجلب التيسير، وفي هذا تنبيه أيضـاً لمزية الصلاة وفضلها وأنه يجب المحـافظة عليها في سـائر الأحوال من الصحـة والمرض والخوف والأمن وفي ذلك يقول تبـارك وتعالى: ﴿حـافظوا على الصلوات والصـلاة الوسطى وقومـوا لله قانتين. فإن خفتم فـرجـالا أو ركبـانـا فإذا أَمِنتُّـمْ فـاذكـروا الله كما عَلَّمَكُمْ مـالم تكـونـوا تعلمون.﴾ ومعنى قولـه عز وجل: ﴿وإذا كنت فيهم فأقَمْتَ لهم الصلاة﴾ أي وإذا كنت يامحمد حاضراً في أصحـابك وشهدت معهم القتال فأردت أن تقيم بهم الصلاة وتؤديها معهم، وهذا الأسلوب نظير قوله عز وجل: ﴿ياأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهُنَّ لعدتهن﴾ ونظير قوله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إنَّ صلاتكَ سكَنٌ لهم﴾ وقد فهم منها جميع أصحاب رسـول الله ﷺ وجوب أخذ الزكـاة من أصحابها بعد رسول الله ﷺ وقاتـل أبو بكر رضي الله عنه ومعه أصحـاب رسول الله ﷺ من مَنَعَ الزكاة مُـدعياً أن المأمور بأخذهـا في الآية هو رسول الله ﷺ وأنـه هو الذي يصلي عليهم فإذا مـات رسول الله ﷺ انقطع وجـوب الزكـاة. فبين أبو بكـر رضي الله عنـه أنهم مخطئـون ووافقه على ذلك جميع أصحـاب رسـول الله ﷺ ولذلك ذهب عامة العلماء إلى أن صـلاة الخوف مشروعة إلى يوم القيامة. ولا عبرة بشذوذ مـن شذ وادعى أنها كـانت خاصـة برسـول الله ﷺ. وقولـه عز وجل: ﴿فلتقم طائفة منهم معك وليأخـذوا أسلحتهم﴾ أي فاجعل الجماعة فرقتين فرقة تصف وراءك وتصلي معك ركعـة وهم يحملون أسلحتهم، وفرقة تقف وراءكم لحمايـة ظهـوركم وتكـون في نحـر العـدوِّ، فإذا سجـدت بهذه الطائفة وأنهيت السجود من الركعـة الأولى قمت وثَبَتَّ قائماً، وقامت الطائفة

التي صلت معك ركعةً فأتمت لنفسها الركعة الثانية فإذا سلمت هذه الطائفة قامت في وجه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصفت وراءك وصليت بهم الركعة الثانية بالنسبة لك فإذا أنهيت السجود من ركعتك الثانية ثَبَتَّ جالساً، وقام الذين خلفك فصلوا وأتموا لأنفسهم الركعة الثانية وسلمتم جميعاً، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق صالح بن خوات بن جبير الأنصاري عمن صلى مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صلت معه وطائفة وجاه العدو، فصلى بالذين معه ركعة ثم ثبت قائماً، وأتموا لأنفسم، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت، ثم ثبت جالساً، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم. وقد بيَّن هذا الحديث المتفق على صحته بعض ما جاء مجملاً في هذه الآية الكريمة، التي تدل دلالة ظاهرة على وجوب صلاة الجماعة، وهذه الرواية تبيِّن إحدى كيفيات صلاة الخوف، وقد صحت الروايات عن رسول الله ﷺ التي تبيِّن كيفية أخرى من كيفيات صلاة الخوف فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قِبل نجد، فوازينا العدو، فصاففناهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي بنا، فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو، وركع بمن معه وسجد سجدتين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاءوا فركع بهم ركعة وسجد سجدتين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين. وقد أورد مسلم رحمه الله في صحيحه كيفية ثالثة من حديث جابر بن عبد الله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ، وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف الآخر في

نحر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعا. وهذا الحديث يفيد أن تغير كيفية صلاة الخوف جاء بحسب موقع العدو من القبلة، وأنه إذا كان جهة القبلة كانت كيفية صلاة الخوف مغايرة لكيفيتها إذا كان العدو لغير جهة القبلة. وهذه الأخبار الصحيحة الثابتة تفيد أن صلاة الخوف ركعتان، أما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة. فقد قال النووي رحمه الله: قوله: وفي الخوف ركعة. المراد ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً، قال: وهذا التأويل لابد منه للجمع بين الأدلة اهـ ومعنى قوله عز وجل: ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ أي وليحذروا حذراً شديداً وليحملوا أسلحتهم، وقد ذكر الله عز وجل في الطائفة الأولى الأمر بأخذ الأسلحة فقط وذكر في الطائفة الثانية الأمر بأخذ الحذر والأسلحة للتنبيه على أن العدو قد لا ينتبه للمسلمين في أول الصلاة فإذا ركعوا انتبه العدو لذلك وقد يغتنم الفرصة فيهجم على المسلمين حينئذ فنبه الله المسلمين في هذا الموضع زيادة تنبيه حيث أمرهم بأخذ الحذر والأسلحة، وقوله عز وجل: ﴿وَدَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدة﴾ هذا بيان لسبب الأمر بأخذ الحذر والسلاح في الصلاة، أي تمنى الذين كفروا لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها وعن أمتعتكم التي بها

بلاغكم في سفركم فتسهون عنها فيحملون عليكم وأنتم مشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وأمتعتكم حملة واحـدة فيصيبون منكم غـرة ويستأصلونكم. وقـولـه عـز وجل: ﴿ولا جنـاح عليكم إن كـان بكم أذى من مطـر أو كنتم مرضى أن تضعـوا أسلحتكم وخذوا حـذركم، إن الله أعد للكـافرين عـذابا مهينـا. ﴾ أي ولا حرج عليكم إن كـان عليكم مطـر يؤذيكم أو كـانت بكم جراحة أو مرض يتعبكم بسببـه حمل السلاح في الصلاة ألا تحملوا أسلحتكم في الصلاة، واحترسـوا منهم أن يميلوا عليكم أثناء صلاتكم فـلا تغفلوا عن تحركاتهم، وكونوا على أهبة واستعداد لملاقاتهم، وثقوا بأن الله معكم وقد أعدَّ لأعدائكم الكـافرين عذاباً مُـذلاً لا يخرجون منه أبداً وهـو نار جهنم، وأنتم على خير مادمتم مسترشدين بدين الإسلام مستمسكين بتعاليمه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وعلى جُنُوبِكُمْ، فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاة، إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا. وَلا تَهِنُوا فِى ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كما تَأْلَمُونَ وتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا.﴾

بعد أن بين الله عز وجل للمسلمين كيفية من كيفيات صلاة الخوف عقب الترخيص لهم بقصر الصلاة في السفر، وقد اشتملت صفة صلاة الخوف على حركات وأعمال لا يؤذن فيها إلا في صلاة الخوف، كما أن صلاة السفر قد نقصت في الرباعية وصارت ركعتين بدل أربع ركعات، نبه الله عز وجل المسلمين إلى ذكره وشكره بعد الفراغ من صلاة السفر وصلاة الخوف، وأن يحرص المسلم على الاشتغال بذكر الله عز وجل في كل أحواله من القيام والقعود وعند الاضطجاع على جنبه، وأن يديم ذكره عز وجل بالتهليل والتكبير والدعاء بنصر الإسلام و إعلاء رايته و إعزاز أهله وخذلان أعدائه، فإن ذكر الله عز وجل من أعظم أسباب النصر كما قال تبارك وتعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون.﴾ كما أن في الإكثار من ذكر الله عز وجل بعد صلاة السفر المقصورة وصلاة الخوف التي اشتغل المصلي فيها بالكثير من الحركات التي لا تجوز في غير صلاة الخوف نوع جبرانٍ لهذا القصر وتلك الحركات. على أن الله عز وجل قد أرشد عباده إلى الإكثار من ذكره بعد قضائهم عباداتهم حيث يقول عز وجل: ﴿فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ ووصف عباده الصالحين ذوي الألباب بأنهم يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم حيث يقول: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ الآية. وقد روى

الترمـذي بسنـد حسن من حديـث عبد الله بن بُسرٍ رضي الله عنـه أن رجـلاً قال : يـارسول الله إن شرائع الإسـلام قد كثـرت عليَّ ، فأخبرني بشيء أتشبث بـه ، قال : لا يـزال لسانك رطبـاً من ذكر الله . ولـذلك أرشد رسـول الله ﷺ المسلمين إلى أوراد من ذكر الله عز وجل بعد كل صلاة من الصلوات الخمس فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثـلاثاً وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكـرام ، كما روى البخاري ومسلم من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلَّم قال : لا إله إلا الله وحـده لا شريك له ، له الملك وله الحمـد ، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدُّ . كما روى مسلم من حديث عبـد الله بن الزبير رضي الله عنهما أنه كان يقول دبـر كلَّ صلاةٍ حين يسلم : لا إله إلا الله وحده لا شريـك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبـد إلا إياه لـه النعمـة والفضل ، ولـه الثناء الحسن ، لا إلـه إلا الله مخلصين له الـدين ولو كـره الكافرون . قـال ابن الزبير: وكـان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبـر كل صلاةٍ . كما روى البخاري ومسلـم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : ذهب أهل الدثور بالـدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلي ، ويصومـون كما نصوم ، ولهم فضلٌ من أموال يحجون ويعتمرون ، ويجاهدون ويتصدقون ، فقال : ألا أعلمكم شيئاً تدركون من سبقكم ، وتسبقـون به من بعدكم ، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل مـا صنعتم ، قـالوا : بلى يـارسول الله ، قـال : تسبحون وتحمِّدون وتكبِّرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، كما روى مسلم من حديث أبي هـريرة رضي الله عنه عن رسـول الله ﷺ قال : من سبح الله في

دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد الله ثلاثا وثلاثين وكبر الله ثلاثا وثلاثين، وقال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر كما روى البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يتعوذ دبر الصلوات بهؤلاء الكلمات: اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من فتنة القبر. كما روى أبو داود بسند صحيح من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يامعاذ، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يامعاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ومعنى قوله عز وجل: ﴿فإذا قَضَيتُمُ الصلاة﴾ أي أديتموها وفرغتم منها، فالقضاء هنا بمعنى الأداء كما قال الشاعر:

قَضَى كلُّ ذي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ          وَعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

وقوله عز وجل: ﴿فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ أي فإذا أمنتم فجوِّدوا صلاتكم وأدوها وأقيموها كما أُمرتم بحدودها، وخشوعها، وركوعها وسجودها وجميع شئونها، ولا تتخللوها بالتحركات التي أُبيحت لكم في صلاة الخوف، وعدلوا أركانها وراعوا شروطها، ولا تخرجوها عن أوقاتها التي بينها لكم رسول الله ﷺ، ولا تضيعوها، وقوله عز وجل: ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة﴾ شبيهٌ بقوله عز وجل: ﴿فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون.﴾ وقوله عز وجل: ﴿إنَّ الصلاةَ كانت على المؤمنين كتابًا مَوْقُوتًا.﴾ قال البخاري في صحيحه: باب مواقيت الصلاة وفضلها، وقوله: ﴿إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا.﴾ موقتاً وقته عليهم. حدثنا عبد الله بن مسلمة قال: قرأت على مالك عن ابن

شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخَّر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخَّر الصلاة يوماً وهو بالعراق، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ماهذا يامغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل ﷺ نزل فصلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم قال: بهذا أُمرت، الحديث. وفي لفظ للبخاري ومسلم من طريق ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أخرَّ العصر شيئاً، فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ، فقال له عمر: اعلم ما تقول ياعروة، فقال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل فأمَّني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات. كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، مالم يحضر العصر، ووقت العصر مالم تصفر الشمس ووقت صلاة المغرب مالم يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر مالم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني الشيطان. كما روى مسلم من حديث بريدة قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن وقت الصلاة، فقال له: صلِّ معنا هذين — يعني اليومين — فلمازالت الشمس أمر بلالاً فأذن، ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر فأبرد بها فأنعم أن يبرد بها، وصلى العصر والشمس مرتفعة —

أخَّرها فوق الذي كان — وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل، وصل الفجر فأسفر بها، ثم قال: أين السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يارسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيتم، وقوله في حديث عبد الله بن عمرو «وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله مالم يحضر العصر» أي ووقت صلاة الظهر يبدأ من زوال الشمس ويستمر وقتها حتى يصير ظل الرجل مثله. وقوله: «ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط» هذا بيان لوقت الاختيار المستحب في صلاة العشاء الذي يبتدئ من غيبوبة الشفق إلى نصف الليل، وأما وقت العشاء في الاضطرار فهو ممتد من نصف الليل إلى طلوع الفجر، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: ليس في النوم تفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى. وهو يفيد امتداد وقت كل صلاة إلى دخول وقت الصلاة الأخرى غير أن الإجماع منعقد على أن صلاة الفجر ينتهي وقتها بطلوع الشمس، ولا يبتدئ وقت الظهر إلا من زوال الشمس، وقد أكد حديث عبد الله بن عمرو ذلك وبيَّنه، كما روى البخار ي ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أدرك ركعة من الصبح قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. وقد بينت هذه الأحاديث الصحيحة مجمل قوله عز وجل: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا﴾ المفيد لفرضيتها وتوقيتها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تَهِنُوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما. ﴾ ترغيبٌ للمؤمنين في الهجوم على أعداء الله ورسوله المحاربين للمسلمين وتشجيع لحزب الله على ملاحقة حزب الشيطان لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، أي ولا تضعفوا في طلب

الكفار لقتالهم وملاحقتهم لاستئصال شأفتهم، فإن أصابتكم آلام وأوجاع وجراح في محاربتهم فإنهم تصيبهم الجراح والأوجاع والآلام ومع ما يصيبهم من الجراح والأوجاع والآلام فإنهم يقاتلونكم تحت راية الشيطان وأنتم تقاتلونهم تحت راية الإسلام، وتأملون من الله مولاكم نصره وتأييده ومثوبته لكم بالحسنى والنعيم المقيم، وأعداؤكم لا مولى لهم إلا الشيطان، وكيده ضعيف، فلا تخافوهم واعتصموا بحبل الله، العليم بمصالح خلقه وبأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة، الحكيم في تدبيره وقضائه وقدره، وأمره ونهيه المعزّ لأوليائه المذلّ لأعدائه، وثقوا بوعده إنه عز وجل لا يخلف الميعاد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بالحقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَرَاكَ اللهُ، وَلا تَكُنْ للخائنِينَ خَصِيماً* واسْتَغْفِرِ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيما. ولا تُجَادِلْ عن الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أثِيما.﴾

بعد أن حرض الله عز وجل المؤمنين على مهاجمة الكفار وملاحقة أعداء الله وقتالهم لتكون كلمة الله هي العليا، وبيَّن لهم أنهم على خير سواء كانوا غالبين في المعارك أو مغلوبين، أعلن تبارك وتعالى هنا أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ لإقامة العدل بين الناس، وأنه يتحتم عليهم أن يكونوا قوامين بالقسط ولو على أنفسهم، وأنه لا يجوز لأحدٍ مهما كان أن يجور عن منهج القرآن، بل يجب الحكم بهذا الكتاب العظيم، والسير على منهاجه في معاملة الناس بغض النظر عن عداوتهم أو محبتهم كما قال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فاللهُ أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تَعْدِلُوا، وإن تَلْوُوا أو تُعْرِضُوا فإنَّ الله كان بما تعملون خبيرا.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قوم على أَلا تَعْدِلوا، اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى واتقوا الله، إنَّ الله خبير بما تَعملونَ.﴾ وأنه يجب العدل في معاملة المنافقين والكافرين كما يجب العدل في معاملة المسلمين وأنه ينبغي للمسلمين أن يتفطنوا فلا يدافعوا عن أحد إلا ببينة، ولا يغتروا فيجادلوا عن المنافقين الخائنين لله ولرسوله وللمسلمين، لأن العدل تقوم به السموات والأرض، ولذلك أثر عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه لما بعثه رسول الله ﷺ خَارِصًا على أهل خيبر من اليهود وعلموا بقدومه أعدُّوا له رشوة يرشونه بها حتى يخفف عنهم في الخرص فرفض قبول رشوتهم وقال لهم: ياإخوان القردة والخنازير والله ما تركتُ وجهاً أحب إلي من

وجه رسول الله ﷺ ولا أقبلت على وجه أبغض إليّ من وجوهكم، ولا يمنعني حبي لرسول الله ﷺ وبغضي لكم أن أقيم العدل فيكم، فقالوا: بهذا العدل قامت السموات والأرض قال أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ الإسفرائيني بها قال: أخبرنا الحسن بن محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب حدثنا عبد الواحد بن غياث حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر — فيما يحسب أبو سلمة — عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم فغلب على الأرض والزرع والنخل فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء ويخرجون منها واشترط عليهم ألا يكتموا ولا يغيّبوا شيئاً فإن فعلوا فلاذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مَسْكاً فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير فقال رسول الله ﷺ لعم حُيَيٍّ: ما فعل مسك حييٍّ الذي جاء به من النضير؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان حييٌّ قبل ذلك دخل خربة، فقال: قد رأيت حييًّا يطوف في خربة ههنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحُقيق وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب وسبي رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم بالنكث الذي نكثوا، وأراد أن يجليهم منها، فقالوا يامحمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدا لرسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم ثم يُضمِّنهم الشطر، فشكوا لرسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه

فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على ألا أعدل عليكم، فقالوا بهذا قامت السموات والأرض، ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ أي إنا أوحينا إليك هذا القرآن العظيم لتقضي للناس في قضاياهم وتفصل بينهم في منازعاتهم على نور هذا الكتاب الملازم للحق والعدل والصدق بما علمك الله عز وجل وعرفك وأطلعك بما أنزل عليك من الوحي، ووضع لك من قواعد العدل والإنصاف للولي والعدو، وأن لا يؤخذ أحد إلا بجريرته، مع التثبت في الحكم، وعدم قبول دعوى أحد على أحد إلا ببرهان، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أنه قد يقضي بين المتخاصمين بما يقدمه كل واحد منهما من حجة، وقد يكون بعضهم أقوى بحجته من بعض، فإذا قضى لأحد بسبب حجته القوية التي قد تكون مخالفة للواقع فإنه يقضي له بقطعة من النار فقد روى البخاري في كتاب الحيل من صحيحه: بابٌ حدثنا محمد بن كثير عن سفيان عن هشام عن عروة عن زينب ابنة أم سلمة عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: إنما أنا بشرٌ وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعةً من النار. وقال البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه: باب من قُضي له بحق أخيه فلا يأخذه، فإنَّ قضاء الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن زينب ابنة أبي سلمة أخبرته أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرتها عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: إنما أنا بشر، وإنه يأتيني الخصم، فلعل

بعضكم أن يكـون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صـادق فأقضي له بـذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها. ثم ساقـه في باب القضـاء في كثير المال وقليله من حـديث أم سلمة رضي الله عنها قـالت: سمع النبي ﷺ جلبة خصام عنـد بابه، فخـرج عليهم فقال: إنما أنـا بشرٌ، وإنـه يأتيني الخصم، فلعـل بعضـاً أن يكـون أبلغ من بعض، أقضي له بذلك، وأحسب أنـه صادق، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخـذها أو ليدعها. وأخرجه مسلم من طـريق أبي معاوية عن هشام بن عـروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمـة قالت: قال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فـلا يأخذه، فإنما أقطع لـه به قطعة من النـار، ثم ساقـه من طريق ابن شهـاب أخبرني عروة بن الـزبير عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمـة زوج النبي ﷺ أن رسـول الله ﷺ سمع جلبـة خصم ببـاب حجرتـه فخـرج إليهم فقـال: إنما أنـا بشر، وإنـه يأتيني الخصـم فلعل بعضهم أن يكـون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملهـا أو ليذرها. وقولـه عز وجل: ﴿ولا تكن للخائنين خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما. ولا تجادل عن الـذين يختانون أنفسهم، إن الله لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خوانا أثِيماً.﴾ هـذا إرشاد من الله عز وجل لرسولـه ﷺ ولجميع المؤمنين بألا يجادلوا ويدافعوا عن الخونة مهما كـانوا سواء كانوا من المنافقين أو كانـوا من غير المنافقين، فمن عرفت خيانته لا يجوز لمن يـؤمن بالله واليـوم الآخر أن يـدافع عنه ويحامي لـه، وأنه ينبغي للمـؤمن أن يحرص على أن يستغفـر ربـه وأن يتوب إليـه عـز وجل ويحرص على رضى الله تبارك وتعالى الذي يحب المستغفرين ويتـوب عليهم لأنه عز وجل هو الغفور

الرحيم، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الدفاع والمحاماة عن الخونة وبين تبارك وتعالى أنه لا يحب الخائنين فلا يحل لمسلم أن يدافع عمن لا يحبهم الله عز وجل، لأن من دافع عن الخونة كان راضياً بالخيانة مقراً لها مدافعاً عن مرتكبي المعاصي والآثام، وهذا لا يليق بمسلم. وإيراد التحذير بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ المعصوم من كل ذنب المبرء من كل عيب صلوات الله وسلامه عليه إنما هو من باب قولهم: إياك أعني واسمعي ياجارة، على أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، وأن الأمر بالاستغفار لا يقتضي أن يكون المستغفر قد ارتكب معصية وذنباً، غير أن توجيه الخطاب بهذه الوصايا إلى رسول الله ﷺ للفت انتباه المسلمين إلى شدة الحذر من الدفاع عن المنافقين حتى ولو كانوا في مخاصمة مع اليهود أو غيرهم والمعلوم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جميعاً كانوا لا يعلمون نفاق بعض المنافقين وكانوا يغترون بما يرونه من ظهورهم بمظاهر المسلمين، ولذلك جاء في حديث الإفك أن سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه دافع عن عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين حيث لم يكن عالماً بنفاقه لما كان يظهره عدو الله من الطاعة والتذكير كل يوم جمعة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿الذين يختانون أنفسهم﴾ أي يُخَوِّنون أنفسهم فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة، ولاشك أن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب الجميل وأوصلها إلى العقاب الوبيل، فكان ذلك منه خيانة لنفسه، ولذلك يقال لمن ظلم غيره: قد ظلمت نفسك، والتعبير بقوله ﴿إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما﴾ للإشعار بأن الإنسان إذا كثرت منه الخيانة والإثم كان حريًّا بغضب الله وسخطه وعدم رضاه عنه. وفي هذا عظيم التهديد والوعيد لمن يكون بهذه المثابة ولمن يدافع ويجادل عنه وقد روى البخاري من حديث خولة بنت عامر الأنصارية وهي امرأة حمزة رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة.

قال تعـالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّـاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُـوَ مَعهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَـا لا يَرْضَى مِنَ الْقَـوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِما يَعْمَلُـونَ مُحِيطًا. هـاأنتمْ هٰؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَـامَةِ أم من يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً. وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ على نَفْسِهِ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا. وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فقد احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا.﴾

بعد أن حذر تبارك وتعالى أشد التحذير من الجدال والدفاع والمحاماة عن المنافقين وسائر الخونة، وأنذر الخوّان الأثيم ببغض الله له، والويل كل الويل لمن أبغضه جبار السموات والأرض العزيز المقتدر، وبّخ هنا المنافقين بما يدل على سفاهة عقولهم، وشدة غبـاوتهم حيث يقول عز وجل: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُـونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعهُمْ إِذْ يُبَيِّتُـونَ مَا لا يَـرْضَى مِنَ الْقَوْلِ، وَكَانَ اللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقولـه: ﴿يَسْتَخْفُونَ من الناس﴾ يستخفي هؤلاء الذين يختـانون أنفسهم ما أتوا مـن الخيانة، وركبوا من العـار والمعصية ﴿من الناس﴾ الذين لا يقدرون لهم على شيء إلا ذكرهم بقبيح ما أتوا من فعلهم، وشنيع مـا ركبوا من جـرمهم إذا اطلعـوا عليه، حيـاءً منهم وحـذراً من قبيح الأحدوثـة ﴿ولا يستخفون من الله﴾ الـذي هو مُطَّلِعٌ عليهم، لا يَخْفـى عليه شيء من أعمالهم، وبيده العقـاب والنكال وتعجيل العـذاب، وهو أحق أن يستحى منـه من غيره، وأولى أن يعظم بألا يـراهم حيث يكـرهون أن يـراهم أحدٌ من خلقه ﴿وهو معهم﴾ يعني: والله شـاهدهم ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مالا يَرْضَى من القول﴾ يقـول: حين يسوون ليلاً مـا لا يرضى من القـول، فيغيرونه عن وجهه ويكذبون فيه اهـ وهذا المقام شبيه بما ذكره الله عز وجل عن المنافقين في

الآيـة الحاديـة والثمانين من هـذه السـورة المبـاركـة حيث يقـول عـز وجل: ﴿ويقولون طـاعة فإذا بَرَزُوا من عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَـةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الذي تقولُ والله يَكْتُبُ ما يُبَيِّتُونَ فأَعْرِضْ عنهم وتَوَكَّلْ على الله وكَفَى بالله وكيلا.﴾ وقوله عز وجل: ﴿هَاأَنْتُمْ هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فَمَنْ يجادل اللهَ عنهم يوم القيـامـة أم من يكـون عليهم وكيـلا.﴾ تأنيب وتـوبيخ وتهجين لمن يجادل ويحامي عن المنـافقين والخونة بأنهم إن دافعـوا عنهم في الحياة الـدنيا ودفعـوا عنهم عقـوبة جرائمهم التـي يستخفون بها من الناس ولا يستخفـون من الله فهل يستطيعون المحاماة والدفاع والجدال عنهـم عند الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلـب سليم، ويفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. وماذا يكـون صنيع هؤلاء يوم القيامة بين يدي من يعلم السر وأخفى، وهل يظن أحد من هؤلاء المجادلين عن المنافقين والخونة أن يقوم وكيـلاً عن المنافقين في عـرصات القيـامة يجادل عنهم ويـدفع عنهم عـذاب جبار السمـوات والأرض؟ ثم بعـد هـذا الترهيب شرع يسلك معهم مسلك الترغيب، فدعاهم إلى التوبة والرجوع إلى الله عز وجل والاستغفار من خطاياهم التي اكتسبـوها ويخبرهم عن جوده وكرمه وقبولـه توبة التائبين مهما كانت ذنوبهم وخطـاياهم، وأنه لا ينبغي لمن يريـد الخير لنفسه أن يقنط من رحمة الله، ولا أن ييأس من عفـوه، فقـال عـز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُـوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَـهُ ثم يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غفـورا رحيما.﴾ وهو يفيـد سعة رحمة الله وأنه لا يرد من تاب إليه وأقبل عليه ولو كانت خطاياه مثل زبد البحر قال ابن جـريـر: يعني بذلـك جل ثناؤه: ومن يعمـل ذنباً وهـو السـوء، ﴿أو يظلم نفسه﴾ بإكسابه إياها مـا يستحق به عقوبة الله ﴿ثم يستغفر الله﴾ يقول: ثم يتوب إلى الله بإنابته مما عمل من السوء وظلم نفسه، ومراجعته ما يحبه الله من الأعمال الصـالحة التي تمحو ذنبـه، وتذهب جـرمه ﴿يجد الله غفـورا رحيما﴾

يقول: يجد ربه ساتراً عليه ذنبه، بصفحه له عن عقوبة جرمه، رحيما به، إلى أن قال رحمه الله: حدثني محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن عاصم عن أبي وائل: قال: قال عبد الله: كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنبا أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً منه قرضه بالمقراض فقال رجل: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبد الله: ما آتاكم الله خير مما آتاهم، جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم﴾ وقال: ﴿ومَنْ يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ حدثني يعقوب قال: حدثنا هشيم قال: حدثنا ابن عون عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبد الله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت، فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: مالها؟ لها النار، فانصرفت وهي تبكي، فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين: ﴿من يعمل سُوءًا أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما.﴾ قال: فمسحت دمعها ثم مضت، حدثني المثنى قال حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس قوله: ﴿ومَنْ يعملْ سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيرا، ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما، ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال اهـ وقوله عز وجل: ﴿ومن يَكْسِبْ إثْما فإنما يَكْسِبُهُ على نفسه، وكان الله عليما حكيما.﴾ بعد أن رهب الله عز وجل من معصيته ورغب في التوبة والاستغفار من المعاصي والسيئات ذكر هنا على سبيل الترهيب والترغيب أيضاً أن أي ذنب يرتكبه الإنسان فإنه هو وحده الذي يتحمل عقوبته وأن وبال ذلك راجع إليه وحده فلا تزر وازرة وزر

أخرى، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فمرتكب المعصية لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً. ومن يأت ذنبا متعمداً فإنما يكتسب ويجترح وبال ذلك الذنب وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره، ولن يبلغ العبد نفع ربه فينفعه، ولن يبلغ ضره فيضره، كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، ياعبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر، ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خطيئةً أو إثما ثم يَرْمِ به بريئًا فقد احْتَمَلَ بُهْتَانًا وإثما مُبِينًا.﴾ هذا ترهيب عظيم من أن يرتكب الإنسان شيئا مما يسوء سواء كان متعمداً أو غير متعمد ثم يلصقه بإنسان بريء منه لم يقترفه، وأن من يفعل ذلك فقد تحمل بعمله هذا فرية وكذباً وإثماً عظيماً وجرماً فظيعاً، والفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد أما الإثم فلا يكون إلا عن

عمد. والبهتان هوالفرية والكـذب بأن يقول على الإنسان ما ليس فيه قال في القاموس المحيط: بهتـه كمنعه بَهْتًا وبَهَتًا وبُهتانا قال عليـه مالم يفعل والبهيتة الباطل الذي يتحير من بطـلانه والكذب كالبهت بـالضم اهـ والبهتان أقبح من الغيبة والنميمـة وقد روى البخاري ومسلم من حديث حـذيفة رضي الله عنه قـال: سمعت رسـول الله ﷺ يقول: لا يدخـل الجنة قتـاتٌ. وفي رواية مسلم: نمام ووصف الله عز وجل الغيبة بأقبـح الأوصاف التي تجعل العاقل ينفر منهـا أشد النفـور حيث يقول عز وجـل: ﴿ولا يَغْتَبْ بَعْضكُمْ بعضا، أيحب أحـدكم أن يأكل لحم أخيــه مَيْتًـا فكَـرِهْتُمـوه﴾ وقـد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قـال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيـه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتـه، وفي لفظ لمسلم: إذا قلت لأخيك ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ماليس فيـه فقد بهته. ولاشك أن كلمة واحدة مـن غيبة أو نميمة أو بهتـان قد تحول بين الإنسـان وبين الموت على الإسـلام لأنها من سخط الله وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبـد ليتكلم بـالكلمـة مـن رضـوان الله لا يلقي لها بـالاً يـرفعـه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم، وفي رواية للبخاري ومسلم: يهوى بها في النـار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإنما كان البهتـان أقبح من الغيبة والنميمة لأن صـاحبه يفترى ما يقول. ولذلك قال الشاعر:

لي حيلةٌ فيما ينم وليس في الكذاب حيله … من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليله

وقد وصف الله عـز وجل هنا من يـرمي البريء بجريرتـه هو بأنـه قد احتمل بهتانا وإثما مبينا، وقال عز وجل في سورة الأحزاب: ﴿والذين يُؤْذُونَ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا.﴾

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أن يُضِلُّوكَ وما يُضلون إلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَك مِنْ شَيْءٍ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً. لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أو مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً.﴾

بعد أن أوضح الله عز وجل لرسوله ﷺ وللمؤمنين بعض مواقف المنافقين الذين يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضَى من القول وندد بمن يجادل عن المنافقين والخونة، مما يشعر بشدة ما يحكمه المنافقون من نفاقهم سعياً لإضلال المسلمين، وبعد ما ساقه عز وجل من الترغيب والترهيب أوضح هنا أنه عصم رسوله محمداً ﷺ بفضله ورحمته، فلا يستطيع الغواة من شياطين الإنس والجن أن يضلوه، ومهما حاولوا من ذلك فلن يضروا إلا أنفسهم، وبين أنه تفضل على هذا النبي العظيم والرسول الكريم فاختاره واصطفاه، وآتاه القرآن والنبوة، وعلمه مالم يكن يعلمه هو ولا قومه حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك﴾ أي ولولا أن الله تبارك وتعالى تفضل عليك فعصمك وصانك وأيدك بتوفيقه لك وإحسانه إليك وكشف عورات المنافقين وتعريفك بما يبيتونه لك مما لا يرضى الله عز وجل من أقوالهم وأفعالهم وتدبيراتهم السيئة للإسلام والمسلمين، وتثبيتك على طريق الرشاد وسلوك الصراط المستقيم لقصدت فرقة منهم أن يزلّوك عن طريق الحق، ويوقعوك في الحيرة والشك، ولكن ما عصمك الله عز وجل به وما أعانك من تأييده وتسديده صرفهم عنك وحال بينهم وبين إيقاعك فيما يشتهون، ووقاك شرهم وحماك من سوء صنيعهم وما أحسن قول الشاعر:

وقاية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عال من الأطم

ولله در الشاعر إذ يقول:

إذا كان عون الله للعبد مسعفا تأتّى له من كل شيء مراده
وإن لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده

فقد صان الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ وعصمه، وجعل تدبير المنافقين واليهود ضد رسول الله ﷺ تدميراً لهم ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله. وقوله عز وجل: ﴿وما يُضِلُّونَ إلا أنفسهم وما يَضُرُّونكَ من شيء﴾ أي ولن تُؤثر محاولتهم إضلالك عليك بشيء أبداً، لأن الله عز وجل قد صانك من الضلال وعصمك من معصيته فلن تستطع شياطين الجن والإنس صرفك عن صراط الله المستقيم، ولن يعود وبال ماأرادوه من الإضلال إلا على أنفسهم، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الله عز وجل قد عصمه من الشيطان حتى صار الشيطان الْـمُوَكَّلُ به لا يأمره إلا بخير فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن: قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير، وفي لفظ: وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة. كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: مالك؟ أغرت؟ فقلت: ومالي لايغار مثلي على مثلك فقال رسول الله ﷺ: أقد جاءك شيطانك؟ قالت: يارسول الله أو معي شيطان؟ قال: نعم، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: نعم، قلت: ومعك يارسول الله؟ قال: نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم﴾ بيان للنعم الكبرى، والمنن العظمى التي تفضل الله بها على أكرم خلقه، وأفضل رسله، وسيد ولد آدم محمد بن عبد

الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه ورحمته وبركاته عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونهج منهجهم إلى يوم الدين، ومعنى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾ أي وأوحى الله عز وجل إليك القرآن الحكيم، المشتمل على تبيان كل شيء المهيمن على كل كتاب أنزل، وفيه هدى ورحمة، وشفاء لما في الصدور، وآتيناك من بحار الحكمة مالم نعطه أحداً سواك، ففهمناك الكتاب، وأرشدناك إلى الصواب، فوضعت كل أمر في موضعه اللائق به، وعرفت مجمل الكتاب فبينت للناس ما نزل إليهم، وهديت إلى السداد، وسلكت منهج الرشاد، وعرّفت عباد الله أسباب سعادتهم، في عاجلتهم وآجلتهم، ولم تترك شيئاً يعود عليهم بالخير في دنياهم أو أخراهم إلا أمرتهم به، وحضضتهم عليه، ولم تترك سبيلاً يصيبهم منه شر في عاجلتهم أو آجلتهم إلا نهيتهم عنه وحذرتهم منه، فلا تأمرهم إلا بخير ولا تنهاهم إلا عن شر، حتى قال المشركون لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: لقد علمكم نبيكم كل شيء. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سلمان رضي الله عنه قال: قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال: فقال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم، وفي لفظ لمسلم من حديث سلمان رضي الله عنه قال: قال بعض المشركين وهو يستهزئ: إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخراءة، فقال: أجل، إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبلة ونهى عن الروث والعظام وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار. قال في القاموس المحيط: والحكمة بالكسر العدل، والعلم، والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل وأحكمه أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد اهـ وقوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمَكَ

مـالم تكن تَعْلـم﴾ أي وآتـاك علـوم الأولين والآخـرين ، وأخبـار السـابقين واللَّاحقين ، وعلوم الدنيا والآخـرة ، مما لم تكن تعرفه أنت ولا قومك من قبل كما قال تبارك وتعـالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليـك ما كنتَ تَعْلمُهَا أنت ولا قـومك من قبل هٰـذا فـاصبر إن العـاقبة للمتقين . ﴾ وكما قـال عـز وجل : ﴿ذٰلك من أنباء الغيب نُوحيهِ إليك ومـا كنتَ لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿كذٰلك نَقُصُّ عليك من أنباء مـا قد سَبَقَ ، وقد آتيناك من لَّدُنَّا ذِكرا . مَنْ أَعْرَضَ عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا . خالدين فيه وساءَ لهم يوم القيامة حِمْلا . ﴾ وكما قال عز وجل ﴿إنَّ هٰذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيلَ أكثر الـذي هم فيه يختلفون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿ومـا كنت بجـانـب الْغَـرْبِيِّ إذ قضينـا إلى مـوسى الأمـرَ ومـا كنتَ من الشاهدين . ولٰكنا أنشأنا قرونـا فتطاول عليهم العُمُرُ، وما كنت ثَاوِيًا في أهل مدين تتلواْ عليهم آياتنا ولٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين . وما كنتَ بجانب الطور إذْ نادَيْنَا ولٰكِنْ رحمةً من ربك لتنـذر قـومـا مـا أتـاهم من نـذيـر من قبلك لعلهم يتذكرون . ﴾ وكما قـال عز وجل : ﴿وكذٰلك أوحينا إليك رُوحًا من أمـرنا ، ما كنتَ تدري مـا الكتابُ ولا الإيمانُ ولٰكن جعلنـاه نُورًا نَهْدِي بـه مَنْ نشاءُ من عبـادنـا ، و إنك لَتَهْـدِي إلى صراط مستقيـم . صراط الله الـذي لـه مـا في السمٰوات ومافي الأرض ، أَلا إلى الله تَصِيرُ الْأُمُورُ . ﴾ وكما قال عز جل : ﴿كما أرسلنـا فيكم رسولا منكم يتلـواْ عليكم آيـاتنـا و يزكيكم و يعلمكم الكتـاب والحكمة و يعلمكم مالم تكونوا تعلمون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسـولاً من أنفسهم يتلـواْ عليهم آيـاتـه و يـزكيهم و يعلمهم الكتاب والحكمة و إن كانوا من قبلُ لفي ضلال مبين . ﴾ وكما قال تبـارك وتعالى : ﴿هـو الذي بعث في الأميين رسـولاً منهم يتلـواْ عليهم آياتـه و يزكيهـم و يعلمهم الكتاب والحكمة و إن كـانوا من قبل لفـي ضلال مبين .

وآخرين منهم لمَّا يَلْحَقُوا بهم، وهو العزيز الحكيم. ذُلك فضلُ الله يؤتيه مَنْ يشـاء، والله ذو الفضل العظيم.﴾ ولذلك كلـه ذيل الله تبـارك وتعالى هـذه الآية الكريمة بقولـه لحبيبه ﷺ ﴿وكان فضلُ الله عليك عظيما﴾ وبعد أن بيَّن عز وجل فضلـه العظيم على محمد سيد المرسلين ﷺ شرع يُبيِّن بعض قـواعد الخير التي أوحى بها إلى رسـولـه ﷺ حيث يقـول: ﴿لا خير في كثير من نجـواهم إلا من أمر بصـدقة أو معـروف أو إصلاح بين النـاس، ومن يفعل ذُلك ابتغاء مرضات الله فسوف نـؤتيه أجرا عظيما.﴾ أي لا خير فيما يتناجى به النـاس ويخوضون فيـه من الكلام سواء كـان سرًّا أو جهرا إلا مـا كان لنفع الناس وإيصال الخير لهم أو دفع الأذى والضر عنهم مما يثمـر سلامة أبدانهم وأرواحهم وصـلاح معاشهم ومعـادهم كالأمـر بالصـدقات على المحتـاجين والأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـر وإصـلاح ذات البين، وفي هـذا تنديـد بالمنحرفين عن منهج رسول الله ﷺ الذين يبيِّتون ما لايرضى من القول، وثناءٌ على المؤمنين الذين يحرصون على طـاعة الله وطاعة رسولـه ﷺ فلا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ونفع عبـاده سواءٌ كان كـلامهم وذكرهـم سراً أو جهـراً وأكثر مـا تستعمل النجوى فيما كـان سراً من الكلام وقـد تستعمل في الجهر كذلك قال ابن منظور في لسان العرب: وفي التنزيل العزيز: ﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ قال أبو إسحاق: معنى النجـوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة والاثنان، سراً كان أو ظاهـراً وقوله أنشده ثعلب: (يَخْرُجْنَ من نَجِيِّهِ للشاطِي) فسره فقال: نجيه هنا صوته، وإنما يصف حاديًا سوَّاقًا مصوِّتًا اهـ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ومَنْ يفعل ذُلك ابتغاءَ مـرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ قال الفخـر الرازي: والمعنى أن هذه الأقسـام الثلاثة من الطـاعات وإن كـانت في غايـة الشرف والجلالة إلا أن الإنسـان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مـرضاته، فأما إذا أتى بها للريـاء والسمعة انقلبت القضية

فصارت من أعظم المفـاسد، وهـذه الآية من أقوى الـدلائل على أن المطلوب من الأعمال الظاهرة رعـاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفيـة الداعية عن الالتفـات إلى غرض سـوى طلب رضـوان الله تعالى ونظيره قـوله تعـالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبـدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقولـه: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام: إنما الأعمال بالنيات. اهـ.

قال تعـالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِـقِ الرَّسُولَ مِـنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تَـوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَـادُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَـاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِـاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَـلالا بَعِيدًا . إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونه إلا إنَاثًا وَإنْ يَدْعُونَ إلا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللهُ﴾

بعد أن ندد بالمنحرفين عن منهج النبي المصطفى محمد ﷺ الذين يبيتون ما لا يرضى من القول ، وأثنى على المؤمنين الذين يحرصون على طاعة الله وطاعة رسـولـه محمـد ﷺ الـذين لا يستعملـون ألسنتهم إلا في الثنـاء على الله ونفع عباده ، شرع هنـا يندد بمن يشـاقق الرسـول محمداً ﷺ وينحـرف عن منهج المؤمنين ويتوعدهم بالخذلان في الدنيـا وعذاب جهنم في الآخرة ، حيث يقول تبارك وتعـالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِـقِ الرسولَ مِـنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَـهُ الْهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنينَ نُوَلِّـهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِـهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا .﴾ أي ومن يسلك طريقـاً مناقضاً لمنهج رسول الله ﷺ ويخالـف هدي هذا الرسـول الكريم ﷺ فيصبح في شق وجانب معادٍ للشق والجانب الذي فيه رسول الله ﷺ وشريعته وهديه ، من بعد ما ظهر له الحق واتضح ، وتبين له أن ما جاء به الرسول ﷺ لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي به من عند نفسـه ، وأصل المشاقة والشقاق يرجع إلى معنى الخلاف والعـداوة ، فمن عادى رسول الله ﷺ فإن الله خـاذله لا محالـة في الدنيـا ، ومصليه نـار جهنم في الآخـرة ، وكذلك من خـرج على جماعة المسلمين ، وسلك طـريقًا ومنهجاً غير طـريقهم ومنهجهم فإن الله عز وجل خاذله لا محالـة في الدنيا ومصليه نار جهنم في الآخرة ، ولـو قال قائلٌ : هل هنـاك فرق بين مشاقـة الرسـول وبين اتباع غير سبيل المؤمنين قلنـا : من عادى نصوص الكتـاب والسنة كان مشاقاً لـرسول الله ﷺ ومتبعاً لغير سبيل المؤمنين لأن أصل سبيل المؤمنين هو متـابعة نصـوص الكتاب والسنـة . وقد

يجدّ للمؤمنين قضـايا بعـد رسول الله ﷺ لا يكـون منصوصـاً على حكمها في الكتاب أو السنة ويجمع فقهاء المسلمين على حكمهـا فإنَّ هذا الإجماع يكون حجة مستقلة لا يحل لمسلم أن يخالفه ؛ لأن المسلمين لا يجتمعون على ضلالة أبـدا حيث عصمهم الله عـز وجل مـن الاجتماع على البـاطل ، فمن خـالف إجماع فقهـاء المسلمين أهل السنـة والجماعـة أتباع أبي بكـر الصـديق وعمـر الفاروق وعثمان ذي النـورين وعلي بن أبي طـالب وسائر أصحـاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسـان فقد اتبع غير سبيل المؤمنين واستحق هـذا الوعيـد الشديـد من خذلان الله له في الـدنيا وعذاب جهنم في الآخـرة ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : وقوله : ﴿وَيَتَّبِعْ غير سبيل المؤمنين﴾ هذا ملازمٌ للصفـة الأولى ، ولكن قـد تكـون المخـالفـة لنص الشـارع ، وقـد تكـون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمـة في اجتماعهـم من الخطأ ، تشريفـاً لهم ، وتعظيماً لنبيهـم . وقـد وردت أحاديث صحيحةٌ كثيرةٌ في ذلك قـد ذكرنا منها طرفـاً صالحاً في كتاب أحاديث الأصـول ، ومن العلماء من ادَّعى تواتر معنـاها ، والذي عـوَّل عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجـة تحرم مخالفته هذه الآية الكـريمـة ، بعـد التروي والفكر الطـويل ، وهـو من أحسن الاستنبـاطـات وأقواهـا اهـ ومعنى قـوله عز وجل : ﴿نُـوَلِّهِ مَا تَـوَلَّى﴾ أي نكله إلى مـا اختار لنفسه ، ونخـذله . ولا نـمدِّده ، بل نجعلـه والياً لما تـولاه من الضلال ونخلِّ بينه وبين هـواه ، ولاشك . أن من وكل إلى نفسه وهـواه تاه في بيداء الضـلالة ، وضاع في صـحـراء الغوايه والسعيـد من استعمله الله عز وجل في طـاعته ، وتفضل عليه بتأييده وتوفيـه ، فأنـاب إلى ربه ، وأسلم وجهه إلى بارئه وخالقه وتضرع إلى مولاه وقـال ياحي ياقيـوم يابديع السمـوات والأرض ياذا الجلال والإكـرام ، برحمتك أ نغيث فـأصلح لي شأني كلـه ولا تكلني إلى نفسي أو إلى

أحـد من خلقك طـرفـة عين، فـإنك إن وكلتني إلى غيرك وكلتني إلى عجـز ضعف وفاقـة. ومعنى قوله عز وجل: ﴿وَنُصْلِـهِ جهنم وساءت مصيرا.﴾ أي ونجعله صلاء نار جهنم يعني: ندخلـه فيها ونحرقه بها، وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصيراً ومسكنـا ومأوى. وقوله عز وجل: ﴿إن الله لا يغفر أَنْ يُشْرَكَ به ويغفر مـا دون ذُلك لمن يشاء، ومَنْ يُشْرِكْ بالله فقد ضلَّ ضلالا بعيـدا.﴾ هذا ترهيبٌ من الاستمـرار على مشاقة الرسـول واتباع غير سبيل المؤمنين، وترغيبٌ في الرجوع إلى الله عز وجل وطـاعة رسوله ﷺ واتباع سبيل المؤمنين، وتقدم تفسيرها عند الحديث على قوله عز وجل: ﴿إنَّ الله لا يغفر أن يشرك بـه ويغفر ما دون ذُلك لمن يشاء، ومَنْ يُشْرِكْ بـالله فقد افترى إثما عظيما﴾ وبينت هناك سبب تذييل كل آية من الآيتين بما ذُيِّلَتْ به، وقوله عز وجل: ﴿إنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إلا إنَاثًا وإنْ يَدْعُونَ إلا شَيْطَانًا مَرِيدًا. لَّعَنَهُ اللهُ.﴾ هـذا بيانٌ للضـلال البعيد الـذي تاه فيـه المشركون بسبب انحـرافهم وبعـدهم عن منهج رسـول الله ﷺ واتبـاعهم غير سبيل المؤمنين الـذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركـون به شيئاً، فقد انحصرت عبـادة هؤلاء المشركين في تناقضات دعـاهم إليها إبليس وجنوده من مردة الشيـاطين، فعبدوا الملائكة وجعلوهم إناثـاً وقالوا: هم بنات الله، واتخذوا الأصنـام وأطلقوا عليها أسماء الإناث كـالعُزَّى ومناة ونـائلة، مع أنهم كانـوا يكرهون البنـات، وإذا ولدت امرأة أحـدهم أنثى اسود وجهه. وقـد يهجر بيتها من أجل بنتهـا التي ولدتها كما قالت إحداهن:

مَالأَبى حمزة لا يأتينا ... يَظَلُّ بالبيت الذي يلينا ... غَضْبَان أن لا نلِدَ البنينَا

وَهم في جميع مـا يعبـدون واهمون متناقضـون مترددون، لا يجتمعـون إلا في قـاعدة واحـدة وهي انقيادهـم للشيطان المريـد، الذي أوقعهم في الضـلال البعيـد، وقـد كـان بعضهم يعبدون أصنـامـاً يجعلـون بعضهـا لجلب الخير

وبعضها لدفع الضر وبعضها للانتقـام، وبعضها لغير ذلك، وكانوا إذا مرُّوا بـواحدة منهـا سجدوا لها وتضرعـوا إليهـا وبكوا عنـدهـا، فإذا مروا بأخـرى خجلوا أن يبكـوا عندها لبكائهم عنـد الأولى كأنهما جارتان متباغضتـان رضا إحداهما في سخط الأخرى كما قال الشاعر:

وكيف تَرَى ليـلى بعيـن تـرى بِهَا     سـواها وما طَهَّرْتَهَا بالمدامـع

فقـد روى البخاري ومسلم من طـريق عـروة عن عـائشة رضي الله عنهـا قـال: قلت: أرأيت قول الله تعـالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعـائر الله فمن حج البيت أو اعتمـر فلا جنـاح عليه أن يطـوف بهما﴾ قلت: فوالله مـا على أحد جناحٌ ألا يتطـوف بهما، فقالت عائشة: بئس مـا قلت يابن أختي، إنها لـو كانت على مـا أوَّلتها عليـه كـانت: فلا جنـاح عليه أن لا يطَّـوَّف بهما. ولكنها إنما أنزلت في الأنصـار: كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمنـاة الطاغية التي كـانوا يعبـدونها عنـد المشلَّل، وكان من أهلَّ لها يتحـرج أن يطـوف بالصفـا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يـارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهليـة، فأنزل الله عز وجل ﴿إنَّ الصفا والمروة من شعـائر الله فمن حج البيت أو اعتمـر فـلا جُنَـاح عليـه أن يَطَّـوَّف بهما.﴾ الحديث. وإنما كـانوا يتحـرجون أن يطَّـوَّفوا بـالصفا والمروة من أجل إسـاف ونائلة المنصوبتين على الصفا والمروة فقد روى النسائي بسند قوي عن زيد بن حـارثة قـال: كـان على الصفـا والمروة صنمان من نحـاس يقال لهما: إسـاف ونـائلة وقـال الحافظ ابن حجـر في فتح الباري: وروى الفـاكهي وإسماعيل القـاضي في الأحكام بإسنـاد صحيح عن الشعبي قـال: كـان صنم بالصفـا يُدعى إساف ووثن بالمروة يُدعى نـائلة اهـ وقد وبخ الله تبارك وتعالى المشركين الذين يرضـون بعبادتهم للإناث وهم يكرهون الإنـاث حيث قال عز وجل: ﴿ويجعلون لله البنـات سبحانه ولهم مـا يشتهون. وإذا بشر أحـدهم بالأنثى

ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّر به ، أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أم يَدُسُّهُ في التراب ، ألا ساء ما يحكمون . للذين لا يؤمنون بالآخرة مَثَلُ السَّوْءِ ولله المَثَلُ الأعلى ، وهو العزيز الحكيم . ولو يؤاخذ اللهُ الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولٰكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . ويجعلون لله ما يكرهون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين . وإذا بُشر أحدهم بما ضَرَب للرحمن مَثَلا ظل وجهه مُسْودًّا وهو كظيم . أَوَ مَنْ يُنَشَّأُ في الحِلْيَةِ وهو في الخِصَام غيرُ مبين . وَجَعَلُوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثا ، أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ، سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ ويُسْأَلُون . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿فاستفتهم ألربك البناتُ ولهم البَنُونَ . أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون . أَلا إنهم من إفكهم ليقولون . وَلَدَ اللهُ وإنهم لكاذبون . أَصْطفَى البناتِ على البنين . مالكم كيف تحكمون . أَفَلا تَذَكَّرُونَ . ﴾ وكما قال عز وجل : ﴿أفرأيتم اللات والعُزَّى . ومناةَ الثالثة الآخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذًا قسمةٌ ضِيزَى . إن هي إلا أسماءٌ سَمَّيْتُمُوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يَتَّبِعُون إلا الظَّنَّ وما تَهْوى الأنفسُ ولقد جاءهم من ربهم الهُدَى . أم للإنسان ما تمنَّى . فللَّه الآخرة والأولى . وكم من مَلَكٍ في السمٰوات لا تغني شفاعَتُهُم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويَرْضَى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لَيُسَمُّونَ الملائكة تسمية الأنثى . ومالهم به من علم إن يتَّبِعُون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يغني من الحق شيئا . ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿وإن يَدْعُونَ إلا شيطانا مريدا . لعنه الله﴾ أي وما يعبد هؤلاء المشركون في الحقيقة إلا شيطانا متمردًا قد أخزاه الله وطرده من رحمته وأبعده عن كل خير، وقدَّر على من تولاه أنه يضله ويهديه إلى عذاب النار كما قال عز وجل : ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم وَيَتَّبِعُ كُلَّ شيطانٍ مَرِيدٍ .

كُتِبَ عليه أنه مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ويَهْدِيهِ إلى عذاب السعير. ﴾ وإن تعجب فعجب أن يلعب الشيطـان بعقـول بعض من ينتسب إلى الإسـلام حيث وجدت في بلادهم بناياتٌ من قبابٍ وأضرحة يزعمون أن تحتها وليًّا يستغيثون به وينذرون لـه ويدعونه كما يـدعو المؤمنون الواحـدَ القهار، والكثير من هذه الأبنية لا شيء تحتها وإنما هـي حبائل الشيطان قد نصبها أولياؤه، وحتى لو كـان تحتها عبدٌ صـالح ما جـاز لمسلم أن يتخـذه شريكا لله، تعـالى الله عما يشركون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ، وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا. يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلا غُرُورًا. أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا. والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالِدِينَ فيها أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلا.﴾

بعد أن بَيَّنَ تبارك وتعالى أن المشركين في ضلال بعيد، وأنهم تاهوا عن منهج الرشد بسبب انقيادهم للشيطان الذي جعلهم يعبدون مَن جعلوه إناثاً مع كرههم لولادة الإناث وأنهم في الحقيقة لا يعبدون إلا الشيطان المريد الذي لعنه الله وأخزاه وطرده من رحمته وأبعده عن طرق الخير شرع يبين للناس خطوات الشيطان ليحذر من يريد الخير لنفسه أن يتبع هذه الخطوات الشيطانية التي تلقي بمن يسلكها في بيداء الغواية والحيرة والضلالة فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا. وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ ومعنى: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا.﴾ أي وقال الشيطان مؤكدًا كلامه بالقسم: لأستولين على فريق مقدر من عبادك بوسوستي، ولأجعلنهم ينقادون لي، وينضوون تحت لوائي ورايتي، ويصيرون من حزبي، ويأتمرون بأمري، وأجُرُّهم إلى مرادي كما يجرُّ الإنسان دابته التي احتنكها فوضع الرَّسن في فمها وقادها حيث يشاء، وإن كنت لا أتسلط على المخلصين من عبادك الذين أخلصتهم لنفسك فأخلصوا الدين لك. وقد أعلن إبليس هذا الإعلان عندما لعنه الله وطرده من رحمته، ويئس من عفو الله ومغفرته، وطلب المهلة والإنظار إلى يوم الدين، وإلى ذلك يشير الله تبارك وتعالى في

مواضع من كتابه الكريم حيث يقول: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قُلْنَا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك أَلا تَسْجُدَ إذْ أَمَرْتُكَ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخَلَقْتَهُ من طين. قال فاهْبطْ منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين. قال أَنْظِرْني إلى يوم يبعثون. قال إنك من المُنْظَرِين. قال فَبِمَا أغْوَيْتَني لأَقْعُدَنَّ لهم صراطك المستقيم. ثم لآتِيَنَّهُمْ من بين أيديهم ومِنْ خَلْفِهِمْ وعن أَيْمَانِهِمْ وعن شمائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكرين. قال اخرج منها مَذْءُومًا مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم منكم أجْمَعِينَ.﴾ وقال في سورة الحجر: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صلصال من حمإ مسنون. فإذا سَوَّيْتُه ونفخت فيه من رُوحي فَقَعُوا له ساجدين. فسجد الملائكة كُلُّهم أجمعون. إلا إبليس أَبَى أنْ يكون مع الساجدين. قال ياإبليس مالك ألا تكونَ مع الساجدين. قال لم أكن لأَسْجُدَ لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإنَّ عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يُبْعَثُون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم. قال ربِّ بما أغويتني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين. قال هذا صراط عَلَيَّ مستقيمٌ. إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلا من اتَّبَعَكَ من الغاوين. وإنَّ جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جُزْءٌ مقسوم.﴾ وقال عز وجل في سورة الإسراء: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسْجُدُ لمن خلقتَ طينا. قال أرأيتكَ هٰذا الذي كرَّمْتَ عليَّ لئن أَخَّرْتَنِ إلى يوم القيامة لأَحْتَنِكَنَّ ذريته إلا قليلا. قال اذهب فمن تَبِعَكَ منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاءً مَوْفُوراً. واستفزز من استطعتَ منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك وَرَجِلِكَ وشاركهم في الأموال والأولاد وَعِدْهُمْ، وما

يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غرورا. إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكفى بربك وكيلا.﴾ وقوله: ﴿وَلأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي ووالله لأوقعنهم في الحيرة والشك والضلالة والبعد عن الصراط المستقيم ولأزلزلن قلوبهم بالوسوسة ولأصرفنهم عن أسباب الفوز بجنات النعيم، ولأحملنهم على العمل بما يوقعهم في دركات الجحيم. وقوله: ﴿ولأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أي ووالله لأزيغن قلوبهم عن الهدى ولأملأنها بالغرور ولأخدعنهم بالأماني الكاذبة، ولأعلقن نفوسهم بما يلهيهم عن أسباب سعادتهم حتى تأتيهم مناياهم قبل أن يدركوا أمانيهم، بل قد تكون منيتهم في أمنيتهم. وقوله: ﴿ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنعام﴾ أي ووالله لآمرنهم بتشقيق آذان الأنعام لجعلها بحيرة يتقربون بها للأصنام فليشققنها، وقد ندَّد الله تبارك وتعالى بمن فعل ذلك حيث قال: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبةٍ ولا وصيلةٍ ولا حام ولَكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون.﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولآمُرَنَّهمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾ أي ووالله لآمرنهم بتغيير خلق الله وتبديل فطرة الله التي فطر الله الناس عليها فليغيرن ذلك استجابة للوسوسة التي أملأ بها صدورهم. ولما كان التغيير لفظاً مجملاً بينت السنة النبوية ما يكون من التغيير مشروعاً وما يكون ممنوعاً، فمن التغيير المشروع الختان وحلق العانة وقص الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وصبغ شعر الرأس واللحية بالورس والزعفران أو بالحناء أو بالحناء والكتم، ومن التغيير الممنوع المعتبر من عمل الشيطان حلق بعض رأس الصبي وترك بعضه، المعروف بالقزع والواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والمتنمصات والمتفلجات للحسن فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الفطرة خمس: الخِتان والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

خالفوا المشركين، أوفروا اللحى وأحفوا الشوارب. وفي رواية: أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحي. كما روى مسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال: وقِّت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم. كما روى البخاري ومسلم من طريق نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن القزع قيل لنافع: ما القزع؟ قال: يحلق بعض رأس الصبي ويترك البعض. كما روى مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى صبياً قد حلق بعض رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال: احلقوا كله أو اتركوا كله. كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحُسن المغيرات خلق الله، فجاءته امرأةٌ فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: مالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ، ومن هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. قال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأت: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾؟ قالت: بلى، قال: فإنه قد نهى عنه. كما روى أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أحسن ما غير به الشيب الحناء والكتم. كما روى أبو داود بإسناد جيد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ قد خضب بالحناء فقال: ما أحسن هذا: قال: فمر آخر قد خضب بالحناء والكتم فقال: هذا أحسن

من هذا، ثم مر آخر قد خضب بالصفرة فقال: هذا أحسن من هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿ومن يتخذ الشيطانَ وليًّا من دون الله فقد خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا.﴾ أي ومن ينقد للشيطان ويكفر بالرحمن فقد أفسد دنياه وآخرته.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وما يَعِدُهُمُ الشيطانُ إلا غرورا.﴾ أي يلقي الشيطان في نفوس أوليائه الوعود الكاذبة والأماني الباطلة حتى إذا حصحص الحق تبرأ منهم واندحر الشيطان وأولياؤه كما قال عز وجل: ﴿وقال الشيطان لما قضي الأمر إنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحقِّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لِيَ عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولُومُوا أنفسكم﴾ ولذلك قال عز وجل هنا: ﴿وما يَعِدُهُمْ الشيطانُ إلا غرورا.﴾ أي وما يلقى الشيطان في نفوس أعداء الله من وعوده الكاذبة وأمانيه الباطلة إلا الغرور والخداع الذي لا يحصلون من ورائه إلا على النكد والنصب، وصاروا كالذي يطلب السراب كما قال عز وجل: ﴿والذين كفروا أَعمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، والله سريع الحساب﴾ وقوله تبارك وتعالى: ﴿أولَئك مأواهم جهنم ولا يَجِدُونَ عنها مَحِيصًا.﴾ أي هؤلاء المنقادون للشيطان مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ولا يستطيعون أن يجدوا مهرباً منها، وليس لهم عنها مفرٌّ ولا خلاص ولا مناص، وقوله تبارك وتعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا وَعْدَ اللهِ حقًّا، ومن أصدقُ من الله قيلا.﴾ هذا ترغيب في طاعة الرحمن بعد الترهيب من طاعة الشيطان، أي والذين صدقوا الله ورسوله فأقروا لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة وأدوا ما فرض الله عليهم، سيسكنهم الله عز وجل يوم القيامة فسيح الجنان التي تجري من تحتها الأنهار حالة كونهم باقين فيها أبدا لا يريمون عنها ولا يتحولون منها، وهذا هو الوعد الحق واليقين

الصادق ؛ لأنـه وعدٌ من العزيز الكـريم المقتدر ولا أحد أصدق وعـدًا منه ، وحديثـه أصدق الحديث ، ولذلـك كان رسول الله ﷺ يقـول في خطبته : إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ .

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا. وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً. وَللهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ، وَكَانَ اللهُ بِكُل شَىْءٍ مُحِيطًا.﴾

بعد أن بيَّن تبارك وتعالى أن من أهم خُطوات الشيطان إلقاء الأماني الكاذبة في قلوب الناس شرع هنا يقرر القاعدة المانعة الجامعة التي تنير الطريق الحق أمام السالكين وتكشف لهم الفرق بين أماني المغرورين وبين ما يتمناه المؤمنون، حتى يُعرف الفرق بين الأماني الشيطانية وبين الوعود الرحمانية، فمن بنى مشتهياته على الأماني الكاذبة والوعود الزائفة التي يلقيها الشيطان في نفسه ويغره بها فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه ومن أمثلة ذلك ما توهمه المشركون من أن أصنامهم تنفعهم وتشفع لهم عند الله فإذا جاءوا يوم القيامة تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب، وكذلك ما ألقاه الشيطان وأعوانه في نفوس أهل الكتاب أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا مَنْ كان هودًا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.﴾ ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يتمناه بعض من ينتسب إلى الإسلام من رضا الله وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي حقوق الله ولا حقوق عباده ويظن أن مجرد انتسابه إلى الإسلام يكفيه دون أن يعمل بعمل أهل الإسلام، ولذلك لم يكن الإيمان بالتمني ولكن بما وقر في القلب

وصدقه العمل ، وقد روى الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال : الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني . وفي ذلك يقول تبارك وتعالى هنا : ﴿ليس بأمانيّكم ولا أمانيِّ أهل الكتاب ، مَنْ يعمل سُوءًا يُجْزَ بِهِ ولا يَجِدْ له من دون الله وَلِيًّا ولا نصيرا . ومَنْ يَعْمَلْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولَئك يَدْخُلُونَ الجنة ولا يظلمون نقيرا .﴾ أي ليس الدين والجزاء بشهوات الناس وتمنياتهم وأهوائهم المنحرفة عن دين الله ورسوله ﷺ ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل الدين الحق هو ما أنزله الله تبارك وتعالى في كتابه ، وجاء به رسوله وسيد خلقه محمدٌ ﷺ ، وحساب الخلائق وثوابهم وجزاؤهم عند الله إنما يكون بما يضعه الله عز وجل من موازين القسط يوم القيامة فمن يشرك بالله عز وجل ويرتكب السوء فإن الله تبارك وتعالى يجزيه بذلك ولا يستطيع أحدٌ كائنا من كان أن يدفع عنه من عذاب الله شيئا مهما كانت صلته به في الحياة الدنيا فلا يجد قريباً أو حبيباً له أو نصيراً ينصره من عقاب ربه ، ومن آمن بالله وكتبه ورسله وعمل بطاعة الله وطاعة رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ سواء كان هذا المؤمن ذكرا أو كان أنثى فهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات يدخلهم الله عز وجل في رحمته ، ويسكنهم فسيح جنانه ، ولا يضيع من أعمالهم الصالحة مقدار نقير أو وزن نقير وهي النقرة التي في ظهر النواة ، بل كل من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : قاربوا وسدِّدُوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها ، ثم بيَّن تبارك وتعالى الدين الحق الذي لا

يقبل من أحد ديناً سواه، وهو الحنيفية السمحة دين الإسلام ملة إبراهيم إمام الحنفاء وخليل الرحمن، الذي بعث الله به سيد خلقه، وأفضل رسله، محمداً ﷺ وأكمل له الديـن، وأتم به النعمة، وآتاه الشريعة الوافية الشافية الكافية الباقية إلى يوم القيامـة فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أحْسنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّـةَ إبراهيمَ حَنِيفًا، واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَلِيـلا.﴾ هذا بيانٌ للدين الحق المورث لجنات النعيم ورضوان رب العالمين، المشتمل على إظهار كمال العبوديـة والخضوع والانقياد لله تعـالى الموافق لما بعث الله تعالى بـه رسله وأنزل به كتبه وأوحاه إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أشار الله تبارك وتعـالى هنـا إلى الشرطين اللذين لا يقبل مـن عامل عمـلاً إلا بهما، فـالشرط الأول أن يكون العمل خـالصًا لوجـه الله الكريم خاليـاً من شوائب الشرك، والشرط الثاني أن يكون هذا العمل صواباً موافقاً لما شرعه الله عز وجل وبعث به رسوله ﷺ وبهذين الشرطين يكون الاعتقاد حسنًا والعمل حسنًا، وقد أشار الله تبـارك وتعـالى إلى أن صحـة الـدين وحسنـه لا يتأتى إلا بتحقيق هـذين الشرطين في غير موضع من كتابه الكريم كما ذكـر هنا وكما في قوله عز وجل: ﴿ومن يُسْلِمْ وجهه إلى الله وهـو محسنٌ فقد استمسك بالعـروة الوثقى، وإلى الله عـاقبة الأمـور.﴾ ومعنى قـوله عـز وجل: ﴿وَمَنْ أحسنُ دينـا ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبـراهيم حنيفا.﴾ أي لا أحد أحسن ديناً ممن انقاد وأخلص العمل لربه عز وجل ولم يشرك بالله شيئـاً حالة كونه محسنا فيما يعمل فلا يتقدم بين يدي الله ورسـوله ولا يعمل إلا بما شرعه الله عز وجل بما أنزلـه في كتابـه أو بعث به رسولـه ﷺ، وكان على ملـة إبراهيم عليـه السلام الذي كـان أمة قـانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين. كما قال تبـارك وتعالى: ﴿ثم أوحينـا إليك أَنِ اتَّبِـعْ مِلَّـةَ إبـراهيم حنيفـا ومـا كـان من المشركين.﴾ والحنيف هـو المائل عن الشرك قصـدا على بصيرة من ربـه المقبل على الحق

بكُلِّيته لا يرده عن ذلك رادٌّ ولا يصدُّه عن سبيل الله صادٌّ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً.﴾ هذا بيان لمنزلة إبراهيم عند الله عز وجل وأنه انتهى إلى درجة الخُلة التي هي أرفع مقامات المحبة والاصطفاء وأعلى درجاتها، قال البخاري في صحيحه: حدثنا سليمان بن حرب حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن عمرو بن ميمون قال: إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا.﴾ فقال رجل من القوم: لقد قرت عين أم إبراهيم، وقد ثبت أن الله عز وجل قد اتخذ محمداً ﷺ خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: لو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكنه أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا، وفي لفظ له: لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله. قال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية عند قول الطحاوي رحمه الله في رسول الله ﷺ: (وحبيب رب العالمين): ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلة، كما صح عنه ﷺ أنه قال: إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا: وقال: ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن، والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد اهـ وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن الله تبارك وتعالى فضله على أبيه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ،

فحسَّن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرَقًا، فقال لي: ياأبي أرسل إليَّ أن اقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إليَّ الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه: أن هون على أمتي فرد إلي الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف، فلك بكل ردَّةٍ رردتكها مسألة تسألنيها، فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم، حتى إبراهيم ﷺ. كما أشار رسول الله ﷺ كذلك إلى أن خلته ﷺ أعلى من خلة إبراهيم عليه السلام، وأن خلة إبراهيم كانت من وراء وراء ففي لفظ لمسلم من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يجمع الله تبارك وتعالى الناس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: ياأبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم، لست بصاحب ذلك، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله قال: فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذلك إنما كنت خليلاً من وراء وراء. الحديث. وقوله تبارك وتعالى: ﴿ولله ما في السمٰوات وما في الأرض، وكان الله بكل شيء محيطا.﴾ قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ لطاعته ربه، وإخلاصه العبادة له، والمسارعة إلى رضاه ومحبته لا من حاجة به إليه وإلى خلته، وكيف يحتاج إليه وإلى خلته وله ما في السموات وما في الأرض من قليل وكثير ملكاً، والمالك الذي إليه حاجة ملكه دون حاجته إليه؟ يقول: فكذلك حاجة إبراهيم إليه، لا حاجته إليه فيتخذه من أجل حاجته إليه خليلا، ولكنه اتخذه خليلا لمسارعته إلى رضاه ومحبته يقول: فكذلك فسارعوا إلى رضاي ومحبتي لأتخذكم لي أولياء ﴿وكان الله بكل شيء محيطا.﴾ ولم يزل الله محصيا

لكل ما هو فاعلُه عبادُه من خير وشر عالماً بذلك، لا يخفى عليه شيء منه، ولا يعزب عنه منه مثقال ذرة اهـ. والحمد لله رب العالمين.

# الفهرس

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها» الآية ................................ | ٢١٨ |
| تفسير قوله تعالى: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج» الآيات الثلاث ................................ | ٢٢٣ |
| تفسير قوله تعالى: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم» الآية ....... | ٢٢٩ |
| تفسير قوله تعالى: «والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم» الآية ................................ | ٢٣٥ |
| تفسير قوله تعالى: «ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات» الآية ................................ | ٢٤٠ |
| تفسير قوله تعالى: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم» الآيات الخمس ................................ | ٢٤٦ |
| تفسير قوله تعالى: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» الآية ................................ | ٢٥٢ |
| تفسير قوله تعالى: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» الآية ................................ | ٢٥٨ |
| تفسير قوله تعالى: «ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون» الآيتين ................................ | ٢٦٤ |
| تفسير قوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» الآيتين ................................ | ٢٧٠ |
| تفسير قوله تعالى: «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله» الآيات الثلاث ................ | ٢٧٦ |
| تفسير قوله تعالى: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها» الآيات الثلاث ................................ | ٢٨٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |




يوزع مجانا ولا يباع